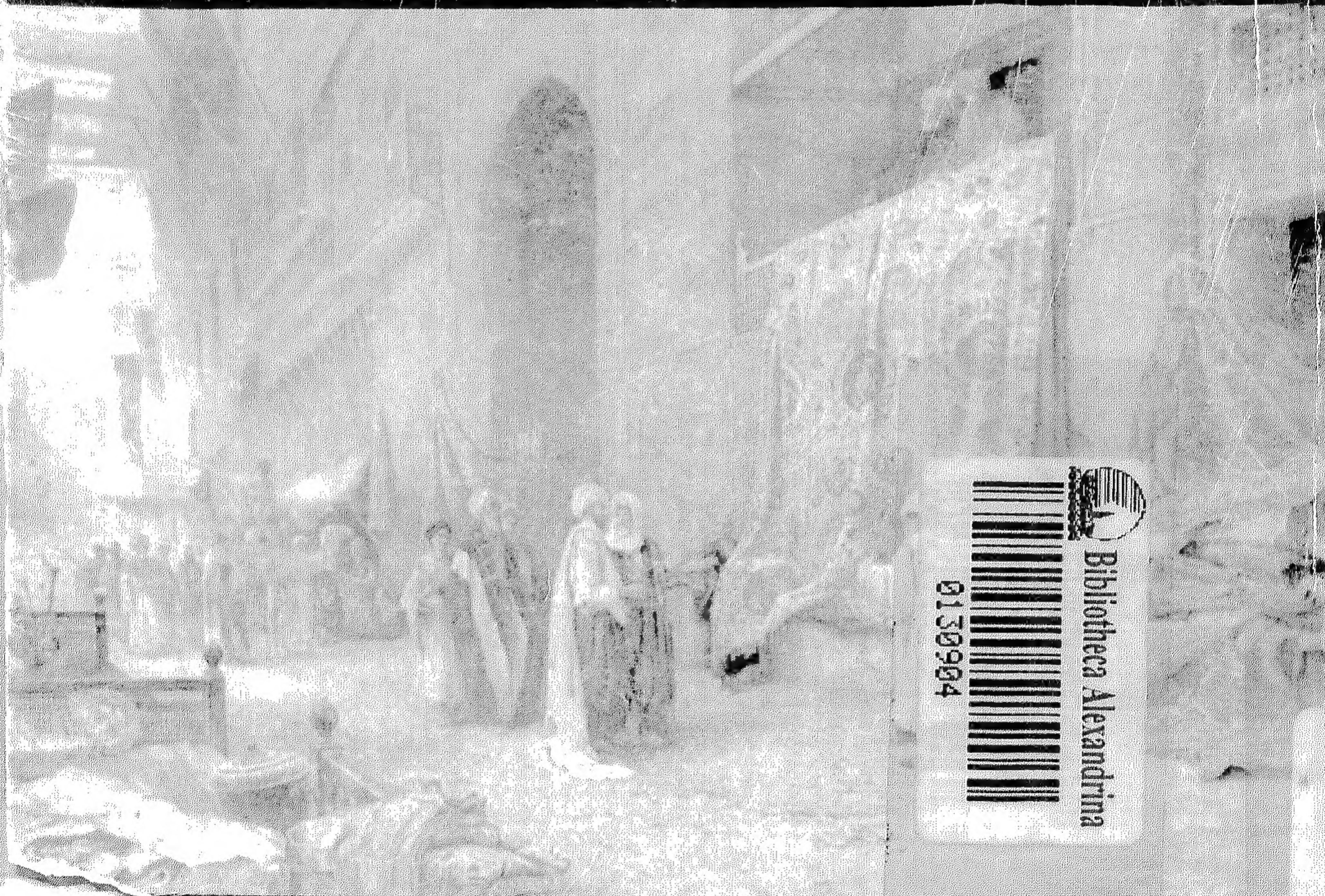


الألف
كتاب
الشارف
١١٨

كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

دراسة في التحول الوطني



تأليف: جمال ك...

ترجمة: د. ...



كتابة التاريخ
في مصر القرن التاسع عشر
دراسة في التحول الوطني

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمسحى المطيعي

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
محسنة عطية

كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

دراسة في التحول الوطني

تأليف

چالك كرايس چونيور

ترجمة وتعليق

د. عبد الوهاب بكر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

The Writing of History in Nineteenth Century Egypt.
A Study in National Transformation

By

JACK A. CRABBS, Jr.

تصدير

يسعدنى أن أقدم لقراء العربية هذه الترجمة لكتاب الدكتور جاك كرابس جونيور Jack Crabbs, Jr. « كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ، دراسة فى التحول الوطنى »

Writing of History in Nineteenth Century Egypt, A Study in National Transformation.

المنشور فى الولايات المتحدة وكندا بمعرفة جامعة وين Wayne University Press فى ديترويت Detroit وفى الشرق الأوسط بمعرفة الجامعة الأمريكية بالقاهرة American University in Cairo Press فى عام ١٩٨٤ .

والـؤلف أستاذ للتاريخ بجامعة كاليفورنيا بفولرتون California State University, Fullerton وحصل على درجته للدكتوراه من جامعة شيكاغو ، وعمل مديرا للمركز الأمريكى للبحوث بمصر ، كما أنه زميل بالمركز الأمريكى للبحوث ARC .

تعود أهمية الكتاب الى أنه يعالج موضوعا منهجيا فى الكتابة التاريخية من زوايا جديدة تمثل رؤية غربية لأساليب واتجاهات الكتابة التاريخية فى مصر فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، فهو دراسة مفصلة وجيدة للتوثيق لقضية التغريب Westernization فى مصر (١٧٩٨ - ١٩٢٢) والتي بدأت بالحملة الفرنسية وحتى فبراير ١٩٢٢ . يبدأ المؤلف بمناقشة طبيعة التاريخ نفسه ، وكيف اختلفت أشكال الكتابة التاريخية فى الشرق الأوسط وفى الغرب على مر القرون . وفى هذه الدراسة الاستهلالية يتناول المؤلف بالدراسة قضايا التاريخ التقليدى Traditional Historiography فى مواجهة التاريخ الحديث ، الكتابة الغربية فى مواجهة الكتابة الاسلامية ، الانحياز فى مواجهة التفسير ، والحماسة الوطنية فى مواجهة الموضوعية فى التاريخ .

بعد اعداد المؤلف لمسرح الدراسة بهذه المقدمة المنهجية ، ينتقل الى القرن التاسع عشر وكتابه من المؤرخين المصريين والسوريين المصريين ، فيناقش أعمال وأساليب واتجاهات الجبرتي ، رفاعه الطهطاوى ، على مبارك ، أمين سامى ، ميخائيل شاروبيم ، اسماعيل سرهنك ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، يعقوب أرتين ، جرجس حنين ، فيليب جلاد ، سليم خليل النقاش ، جورجى زيدان ، مصنفا اياهم ما بين كلاسيكيين تقليديين ، ومتأثرين بالفكر الغربى ، وموسوعيين ، واخباريون محدثون ، ومؤرخون قوميون ، وسوربون مصريون . ولم يترك المؤلف خلال دراسته لأعمال هؤلاء البارزين أعمال مؤرخين أقل شهرة أمثال محمود الفلكى ، أحمد كمال ، عبد الله الشرقاوى ، محمد بن عمر التونسى ، نقولا الترك ، عبد الله النديم ، نعوم شقير وغيرهم ، فدرسها وقدم آراءه حولها . وفى كل ذلك كان المؤلف يغوص بعمق فى المادة المصدرية المصرية البحتة غامرا القارىء فى أفكار واهتمامات مصر اليوم .

تتحرك الرواية عند جاك كرابس Jack Crabbs تحركا سريعا يربط فيه بين الحوادث التاريخية وبين المنهج الذى اختاره كل مؤرخ لمعالجتها ، مع تفسير لنظروف السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها التى كان لها أثر على هذا المنهج بنتيجة مؤداها احساس القارىء بعد أن يفرغ من الكتابة بأنه كان شاهد عيان للمحنة وطنية ذات تغير سريع التأثير على مسجلها من المؤرخين .

الموضوع الرئيسى للكتاب هو المؤرخون المصريون وكتاباتهم فى الفترة موضوع الدراسة (وكلهم غير محترفين) . والمؤلف هنا يعالج كل مؤرخ ليس باعتباره مجرد مؤرخ فحسب ، بل كشخصية متعددة المظاهر والوجوه ، فيناقش أصوله الاجتماعية ، تعليمه ، انتماءه الدينى ، ثقافته ، صلته بالنظام الحاكم ، وظائفه الخ ، باعنا بذلك الحيوية فى كتابه الذى حوى ثروة أخاذة من التفاصيل لكل مظاهر المجتمع المصرى وجاعلا من كل مؤرخ من الذين تناولهم بالدراسة متحدثا رسميا لجيل كامل من المثقفين .

ولقد أثمر هذا كتابا يتراوح ما بين السياسة والأدب ، مشروعات الرى وتصميمات الأثاث والمباني والمفروشات ، وليس مجرد دراسة فى التاريخ . وتمكن الكاتب بفضل منهجه الجديد من نقل القارىء الى اطار زمنى آخر وسياق حضارى مختلف ، بمعنى ان معالجة المؤلف لقضية التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر كانت تهدف الى جانب الهدف الأساسى للدراسة الى الوصول الى التغير الفكرى والحضارى فى مصر .

وفى كل ذلك فان المؤلف قد وزن عمله بميزان العقل وابتعد عن الهوى والتحيز الذى هو نعمة الكثير من أعمال الكتاب الغربيين الذين

يناقشون قضايا الفكر والتحديث في مصر والعالم العربي . كما أنه استخدم في سبيل الوصول الى أهدافه كما ضخما من المصادر العربية والأجنبية التي جعلت من الكتاب عملا ذا قيمة خاصة وهذا هو ما دفعني الى ترجمة العمل معتقدا بأهميته للمشتغلين بالتاريخ المصري الحديث بصفة عامة ، والمعنيين بمناهج البحث التاريخي بصفة خاصة .

وكشأن أغلب المؤلفات الأجنبية عن مصر فإن الكاتب قدم بين ثنايا عمله اقتباسات عديدة من المصادر العربية التي كان يعرض لها في دراسته (عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي) (تخلص الابريز في تلخيص باريز - أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل - مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية لرفاعة الطهطاوي) (الخطط التوفيقية لعلى مبارك) و (تقويم النيل لأمين سامي) وغيرها .

وكان من اللازم أن أرجع الى هذه المصادر ذاتها (بقدر الامكان) لأنقل عنها نصوص الاقتباسات الأصلية ما دمتا بصدد النشر باللغة العربية . فنقلت النصوص التي اقتبسها المؤلف من هذه المؤلفات وتصرفت أحيانا فيما لم أستطيع الحصول عليه من هذه المصادر .

وقد التزمت تماما بالنص الانجليزي كما كتبه المؤلف ونقلت حواشي فصوله كما قدمها ، وأضفت اليها الحواشي التي علقت بها أو قدمتها كإضافة للدراسة بعد أن ميزتها بالتنويه الى أنها من عمل (المترجم) .

وبعد فأرجو أن تكون ترجمة هذا العمل محققة لما قصدته في أن تكون اسهاما في تنويع مصادر البحث واستجابة لدفع عالمنا العربي الى المواكبة العالمية ، ومده بروافد جديدة تساعد على تعميق وتأصيل رؤيته لقضايا الفكر وابداعات العقل .
والله من وراء القصد . . .

د . عبد الوهاب بكر

مصر الجديدة في مايو ١٩٩٢

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الزقازيق

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

انه عمل محفوف بالمخاطر ان تكتب كتابا عن بلد اجنبى وأقوام
أجانب . فهناك دائما الخوف من ظهور الأخطاء واغفال الاتجاهات ما أن
يبدأ المرء فى التجاسر على الخروج الى ما وراء ثقافته ونطاق حضارته الى
مجال أناس آخرين وحضارات أخرى ، وفوق هذا فان حساسية
واهتمامات وأولويات هذه الحضارات سوف لن تكون موضع انتباه أو
غير واضحة .

وربما كان هذا صحيحا بالنسبة لغربى يسعى الى استخراج رحيق
التطور الثقافى لبلد اسلامى كمصر ، فقد يحترم عمله هذا كثيرا فى
الغرب ، لكن القارئ المصرى سيشعر - كما شعر ادوارد سعيد - بأنه
قد أخطأ الموضوع الذى يعالجه .

وعلى العكس من ذلك ، ففى حالتى كان مرضيا لى لدرجة كبيرة أن
أرى أن أقرانى فى مصر ، وخاصة صديقى العزيز وزميلى البروفيسور
عبد الوهاب بكر من جامعة الزقازيق ، قد قرأوا وأبدوا رأيا محبذا
لدراستى عن التطور الفكرى والثقافى لمصر فى القرن التاسع عشر كما
عكستها كتابات المؤرخين المصريين فى هذه الفترة .

وكانسان نذر حياته كلها لدراسة مصر ، أهلها ، ثقافتها ،
ومؤسساتها ، فأننى أستطيع أن أقول دون مبالغة ان ظهور الطبعة
العربية من كتابى سوف تكون واحدة من أسعد لحظات حياتى العملية
كلها .

خالص الشكر للبروفيسور بكر ، ولكل أصدقائى المصريين الآخرين
الذين دون مساعدتهم الكريمة ما كان فى المقدور اخراج هذا العمل الى
حيز الوجود .

جاك كرابس جونيور

٥ يونيو ١٩٩٢

قسم التاريخ

جامعة كاليفورنيا - فولرتون.

مقدمة الطبعة الانجليزية

يمكن القيام بالدراسات التاريخية وفقا لواقع الحال ودون تأثر بالعواطف الشخصية ، حيث انها تكشف للطالب بعضا من حالة الدراسة التاريخية نفسها ، وافتراضاتها المتعلقة بنظرية المعرفة ، والمنهجية ، واهتمامات المؤرخين الذين ساعدوا فى بناء الكيان الأدبى . وكل هذه الأشياء ميادين حقيقية للمعرفة ولذلك فهى واردة فى هذه الدراسة . لكن التأريخ يمكن أن يخدم أيضا أغراضا أخرى . فيمكن اعتباره وسيلة وليس غاية - وسيلة لتسليط ضوء اضافى على المناخ الدينى ، السياسى ، أو الاجتماعى لعهد معين . كذلك فانه يمكن أن يكون توضيحا لحركة التحول الوطنى ، ذلك التحول الذى يشار اليه فى حالة مصر عادة بالتمدن أو تغريب مصر . ويمكن للتأريخ أن يقوم بدور الباروميتر للوعى الوطنى . وعندما يوضع فى مجال المعايير الفنية والأدب السائد ، فان التأريخ يمكن أن يصبح مؤشرا للتغير الثقافى ككل (١) .

وهذه الدراسة محاولة لاستخدام التأريخ فى كل الاعتبارات السابق الاشارة اليها . فهى تركز عليه باعتباره الأساس المتين لكل مؤرخ ، لكنها (الدراسة) تستكشف أيضا المظاهر الأخرى لشخصية المؤرخ وسيرته ، اذا كان هذا يؤدى الى ابراز صورة أوضح لكل من الرجل وزمانه . وتدرك الدراسة أن الأفراد الذين جرت دراسة أعمالهم هنا ، رغم أنهم ممتنعين كمؤرخين لهم حق التأريخ ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يحصرُوا أنفسهم فى العمل كمؤرخين فقط وذلك فى الفترة « قتل - الاحترافية » التى عاشوا فيها . فقد كان كل فرد من هؤلاء منشغلا فى نفس الوقت فى أعمال كبرى كثيرة غالبا ما كانت مربحة ومغرية أكثر من الكتابة التاريخية .

وتجاهل كل هذه المظاهر المرتبطة بحيوات هؤلاء الأفراد لا يؤدى الى بترهم فقط ، ولكنه يؤدى أيضا - وهذا هو الأكثر أهمية - الى فقد بعد اضافى ثرى من التبصر فى التغير الحضارى والثقافى المصرى فى القرن التاسع عشر . ولذلك فان هذه الدراسة ستهدف الى اعطاء فهم

أوضح لحركة التحول ، مع استخدام التاريخ كأداة أولية (ولكن ليست وحيدة) للتحليل .

وحيث ان الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو اعطاء صورة كاملة للمجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، فقد فرض قيدان ، أولا فان جهدا لم يبذل لفحص الكتب العديدة عن مصر والتي كتبها الأجانب ، ولم تفحص بالتالى فائدتهم . ولهذا فان جهدا هنا هو التأكد من كيفية شعور المصريين أنفسهم وتطورهم التاريخى . وبالإضافة الى ذلك ، فان هذه الكتابات التى تتصل بالفترة ١٧٩٨ - ١٩٢٢ - مع بعض الاستثناءات القليلة - هى فقط التى ستكون موضع الدراسة فى هذا الكتاب . لقد أنتجت مصر العديد من المتخصصين العظام فى العصور الوسطى والمصريات خلال القرن التاسع عشر ، ومجرد وجود هؤلاء هو مؤشر للأولويات الثقافية والحضارية الجديدة . ومن الناحية الأخرى فان استبعاد أى دراسة تفصيلية عن الفترات التاريخية من القرن التاسع عشر قد تؤدى الى تمزيق الوحدة النغمية للعمل الذى نحن بصدده .

حواشي المقدمة

(١) عبر هيربرت بترفيلد Herbert Butterfield أساساً عن نفس هذه الآراء حول العرض الأعمق للدراسات التاريخية بقوله « يجب على الرجل الذي يدرس تاريخ التاريخ أن يتجنب التاريخ المفكك ، واغراء تقديم قائمة مشتتة غير ذات معنى من الأسماء . بل يجب أن يتفحص التطورات الداخلية للثقافة التاريخية ، وأن يربطها دائماً بحركات التاريخ العام ، وتطور العلوم الأخرى وللظروف الشرطية التي تؤثر في مصائرهما . يجب أن يلاحظ على سبيل المثال ، كيف أن الدراسة التاريخية ترتبط بشكل دستور البلد ، بحالة الرأي العام ، بتوافر الأدلة ، وبنشيط الجامعات ، والجماعات المتعلمة والدوريات .

انظر هيربرت بترفيلد

Man on His Pa t (Boston : Beacon Press, 1960), p. 8.

التأريخ الحديث في مواجهة التأريخ التقليدى

حتى وصول حملة بوناپرت فى عام ١٧٩٨ ، كانت مصر تعيش نوعا من العزلة المريحة عن الغرب . فأنهى الوجود الفرنسى هذه العزلة وافتتح فترة من التفاعل اللذيد المؤلم بين الشرق والغرب . وخلال القرن التاسع عشر حارب المصريون بشراسة لتجنب التأثير الغربى بينما كانوا يحاولون فى نفس الوقت بصورة متناقضة مع حربهم أن يستوعبوا الأفكار الغربية والأساليب التقنية بأسرع ما يستطيعون . وبينما كان ما ينبغى أن يقدمه الغرب يحظى بالاعجاب الصادق من جانب البعض ، كان الآخرون يقبلونه بحفيظة . كشيء لا مفر منه للكفاح من أجل البقاء الوطنى .

كان نسيج الحياة المصرية كله فى فترة انتقال خلال القرن التاسع عشر . وكان الفخار والتفوق المفترض لتقاليد الثقافة الموغلة فى القدم لقرون ، قد أصبحا الآن محل تساؤل ، لكن هذا التساؤل كان يجرى فى ظل مقاومة وممانعة مفهومة . وانهزم الأدب الدفاعى ، مساندا لجهود المصريين والمسلمين بصفة عامة فى محاولة لانقاذ أكبر قدر ممكن من ارثهم قدر المستطاع فى خضم سيل منهزم من الأفكار الجديدة . على أى حال فإن المد الغربى أثبت فى النهاية أنه لا يقاوم ، وكانت مصر ١٩٢٢ فى مكان مختلف تماما عن مصر ١٧٩٨ . والنشاط الباهر للتحديث والتغير الحضارى الذى ظهر خلال هذه السنوات - رغم كونه مؤلم - هو موضوع هذه الدراسة .

ستحاول الصفحات التالية أن تسلط الضوء على كيفية تطور المجتمع المصرى ككل خلال القرن التاسع عشر - والمدى الذى وصل اليه فى التمدن أو التمثل بالغرب . وكما ذكرنا فى المقدمة ، فإن التأريخ سيقوم بدور القالب أو الرحم لهذا النقاش . ولما كان التأريخ هو نفسه موضع تغير مستمر ، فإنه سيكون من الأساس منذ البداية اقامة نوع من المعيار

لتحديد أو فصل التاريخ الحديث عن التاريخ التقليدي (ولا داعي للقول بتحديد التاريخ الغربى من التاريخ الاسلامى) . لقد كان القرن التاسع عشر فترة تحول للتاريخ المحصرى دون منازعة ، وعندما أصبح هذا التاريخ حديثنا ، كان قد اجتاز عدة تغييرات بنيوية أساسية معينة .

ونقترح أن نتعامل مع هذه التغييرات تحت العناوين الآتية :

١ - زوال أسلوب التاريخ وفقا للنظام الزمنى Chronicle .

٢ - المشاكل الناجمة عن التفسير والتحيز .

٣ - الهدف من التاريخ .

٤ - أسلوب الكتابة التاريخية .

التاريخ والتاريخ الزمنى : خلال الفترة الوسيطة كانت السجلات التاريخية تحفظ فى غالبيتها فى شكل تاريخ متسلسل زمنى Chronicle (١) . وهذا المصطلح (المستمد من اليونانية Chronos وتعنى الوقت time) وسيلة مناسبة للإشارة الى رواية تاريخية موجهة time-oriented ، تدرج فيها الوقائع فى تتابع زمنى دقيق دون أى رابطة بينها فيما عدا رابطة ماضى الزمن (٢) . ماذا يعنى هذا ، اذا ما نحن فكرنا فيه ، فانه يعنى أن التاريخ الزمنى Chronicle يمكن أن يكون موضوعيا كلية حيث أن أى صلة أخرى بين الوقائع (كفى ، عرضى) يمكن أن تعزى اليهم (الوقائع) من جانب مراقب آخر ودون أن تكون هذه الوقائع بالضرورة حقيقية .

فالتاريخ الزمنى حسب ما قاله رانكه Ranke (٣) هو تاريخ . حيث انه قد وقع فعلا . وبافتراض أن التاريخ الزمنى دقيق حقيقة ، فان لا أحد يحتاج بعد ذلك الى إعادة التثبت من موضوعه (٤) .

وفى الواقع ، فان التمييز بين التاريخ الزمنى chronicle والتاريخ History ليس واضح المعالم . فكثير من التواريخ الزمنية الخاصة بالصورة الوسطى تضم درجة من العنصر التفسيرى ، تماما مثل عدم امكان المقالات التاريخية أن تتحمل تجاهل التعاقب الزمنى Time-sequence تماما . وعلى ذلك فان الفرق بين التاريخ History والتاريخ الزمنى Chronicle عادة هو مسألة درجة one of degree . فاذا كان المعنى الوحيد الذى يستخرجه الباحث من المادة العلمية هو معنى تاريخى زمنى ، فان الناتج سيكون تاريخا زمنيا . وعلى الجانب الآخر فان الباحث اذا تمسك بمحاولة اقامة علاقة متبادلة ، أو تحليل ، أو على العكس اشتقاق مضمون من المادة التاريخية الخام ، فان النتيجة ستكون تاريخا . ان

التاريخ هو محاولة ادراك المراد من الماضي أو فهمه ، أما التاريخ الزمني فهو محاولة لتسجيل التاريخ فقط .

وعلىنا أن نضع في الاعتبار هذه الفوارق عندما نفحص الكتابات التاريخية المصرية في القرن التاسع عشر . فقد تذبذب المؤرخ المصري لهذه الفترة بشكل دائم بين الأساليب القديمة والأكثر ألفة من التقنيات الحولية ، وبين الاتجاهات الحديثة التجليلية (أو بكلمات أخرى الغربية) . ومع الهجر المضطرب من جانب المؤرخين للأساليب القديمة ، فقد بدأوا يسألون تلك الأنواع من الأسئلة التي تعنى القارىء الحديث (وفى الحقيقة أى قارىء) أكثر من مجرد التعاقب الزمني ، فكانت هذه الأسئلة على سبيل المثال تتعلق بالدوافع ، الاتجاهات ، الأسباب ، النتائج ، الصلات ، الخ (٥) . ومع أن مثل هذا النوع من الأسئلة أكثر خطورة وأكثر قسوة من الناحية الثقافية من تلك التي قد يسألها كاتب الحوليات ذو الأسلوب القديم ، فإن الإجابة على تلك الأسئلة أكثر عطاء .

و « التفسير » فى مواجهة « مجرد التسجيل » للأحداث يحتاج الى استخدام « التوازن الشخصى Personal equation » - وكان المصريون ينظرون الى هذا العمل فى البداية بشك كبير . وهذا الأمر يمكن فهمه اذا أخذنا بعين الاعتبار ذلك النوع المائل من الممارك الشاقة التي كان على المدرسة التفسيرية فى الغرب أن تخوضها ضد مناصرى ما يسمى بالتاريخ العلمى منذ عهد قريب . لقد قامت المدرسة الفكرية الأخيرة بتحديد أخطار التاريخ المفرط فى الرومانسية ، الوطنى ، أو حتى الساذج البناء ، لكنها فيما بعد اتجهت الى النزوع من المحتوى الفكرى للتاريخ - وهذه كلمات كولينجود Collingwood - وعادت الى المعالجة الشبه تحليلية للأحداث (٦) . وهذا ما أدى الى اخفاق الحركة فى النهاية ، ولا يبقى فى الوقت الحالى سوى القليل من المتشددىن المشتغلين بالتاريخ العلمى (٧) .

ويعتبر التفسير ، والتحليل ، والتقدير المطلب الحتمى للكتابة التاريخية الجيدة فى الوقت الحالى ، وستشكل هذه الخصائص أسسنا لتحديد « عصرية » التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر .

التفسير والانحياز : رغم أن أنقى تاريخ زمنى سوف يحتوى عادة على بعض أشكال الانحياز (ولو فى مجرد اختيار المادة) ، فإن المؤرخ هو الذى سيبقى دائما مواجهاً مباشرة بهذه المشكلة . وهذا يعود الى أن كاتب الحولية annalist والمؤرخ العلمى Scientific Historian سيحاولان الى حد ما أن يكتبيا كما تكتب الآلة ، فى حين أن المؤرخ سيحاول يجد أن يعيد التفكير فى مضمون المادة التي يستخدمها فى

كتابته (٨) . وفي كل الأحوال فإن التاريخ الزمني سيحتوى على ما يبدو على سلسلة لا تنتهى من التفاصيل التاريخية الغير مهضومة ، فى حين أن التاريخ لن يعنى بصورة طبيعية بالتفاصيل ، ما لم يبدو أنها تحتوى بعض المظاهر الشاملة .

ففيما يتعلق بمصر على سبيل المثال ، فإن السيرة الذاتية لسليمان الحلبي قاتل الجنرال كاير General Kléber سوف لا تكون ذات فائدة تذكر للمؤرخ ما لم تكشف هذه السيرة عن شيء من الموقف العام للمجتمع المصرى نحو الاحتلال الفرنسى . على عكس المؤرخ الزمنى Chronicler ، فإن المؤرخ لن يلقى بالا للأشجار اذا كان يشعر أنها لن تنبئه عن أحوال الغابة (٩) .

ان التاريخ خطير الى حد أنه يضيف أبعادا جديدة الى المادة الخام (١٠) : أبعاد الفهم التى قد تأخذ شكل التفسير التاريخى أو الانحياز . ان (التفسير) و (الانحياز) هما ببساطة الجانبين السيئ والجيد لنفس العملة ، وهما يتفاضلان من حيث أن (التفسير) يشتق من المادة ، أما (الانحياز) فهو يفرض عليها (١١) .

ان التفسير مرتبط بعض الشيء بالدليل أو البينة ، أما الانحياز فلا ارتباط له بهما (١٢) . وقد عبر ويليام جيمس William James (١٣) عن هذا الموضوع بصورة جيدة فى شكواه من الاضطراب الى « تشكيل وصياغة كل جملة فى صلب الحقائق الغير قابلة للاختزال والتبسيط ، والصلبة » (١٤) .

والتاريخ الجيد ، شأنه شأن العلم الجيد ، تحليلى رغم انه ليس عادة مرتبط . ومثلما ظل العلم زمنا طويلا عاجزا فى ظل الافتراض الغير تجريبي المرغوب فيه لجنس بشرى واحد ، فإن التاريخ أيضا عاجز بصورة حتمية كلما اضطر لخدمة سيد خارجى . ولما كان « العلم » يتعامل مع أشياء كمية قابلة للتنبؤ بها أكثر من البشر وأمورهم ، فانه (أى العلم) أكثر « موضوعية » من التاريخ ، رغم ان الانسان يعجب فى بعض الأحيان عندما يواجه بالمعارك الحديثة التى تثور حول علاج الأمراض عن طريق تقويم العمود الفقرى باليد ، والوخز بالابر كعلاج لتخفيف الألم ، والدليل « العسمى » على التفوق أو التدنى فى الجماعات العرقية المختلفة . والضغينة التى تصاحب مثل هذه المجادلات عادة توحى بقوة بشيء أقل من الموضوعية الكلية ، وبالطبع فإن التاريخ أقل حصانة من العلم أمام هذه الأشكال من المجادلات السقيمة . ولا توجد نهاية لأنواع الانحياز التى توجد فى الكتابة التاريخية ، بل ان كثيرا منها غير مقصود . وفى الحقيقة ، فإن أغلب المؤرخين يشعرون الآن بأنه طالما أنه لا يوجد

شيء يسمى تاريخ زمني نقى ، فانه كذلك لا يوجد أيضا شيء يسمى تاريخ موضوعي كلية (١٥) .

ان ما ينبغي علينا أن ندركه هو أنه لا شيء من ذلك يبطل دعوى ومطالبة التاريخ بالشرعية الأكاديمية . وهذا يعنى ببساطة ان المؤرخ يجب أن يحاول أن يكون مدركا لأي انحياز يكون في كتاباته ، فاذا لم يتمكن من ادراك ذلك ، فانه سيلقى التعنيف من جانب قرائه لذلك السبب . وعن طريق التمرين والالتزام فان المؤرخ المحترف يكون عادة مجهزا بصورة أفضل - ولكن ليس دائما - للتعامل مع مثل هذه المشاكل .

وهذه حقيقة يجب أن توضع في الاعتبار في حالة مصر القرن التاسع عشر ، حيث كان كل المؤرخين وقتها في الواقع هواة وليسوا محترفين . غير انه على الجانب الآخر فانه من الواضح أيضا انه لا المحترف ولا الهاوى من المؤرخين يستطيع أن ينزع نفسه كلية من مشاعره الدينية نحو الوطن ، العقيدة ، الطبقة الاجتماعية ، والجماعة العرقية ، الخ . وهذا الانفصال لا يشكك بالضرورة نصرا تاريخيا ، حيث ان كل هذه القضايا تظهر في الصورة التاريخية المختلفة لمعاوية ، السلطان سليم الأول ، أو محمد علي ، نابليون ، بسمارك ، أو فرانكلين دي لانو روزفلت . وعلى ذلك فان التاريخ على هذه الصورة لن يعد فقيرا بل سيكون غنيا بمثل هذه الاختلافات .

ولتعزيز تصوير مشكلة الانحياز في الكتابات التاريخية ، دعونا نقلى نظرة أكثر قربا على واحدة من أكثر أشكالها المعتادة في التاريخ الحديث . فقيام الدولة القومية في العالم الغربي وفيما بعد في الشرق الأوسط لم يؤثر بعمق فقط في التاريخ الحديث ، لكنه أثر أيضا في كل المظاهر الأخرى للثقافة . لقد تركت القومية سمة قوية على التاريخ الغربي لدرجة أن أكثر المحترفين تفانيا كان يجد صعوبة كبيرة في التخلص منها (١٦) . لقد تحققت مخاوف جين بودين Jean Bodin (١٧) القديمة عن « التاريخ القومي » بصورة متكررة ، دون استمالة المؤرخ أو قراءه لهجر موضوع التاريخ . وبدأت آثار قوية « للقومية » حتى في الكتابات المدققة « الموضوعية » لليوبولد فون رانكه (١٨) . وسيكون تبعا لذلك - تاريخ الولايات المتحدة تولاه مؤرخ أمريكي ، مختلف تماما عن كتاب مماثل كتبه مؤرخ كندي ، شيلي ، أو فرنسي ، ناهيك عن نوع الدراسة التي يمكن أن ينتجها مؤرخ من فيتنام الشمالية (١٩) .

واذا كان من غير الممكن انكار وجود « القومية » في التاريخ الغربي الحديث ، فأننا يجب أن لا ندهش اذا وجدناها في الكتابات

سرى توسطة (٢٠) . على سبيل المثال ، صنف « ابراهيم تيمورى »
 فى « البرن » ، « الأبطال » القوميين تبعا لقوة مشاعرهم أو عواطفهم الوطنية
 « من هذا غريب حقا ؟ » . وحازت السيرة الذاتية التى كتبها نور الله
 بارودى عن « نادرشاه » (٢١) استحسانا كبيرا نظرا لتكثيفها النغمة
 الوطنية (٢٢) . ووفقا لما يقوله ألبرت حورانى ، فان كتابات المؤرخين
 العربيين مثل (شبل) و (اسماعيل) لم تكن أقل وطنية من الناحية
 الواحدة (٢٣) . وكان الانحياز الوطنى واضحا تماما فى تركيا فى كتابات
 على سوافى (٢٤) ، بل وفى كتابات نجيب عاصم يازيكسىز (٢٥)
 Nejib Asim Yaziksiz . لقد دخلت القومية التركية مرحلة تتميز
 باندحده مع تأسيس الجمهورية عام ١٩٢٣ . ثم تناقصت الى حد ما
 تدريجيا فى الحقب التالية ، لكنها لا تزال تعتبر حتى اليوم واحدة من
 الخطار الأساسية التى تواجه التاريخ فى ذلك القطر (٢٦) .

لم يكن طبيعيا فقط أن تعاني مصر القرن التاسع عشر الكثير من هذه
 المضاعف . التى لم تؤثر فقط فى تاريخ الفترة ، بل فى الكثير من المجالات
 الثقافية أيضا . لقد كانت الصحافة المصرية فى كثير من الأحوال ذات
 نغمة قومية كثيفة (٢٧) ، وكان شعر البارودى ، شوقى ، وحافظ ابراهيم
 ينشع بالوطنية ، ولهذا السبب كان محبوبا ، ولم تكن الرواية المصرية
 الحديثة أكثر مناعة ضد هذه العاطفة (٢٨) . وقد اجتاز التاريخ المصرى
 نفس النوع من التطور ، وأصبح فى بعض الأوقات وطنيا لدرجة دفعت
 المراقبين الغربيين الى استبعاده باعتباره مجرد مجادلة عدوانية ونشرات
 دعائية . وقد أصبح التاريخ العربى الحديث - فى كلمات أنور شيجنه
 Anwar Chejne مجرد «أداة فى أيدي الدول الجديدة الناشئة» (٢٩) .
 أو كما قال هاميلتون جب Hamilton Gibb : « ان الدراسات التى قام
 بها الكتاب العرب غير كتاب القصة الطويلة فى المؤسسات الاقتصادية ،
 والتعايمية ، والدينية ، وبعض المؤسسات الأخرى عبارة عن نشرات
 دعائية هدفتم بحذق وتصميم لمساندة سياسة معينة أو وجهة نظر » (٣٠) .

وليس من المستطاع تقديم تفنيد مفصل لمثل هذه الاتهامات هنا .
 لكن مجرد الانتباه البسيط لحواشى هذه الدراسة - حيث استشهد
 بأعمال مؤرخين بارزين مثل محمد صبرى ، جمال الدين الشيال ، أحمد
 عزت عبد الكريم ، عمر طوسون ، محمد فؤاد شكرى ، محمد
 أنيس ، الخ - قد يساعد القارىء على اصدار حكمه بمدى عدالة أو ظلم
 هذه الاتهامات الجارفة ، على الأقل بالنسبة للمثال المصرى (٣١) . ولعله
 من الواضح أن :

١ - كل مؤرخ يكتب من وجهة نظر معينة .

٢ - ان المؤرخ المصرى يستطيع بدقة أن يكتب من وجهة النظر القومية المصرية .

٣ - وأن هذه الحصال لا تحتاج لأن تكون « مصممة وهادفة بحذق لمساندة سياسة ووجهة نظر معينة » ، بل انها تعكس وبنصف وعى المناخ القومى للمؤرخ . ان تقييم قسطنطين زريق Qustantin Zurayq للموقف ، مثل تقييم حوراني ، أكثر عدالة وتوازنا من تقييم جب Gibb وشيجه Chejne . فهو يوافق على أن القومية كانت أداة هامة فى التأريخ العربى الحديث ، لكنه يضيف ان العرب لم يكونوا نسيج واحد فى اظهر القومية ، وان بعضا من الكتابات التاريخية الأوروبية الحديثة رفيعة المستوى قد نتجت من تأثير هذه القومية (٣٢) .

وهناك نتيجتان على جانب من الأهمية لمناقشتنا اللاحقة لكتابات القرن التاسع عشر يمكن استخلاصها مما سبق . فأولا ، من غير المعقول توقع غياب « القومية » وكذلك بعض أشكال « التفسير - الانحياز » فى الأدب التاريخى الحديث . ذلك ان وجودهم المطلق يشير فى الحقيقة الى جهد ما - رغم أنه ساذج - لابتعاد التاريخ عن الاقتراب التقليدى الميكانيكى للتأريخ الزمنى Chronicle ، نحو أساليب صريح وأكثر تحديثا فى الكتابة . والنتيجة الثانية ترتبط بالأولى - فتحيدها - قد لا يكون ملائما نقد ما هو موجود دائما ، وأن النقد - اذا كان هناك لزوم له - يجب أن يوجه نحو (شكل) الانحياز بدلا من (وجوده) . ولما كان التاريخ القومى نادر للغاية ، فإن من المحتمل أن يكون التاريخ القومى الجيد الوثيق والمقنع هو أحسن ما نتوقعه .

الفرض من التاريخ :- ان مشكلة التفسير أو الانحياز فى التاريخ تكاد تكون قريبة من قضية « الغرض من التاريخ ، ولكنها فى نفس الوقت ليست مثلها . لقد ظل التاريخ دائما يكتب فى ظل غرض معين فى عقل كاتبه . وكان هذا الغرض فى بعض الأحيان واضح الترابط والاتساق ، وفى بعض الأحيان كان الكاتب يحاول أن يخفى هذا الغرض . وكان الغرض فى بعض الأحيان عاما ، وفى أحيان أخرى كان محددا . نحن نعرف أن هدف التاريخ الزمنى Chronicle هو الفهرسة Catalog ، أما هدف التاريخ فهو التحليل . لكن طالما كان التاريخ يكتب ، فإنه أيضا ذو طبيعة هدفية أو غرضية ، تساعد المرء على ضبط نفسه وبيئته بصورة أفضل (أو هكذا تصور الانسان) .

وبصفة عامة ، فإن الغرض التاريخى كان اما « موجهها ومساعدنا على اكتشاف المرء للأشياء بنفسه » أو « دافعا للإيمان بالآخرويات والبعث والحساب » . وقد استخدم قدماء الاغريق « الغرض التاريخى » فى

صورته الأولى (كموجه ومساعد على اكتشاف المرء للأشياء بنفسه) من أجل تنمية الوعي المدني Civic العام (٣٣) .

وخلال فترة العصور الوسطى المتأخرة استهلك لدرجة كبيرة في اللاهوت ، وأصبح لذلك ، أكثر ميلا في طبيعته للصورة الثانية (كدافع للأيما نبالأخريات والبعث والحساب) . ولا تقل حقيقة ذلك في الغرب المسيحي عن الشرق المسلم : فابن الأثير لم يجد تفسيراً للغزوات المغولية سوى لإرادة الله ، وبالمثل فان القديس أوغسطين (٣٤) لم يستطع أن يجد سببا لنهب روما على يد الأريك Alaric (٤١٠ بعد الميلاد) (٣٥) إلا انها إرادة الرب في أن يرى مدينته تنتصر على الكيان الامبراطوري الروماني (٣٦) .

لم يسترد الغرض « التوجيهي الاكتشافي » من التاريخ دوره في الغرب الا مع قدوم عصر النهضة ، عندما نبذ مؤرخون أمثال ماكيافيلي Machiavelli وجيكارديني Guicciar dini (٣٧) الأساليب البلاغية المطورة للغائية الدينية (٣٨) ، واتجهوا بدلا من ذلك الى التاريخ لتفسير السلوك الانساني (٣٩) .

أما في الأزمنة الأكثر حداثة في الغرب فقد استخدم التاريخ لتشويه النظم القيمية سواء أكانت دينية أو سياسية أو ثقافية (٤٠) . وبينما هو على الإطلاق « بلا غاية » ، فان الهدف النهائي للتاريخ الغربي الحديث (بالنسبة للمدرسة التي تعنى بالغرض التاريخي كموجه ومساعد على اكتشاف المرء للأشياء بنفسه) غامض عن عمد . وميزة هذا انه يسمح للمؤرخ بنطاق أكبر للاختيار . فهو يستطيع أن يلتقط ويختار بحرية نوع الدرس الذي يظن انه يحتوي سلسلة معينة من الأحداث ، وأن ينوع خلاصات آرائه تبعاً لحاجات الموضوع . وهذا اختيار غير متوفر في مدرسة « الأخريات والبعث والحساب » .

على أنه لا ينبغي المبالغة في الميزات المشار إليها في السطور السابقة ، إذ أنه قد يكون من غير الدقيق أن يصنف كل التاريخ في العصور الوسطى على أنه دعاية دينية ضيق الأفق - كما أنه ليس من الدقة القول بأن تاريخ الأخريات والبعث والحساب قد استبعد تمساما في الأزمنة الحديثة .

وفي الحقيقة فان بعض الأنظمة الحديثة المؤمنة بالأخريات قد تكون أكثر صرامة عن تلك الخاصة بالعصور الوسيطة ، وقد حقق التاريخ الماركسي على وجه الخصوص رواجا وانتشارا لا يقل عن ما حققته أنظمة العصور الوسطى الدينية . وهو تاريخ أخروي في طبيعته كتاريخ

إيزيدور الإشبيلي Isidor of Seville (٤١) أو تاريخ المدائني المتوفى عام ٨٤٠ م ، ويحتوى كل مظاهر الضعف الماثلة (٤٢) . لكن الغريب حقا في هذا المقام ان المؤرخين الماركسيين لا يرون ان الاعتراضات التي أثاروها بشأن التاريخ الدينى (كاحتوائه على أغراض تتعارض مع التاريخ نفسه ، بل وأهم من ذلك أنه لا يمكن اثباته تاريخيا) يمكن أيضا أن تنطبق على التاريخ الماركسى - اللينينى ، الذى اذا لم يكن خطأ ، فهو على الأقل نظام فلسفى أكثر منه نظام تاريخى (٤٣) .

ان جمال الكتابة التاريخية الحديثة يكمن - قبل كل شيء - فى بساطته . والمؤرخ الحديث (يفترض هنا) هو الابن الحقيقى للتنوير الفرنسى ويتفق تماما مع الفلاسفة فى تفضيلهم الذكاء المنظم esprit systematique على ذكاء النظام esprit des systemes ولذلك فهو يقصر دوره عن عمد على دور المؤرخ ، على عكس مطران العصور الوسطى أو الماركسى الجدلى فى الأيام الحديثة ، ويتجنب دور المنجم ، والفيلسوف أو النبى . وبقدر الامكان فانه يترك أدلته لتحديد الغرض النهائى لأبحاثه .

الأسلوب التاريخى : يعد التاريخ واحدا من الفنون الأدبية من حيث الشكل - ان لم يكن من حيث الموضوع . ولذلك فانه نادرا فقط ما يستطيع المؤرخ ان يتحمل تجاهل مسائل الأسلوب كلية . فالأسلوب من الأهمية بمكان للتاريخ لدرجة ان الأعمال التاريخية الرائعة قد تسقط تماما ، ببساطة لانها كتبت بأسلوب فقير ، وعلى عكس ذلك فقد تفوز مواضيع ضحلة بنجاح باهر عندما يكتبها كاتب بليغ .

وحتى فى محيط تقليدنا التاريخى الغربى ، فان الأساليب تفاوتت الى حد بعيد من عهد الى عهد ، ومن بلد الى بلد ، بل حتى ومن فرد الى فرد . وتظل الفجوة أوسع فى حالة تقليد تاريخى أجنبى كالاسلام على سبيل المثال ، فتاريخ اسلامى جيد قد يبدو كريها عند الغربيين لانه غريب فى أسلوبه . وهكذا فان المدارس الغربى للتاريخ الاسلامى قد يصيبه السخط بالتنسيق الشعرى المؤرخ المسلم فى العصور الوسطى حيث ان تقاليدهم الغربية لم تؤهله لمثل هذه المواجهة . على سبيل المثال كان التاريخ الاغريقى والرومانى القديم مظهره صاف ورائق ، وكان خاليا من التوافه والسفاسف (٤٤) . كذلك فان المؤرخين الغربيين للفترة البسيطة يبدون وقد وضعوا الاعتبار للمحتوى دون الأسلوب (٤٥) .

لقد لاحظ Edward Gibbon عندما كتب عن المؤرخين العرب (أو المسلمين) انهم كانوا دائما اما كتاب تاريخ زمنى جافين أو خطباء بلاغيون . ولعل (دقة) هذا الراى بصفة عامة تفتح الباب للأسئلة ،

وقد يكون هذا الرأي مضملا كلية اذا طبق على التأريخ الاسلامي قبل القرن الحادي عشر . فحتى ذلك الوقت كان المؤرخون المسلمون ، مثل أندادهم السجديون ، يستخدمون نثرا صافيا ، مقروءا ، بل وأنيقا (٤٦) . وفي الحقيقة فإنه من الصعب القول بأن الطبري مثلا (المتوفى عام ٩٢٣) سبكون هو الأساس في أي مقارنة أسلوبية مع المبجل يسد Venerable Bede (٤٧) .

وعلى الناحية الأخرى ، فإنه منذ حوالي أواخر القرن العاشر فصاعدا وجه المؤرخون المسلمون أكثر فأكثر نحو عادة النثر الملقى (السجع) في محاولة لتعزيز الأثر الجماهيري في قصصهم وربما أيضا لتسهيل تذكر السجع معينة . ومع تعاقب القرون أصبح السجع أساسيا أكثر فأكثر سببا لنثر المؤرخ ، أو على الأقل في الأجزاء الافتتاحية في الفصول المقدمة . (وقد استلزم هذا جهدا لغويا استثنائيا للمحافظة على السجع في القصة التاريخية نفسها) . أيضا فإن الشعر دخل مجال التجربة أدانا ، بنتيجة نهائية وصفها جيبون بقوله : لقد بدأت الكتابة التاريخية الإسلامية تعاني بصورة قياسية (٤٨) .

مع نهاية القرن الثامن عشر كان التأريخ العثماني قد انحط إلى مجرد حشو وكلام طنان » (٤٩) . وبالنسبة لمصر حيث كانت التركية هي اللغة الرسمية للحكومة منذ ١٥١٧ فإن القدرة على استخدام العربية انحدرت كثيرا لدرجة أن السجع استخدم ليعطي العجز اللغوي (٥٠) . لذلك فإنه مع تحول القرن التاسع عشر فإن التقليد الأهلبي الاسلامي في التأريخ كان قد فقد كثيرا من حيويته القديمة . ورغم هذا فقد كان قادرا على مواصلة التقدم خلال أغلب الفترة موضوع الدراسة - وفي مواجهة التغيرات المتزايدة المستمرة من التغريب الثقافي .

بالتدريج والحدق فقط استطاعت الأساليب الأحدث في الكتابة أن تزيج أشكالها تقليدية أكثر . مع تزايد احتساس المثقفين العرب بأن النماذج الكلاسيكية للتعبير بل وحتى اللغة العربية نفسها لم يعودوا ملائمين للاحتياجات الأدبية الحديثة . وقد وفر التطور السريع للصحف العربية خلال القرن التاسع عشر قوة دافعة لحركة اصلاح اللغة ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الأسلوب الصافي الواقعي للضخافة في التأثير في الكتابات التاريخية . وكان مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) وقاسم أمين (١٨٥٦ - ١٩٠٨) على وجه الخصوص مدافعين متحمسين للتغيير الأسلوبى ، وساعدا على اخراج ما أصبح معروفا فيما بعد « بالأسلوب المباشر في الكتابة » (٥١) . وقد انتشر هذا الأسلوب بسرعة ، ومع نهاية القرن التاسع عشر كان كل المؤلفين العرب يستخدمونه فعلا (٥٢) .

من هنا ، فان الأساليب الأدبية والأذواق بصفة عامة (وفي المحيط الأضيّق الأسلوب والبنية الخاصين بالكتابات التاريخية نفسها) ، اجتازت تغيراً صعباً خلال القرن التاسع عشر ، ولحق فان « الشيال » لم يكن مخططاً عندما قرر أن « الأسلوب المباشر » المنسوب الى مصطفى كامل وقاسم أمين وقلة آخرين ، انتشر بسرعة ، ولكن يجب أن لا ينسى ان هؤلاء الرجال كانوا مستأنفين أو مكملين لحركة اصلاح أدبي بدأت على الأقل مبكرة منذ عهد الطهطاوى ، ولم يكونوا المنشئين لهذه الحركة (٥٣) ، فمنذ عنده (الطهطاوى) كان كل مؤرخ مصرى مضطر الى مصارعة قضايا الأسلوب ، وكان الكثير منهم قادر على نيل الكثير من الأساليب التقليدية في التعبير - ولكن هذا كان على حساب خسارة كبيرة في البراعة الأدبية (٥٤) . وعادة كان الأسلوب المباشر الصحفى المتزايد والذي فضله البعض ، مبسطاً قليلاً عن ما نعتبره الآن « شكل تاريخى جيد » ، وفوق هذا فان الكتاب المصريين فى ذلك العهد لم يفهموا دائماً كيف يصنعون وسيلة أدبية طيبة دون الرجوع الى الأساليب الأقدم المنطوية على المفارقات التاريخية . ولم يتوقف ذلك الا حديثاً عندما طوروا أسلوباً أسلم نفسه لكل الأمزجة التاريخية . وبالتناقض مع سابقها وحتى لسقود قابلية مضت ، فان الكتابات التاريخية المصرية المعاصرة تتدفق بسهولة ويسر وتتعامل مع أكثر المفاهيم تعقيداً . لقد تحسن الأسلوب فى الحقيقة كثيراً لدرجة أن مقارنة أسلوب حسين فوزى النجار « بالأسلوب المباشر » للبعض كجورجى زيدان مثلاً تجعل الأخير يبدو ساذجاً ، وهو بالطبع ليس كذلك (٥٥) .

ورغم أن الأسلوب التاريخى سيتفاوت من عهد الى عهد ومن جزء واحد من العالم الى جزء آخر ، فان النماذج الأسلوبية الحديثة تدعو الى نغمة هادئة رقيقة غير مسرحية (لا نقول أقل مما تقتضيها الحقيقة) : لقد أصبحت الأشكال الشعرية فى أيامنا هذه لا محل للتفكير فيها حيث انها تصرف المؤرخ عن هدفه الرئيسى ألا وهو شرح أو تفسير نتائج بحثه باقتضاد بقدر الامكان . على أن هذا لا يعنى - من الناحية الأخرى - ان التاريخ يجب أن يقرأ كخلاصة احصائية خلو من كل اللطف الأسلوبى . ان النشر الشعرى فى أيامنا هذه قد لا يتألاً مثلاً تألثت مقالات ماكىولاى Macaulay (٥٦) ، ولكنه يجب أن يبسط على الأقل فى أسلوب أخاذ (٥٧) .

التأريخ الحديث فى مواجهة التأريخ التقليدى : كان التأريخ المصرى فى طريقه لأن يصبح « حديثاً » منذ القرن التاسع عشر ، لهذا فان من الضرورى أن يجرى تحديد بعض العناصر التى قد يحتوينا هذا التحديث فى هذا الفصل من الكتاب . من الثابت انه لم تجر محاولة لتقديم بحث

حاسم عن الكتابة التاريخية عبر العصور ، على الأصح ، فقد جرى فحص لهذه الاختلافات بين التقنيات الحديثة ، وما قبل الحديثة فقط التي تتصل بمصر القرن التاسع عشر . وسيشكل المعيار الموضوع هنا الاطار لمناقشات لاحقة تتعلق بما هو حديث وما هو ليس بحديث عن التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر .

ان هناك جدالا أساسيا فى هذا الفصل اتصل بضرورة أن تكون الكتابات التاريخية تحليلية ، مدروسة تأويلية ، حتى لو كانت هذه النتائج فى انحياز معين أو حتى نفاق . وفى كل التاريخ لابد أن يوجد نوع من الانحياز (أو التفسير) . وهذا الانحياز يوجد حتى فى الدراسات النموذجية لفون رانكه ، ولهذا فان السؤال الحقيقى هو ما اذا كان شكله (أى الانحياز) حميد أم ضار ، عمدى أم غير مقصود . وكما محاولة للتخلص من « المعادلة الشخصية » فى التاريخ ، فقد رأينا أن التاريخ الزمنى Chronicle محكوم عليه فى النهاية بالسقوط . والثنى الذى يدفع مثل هذه الجهود والمحاولات كبير جدا ، حيث اننا ننتهى فى التاريخ الزمنى الى سلسلة من التفصيلات لا معنى لها ومنتشرة بغير انتظام (٥٨) . ان الكتابة التاريخية الحديثة هى مغامرة أكثر طموحا من ذلك . فهى تتطلب تعاون العقل البارع فى النقد بدلا من الخوف .

الأمر الثانى ، هو انه رغم أن على المؤرخ الحديث أن يعيد التفكير والتأمل فى كل ظل للمعنى والفوارق التى تضمها المادة العلمية الخام ، فان الكتابة التاريخية الحديثة الجيدة مرنة وقابلة للتكيف ولن تربط السجل التاريخى ببعض الايديولوجيات الدينية أو العلمانية (٥٩) . وعلى ذلك فعلى الرغم من أنه لا غبار على وجهات النظر الوطنية (وللحق فانه ليس من السهل تجنبها فى أغلب أحوال الكتابة التاريخية) ، الا أنه يمكن بل ويجب مهاجمتها كلما تجاهلت أو عتمت أو شوهت أجزاء هامة وذات دلالة من السجل التاريخى . هنا فان الاتهام الوحيد سيكون حول الدليل أو الحقيقة التاريخية ، التى سيفترض انها إما أن تعزز الصورة التاريخية التى رسمت واما أن توهنها .

وعن طريق مناصرة الحقيقة التاريخية فقط سنستطيع أن نقيم توازن ودقة كتابات القرن التاسع عشر التاريخية المصرية ، برغم أن المؤرخين أنفسهم ، كما سنرى ، لن يجعلوا هذه المهمة لنا سهلة . صحيح أنه بالنسبة لتقاليد العصور الوسطى ، فان الكثير من المؤرخين كانوا غامضين فيما يتعلق بمصادرهم المعلوماتية . لم يستخدموا حواشى لما ورد فى المتن ، وهذه الحواشى لم تكن معروفة لكتاب عهد ما قبل الاحتراف ، وهذا بدوره يجعل من الصعب التأكيد من دقة دعاوى هؤلاء المؤرخين .

أخسيرا ، فانه بالنسبة للأسلوب ، فان الكتابة التاريخية الحديثة تتطلب هدوءا وأناقة في التعبير ، لكنها تتطلب في نفس الوقت اقتصادا في التعبير أيضا . لقد أصبح السجع الآن نوعا من القديم الذي لا محل له ، لكن أسلوب الكتابة التاريخية لا يجب أيضا أن يكون مبسطا جدا . وحتى مع استبعاد الاعتبارات الجمالية ، فان التاريخ ببساطة لا يستطيع تحمل الفقر اللفظي ويظل متعاملا مع « الاقتناع الفكري » في نفس الوقت ، وهذا في حد ذاته يعد اكتفاءا بالجدار الخارجي للحوادث دون النفاذ الى صميمها . ان أسلوب المقالة التاريخية اليوم يجب أن يعزز أثر القصة ، لكن بصورة أو بطريقة تجعل القارئ واعيا بصورة باهتة فقط بالمزايا الأدبية لما يقرأه .

حواشي الفصل الأول

١٠ هذا ليس صحيحاً كلية بالنسبة لكثير من التاريخ الكلاسيكي اليوناني والروماني ،
١١ أيضاً انتماءات جديدة بالذكر في الحوليات الإسلامية التقليدية : عن ذلك راجع
١٢ من الفصل الثاني .

١٣ . راجع : Burr, C. Brundage ، تلخيص وتفسير للتاريخ في
١٤ من القرن القديم .

"Teachers of History : Essays in Honour of Laurence Bradford P...
ed. H. Stuart Hughes (Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1961)
p. 226.

١٥ . ليوبولد فون رانكه Ranke, Leopold Von . ولد في ٢١ ديسمبر ١٧٩٥
١٦ في ٢٣ مايو ١٨٨٦ . يعتبر رانكه رائداً في تطور علم النقد التاريخي . تعلم رانكه
١٧ لغتين كلاسيكيتين ، وأدخل مناهج النقد في تحليل النصوص في دراسة التاريخ الحديث .
١٨ . من أبرز كتاباته التاريخ على أساس الفحص الدقيق للمصادر الأولية ، وقد ضمن
١٩ في عمله zur Kritik neuer Geschichts chreiber (في نقد
٢٠ وهو رسالة ملحقه بكتابه

History of the latin and Teutonic Nations from 1404-1704.

٢١ . في عام ١٨٢٤ والمترجم الى الانجليزية في ١٨٤٦ . وخلال تدريسه في جامعة برلين
٢٢ . نظم رانكه ثلاث بحث (سمناز) درب فيها أجيالا عديدة من المؤرخين
٢٣ . المناهج التاريخية . وقد مثلت هذه الندوات المخصصة لتحقيق المشاكل التاريخية على
٢٤ أساس الفحص التصنيفي والنقدي للوثائق أساساً جديداً في تعليم المؤرخين المحترفين .

٢٥ . وقد أصبحت طريقة رانكه في قيادة البحث التاريخي ، والى حد ما أسلوبه في كتابة
٢٦ . تاريخ نماذج لمؤرخي القرن التاسع عشر . وقد اُسِّىَ فهم رانكه في الخارج كـ فيلسوف
٢٧ . من نوع ما ، فكيف الحقائق وفقاً للظروف : Fact-Oriented positivist ، لكنه كان في
٢٨ . من نوع ما مقتنع بأن القوى الأخلاقية العظمى قد أثبتت نفسها في التاريخ . وفي أعماله
٢٩ . نمطية .

٣٠ : The History of the Popes (3 vols., 1834-36) ;
٣١ والمترجم الى الانجليزية في ١٩٠٨

٣٢ History of the Reformation in Germany (6 Vols., 1839-47).

٣٣ والمترجم الى الانجليزية في ٣ أجزاء ١٨٤٥ - ٤٧
٣٤ Civil wars and the Monarchy in France in the sixteenth and
٣٥ seventeenth Centuries (5 Vols., 1852-61).

٣٦ والمترجم ترجمة انجليزية غير كاملة في جزئين ١٨٥٢
٣٧ A History of England Principally in the seventeenth Century (7
٣٨ vols. 1859-69).

والمترجم الى الانجليزية في ستة اجزاء ١٨٧٥ .

في هذه الأعمال العظيمة تتبع رائكه تطور العالم الأوروبي الحديث . وقد أدى اعتياده
الثقيل على الوثائق الى الاسهام في صنع تاريخ سلط الأضواء على الشؤون الخارجية للقوى
العظمى وعلى الأحداث الحربية وأعطى تأكيداً كبيراً للأفكار الدينية . ومع هذا فإن هذه
الأعمال أهملت المظاهر الاقتصادية ، الاجتماعية ، والثقافية في التاريخ الأوروبي الحديث .

المترجم Lexicon Universal Encyclopedia vol. 16.

(٤) فرانز روزنتال Franz Rosenthal
"A History of Muslim Historiography, 2nd ed. rev. (Leiden :
E. J. Brill, 1968), p. 83.

والصعوبة الفلسفية في هذه المناقشة هو أنها تقترض وجود تاريخ حول « نقي » ،
بيلما الواقع يؤكد عدم امكانية وجود هذا التاريخ في عالمنا الحقيقي . حتى مع ان التاريخ
الحولي الدقيق الجيد قد يكون موضوعاً من حيث اختيار سلسلة الأحداث ، وليس أي
شيء آخر . وفقاً للمصطلحات الانسانية فإنه لا توجد حدود يمكن ادراكها لعدد التفاصيل
التاريخية التي قد تتضمنها القصة . وعلى سبيل المثال فإن حقيقة ان قيصر قد حاك مرفقه
وتشاءب ثلاثة وأربعين مرة قبل ان يبدأ هجومه على الغال Gaul يجب ان تذكر - في
الحولية « النقية » .

(٥) قارن ، على سبيل المثال قول أي . ه . كار E. H. Carr أن السنة الصحيحة
التي حوربت فيها معركة هاستنجز Hastings هي بالنسبة للمؤرخ اقل ما يكون من
مظاهر الدلالة الخاصة بهذه الواقعة .

"What is History ? (New York : Random House, Inc., Vintage Books,
1967), pp. 7-8.

وقد حوربت هذه المعركة في ٤ أكتوبر ١٠٦٦ قرب هاستنجز Hastings
في شرقي سسكس Sussex بإنجلترا ، حيث هزم جيش غاز يقوده ويليام William
دوق نورماندي ، قوات الملك هارولد الثاني Harold II ملك إنجلترا الذي قتل أثناء
المعركة وتولى ويليام العرش الانجليزي تحت اسم ويليام الأول . وفي سجادة بايو
Bayeux Tapestry رسم دقيق لهذه المعركة التي تسجل بداية الفتح النورماندي .

المترجم Lexicon Universal Encyclopedia vol. 10.

(٦) حول هذا المفهوم انظر ر . ج كولينجود R. G. Collingwood
"The idea of History" (London, Oxford and New York : Oxford Uni-
versity Press, 1956), p. 213. وما بعدها .

قارن أيضاً R. G. Collingwood

"Essay in the Philosophy of History

مع مقدمة لويليام ديبينز William Debbins
(New York : McGraw-Hill Book Co., 1966), pp. xvi-xx.

(٧) الفضل يعود للجهود التي بذلها رجال مثل بنيدتو كروسه Benedetto Croce ،
فيلهلم ديلتي Wilhelm Dilthey ، جيمس هارفي روبنسون James Harvey Robinson
وكولينجود نفسه ، الذين جاهدوا بعناد ضد أضعاف التاريخ على هذه الطريقة .
أما النقيض الآخر فيحتمل أن يكون لورد آكتون Lord Acton ، الذي تمسك بحرية
المؤرخين في ان يضمّنوا كتاباتهم أحكاماً أخلاقية . وقد اعتبر هذا بصدق بواسطة أغلب

نحرف عن على انه انتقال مفاجئ جزئي وعلى ذلك فهو خطير للغاية ، رغم ان آكتون لم يكن
 "The Historian and History (New York : Random House, Vintage Books
 1966), pp. 143-44, 156.
 G. G. Coulton ج. ج. كولتون

"Some Problems in Medieval Historiography" Proceedings of the
 British Academy 18 (1932), 176-77.

Page Smith (٨) بيع سميت
 "The Historian and History (New York : Random House, Vintage Books
 1966), pp. 143-44, 156.

Collingwood, "Essays in the Philosophy of History, pp. 23-33
 and Carr. "What is History, pp. 7-10.

(١٠) هذا هو ما سبب الهجمات على التاريخ ابتداء من ديكارت
 Descartes رينيه ديكارت René Descartes نابغة رياضي
 Henry Ford وسطى هنري فورد . ورينيه ديكارت
 Mathematical وفيلسوف متطور . ولد في لاهاي La Haye
 ١٥٩٦ وتلقى تعليمه المبكر في كلية الجيوزويت بفليش La Flèche . وهناك علم الفلسفة
 الفرنسية على فكر فرنسيسكو سواريز Francisco Suarez . لكن الفلسفة السواريزية
 لم تسببه ووجد الرياضيات أكثر قربا من تذوقه العلمي . في ١٦١٦ حصل على درجة
 من القانون من جامعة بواتييه Poitiers حيث درس فيها الطب أيضا . في ١٦١٨ - ١٩
 خدم في جيوش القائد الهولندي موريس أوف ناساو Maurice of Nassau
 ود كسمينيان الأول Maximilian I دوق بافاريا Bavaria . وخلال ذلك الوقت كان
 يحلم بمعالجة كل القضايا الفلسفية بمنهج رياضي وحيد .

في باريس بين ١٦٢٦ و ١٦٢٨ حثه الكاردينال دي بيرول de Bérulle ان يكتب
 "مبادئ التفكير والمحددات" . وقد استجاب ديكارت لهذا المطلب وبدأ في كتابة
 Regulae ad directionem in genii (Rules for the Direction of the Mind)
 وقد ترك ديكارت هذا العمل ناقصا ثم نشر بعد موته عام ١٧٠١ . نحو نهاية ١٦٢٨ استقر
 ديكارت في هولندا ، حيث تابع اهتماماته الرياضية والعلمية والفلسفية . وحافظ على
 سلطته المربطة بالعديد من المنقذين الأوروبيين . وفي ١٦٣٧ نشر Geometry, Meteors,
 Discourse de la méthode وارتق ديكارت بهذه الأعمال عمله الشهير
 (Discourse on Method) والذي نشر فيه المعالم الرئيسية لمنهجه وفلسفته .
 في ١٦٤١ نشر عمله الفلسفي الرئيسي
 Meditationes de prima philosophia (Meditations on first Philosophy)
 . وقد صاحب هذا العمل ستة مجموعات
 من الاعتراضات ضد فلسفته من جانب فلاسفة وعلماء لاهوت مختلفين الى جانب اجاباته
 هو على هذه الاعتراضات . وفي عام ١٦٤٤ خرج ديكارت بعمله (Principia philosophia)
 Principles of philosophy الذي قدم وجهات نظره بطريقة سكولاستية
 : فلسفة نصرانية سادت في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة ، بنيت على منطق أرسطو
 ومفهومه لا وراء الطبيعة ولكنها اتسمت في أوروبا الغربية بانحطاط الفلسفة للاهوت .
 وبعد توما الأكويني Thomas d'Aquino الذي سعى الى اقامة صلة بين العقل والدين
 في عمله العظيم Summa Theologiae ، من أبرز رجال هذه الفلسفة) كان يأمل الى
 ان يكتب كتاب مدرسي . ترك ديكارت هولندا في ١٦٤٩ بناء على طلب الملكة كريستينا
 Christina ملكة السويد حيث تولى تثقيفها حتى وفاته بالالتهاب الرئوي في
 ١١ فبراير ١٦٥٠ .

Lexicon Universal Encyclopedia vol. 6.

المترجم

(١١) قدمت هذه الفكرة في الوقت الحالي بوضوح ولعالية للقارىء العربى فى كتيب
لقى شعبية كبيرة . انظر قسطنطين زريق « نحن والتاريخ » (بيروت : دار العلم للملايين ،
١٩٦٣) ، ص ٥٧ .

(١٢) قارن كولنجوود The Idea of History, p. 248.

(١٣) ولد الفيلسوف والعالم النفسى ويليام جيمس William James فى نيويورك
فى ١١ يناير ١٨٤٢ وتوفى فى ٢٦ أغسطس ١٩١٠ . كان جيمس أحد المؤسسين والناصرين
للمذهب العلمى (Pragmatism) أو فلسفة الدرائج (فلسفة أمريكية تتخذ من النتائج
العملية مقياساً لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية وصدقها) . ابن للفيلسوف هنرى جيمس
الأكبر ، وأخ للروائى هنرى جيمس . التحق بمدارس فى أوروبا وفى ١٨٦١ دخل كلية
هارفارد . وفى ١٨٦٤ حصل على درجته العلمية وشرع فى دراسته فى مدرسة هارفارد
الطبية . هناك ، أصبح عضواً فى (النادى الميتافيزيقى) وهو تجمع غير رسمى كان يلتقى
لمناقشة الفلسفة ، وضم شارلز بيرس Charles Peirce ، أوليفر وندل هولمز الأصغر
Oliver Wendel Holmes وشونسى رايت Chauncy Wright الذين أصبحوا
فيما بعد من مشاهير الحركة البراجماتية . بعد حصوله على درجته العلمية فى الطب .
عانى جيمس فترة من المرض لكنه فى ١٨٧٣ أصبح قادراً على قبول وظيفة كمحاضر للتشريح
وعلم وظائف الأعضاء ، ثم الفلسفة فى عام ١٨٧٩ . وقد استمر جيمس فى هارفارد باستثناء
بعض الانقطاعات القليلة فى وظيفته الأكاديمية ، حتى استقال عام ١٩٠٧ . وتعتبر أعمال
هربرت سبنسر Herbert Spencer وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill
ذات تأثير هام فى التفكير المبكر لجيمس . كذلك كان هنرى برجسون Henri Bergson
هاماً بفلسفة شخصية (فلسفية فى السنوات الأخيرة لجيمس ، مثلما كان جون ديوى
John Dewey الذى تولى قيادة الحركة البراجماتية بعد وفاة جيمس .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 11.

المترجم

Fritz stern

(١٤) الاستشهاد من نسخة فريتز سترون

"The Varieties of History"

(Cleveland and New York : The World Publishing Co., Meridian Books,
1956), p. 26.

(١٥) على سبيل المثال يحدد كار E. H. Carr بذلك « الموضوعية التاريخية »

بما يشابه الإدراك بأن المرء لا يستطيع أن يكون موضوعياً . انظر كار Carr
"What is History" ? p. 163.

(١٦) يشعر جب Gibb بأن الآثار الضارة للوطنية على التاريخ الغربى قد خففت

نتيجة للظهور المتزامن للحمية العلمية وتطور المنهجية النقدية التاريخية .

انظر H. A. R. Gibb "Modern Trends in Islam" (Chicago :

University of Chicago Press 1947), pp. 108-9.

وقد يكون من المشكوك فيه ان أثر الحتمية العلمية على التاريخ كان مفيداً كلية .
على الجانب الآخر فان المنهجية النقدية التاريخية ، كانت ببساطة واحدة من مظاهر الاعتراف
المتزايد للدراسات التاريخية ويحتمل ان تكون قد ساعدت على تقليل بعض الافراطات
المعينة . لكنها مع هذا ، لم تقض على الوطنية تماماً من الكتابات التاريخية .

(١٧) كان جين بودين Jean Bodin المولود حوالى ١٥٣٠ والمتوفى فى يونيو ١٥٩٦

فيلسوفاً فرنسياً ، ورجل دولة ، ورجل قانون . قام بتدريس وممارسة القانون فى تولوز
Toulouse حتى ذهب الى باريس فى سن الأربعين . وهناك انضم الى حزب Politique
وأصبح شخصية بارزة فى حاشية فرانسوا دى فالوا Francois de Valois الابن الأصغر

(٢٣) ويضيف حوراني Hourani بصورة صحيحة جدا ، كيف أن الأمر مفهوم .
وبالنسبة لهم فإن لبنان يجب أن يكون له بعض الدلالة كبلد .

Albert Hourani

انظر البرت حوراني

"Historians of Lebanon", *Historians of the Middle East*, p. 241.

(٢٤) علي سوافي Ali Suavi صحة اسمه على صو آوى - صو تعنى ماء - آوى التى تنطق آفى تعنى فيها آف الصيد فتكون صو آفى صيد البحر (على صو آفى) - ولد فى استانبول ١٨٢٩ وتوفى بها فى ١٨٧٨ . بعد انتهاء فترة تعليمه المدرسى عمل مدرسا فى المدارس الرشدية فى فيليبس ، وبورصة ، ثم مديرا لمدرسة (سلطانية غلطة سراي) .
أبعد الى قسطنطينية بسبب مقالاته بخريدة (مخبر) ، وعظاته فى المساجد . هربا من منفاه الى أوروبا فأصدر صحيفتى (فجر) فى لندن ١٨٦٧ ، و (العلوم) فى باريس ١٨٧٠ .
ثم عاد الى استانبول فى ١٨٧٦ بعد عهد عبد العزيز وتولى مراد الرابع الحكم . فى عهد عبد الحميد الثانى قتل المترجم ضربا بالعصا فى ٢٥ مايو ١٨٧٨ على يد خشن باشا محافظ بشيكتاش عقب هجومه على القصر بصحبة ٦٠٠ رجل من أجل إعادة مراد الرابع الى الحكم .
يعتبر على صو آوى أحد أشهر الكتاب الأتراك فى مجال السياسة والفلسفة ومن أبلغ علماء الإسلام .

Seyit Kemal Kara Ali Oglu "Turk edebiyat Tarihi"

المترجم

Inkilap ve Aka kitapları - Istanbul 1978, pp. 233-35.

Ercüment Kuran

(٢٥) ارجمند كوران

"Ottoman Historiography of the Tanzimat Peribd".

Historians of the Middle East, p. 428.

Halil Inalcik

(٢٦) خليل اينالجيک

"Some Remarks on the Study of History in Islamic Countries".

The Middle East Journal 7 (1953) : 453-54.

L. Bouvat

(٢٧) ل . بوفات

"La presse égyptienne," *Revue du Monde Musulman* 1 (1906) : 279.

Muh: Abdul Mu'id Khan عن الشقز المصرى انظر محمد عبد المقيد خان

"Modern Tendencies in Arabic Literature," *Islamic Culture* 15 (1941) : 322.

وللقصة المصرية الحديثة انظر على سنبل المثال توفيق الحكيم « عودة الروح » حيث يتناظر الأثرى لوكية Fbuquet المفتش البريطانى عن جمال مصر القامض .

انظر توفيق الحكيم « عودة الروح » (القاهرة : مكتبة الادب ، بدون تاريخ) ،
ص ٦٠ .

Anwar Chejne

(٢٩) أنور شنيجنه

"The Use of History by Modern Arab Writers"

The Middle East Journal 14 (1960) : 383.

H.A.R. Gibb

(٣٠) ه . ا . ر . جب

Problems of Middle Eastern History

Studies on the Civilization of Islam, eds. Stanford Shaw and William R. Polk (Boston : Beacon Press, 1962), p. 339.

(٢١) بانتميه نصر . فان شيجنه Chejne يدعم قضيته بالاستشهاد بأعمال طه
 صبر . محمد حسين هيسكل ، وعباس محمود العقاد . انظر له (شيجنه)
 "The use of History by Modern Arab Writers," pp. 337-89.
 وهذه الثلاثة لحرية ، حيث انه لا أحد من الأشخاص الذين ذكروا يمثل حقيقة التاريخ
 بنص الحديث . وليس أحد منهم يعرف مبدئيا بأنه مؤرخ .

(٢٢) روين « نحن والتاريخ » ص ١٠٢ - ١٠٣ .

Rosenthal

Muslim Historiography." p. 9.

(٢٣) روزنتال

(٢٤) القديس أوغسطين Saint Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠ م) ، لاهوتي
 ومفسر كنائلي . حاول التوفيق بين الفكر الأفلاطوني والعقيدة النصرانية . ولد في
 صاجاسه Thagaste المسماة الآن (سوق أهراس) بالجزائر . وتلقى تعليما كلاسيكيا
 في أدب اللاتيني مكثه من التخلص من تربيته الاقليمية . ثم تلقى تدريباً في قرطاج
 Carthage في البيان والبلاغة والخطابة العمومية Public Oratory - التي كانت في
 ذلك الزمان شرطاً لتولي المناصب القضائية أو السياسية في الامبراطورية الرومانية .
 أصبح مدرسا للبلاغة في قرطاج ، روما ، وأخيرا في ميلان وهي مناصب حكومية في ذلك
 الوقت . في ميلان عام ٣٦٨ اجتاز أوغسطين تحولاً دينياً . استقال من منصبه العام وتلقى
 معونة من أمبروز Ambrose أسقف ميلان ، وعاد سريعا الى شمال افريقيا . في عام ٣٩١
 أصبح قسيسا في هيبور يجيوس Hippo Regius المسماة حاليا بونه Bone بالجزائر .
 أصبح أسقفا بعد خمس سنوات .

يمكن ان يرى الجزء الأول من حياة أوغسطين (٣٩١) كسلسلة من المحاولات للتوفيق
 بين عقيدته المسيحية وثقافته الكلاسيكية . تبنى أوغسطين المانوية Manichaeism
 وهي فلسفة دينية علمت من القرن الثالث الى السابع الميلادي بواسطة الفارس ماني
 (٢١٦ - ٢٧٦ م) أو مانيشيوس وأتباعه ، ضمت هذه الفلسفة الزرادشتية ، وعناصر
 من التحكم والقواعد السلوكية gnome ، والمسيحية ، والوثنية - ومؤسسة على مذهب
 سنين . تجذلين (الخير = الضوء ، الاله ، الروح) و (الشر = الظلام ، الشيطان ،
 تجسد) . وتدعى هذه المانوية بتوفير مسيحية عقلانية على أساس نص مطهر من الكتاب
 سسر . لكن أوغسطين تحرر بعد تسع سنوات من المانوية والوهم . في ميلان اكتشف
 أوغسطين خلال كتب الأفلاطونية المحدثه Neoplatonism (مذهب نشأ في القرن الثالث
 ميلادي ، عبارة عن الفلسفة الأفلاطونية معدلة بحيث تتسجم مع المفاهيم الأرسطوية
 والشرقية . تصور أصحاب هذا المذهب العالم فيضا منبثقا عن الذات الالهية التي تستطيع
 خروج الاتحاد بها في حالة الانجذاب الصوفي) ، شكلا من الفلسفة بدأ متفقا مع العقيدة
 مسيحية . وانتهى هذا به الى ذلك التحول الدرامي الذي أدى به الى ان ينذر حياته للسعي
 وراء الحقيقة التي اكتشف انها تتماثل مع المسيحية . وعاد الى شمال افريقيا مع مجموعة
 من الأصدقاء . وفي (سوق أهراس) أسس مجتمعا دينيا مخصصا للبحث الثقافي للرب .
 وفي مجال عمله كراهب وأسقف سادت المناقشات والمجادلات حياته ، وذلك خلال فضاله
 ضد الونانيي Donatist's اتباع الأسقف Donatus أسقف قرطاج في القرن الرابع
 ميلادي ، والبيلاجيوسيين (اتباع بيلاجيوس Pelagius ٣٦٠ - ٤٢٠ تقريبا - الراهب
 انبريطاني الذي أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الإرادة التامة) - وكلاهما اتجاها
 ديس . تعارض آراؤهما مع جوهر العقيدة المسيحية عند غالبية المسيحيين . ومن بينهم
 أوغسطين بالطبع . ويجب ان يعتبر أوغسطين أحد مهندسي المسيحية الموحدة التي قاومت
 زوات البربرية في القرن الخامس وبقيت الديانة الأساسية لأوروبا العصور الوسطى .

(٣٥) آلاريك الأول Alaric I ملك القوط الغربيين Visigoths (حوالي ٣٧٠ - ٤١٠) • سجل استيلاءه على روما في ٤١٠ الانهيار النهائي للإمبراطورية الرومانية في الغرب • كان آلاريك هو قائد المرتزقة من القوطيين الغربيين في الجيش الروماني ، ثار في ٣٩٥ م ونودي به ملكاً من جانب قواته • قاد جيشه نحو القسطنطينية ومنها إلى اليونان ، حيث حصل على فائدة متزايدة من الانقسام بين قسمي الإمبراطورية الشرقي والغربي • في ٣٩٧ أعطى (أركاديوس) إمبراطور الشرق القيادة العسكرية في إيليريا Illyria إلى آلاريك ، ومنها بدأ (٤٠١) غزوا لإيطاليا • بعد إرغامه على الانسحاب مرتين (٤٠٢ ، ٤٠٣) بواسطة فلافيوس ستيليكو Flavius Stilicho بعد إعدام الأخير في (٤٠٨) • انتهى حصاره الأولان لروما في (٤٠٨ ، ٤٠٩) بواسطة المباحثات ، لكنه في ٤١٠ عصف بالمدينة • ومات بينما كان يعد لغزو أفريقيا راجع

(٣٦) لتفاصيل أكثر عن القديس أوغسطين St. Augustine ، انظر ، Matthew A. Fitzsimons ، الفريد ج • بونت Alfred G. Pundt وشارلز نويل Charles E. Nowell في "The Development of Historiography" (Port Washington, N.Y. : Kennikat Press, Inc., 1968), p. 13.

عن ابن الأثير انظر عمله « الكامل في التاريخ » - بيروت : دار صادر ودار بيروت ، (١٩٦٦) المجلد ١٢ ص ٣٥٩ •

(٣٧) نيكولو ماكيافيللي Machiavelli, Nicolo. (٣ مايو ١٤٦٩ - ٢٢ يونيو ١٥٢٧ فلورنسا) سياسي ومنظر عسكري ومؤرخ ومؤلف ودبلوماسي ومخطط عسكري • من أهم أعماله (الأمير) الذي صدر عام ١٥١٣ • بدأت حياته السياسية عام ١٤٩٨ عندما عمل سكرتيراً ومستشاراً ثانياً في جمهورية فلورنسا • وبذلك المنصب أصبح موظفاً مدنياً كبيراً بمسئوليات دبلوماسية وإدارية متعددة • وخلال بعثاته الدبلوماسية بالخارج ١٤٩٩ - ١٥٠٨ التقى بالكثير من الشخصيات السياسية القوية في ذلك العصر • بعد سقوط الجمهورية عام ١٥١٢ بواسطة آل مديتشي Medici تم سجن ماكيافيللي وتعرض للتعذيب • بعد الإفراج عنه في ١٥١٣ تقاعد في مزرعة عائلته وبدء الكتابة • لكنه كان لا يزال كبير الأمل في العودة إلى نشاطه السياسي السابق ، وقد تحقق هذا الأمل فعلاً في عام ١٥٢٥ عندما استدعاه آل مديتشي للخدمة لمدة قصيرة • تأسست أفكار ماكيافيللي السياسية على أحداث عصر النهضة • خلال عصره كانت شبه الجزيرة الإيطالية مسرح صراع بين أربعة مدن ودول مهيمنة هي (فلورنسا - ميلان - البندقية - نابولي - البابوية - فرنسا - إسبانيا ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة) • في الصراع بين هذه القوى حاولت كل مدينة أن تحمي نفسها باستخدام قوة ضد أخرى ، واستتجار الجيوش المرتزقة الأجنبية غير الخاضعة لسيطرة • وكانت النتيجة هي مؤامرات سياسية وتهديد وعنف • نتيجة لحركة إصلاحية في فلورنسا فوحى بها من قبل جيرولامو سافونازولا تم طرد أسرة مديتشي الحاكمة وإقامة جمهورية في (١٤٩٤) ظلت قائمة حتى هزيمة الميليشيا الوطنية التي أسسها ماكيافيللي عام (١٥٠٦) على يد القوات الإسبانية عام (١٥١٢) • وقد أثرت هذه الأحداث في كتابة ماكيافيللي • ففي خاتمة كتابه (الأمير) دعا ماكيافيللي إلى لبث القوات المرتزقة وخبث الوحدة الإيطالية وانتهاء التدخل الأجنبي •

Lexicon Universal Encyclopedia vil. 13.

راجع

أما فرانسيسكو جيوكارديني Guicciardini, Francesco (٦ مارس ١٤٨٣ - ٢٢ يونيو ١٥٤٠) فقد كان رجلاً دولة إيطاليا ، مؤرخاً ، ومفكراً سياسياً ينتمي إلى عصر النهضة .
Renaissance تعلم أدب الإغريق والرومان classics والقانون . كتب في ١٥٠٩ .
Ferdinand II of Aragon . في ١٥١٢ خدم في الجمهورية .
Leo X حاكماً لمودينا Modena في ١٥١٦ ثم حاكماً لولايات .
Reggio وبارما parma عام ١٥١٧ . في ١٥٢٤ عين حاكماً بابويا لرومانا .
Remagna . وبعد هزيمة الفرنسيين في معركة بافيا Pavia (١٥٢٥) ساعد .
Cognac ضد الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور .
Arcetri . هناك كتب تاريخ روما الملوك كشاهد عيان .
Ricordi ، وثق عمله ريكوردي ، قواعد سلوك Maxims من ١٤٩٤ - ١٥٢٤ .
Cynical (شك في طيبة الدوافع) وباعتباره كلبياً .
في السياسة ، والطبيعة الإنسانية .
في أخلاق واقعية أكثر من معاصره الأكبر نيكولو مكيافيللي ، فان جيوكارديني .
لقد لاقتارته للمثالية ونظراته المثالية للجنس البشري .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 9.

راجع

المترجم

(٢٨) الغائية Teleology هي دراسة الأشياء أو الأحداث من حيث أغراضها أو
هاياتها . ومن أزمنة قديمة ، ظن كثير من الفلاسفة والعلماء أن الأنشطة الطبيعية العديدة
والخلفة يمكن تفسيرها فقط من حيث الأغراض التي تحققها أو الأهداف التي تصل إليها .
وفي فيزياء Physics أريستوتل Aristotle قدمت أربعة أنواع من التفسير ، لكن
أهم هذه الأنواع كانت المتصلة بالأغراض (تيلوس telos باليونانية) ، أو الأهداف
النهائية ، أو التغير الطبيعي . وب تطبيق هذه الغائية (من الغاية) على الدنيا وأحوالها
بالتنسبة للإنسان فقد ظهرت مسألة وجود الله في جدل غامض انتهى إلى أن الأغراض التي
وجدت في الطبيعة احتاجت إلى مصمم ذي عزم ، أو الله .

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 19.

راجع

المترجم

Fitzsimons

(٢٩) فيتزسيمونز

"Historiography" p. 101.

ويقال أن التاريخ البريطاني الحديث قد بدأ لنفس الأسباب بالتفصيل حول نهاية
القرن السابع عشر .

J.R. Hale "The Evolution of British Historiography : From Bacon to
Namier

ج . آر . هيل

(Cleveland and New York : The World Publishing Co. Meridian Books,
1964), pp. 9-10.

(٤٠) من بين هؤلاء الذين استخدموا التاريخ ليحاولوا تشويه الادعاءات الدينية
المختلفة - إراسموس Erasmus ، ريتشارد سيمون Richard Simon ، بيريل
Pierre Bayle ، فولتير Voltaire ، ديوس Reuss ، فيلهارون Wellhausen الخ .

(٤١) القديس إيزيدور الأشبيلي Isidor of Seville, Saint (حوالي ٥٦٠ - ٦٤٦) ، كان رجل كنيسة إسبانيا ، وموسوعيا يعتبر عامة آخر آباء الكنيسة الغربيين . خلف أخاه الأكبر ليندر "Leander" عام ٦٠٠ كاسقف لأشبيلية ، ورأس (٦٢٣) المجمع القومى الرابع فى طليطلة (Toledo) . تلتحق إيزيدور بنفوذ عريض فى إسبانيا وقام بالتوحيد بين المسيحيين الأرثوذكس الرومان والقوط الآريين .

ويعتبر إيزيدور جامعا ومصنفا أكثر منه مفكرا أصيلا . وقد غطت كتاباته الموسوعية كل نواحي المعرفة فى زمانه واستخدمت ككتب دراسية بواسطة التلاميذ كمصادر للمؤلفين خلال العصور الوسطى . ويعتبر (Origins) Etymologiae أحسن أعماله المعروفة ، وهو خلاصة وإفية للمعرفة الكلاسيكية . كذلك فإن كتابه

Historia de Regibus Gothorum, Vandalorum et Suevorum (History of the Reigns of the Goths, Vandals, and suevi

من أهم كتب التاريخ فى عصره . وقد أكسبته كتاباته اللاهوتية والتوراتية مكانا بين دكاترة الكنيسة . ونظرا لما عرف عنه من الإحسان الى الفقراء ، فقد ضم الى قائمة القديسين فى ١٥٩٨ .

Lexicon Universal Encyclopedia vol. 11

راجع

المترجم

H.A.R. Gibb

(٤٢) عن المدائنى انظر

"Tarikh", Studies on the Civilization of Islam, p. 115.

(٤٣) قد يشعر جاليليو Galileo بأن لا شيء قد تغير كثيرا ، حيث يبحث فجأة فى الاتحاد السوفييتى ويشهد مبادرة ستالين الصليبية ضد « نظرية النسبية » على أساس أنها تتعارض مع المادية الجدلية dialectical materialism (نظرية تعتبر الأساس الفلسفى للماركسية وتقول بأن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات ، فالمجتمع الرأسمالى مثلا يحدث تقيضه antithesis ، البروليتاريا ، فتفنى هذه بدورها الى تقيضه) .

Milovan Djilas

عن هذا الموضوع انظر ميلوفان دجيلاس

"The Unperfect Society : Beyond the New Class".

ترجمة دوريان كوك Dorian Cooke

(New York : Harcourt, Brace and world, Inc., 1969), p. 69 ff.

(٤٤) باستثناء فترة فاصلة قصيرة شاذة فى التاريخ اللاتينى عندما لعب النشر دورا

أكثر أهمية .

Michael Grant

عن هذا الموضوع انظر مايكل جرانت

"The Ancient Historians"

(New York : Charles Scribner's sons, 1970), pp. 89, 115, 136-43, 184.

Marie Schulz

(٤٥) ماري شولتز

Die lehre von der historischen Methode beiden Geschichtschreibern des Mittelalters. Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte, no. 13. (Basel : Verlag für Recht and Gessellschaft A. G., 1909), pp. 86-97.

D. S. Margoliouth

(٤٦) د . س . مارجوليوث

"Lectures on Arabic Historians

(Calcutta : Calcutta University Press, 1930), p. 155.

(٤٧) انوفريد Venerable Bede مثقف انجليزى من أتباع القديس بنديكت
 . Bede - ولد حوالى ٦٧٢ وتوفى مايو ٧٣٥ . كان أعظم علماء عصره . كتب عن كل
 فرع المعرفة بما فى ذلك النحو والصرف ، القياس ، الإملاء ، التشبيه والاستعارة ، التاريخ
 . الحوليات ، اللاهوت ، والتاريخ . وألف ملخصا لأعمال الطبيعيين الرومان . ويعد
 Ecclesiastical History of the English People ٧٣١
 أهم أعماله ويعد مصدرا هاما للتاريخ الانجليزى المبكر . وقد تميز بيد كمؤرخ بنفاذ
 برونه وفدونه على الفهم والتحويل عليه . وقد منحه لقب Venerable من مجمع آخر فى
 ٨٦٣ وأصبح قديسا ودكتور كنيسة فى ١٨٩٩ .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 3.

راجع

المترجم

Rosenthal

(٤٨) روزنتال

"Muslim Historiography", pp. 176-85.

وفد تمزنت فى نفس الوقت القيمة الشعرية للتاريخ .

Bernard Lewis,

(٤٩) برنارد لويس

"History-Writing and National Revival in Turkey".

Middle Eastern affairs 4 (1953) : 219.

(٥٠) عمر الدسوقي « فى الأدب الحديث » - القاهرة - دار الفكر العربى ، ١٩٦٦ (

المجلد الأول - ١٣ .

H.A.R. Gibb

(٥١) هـ . أ . ر . جبب

"Studies in Contemporary Arabic Literature".

Bulletin of the School of Oriental and African Studies (1926-27).

منسمى فيما بعد BSOAS

(٥٢) جمال الدين الشيال "Historiography in Egypt". Historians of the

Middle East, pp. 417-18.

(٥٣) محمد عمارة « الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى » المجلد الأول : التمدن

والحضارة والعمران (بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣) ص ٩٨ .

(٥٤) ويكتشف فيروز كاظم زاده Firuz Kazemzadeh عن ظاهرة مماثلة تتصل

بالتأريخ الإيراني الحالى ، الذى يقول عنه انه أكثر دقة ويعول عليه من الكتابات الأقدم ،
 لكنه « كتيب وغير دقيق » ، وأنه فى بعض الأحيان يكون عبارة عن ترجمات تذكيرية من
 الدرجة الثانية من لغة أجنبية قد يكون بعض منها جيدا جدا فى الحقيقة .

راجع كاظم زاده

Kazemzade,

"Iranian Historiography" p. 434.

(٥٥) حسين فوزى النجار كاتب مقال مصرى معاصر موهوب ، كتب مقالات فى التاريخ

والمؤرخين والتاريخ فى دوريات مختلفة كما كتب ترجمة لأحمد لطفى السيد . وتميل آراؤه
 كثيرا الى اليسار ، لكنه يمتلك القدرة الاستراتيجية للتفكير العميق والأصالة . واسلوب

النجار نموذجى ودلائى indicative للنضوج الأدبى الكامل للمؤرخ المصرى .

(٥٦) توماس بابينجتون ماكيولاي Macaulay, Thomas Babington
(٢٥ أكتوبر ١٨٠٠ - ٢٨ ديسمبر ١٨٥٩) - مؤرخ انجليزى ، كاتب مقال ، ورجل دولة -
مؤسس مدرسة الهويج للتاريخ • صاحب دور كبير فى البرلمان الانجليزى منذ ١٨٣٠ فيما
يتعلق بالاصلاح والتسامح الدينى - شارك فى قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ ونادى بتوسيع حق
الانتخاب - خدم فى الهنديين ١٨٣٤ - ١٨٣٨ - كتب فى ١٨٤٣ Critical and Historical
Essays ، ثم كتب بعد ذلك تاريخه الشهير History of England from the
Accession of James the second

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 13.

راجع

المترجم

(٥٧) جون هيجم ، ليونارد كريجر وفيلكس جيلبرت
John Higham, Leonard Krieger and Felix Gilbert
المقدمة . (EngleWood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, Inc., 1965).

(٥٨) قارن الاقتباس من بترفيلد Butterfield فى بداية المقدمة •

(٥٩) فى هذا المقام فانه يمكن القول ان "Mirrors of Princes" فى شأن العصور
الوسطى الاسلامية ، والتي تهدف الى تعليم الدروس الاخلاقية العامة والسياسية ، كانت
أكثر حداثة عن التاريخ الماركسى فى القرن العشرين •

من Mirror: of Princes انظر جب Gibb, "Ta'rikh", p. 121.

الارث الاسلامي

في الفصل السابق وضع عدد من المعايير العامة للمفاضلة بين الاقتراب الحديث/والوسيط من الكتابة التاريخية . وستقدم هذه المعايير فيما بعد أحد المفاتيح لفهم كتابات القرن التاسع عشر . أما المفتاح الآخر فهو معنى التقليد الاسلامي الطبيعي للتاريخ ، وهو ما يركز عليه هذا الفصل . كان التقليد الاسلامي التاريخي - كما سنرى - تقليدا ثريا ، لم ينقرض تماما بالجبرتي - آخر ممثليه الانقياء - بل على العكس فقد استمر (التقليد الاسلامي التاريخي) في شكل خافت متزايد يؤثر في التاريخ المصري على مدى فترة كبيرة من القرن التاسع عشر . كان المصريون واعين كثيرا جدا بالانجازات الماضية في التاريخ الاسلامي وفي حالات كثيرة استخدموا كتابات العصور الوسطى كمصادر لأعمالهم . وقد اقتبسوا الكثير من المنهجية التي طبقوها من الحقب المبكرة ، لهذا فانه من الأساس أن يفهم كل من نقاط القوة والضعف في الارث الاسلامي .

كان الاسلام - من بين العقائد الثلاث التوحيدية ، اليهودية ، المسيحية ، والاسلام - هو الوحيد الذي بزغ في ضوء التاريخ الغامر . ولقد سبق اهتمام العرب بالتاريخ ظهور الديانة الجديدة ، كما ستري أي تحليلات للشعر الجاهلي أو قصص المعارك الشعبية مثل (أيام العرب) . لكن بصيرة الإنساق وأدراكهم للزمن التاريخي تزايدت حداثتها مع ظهور الاسلام ، وكان للديانة نفسها بداية تاريخية دقيقة مذهبة - هجرة محمد (عليه الصلاة والسلام) من مكة الى المدينة يوم الخميس ١٢ يوليو عام ٦٢٢ ميلادية (١) ؛ وقد ظهرت كلمة (تاريخ) على ورقة بردى مؤرخة عام ٢٢ للهجرة وبدأت الكتابة التاريخية الاسلامية بعد ذلك بوقت قصير (٢) ؛ ولا تزال أصولها الدقيقة غامضة ، لكنه طبقا لمصدر واحد على الأقل فإنها نتجت من (اندماج مجاز مختلفة من تكوين تاريخي وشبه تاريخي (٣) .

مع مضي القرون بنى العرب (وآخرون أيضا ممن يكتبون بالعربية)
كياض ضخما من الكتابة التاريخية العصور أوسطية فاق حجمها التخيل .

Wustenfled
Die Geschichtsschreiber der Araber und ihre Werke (Göttingen, 1882)

أن يفهرس ٥٩٠ مؤرخا عربيا خلال الألف الأولى بعد موت الرسول ، وربما
يكون كثيرون آخرون قد سقطوا من اهتمامه . وعندما أراد (الطبرى)
المعظم أن يملأ على تلاميذه تاريخا من ثلاثين ألف صفحة ، اعترض هؤلاء
بأن قراءته قد تأخذ عمرا بأكمله ، فوافق الطبرى بشفقة على انقاصه
إلى ثلاثة آلاف صفحة فقط (٤) .

ورغم أنه (الطبرى) من أصل فارسي فقد كان يكتب بالعربية ،
وفي الأزمنة المتأخرة الوسيطة بدأ الفرس والآثراك يسجلون تاريخهم
بنفسيهم ، وناقست انجازاتهم تواريخ العرب . ومع هذا فإن هذه
المنظورات كان لها أثر هامشي على التقاليد العربية في الأراضي الإسلامية
العربية .

ورغم الاسهامات العظيمة للمسلمين في مجال التاريخ ، فإن
الدراسات التاريخية الوسيطة سواء في الغرب المسيحي أو في الشرق
المسلم لم تستطع أن تحقق استقلالاً كاملاً باعتبارها أحد فروع الدراسة
العقائدية . وعلى سبيل المثال فإن التاريخ في الغرب خلال الفترة
الكارولينجية (٥) كان يعتبر مفيدا لدراسة قواعد اللغة ، ولم يعتبره أحد
ممن كتبوا التاريخ خلال العصور الوسطى مهمة أساسية في حياته (٦) .
وبالمثل فإن التاريخ في الشرق الإسلامي بدأ وظيفته الطويلة كرفيق
مساعد للدراسات الدينية . وطبقا للقرآن الكريم فإن حياة الرسول
(صلى الله عليه وسلم) كانت النموذج الذي يحتذى به المسلم التقى ، ووجه
الانتباه أساسا إلى أعمال محمد وعظاته للمؤمنين ، ونشاطاته الحربية
(المغازي) ، ونسب قريش (٧) . كان المدارس لهذه الأشياء
يعرف بأنه (عالم) ، ويمكن أن يكون متمكنا من العقيدة لكنه مع هذا
كان يعتبر مؤرخا في نفس الوقت . وكان الشكل الآخر للمؤرخ المسلم
المبكر هو المعقب القبلي (الاخبارى) الذي كان يذكر مآثر القبيلة ونسبها ،
ولذلك فإنه لم يكن معنيا بصفة خاصة بالتاريخ الديني (٨) .

لقد أعطى الارتباط الوثيق بين التاريخ والدين لكثير من التاريخ
الإسلامي الوسيط ما سبق لنا أن عرفناه بأنه « الغرض الإيماني الأخرى
"eschatological purpose" . وقد اعتبر « مؤرخون » أمثال ابن شهاب
الزهرى (المولود عام ٦٧١ م تقريبا) وعروة بن الزبير (المتوفى عام
٧١٢ - ١٣ تقريبا) أنفسهم أساسا قضاة وتقليديين ، لكنهم لم يعتبروا

أنفسهم مؤرخين إلا بصورة طارئة فقط (٩) . فقد كتب ابن هشام وابن اسحاق تراجم مفصلة (ومتعاطفة بالطبع ولكنها يعول عليها رغم ذلك) عن الرسول (عليه الصلاة والسلام) . ولم يكن مقصد الطبرى من كتابه (تاريخ الأنبياء والملوك) أن يكون دراسة تاريخية مستقلة بقدر ما كان مقصده أن يكون ملحقا لتعليقه على القرآن (١٠) . وكتابات (الطبقات) من التراجم التاريخية (والتي ستناقش فيما بعد) كتبت لأسباب دينية أكثر منها تاريخية ، ولذلك فإن قيمتها اليوم لنا محل سؤال (١١) . لقد اختلفت هذه الاتجاهات فى الأزمنة التالية ، لكن التاريخ بالنسبة للمسلم بدءا من المدائنى (المتوفى ٨٤٠) وحتى ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) لم يفصل نفسه أبدا عن الدور الدينى الخاص الذى دعيت أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) الى أن تلعبه (١٢) .

ولأن التاريخ لم يكن يعتبر - إلا فى النادر - جديرا بالدراسة المستقلة ، فإنه وقع فى شرك ميادين كثيرة الى جانب الدين . ومثل الغرب ، فإنه من المشكوك فيه أن يكون التاريخ قد اعتبر يوما ما مادة أساسية فى منهج الدراسة الإسلامية الوسيطة ، رغم أنه ربما يكون قد درس على المستوى الابتدائى كأحد أشكال « التدريب الأدبى » (١٣) . وفى كلمات أخرى ، فإن التاريخ كان ينظر إليه كمعلومات عامة أو أدب ، ولذا فقد حاز بنية متغايرة الخواص كلية . لقد ضمن اليعقوبى (المتوفى ٨٩٧) والمسعودى (المتوفى ٩٥٦) الكثير من المادة الجغرافية الخالصة فى « تاريخهما » (١٤) ، و « مروج الذهب » الشهير للمسعودى أبلغ دليل وأروع مثال للتصور الإسلامى الوسيط للتاريخ كمعلومات عامة . فهو يحوى الكثير مما لا يعد تاريخا حقيقة فى حد ذاته (أساطير ، حكايات ، أنساب ، دين ، أدب شعبى ، وأدب محض) (١٥) . ولقد ظل هذا الخليط حيا حتى القرن التاسع عشر .

كانت هناك سمة أخرى هامة فى التاريخ الإسلامى الوسيط وهى واحدة من الخصائص القليلة التى تفصله تماما عن التقليد الغربى الوسيط - هى التشديد المتزايد على الأشكال الأدبية المنمقة كالسجع وحتى الشعر أحيانا . لقد كان الشعر معتبرا الشكل غير المنازع par excellence من الفن العربى ، ومع أن التاريخ الإسلامى لم يستعمل الشعر للتعبير المباشر فى قرونه القليلة الأولى ، إلا أن الانفصال لم يكن كاملا أبدا . بل أن المؤرخين المسلمين المبكرين لم يكونوا على الإطلاق كارهين للاستشهاد من الشعر المألوف لتقوية وجهات نظرهم ، وفى العصر العباسى استخدم الشعراء فنهم كثيرا لتعليم الدروس التاريخية ، وأمثلةنا هنا عن أعمال أبو تمام والبجترى والمنتبى (١٦) .

أصبح استخدام الأشكال المنمقة بعد العصر العباسى أكثر الحاحا .

ويشعر جب Gibb أن انتصار الشعر كان نتيجة جزئية « للفرص المنقطعة النظر للبراعة الأدبية التي احتوتها اللغة العربية من خلال تنوع اشتقاقاتها » (١٧) . كذلك فإن عنصرا آخر كان بلا شك إعادة التأكيد من القرن السابع (الثامن ؟) على التقليد التاريخي الفارسي القديم ، الذي مال نحو الشعر المقفى الطنان المنمق . وربما كان « مرايا الأمراء The Mirrors of princes » مثلا ، مستمدا من النماذج الفارسية حيث صور الحاكم في صورة الرجل المثالي . وقد استخدم هذا النوع من التراجم بصفة عامة قدرا كبيرا من السجع الأمر الذي أدى الى تفسخها الى مديح فارغ (١٨) .

وطبقا لروزنتال Rosenthal فإن أول جالات من السجع في الكتابات التاريخية تعود الى أواخر القرن العاشر (١٩) . وحتى هذا التقدير قد يكون متحفظا للغاية ، ذلك أن السجع يمكن أن يوجد في كتابات المسعودي (المتوفى في ٩٥٦) . وقد أصبح مؤرخون متأخرون أمثال عماد الدين الأصفهاني (١١٢٥ - ١٢٠١) كاتب سيرة صلاح الدين ، والأندلسي الفتح بن خاقان (المتوفى حوالي ١١٤٠) من أشهر أصحاب أسلوب السجع . ففي وقتهم كان تضمين السجع في نقاط معينة قد أصبح ضرورة ، وعلى ما يبدو فإن ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٤) فقط كان قادرا على تجنبه .

ويحتمل أن يكون هذا السجع قد بلغ ذروة شعبيته حول وقت ابن الفرات (المتوفى ١٤٠٥) وابن أياس (المولود ١٤٤٨) (٢٠) .

ونظرا لأسلوب ابن الأثير الواضح غير المعقيد وتجنبه لأشكال السجع ، فإنه كثيرا ما يكون المؤرخ العربي الأول ، الذي يتوجه إليه اهتمام الدارس الغربي . وبصفة عامة فإن أساليب السجع يتم تجنبها باستثناء بالنسبة للطلبة الأكثر تقدما ، رغم أن التقاليد التي تحكم السجع بسيطة في الواقع كما سيتعلم بسرعة متعلم اللغة العربية . بل انه حتى بالنسبة للمؤرخين الذين لم يكونوا قادرين على الكتابة بلغة عربية كلاسيكية جيدة فإنهم لا يجدون صعوبة في التعامل مع فقرات السجع المطولة ، نظرا لأن المناسبات التي تحتاج لاستخدامها - كالعناوين ، والمقدمات ، والتأبين والمدح قد أصبحت مقننة ، وعندما سلكت الرواية التاريخية الواقعية طريقها ، فلم تكن هناك أي خطوط رئيسية رسمية تتبع ، وسرعان ما سقط السجع جانبا .

وهناك خصيصة ثالثة لكل من الكتابة التاريخية الإسلامية والغربية خلال الفترة الوسيطة - وهي ما سينجده في كتابات المصريين في القرن التاسع عشر - هذه الخصيصة كانت التأكيد على أن التاريخ الحولي Chronicle بطبيعته مبني على حقائق منقولة فقط أكثر منها مفهومة

تاريخيا . وتعود أصول هذا المدخل في العالم الاسلامى الى (الخبر) القبلى الذى كان يعتبر حدثا مستقلا وحيدا ، غير مشروح تسبيبيا ، ومنسلوخا تماما عن ما سبقه وما لحقه (٢١) ، ومع الوقت تطور الخبر الى التاريخ الحولى Chronicle ، وهو تقدم رسمى أكثر منه تصورى ، حيث أن المظهر الخارجى للحدث هو الذى كان يتعلق به ، ولقد ظل التاريخ الزمنى الاسلامى ماديا عاريا من أى محتوى فكرى . وما يسمى بأدب الطبقات عكس نفس المدخل وكان فى طبيعته تقنيا أكثر منه تراجميا (٢٢) . كان القصد فى (الطبقات) تسجيل المظاهر المحسوسة والمتصلة بالحقيقة لحياة الفرد ومهنته فقط . وفى النهاية ، فانه بالنسبة للمنهجية ، فإن منهج الاسناد الخارجى المحض للنقد النصى قد أقر بأحجام المؤرخ المسلم عن فحص المعنى ، بالمقابلة بالدقة التوصيلية للحقائق (٢٣) .

ومع هذا ، فإننا يجب أن نتذكر أن نحترس من المبالغة فى التمييز بين التاريخ والتاريخ الحولى Chronicle (٢٤) . فقد تفاوتت قيمة التواريخ الحولية الاسلامية بشكل كبير ، والمحاولات المتفرقة من أجل أسلوب كتابة أكثر دقة محسوسة فى الحقيقة . فقد ضمن البلاذرى (توفى ٨٩٢) - على سبيل المثال - فى كتاباته تقييمه الخاضع للأحداث (٢٥) . وحاول المسعودى أن يحدد الفصلة بين المرء وبيئته ، وتحرى أوجه الشبه بين دورات حياة النبات والنظم الانسانية (٢٦) . ويعتبر عمل الطبرى عادة قمة التقليد التدوينى التاريخى المبكر ، وحتى هنا فإن الأسلوب الرقيق اللطيف كان ضد المدخل التدوينى التاريخى الخالص ، وكان التقارب بين الروايات المتناقضة فى نفس سلسلة الأحداث إيحاء بالخث على إيجاد معنى ما فى السجل التاريخى (٢٧) . ولقد على مسكويه (توفى ١٠٣٠) أحيانا على التسبيب وقدم احسانا مدهشنا ودقيقا ومستقلا للتقييم فى تصويره للشخصيات القيادية (٢٨) . أما ابن خلدون فإن أقل ما يقال فيه أنه كان الاستثناء الشامخ السامق على كل التعيينات (٢٩) .

لم يكن التاريخ الاسلامى الوسيط خاليا من العناصر التفسيرية . فهناك بعض الكتابات المبكرة ذات الاعتبار الكبير ، والأعلى مقاما من التاريخ المملوكى والمضرى العثمانى التالى لها . وعلى الجانب الآخر ، فإن التقليد التاريخى الأقدم - والذى يغلب العمل العظيم للطبرى نموذجاً - لم يستطع أن يتخلص منه واستمر تأثيره على مدى الفترة الوسيطة . فالمسعودى ، على سبيل المثال ، والذى يعتبر عتد البعض صاحب ميل واضح تجاه « التاريخ التفسيرى » شعر بأن التاريخ مع ذلك يجب أن يكون (خبرا) أكثر منه (بحث أو نظرا) . واعتبر المسعودى نفسه - فيما يبدو (جامع) (٣٠) . ومثله كان ابن خلدون ، فانه لم يستطع أبدا أن

بحسب جهود (التاريخ الزمني) ، برغم نياته الثورية التي عبر عنها في
(مقدمته) ، وبصورة متوازنة ، فإن أي جهود في العصور الوسطى نحو
إشغال أكبر نظرية من الكتابة ظلت تجريبية بدرجة كبيرة وغير قياسية .
إن ديفيد روزنتال غليظ لكنه صحيح : « لقد سبق التاريخ الحديث
نصفه عامة أي شيء تم تحقيقه في حقل الكتابة التاريخية في الإسلام .
وهذا القابل الذي يمكن قوله عن التاريخ المسلم إذا المرء طبق عليه
مشروعاً كذا الذي قدمه (درويسين J. G. Droysen
في "Gurundriss der Historik" (٣١) .

فإذا ما انتقلنا الآن إلى الأشكال المختلفة التي استخدمها التاريخ
المسلم الوسيط ، فإن كل الأنماط التالية كانت مستخدمة .

(١) التاريخ الزمني Chronicle ولا نرى ضرورة لمناقشة أكثر
لهذا الشكل . والمثل الأفضل هنا هو كتاب الطبري « تاريخ الرسل
والأنبياء » (٣٢) .

(٢) التاريخ الموضوعي : Topical ورغم أنه مرتب وفقاً للبلد ،
الخلافة ، السلطان ، الخ ، فإن هذا الشكل - مع هذا - مثل بدقة
التاريخ الزمني Chronicle في إطار الوحدات (الموضوعية) Topical
نفسها . وأقد كان هذا محاولة بدائية لكنها كانت في النهاية غير ناجحة
لايجاد مبدأ تنظيمي بديل عن مبدأ التتابع الزمني وحده . وخير أمثلة
هي أعمال المسعودي واليعقوبي .

(٣) التاريخ العالمي : ورغم أن القصد هنا كان هو التعامل مع
تاريخ العالم منذ بدء الخليقة وحتى وقتنا هذا ، فإن المناطق غير المسلمة
لم تجرى تجاهلها (٣٣) . ومن الأمثلة الكثيرة لهذا التاريخ ، فإن كتاب
رشيد الدين ، تاريخي غزاني ، Tarikh-i Ghazani قد يعتبر أكثر الأعمال
انطباقاً على هذا الشكل من التاريخ المسلم .

(٤) التواريخ المحلية : كانت هذه التواريخ دائماً شعبية بالنظر
لأنها تنحدر مباشرة من التقليد العراقي (الأخباري) .

وخلال الفترة الوسيطة المتأخرة عندما انقطعت الاتصالات بين
الأجزاء المختلفة من العالم الإسلامي انتعشت التواريخ المحلية . والأمثلة
التي يمكن الاستشهاد بها عديدة للغاية ، لكنهم يأخذون أحد اتجاهات
ثلاثة أساسية :

(أ) علماني - ويشرح أخبار الحكام المحليين والمناطق ، كما يدل
المستطاع .

(ب) ديني . ويشتمل على معلومات عن نسخة الحديث وناقليه ،
والساعات الدينية ، والأماكن المقدسة .

(ج) أدب الخطط : وهو خليط من الطبوغرافيا والآثار القديمة ، ذو نسب أو حصص موسوعية (تحتوى التقسيمات الثانية والثالثة معلومات أكثر ليست فى طبيعتها تاريخية) .

(٥) التراجم : (أ) الطبقات ، وهى نمو كبير مباشر للاهتمام المبكر والمكثف بحياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والمثل الكلاسيكى . لهذا الشكل هو لابن سعد (المتوفى فى عام ٨٤٥) . أما الطبقات المتأخرة فقد اهتمت بالعلماء والأعيان المحليين ، المسائل الروحانية والصوفية ، أو الشعراء .

(ب) الأنساب القبلية والشريفية الخ .

(ج) التراجم للأشخاص مثل صلاح الدين ، بيبرس الخ ، ولقد كان هذا التنوع أقل اعتيادا عنه فى الأمثلة (أ) و (ب) .

(٦) التاريخ المعاصر : المذكرات والذكريات . وهذا النوع يتضمن فى المفهوم العريض مؤرخين أمثال المسعودى ، ابن الأثير والمقرئ (٣٤٦ - ١٤٤٢) . ولقد كان كل هؤلاء معاصرين لبعض الحوادث التى سجلوها . ولعل أدق شكل للمذكرات والذكريات هو ما قدمه كل من أسامة بن المنقذ ، الأمير عبد الله بن بلقين ، ابن تومارت ، القاضى الفاضل ، عبد الرحمن البيسانى ، ثم الجبرتى . وهو الأحدث .

لكن هذه التقسيمات ليست محصورة تماما ومحدودة ، فقد يأتى عمل تاريخى ما تحت أكثر من تقسيم منها (٣٥) .

ولقد جنحت الاشكال المبكرة من الكتابة التاريخية الى اقامة النمط للقرون التالية ، بل ان كثيرا من المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر شكلوا دراساتهم التاريخية وفق أساليب أسلافهم . ووفقا لروزنتال Rosenthal فان « الأشكال البدائية من التاريخ المسلم قد نمت فى تاريخ مبكر . ولم تعان هذه الأشكال أى تطور أبعد خلال مرحلة الكتابة التاريخية الاسلامية بصفة عامة . ولم تخلق أى أشكال جديدة ذات نتيجة ، باستثناء التواريخ الشعرية . لقد تشكل التطور فى الكتابة التاريخية الاسلامية من خليط من الأشكال التاريخية المختلفة ومن ادماج النظم - على الخصوص - التى لم تكن تاريخية بالقطع ، فى اطار التاريخ » (٣٦) .

هذا لا يعنى القول ان التاريخ الاسلامى لم يتغير فيما بعد ، أو أن تحولات هامة فى التأكيد لم تظهر . واذا نحن عدنا الآن الى الفترة الوسيطة المتأخرة ، فاننا نجد ان روزنتال قد أصدر حكما فى الموضوع بقوة كبيرة .

ومع قدم الآثار في القرنين العاشر والحادي عشر ، والمغول في القرن الثاني عشر ، فإن الوحدة اللغوية لقلب العالم الاسلامي بدأت في الانحسار . واعتنى الغزاة في النهاية الفارسية كواستطتهم الثقافية ؛ ومرت العربية كنتيجة تخصيصها للنفوذ الذي تتمتع به الدراسات الدينية . ولم تحتفظ اللغة العربية بكثير من اهميتها القديمة الا في مصر وسوريا الكبرى والجزيرة العربية . وقد لعبت مصر على وجه الخصوص دورا ثقافيا عربيا هاما نتيجة لهزيمة الظاهر بيبرس لجيوش هولاكو عام ١٢٦٠ . ومع توقف التقدم المغولي ، حاز المماليك السيطرة على أغلب المنطقة الواقعة بين النيل والفرات لمدة قرنين ونصف من الزمان . حتى عام ١٥١٧ عندما خضعت مصر للحكم العثماني المباشر . وسنناقش هنا التطورات التي اصابته التاريخ خلال الفترتين المملوكية والعثمانية .

تسجلت مصر المملوكية (حوالي ١٢٦٠ - ١٥١٧) قبل أي شيء غدا مدخلا من المؤرخين ، وكان أغلب المتألقين منهم خصبي الانشاج بصورة لا يصدق . فابن حجر العسقلاني (المولود في ١٣٧٢) مثلا ، كتب أكثر من ١٥٠ عملا (٣٧) . والسيوطي (المولود في ١٤٤٥) كتب أكثر وأكثر وربما كان أكثر الكتاب العرب انتاجا في الفترة كلها (٣٨) . ان المرء ليمعجب - عند استعراض الفترة بصفة عامة - عن أسباب هذا الارتفاع وهذه العزلة . وربما يعود السبب الى أن مركز مصر كحصن الدفاع الأخير لثقافة العربية في خضم البحر المغولي - التركي قد زاد من اهتمام مؤرخيها بالحوادث المعاصرة . وبالإضافة الى ذلك ، فإن طبيعة الحكومة المملوكية - الاقلية الفخيمة من مئات الأمراء ، القادة ، نواب القادة ، والولاة ، الخ - ربما تكون قد خلقت جواً مشابهاً لذلك الجو الذي ساد النهضة الايطالية ، والذي كان في استطاعة كل مؤرخ ناشئ فيه أن يجد راعيا ونصيرا . وأيا كانت الأسباب ، فإن حقيقة أن هذا القدر الغزير من الأدب التاريخي المملوكي قد وصلنا - يعكس شكاً خطيراً عن تأثير الغرض الاجتماعي الشاملة التي يتلقاها المرء من قراءة التواريخ الزمنية المملوكية . وربما كانت الحروب الحزبية المهلكة المستمرة خلال العصور المملوكية - مجرد ظاهرة خارجية لم تقلق الحياة الثقافية الأهلية (٣٩) .

حدثت تحولات عديدة هامة في أشكال التاريخ من حيث التأكيد . فقد استمرت كتابة التواريخ العالمية ، لكنها فقدت كثيرا من شعبيتها التي كانت لها في القرون المبكرة . أما التاريخ المحلي فقد أصبح أكثر شعبية نسبياً ، في داخل كل من مصر والأرض المجاورة كسوريا ، حيث ظهرت التواريخ المحلية أولا في القرن الثاني عشر . وكان موضوع النوايرخ السورية المحلية هو بلا تغير ، مدينة معينة مثل دمشق ، حلب

أو بيروت . وكانت التواريخ الحضرية وتواريخ المناطق تتطور أيضا حول ذلك الوقت في كل من الجزيرة العربية ، العراق ، اليمن ، فارس ، واسبانيا - وهنا أيضا كانت هذه التواريخ تتعلق بمدن معينة (٤٠) . فقط فان موضوع التواريخ المحلية في مصر لم يكن عن مدينة ولكن عن مصر نفسها - وهي ظاهرة تعكس التجزؤ المطبق في مناطق أخرى ، وعلى العكس - الاحساس المستمر القوى بالشخصية الاقليمية في مصر . وخلال هذه الفترة بدأ المؤرخون المصريون، المعزولون عن جيرانهم المسلمين بشكل لم يحدث من قبل ، يكتبون بثبات عن مصر فقط دون المجتمع الاسلامي كله . ولقد كان واضحا ان لهذا التطور مضامين هامة .

وقد تضمنت الأشكال التاريخية المملوكية الأخرى ، التراجم ، والطبقات . ووجد كل أمير أو قائد من ترجم له . وتركزت قصص المؤرخ هنا حول نضال الأمير مع أعداده ، مآثره القتالية ، ترقياته ، الخ (٤١) . ومن أشهر المجموعات البيوجرافية عن حياة القادة العسكريين (المصريين)، عمل العسقلاني « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » وعمل العيني « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » (٤٢) . أما شكل الطبقات فيمثل خير تمثيل عمل السيوطي « طبقات المفسرين » ، ومجمله عن عمل الذهبي « طبقات الحفاظ » .

وفيما خلا التحولات في الشعبية في الأشكال المختلفة للكتابة التاريخية ، فان الخاصية الرئيسية لأغلب التواريخ المملوكي أيا كان شكله - كانت الانشغال المغالى فيه باقتراب التاريخ الزمني Chronicle من التاريخ . وسواء أكان عملا معيناً مقصوداً به أن يكون تاريخاً زمنياً أم لا ، فان هذا لم يحدث اختلافا كبيرا : لقد أصبح دائماً واحداً - وبصفة عامة فان الشكل المتطرف كان تاريخاً زمنياً ليس أكثر من التاريخ الاسلامي . ولقد كان في النشاط المتصل للصراع الملكي والثورات ، التي شكلت مادة التاريخ المملوكي - مادة نموذجية للتاريخ الزمني ، وخضع المؤرخون المملوكيون تماماً أكثر من أي من أسلافهم لفكرة التطور العنصري المادي الخالص للحوادث . ويمكن اعتبار مجيء التاريخ المملوكي في الحقيقة نهاية الاتجاه البدائي النظري البادي في كتابات المسعودي ، البيروني ، مسكويه ، الخ . حتى الطبري ، الذي مثل قمة التفكير الحولي المبكر ، لم يتشبث بالأشكال الحولية بصلابة كما فعل مؤرخو مصر المملوكية .

وعلى ذلك ، فقد مثل التاريخ المملوكي تدهوراً في الفهم التاريخي . ولقد قاد الاقتراب الآلي من جانب مؤرخين كإبن إياس وإبن تغري بردي - كما هو حتمي أن يحدث - الى تاريخ مسجل وليس الى تاريخ مفهوم . وهذا بدوره قدم لنا مشكلة الاستخواذ على ثروة من المعلومات التاريخية

من مصر المملوكية دون أي فهم حقيقي لما كان عليه شكل الحياة فيها .
من عراءه التواريخ الزمنية المملوكية أو دراسة التنظيم السياسي والإداري
المملوكي هو الوقوف وجها لوجه أمام نظام من الحكومات يجب أن لا
- ولا يستطيع أن - يعمل . والواقع أن كتاب التاريخ الزمني المملوكيين
لم يعدوا شيئا على الإطلاق لتبديد هذا الغموض ، بنتيجة مؤداها أننا
لا نستطيع بإثبات أن نشرح كيف أن نظاما كهذا قد استطاع أن يعيش
أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وبسبب غزارة الكتابات التاريخية في العصور المملوكية ، وندرتها
في سبيلها خلال الفترة العثمانية المتأخرة ، فإنه كثيرا ما يفترض أن الفترة
العثمانية وليست السابقة - كانت واحدة من فترات التدهور الثقافي العام (٤٣) .
ومع أنه صحيح إلى حد ما - فإن هذا الادعاء مع هذا فيه مبالغة ، حيث
- التاريخ الزمني المملوكي نفسه كان نتاجا لانهايار في التقنية التاريخية .
وخلال العهد المملوكي بدأت اللغة التركية تغير بخطورة على اللغة العربية .
وقد كان الأمراء المماليك أنفسهم في الغالب من أقوام متكلمة بالتركية
من أمم الفوقاز والقرم ، وكان المؤرخ المصري مضطرا لتعلم التركية حتى
يمكنه أن يتخاطب مع ظهيره - وهذا أسهم في انهيار قدرته على استخدام
اللغة جيداً (٤٤) . ولقد كان اللجوء الشديد إلى السجع مجرد ميكانيزم
دفعي في بعض الأحيان ، ومع وقت ابن إياس كان الأسلوب العربي
التاريخي قد انحط إلى مستوى قريب جدا من العامية (٤٥) . من هنا
فإنه إذا كانت الفترة العثمانية تمثل تدهورا في المستويات التاريخية ،
فإنها على الأقل لم تكن بداية هذا التدهور .

لقد ساعد انعزال مصر عن مجاوراتها الإسلامية خلال العصور
الإسلامية - على اعتناقها اتجاهها كان دائما موجودا إلى حد ما : انشغال
خاص بالأمور المصرية ، دون الإسلامية . وهنا أيضا فإن مصر كانت نسيج
وحدها . ولا شيء في الماضي قبل الإسلامي السوري أو العراقي يعدل
مجدد الخلافة الإسلامية عندما تواجدت في هذه البلاد ، بينما كانت مصر
الإسلامية مجرد مقر خلافة مخففة كثيرا - وليس قاعدة لامبراطورية .
لقد كان الكثير من المجدد في الماضي المصري غير إسلامي (فرعونى
وهليني) : ومن المحتمل أن يكون الاحساس الأعظم عند المصريين
بشخصيتهم الإقليمية و « القومية » قد نبع من هنا . وكان (ابن ذولاق)
هو أول من عبر عن هذه المشاعر في (فضائل مصر وأخبارها) ،
واستمر المؤرخون التالون أمثال (المسيحي) و (ابن ميسر) في ممارسة
تقليد الكتابة خصيصا عن مصر ، وقد صنف رجال مثل محمد بن أسعد
الجواني (المتوفى في ١١٩٢) ومحيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر
(المتوفى في ١٢٩٣) أعمالا كمراجع عن التاريخ المصري ، والطبوغرافيا

والتراجم (٤٦) . وقد أصبحت الخطط الأدبية - على وجه الخصوص - شعبية بافراط فى مصر ، ومكنت المؤرخ من أن يفهرس بعناية شغوفة كل مسجد ، نافورة ، شارع ، وميدان فى المدن المصرية الكبرى (٤٧) . وأفضل مثل معروف للخطط كتب فى الواقع خلال العصور المملوكية بمعرفة (تقى الدين المقرئى) . وهو عمل موسوعى يبدأ بمقدمة طويلة عن التاريخ المصرى والجغرافيا ثم ينتقل بعد ذلك الى توصيفات ثرية مفصلة عن الاسكندرية ، القاهرة ، والفسطاط (مصر القديمة) (٤٨) . وخلال القرن التاسع عشر قام عمل المقرئى بدور الموجى لخطط مصرية مصورة أخرى ستناقش فى فصل آخر (٤٩) .

ومنذ منتصف القرن الثالث عشر الى بداية القرن السادس عشر لعبت مصر على الأقل ثلاثة أدوار تاريخية هامة :

١ - كحارس للخلافة .

٢ - كمدافع عن دار الاسلام ضد المغول والصليبيين .

٣ - كحافظ للتقليد الثقافى العربى الاسلامى . ومع هذا فانه مع الفتح العثمانى فى ١٥١٧ ، فان أغلب هذا بلغ نهايته ، وأصبحت مصر مجرد ولاية أخرى فى الامبراطورية العثمانية مترامية الأطراف (٥٠) .

ولابد أن الفتح العثمانى كان له بعض التأثير على الحياة المصرية والثقافة ، حيث أصبحت اللغة التركية هى لغة الحكومة الرسمية . ولم يقيم الحكام العثمانيون فى ممتلكاتهم مثلما كان المماليك ، فقد كانوا يعينون لمدد لا تتجاوز سنة ، وعادة ما كانوا يرسلون عادة الى أجزاء أخرى من الامبراطورية (٥١) . وهناك شك كبير فى أن يكونوا قد فهموا العربية ، وإذا كانت عملية تثريك مصر لم تتعظم بعد عام ١٥١٧ ، فمن المؤكد أنها لم تتناقص . ورغم أن الوسط الثقافى المحلى بقى عربيا ، واستمر الأزهر واحدا من أكبر المراكز للتعليم الاسلامى ، فان الآثار الثقافية لقرنين ونصف من الحكم التركى المملوكى ثم ثلاثة قرون بعد ذلك من الحكم التركى - لابد أنها كانت عظيمة . يؤكد هذه الحقيقة ذلك العدد المتزايد من المصطلحات التركية التى وجدت طريقها فى التواريخ الزمنية المملوكية والتركو - مصرية منذ البداية وانتهاء بالجبرقى ، والتدهور المتواصل فى مستوى التفوق فى اللغة العربية .

ولسوء الحظ فاننا لا نستطيع سوى أن نتأمل فى هذا كله ، حيث ان القليل هو الذى يعرف عن هذه القرون الثلاثة . ومثلما كانت مصر المملوكية غزيرة فى المصادر الثرية المفصلة ، فان مصر العثمانية تقدم صورة التبدد والضياع للسجلات التاريخية التى يصعب شرحها . وربما

كان هذا راجعا الى أن شيئا ذا أهمية لم يحدث (٥٢) أو الى أن بعض السجلات المكتوبة القيمة قد أتلقت خلال الصراع العثماني - المملوكي المستمر ، وأن البعض الآخر قد نقل الى أماكن نائية . كذلك فإن من المحتمل أن الباقي قد جرى اغفال الاهتمام به من جانب المثقفين ولعل هذا الاغفال يعود بدوره الى الاهتمام القوي للغاية بمصر القرن التاسع عشر من الناحية الثقافية ، والى التشجيع بهذا الاهتمام من جانب الملك فؤاد الأول الذي كان مستعدا للمعاونة ودعم الأبحاث المتعلقة بالأسرة الملكية (٥٣) . ورغم وجاهة هذه الافتراضات ، فإن لغز غموض الفترة العثمانية قد يكمن ببساطة في عدم قدرة أى مركز سياسى أو ثقافى على المواظبة على حماسه ، بمجرد أن أصبحت (مصر) مجرد ولاية نائية في امبراطورية يقع مركز جاذبيتها في مكان آخر .

ولما كانت الثقافة التاريخية في انحدار بالفعل قبل قدوم العثمانيين، ولما كان العثمانيون أنفسهم قد عانوا فترة من الانحدار الثقافي في القرون المتأخرة ، فانه لم يكن متوقعا منهم والحال كذلك أن يكبحوا نشاطا مماثلا في مصر (٥٤) . وبالإضافة الى ذلك فإن الآلية التوينبية للتحدى والاستجابة (٥٥) لا يمكنها أن تعمل في مجال فتح عثمانى لمصر . لقد انجرف العثمانيون في ذلك الوقت في الصراع ضد الشيعة ، وهكذا فانه في مصر ، المعقل التقليدى للإسلام السنن العربى ، لم يكن من الممكن أن يوجد محل لتحذ عثمانى . ولم يكن عند المصرى أى سبب ليشعر ثقافيا انه أخط من العثماني التركي أو ليعيد التحقق من ارثه الخاص . وعلى العكس ، فإن الاهتمام العثماني بمسائل التقوى والتخلص من الهرطقة قد دعم التوجه الدينى القائم فى الثقافة المصرية على حساب الاهتمامات الأكثر عالمية . ويظهر التزايد من شعبية التصوف بين العلماء المصريين أن التأثير الثقافى العثمانى قد ظهر - وعلى وجه التحديد فى المنطقة حيث نتوقع أن نجده (٥٦) .

أثر دعم ، أو تجميد النزعات الثقافية القائمة ، الى جانب التقليل من قيمة وسيط التعبير (العربية) - أثر هذا على كل مظاهر المساعى المصرية الأدبية . وعانت الدراسات التاريخية انخفاضا عظيما فى الكم - وفى أحسن الأحوال كان الموجود استمرارا للمستويات المملوكية فى الكيف . وظهر الى الوجود نوعان متميزان من الكتابة التاريخية العثمانية - المصرية :

١ - التاريخ الزمنى الأدبى : ويتميز بأسلوب رخيص غير نحوى ، لكنه مكتوب بواسطة رجال عندهم بعض الطموح نحو التعليم الرسمى الأدبى ، وأغلبهم فى الحقيقة من العلماء - ويشير الى هذا النوع من التاريخ

عادة « بحوليات السلاطين - والباشوات » نظرا لان الاطار التنظيمى كان يتطابق مع العهد . وتتضمن الأمثلة لهذا النوع من التواريخ أعمال كل من أحمد شلبنى عبد الغنى ، والاسحاقى ، وابن أبى السرور (٥٧) .

٢ - التاريخ الشعبى : ويشار اليه أيضا « بمدرسة الأجناد » . ويتميز هذا النوع من التواريخ بالأسلوب العامى ، والنحو الضعيف ، والخطب والصيغ المقولبة (كليشية) الخ . وقد كتب هذا النوع من التواريخ بمعرفة رجال ذوى ثقافة محدودة أو معدومة - أغلبهم جنود - لأسباب تتعلق جزئيا بالتسلية والترويح . ولقد كان اطار « السلاطين - والباشوات » من التاريخ الزمنى الأدبى موجودا ولكن دون التركيز عليه حقيقة . وتميز التاريخ الشعبى بأن الأشخاص ودوافع أعمالهم كانت محددة بوضوح أكثر من التاريخ الزمنى الأدبى . ويمثل هذا التاريخ كلا من أحمد النمرdash وابن زنبيل الرمال (٥٨) .

ولكى نقدم فكرة أفضل عن بناء ما يسمى بالتاريخ الزمنى الأدبى ، فاليك هذين المثالين :

(أ) . كان كوجك على - عضوا فى الحزب الفقارى المملوكى الذى كان منضمنا الى الحاكم العثمانى محمد باشا فى الحملة ضد حاكم جرجا الفقارى اللثائر محمد بك فى جمادى الثانى سنة ١٠٦٩ / فبراير - مارس ١٦٥٩ . وكان كوجك على هذا أحد العظماء الرئيسيين الذين تورطوا فى الثورة الكبرى الفقارية (صفر ١٠٧١ / أكتوبر ١٦٦٠) . ورغم أنه كان فى ذلك الوقت حاكما للمياط الا أنه كان يقيم فى القاهرة وتجاهل أمر الباشا بأن يعود الى قيادته . وعندما تفرق شمل قادة الفقارية أمام قوات الباشا ، اتجه كوجك على وحسن بك ولاجين بك الى البحيرة . وهناك استسلم هو ورفاقه تحت شرط أمان ، لكنه أعدم فى الطرانة بأمر أحمد بك فى ليلة ٢٣ صفر ١٠٧١ / ٢٧ - ٢٨ أكتوبر ١٦٦٠ .

(ب) نظرا لثروة قنصوه بك أمير الحج - فقد عين بناء على اقتراح محمد باشا كحاكم عام لليمن ، التى كانت تنزلق من السيطرة العثمانية : فى بواكير جمادى الأولى ١٠٣٨ / أواخر ديسمبر ١٢٦٨ . وكان فى نفس الوقت معينا حاكما عاما للحبش (٥٩) ، التى عين محمد بك كقائمقام له فيها . قاد قنصوه بك قوة مؤلفة جزئيا من قوات مرسلة من قبل السلطان ، وتحرك بها فى محرم ١٠٣٩ / أغسطس - سبتمبر ١٦٢٩ . وقد فشلت الحملة ووجدت بعض من القوات التى صاحبت قنصوه فى مكة بواسطة الحملة التى صاحبت قاسم بك فى ١٠٤١ / ١٦٣١ - ٣٢ (٦٠) .

نستطيع أن نلمس اذا ان التاريخ الزمنى العثمانى - المصرى كان لا يكشف تاريخيا أكثر من ذلك التاريخ الزمنى المملوكى السالف ، وربما

كان أقل منه فى الحقيقة • ومن هذه السجلات فان هيكى التاريخ ، أو كمال قال كروس Croce (٦١) (جنة التاريخ) تظهر •

وقليل هو الذى نعرفه عن المدرسة الشعبية - أو مدرسة الأجناد • وعلى سبيل المثال فان أعمال ابن زنبى الرمال ، على الشاذلى ، أحمد الدمرداش ، وإبراهيم مصطفى لم تنشر أو تحقق أو تستخدم حتى الآن للبحوث (٦٢) • وفائدتهم للطلاب لا زالت محل تساؤل ، حيث انهم يركزون بقدر كبير على نفس الموضوعات التى تركز عليها التواريخ الزمنية الأدبية • وأحيانا ما يجد المرء فى هذه الأعمال معلومات تفصيلية عن الصراعات الحزبية ، معانى المصطلحات المختلفة العسكرية ، الادارية ، والمالية ، تقلب الأسعار الخ • لكن مثل هذه المادة متوفرة بأكثر من اللازم فى التواريخ الزمنية الأدبية عادة • أيضا فان مصداقية المعلومات الاضافية هذه محل تساؤل (٦٣) •

وطبقا لما نعرفه الآن ، فان التاريخ العثمانى - المصرى يمثل الدرك الأسفل من تقليد طويل ومجيد أحيانا من التقليد التاريخى • لقد تدهورت بنية التاريخ الزمنى فى الأزمنة العثمانية أكثر من بنيتها المملوكية البالية بالفعل ، وتناقص تدريجيا بطريقة مسرحية ذلك الكم المطلق من الكتابة التاريخية • أصبح الأسلوب التاريخى خليطا من الكرونولوجيا الجافة العارية والتقليد السجعى الفارغ • بل ان القسرة على استخدام السجع نفسه تدهورت ، وإن المرء ليشك فى أن المؤرخين قد استعاروا فقرات بكرا كاملة من الكتاب المبكرين • ومع زمن الجبرتى لم يكن هناك سوى عدد قليل من العلماء الذين نذروا أنفسهم للدراسات التاريخية أو حتى الأدبية بصورة جادة (٦٤) • قد يزود التاريخ والأدب الانسان أحيانا ببعض الحكايات المسلية القليلة ، لكن هذه الحكايات لم تكن أبدا شعبية أو محترمة (٥٦) • وانحرف منهج الدراسة الأزهرى - مثل نظيره فى مدرسة القصر باستانبول - بشدة نحو الميدانين التوأمين (النظريات الدينية) و (فقه اللغة) (٦٦) •

حواشي الفصل الثاني

- (١) جوليان أوبرمان Julian Obermann .
 "Early Islam." (The Idea of History in the Ancient Near East)
 New Haven and London : Yale University Press, 1955), pp. 239, 242-43.
- (٢) السيد عبد العزيز سالم « التاريخ والمؤرخون العرب » (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - ١٩٦٧) ص ١٩ ، ٤٢ .
- (٣) جب Gibb
 "Tarikh", p. 108.
- (٤) مارجوليوث Margoliouth
 "Arabic Historians", p. 1.
- (٥) الكارولنجيون أسرة من الفرنجة الذين استقروا في القرن الرابع على طول نهر الراين قرب كولونييا Ripuarian Franks والذين استمدوا اسمهم من شارل مارتل Charles Martel جد شارلمان Charlemagne . كانت هذه الأسرة أهم سلالة حاكمة في أوروبا العصور الوسطى المبكرة . وتعود أصولهم الى اتحاد أسرة أرنولف Arnulf أسقف متز Metz مع أسرة بينن Pepin في لاندن Landen (توفي حوالي ٦٤٠) العمدة الوراثي لقصر اوستراسيا Austrasia في بواكير القرن السابع - كان الكارولنجيون كعمد للقصر المذكور الحكام الحقيقيين للأقاليم الفرنجية التي آلت للميروفنجيين . وقد فشلت محاولة للاستيلاء على الملكية في منتصف القرن السابع ، لكن بينن Pepin المتوفى في ٧١٤ وابنه غير الشرعي شارل مارتل Charles Martel المتوفى في ٧٤٢ تمكنا من المحافظة على أملاك الأسرة . عزل بينن القصير Pepin the Short آخر ملوك الميروفنجيين شيلدريك الثالث Childeric III ، وبمعاونة بابوية أصبح ملكا للفرنجة عام ٧٥١ . كان لبينن ولدان (كارلومان Carloman) و (شارلمان Charlemagne) اللذان خلفاه معا في ٧٦٨ . وقد مات الأول في ٧٧١ تاركا شارلمان مسيطرا على المملكة بأكملها . ثم ضاعف من حجم المملكة وحصل على القاب ملك اللومبارديين (٧٧٤) ولإمبراطور (٨٠٠) . ورث ابن شارلمان الوحيد لويس الأول Louis I (٨١٤) أملاكه والقاب ومشاكله أيضا - عزوات الفايكنج ، غارات المسلمين ، والتبلاء الطامعين . وقد ساء الموقف لوجود ثلاثة ورثة له (لوثير الأول Lothair I) و (لويس الألماني Louis the German) و (شارل الثاني Charles the Bald) . وعندما توفي لويس عام ٨٤٠ استمرت الحروب الأهلية التي كانت قد بدأت خلال عهده ، وفتج عن ذلك انقسام الإمبراطورية الى ثلاث ملكيات وفقا لمعاهدة فردون Verdun عام ٨٤٣ . ثم أعيد تقسيم هذه الملكيات وفقا لمعاهدة مرسين Mersen عام ٨٧٠ . وبعد اضطرابات . انتهى عهد الكارولنجيين عام ٩٨٧ في فرنسا وعام ٩١١ في ألمانيا .
- المترجم

- Fitzsimons (٦) فيتزسيمولس
 "Historiography", pp. 30-31, 49.
- (٧) سالم « المؤرخون العرب » ص ٢٦ - ٢٧
- A.A. Duri (٨) ١٠١ • دورى
 "The Iraq School of History to the Ninth Century — a sketch"
 Historians of the Middle East, p. 46.
- Duri (٩) عن الزهرى انظر دورى
 'Al-Zuhri : A study on the Beginnings of History Writing
 in Islam," BSOAS 19 (1957).
- وسالم « المؤرخون العرب » ص ٥٩ - ٦٠ •
- وعن ابن الزبير انظر أيضا مقالة دورى Duri المشار اليها هنا عن الزهرى ص ١ •
- Gibb (١٢) جب
 "Tarikh", p. 118.
- Rosenthal (١١) روزنتال
 "Muslim Historiography", pp. 94-95.
- Gibb (١٢)
 "Tarikh", p. 115
- George M. Haddad وجورج م • حداد
 "Modern Arab Historians and World History".
 The Moslem World 51 (1961), 38.
- وقد نلاحظ أيضا في هذا المقام ان الصليبيين - وهم عائق مؤقت دخیل للتطور التاريخي الاسلامي - لم يسببوا أكثر من موجة خفيفة في تاريخ الفترة •
- Bernard Lewis انظر برنارد لويس
 "The Muslim Discovery of Europe "BSOAS 20 (1957) :
 441, 415-16.
- Rosenthal (١٣) روزنتال
 "Muslim Historiography, pp. 45-46.
- Gibb (١٤) جب
 "Tarikh", p. 118.
- وبالطبع فان المعلومات الجغرافية يمكن ان تكون حيوية للفهم التاريخي ، ولكنها في هذه الحالات قد أدرجت كمجرد عنصر حيوي اضافي للعمل الأدبي العام •
- Ilse Lichtenstadter (١٥) ايلس ليختنشتاتر
 'Arabic and Islamic Historiography," The Moslem World 53 (1945) :
 133.
- Rosenthal قارن روزنتال
 Muslim Historiography, p 99.
- Margoliouth (١٦) مارجوليوث
 "Arabic Historians", pp. 59-81.

(١٧) هـ ١٠٠ ر . جب H.A.R. Gibb طبعة ثانية - منقحة "Arabic Literature"
(Oxford : At the Clrandon Press, 1963), p. 9.

ومن إحدى السقطات التي لا يمكن استدراكها في هذه المجادلة هي ان التاريخ المتأخر
الفارسي والتركي قد عانيا كثيرا نفس التطور كالتاريخ العربي ، ويفترض بدون ميزة توافر
« ثروة من المصادقات » « التميز الرقيق في المعنى » الخ التي يعزوها جب الى اللغة العربية .

G. Richter (١٨) ج . ريختر
"Medival Arabic Hlstorygraphy," Islamic Culture 34 (1160) :
149-50.

Gibb قارن جب
"Tarikh", pp. 130-33.

Rosenthal (١٩) روزنتال
"Muslim Historiography", p. 177.

(٢٠) المعلومة أخذت من سالم « المؤرخون العرب » ص ٧٥ - ٨٢ .

Rosenthal (٢١) روزنتال
"Muslim Historiography", pp. 69-70.

Gibb. (٢٢) جب
"Tarikh", p. 122.

Franz Rosenthal (٢٣) فرانز روزنتال
The Technique and Approach of Muslim Scholarship,
Analecta Orientalia., no. 24 (Rome : Ponificum Institutum Biblicum,
1947), p. 34.

ويرى عبد الله لاروي Abdallah Laroui أن استمرار شكل (الخبر) ومنهج
الاسناد في النقد التاريخي إنما يعود الى الأهمية التي أولاها الاسلام (للبيئة) سواء أكانت
(خبراً) أم (اسناداً) أو (القرآن) نفسه في المقام الأول .

Laroui انظر لاروي
"The Crisis of the Arab Intellectual,"

Diamond Cammel ترجمة دياموند كاميل
(Berkeley, Los Angeles and Toronto : University of California Press,
1974,) pp. 16-17.

وفي الحقيقة فإن مؤرخي العصور الوسطى الغربيين لم يكونوا أكثر نجاحاً من نظرائهم
المسلمين في البروز في الحدود المعرفية للتاريخ الزمني . عن هذا الموضوع انظر .

Schultz شولتز

"Die Geschichtschreiber des Mittelalters," pp. 98-107.

"Historiography", pp. 19-20, 23, 31-32, 42, 51, 63, 75, وفيتزسيمونس
79, 82-83.

(٢٤) قارن في ذلك ما جاء عن التاريخ History والتاريخ الزمني Chronicle
في الفصل الأول .

(٢٥) سالم « المؤرخون العرب » ص ١١٦ .

Muhsin Mahdi (٢٦) محسن مهدي
Ibn Khaldun's Philosophy of History" (Chicago : University of Chicago
press, Phoenix Books, 1964), p. 137.

وقد ركز طريف خالدي Tarif Khalidi في رسالته للدكتوراه التي أصبحت كتابا حاليا ، على (عصرية) المسعودي ، بما في ذلك استخدامه المتكرر للنقد الباطني التاريخي .
انظر خالدي Khalidi

"Ma'sudi's Theory and practice of History"

(Ph. D. dissertation, University of Chicago, 1970).

(٢٧) سوف نواجه نفس التقنيات فيما بعد في عمل مجموعة أسميتها المؤرخين
الزمينيين المحدثين neo-Chroniclers

انظر ص ١٣٤ - ١٤٣ من الفصل السابع .

(٢٨) مارجوليوث Margoloth "Arabic Historians" p. 130 ff.

(٢٩) تعتبر دراسة محسن مهدي عن ابن خلدون من أعمق الدراسات وأكثرها تفصيلا ،
وهي تلك التي استشهدنا بها في الصفحات السابقة . وتعد دراسة أنور شيجنه
Anwar Chejne عن ابن خلدون The Concept of History in the Modern Arab
World." Studies in Islam 4 (1967).

أفضل شرح تفسيري مختصر عن نظريات ابن خلدون ، وعرض واضح لأهميته - انظر
صفحات ١٢ - ١٧ من هذه الدراسة .

Rosenthal

(٣٠) روزنتال

"Muslim Historiography", p. 42.

Ibid., p. 197.

(٣١)

(٣٢) سيلاحظ القارئ غياب السجع في العنوان .

(٣٣) قارن الحاشية ١٢ من حواشي هذا الفصل .

(٣٤) يعتبر أحد المراقبين عمل (رشيد الدين) أول تاريخ عالمي اسلامي .

John Andrew Boyle

انظر جون اندروبول

"Rashid al-Din : The First World Historian"

Islamic Culture 44 (1970), 17.

(٣٥) اختلف المثقفون على كيفية ترتيب الكتابات التاريخية الاسلامية - وفقا للمادة
المقدمة - البنية الداخلية - الفترة الزمنية المغطاة ، الخ . وهذا التقسيم مؤسس على مقارنة
أعمال كل من جب ، سالم ، وروزنتال .

Rosenthal

(٣٦) روزنتال

Muslim Historiography, p. 99.

ومن ملاحظة د اندماج النظم التي لم تكن تاريخية على نحو تام ، في اطار التاريخ ،
فقد رأينا ان هذا كان أيضا خاصية للكتابات التاريخية الاسلامية المبكرة . وإشارة روزنتال
الى « الاستثناء الهام للغاية للتاريخ الشعري » هي أيضا شامضة بعض الشيء . وربما
كان لا يعنى شيئا مثل ترجمة (ابن عبد الظاهر) عن (بيبرس) ، حيث ان قليلا من
المؤرخين المسلمين قد اتبعوا هذا النموذج . وربما يكون من المرجح ان ووزنتال كان يشير
الى استخدام السجع ، رغم ان هذا ليس شعرا ، ولكنه نثر ، وفي النهاية ، فالتأثير قد نلاحظ
انه رغم ما قد تكون عليه أشكال التاريخ الاسلامي من جمود ، فإن التاريخ الغربي الوسيط
لم يخترع أي أشكال جديدة حقيقية بالمرة . ومن المشكوك فيه ان يكون ماكيافيلي
Machiavelli أو فون رانكه Von Ranke قد استطاعا ان يأتيا بأي أشكال جديدة ،
على الأقل بالمعنى الذي نستخدمه للمصطلح .

C. Van Arendonk

(٣٧) سي . فان أريندونك

"Ibn Hadjar al 'Askalani, The Encyclopedia of Islam (Leiden : E. J. Brill, Ltd., 1913), II, 380.

وسيرمز بـ EI (1965), EI (1913) الى طبعتي 1965, 1913 من
Encyclopedia of Islam

Brokelman

(٣٨) بروكلمان

"Al-suyuti" EI (1913) IV, 573.

(٣٩) يحار المثقفون والمفكرون الحداثيون حول كيف تحمل المصريون حكم مثل هذه الزمرة العنصرية الأجنبية المملوكية كل هذا التحمل . ان يكون المالك طبقة منفصلة فهذا ما لا يمكن انكاره ، لكن مع هذا فقد كان هناك بعض الميزات المؤكدة للمصريين من هذا الترتيب . فعلى سبيل المثال ، كان المصريون معافين من الخدمة العسكرية الصارمة تحت الحكم المملوكي ، ويحتمل أنهم كانوا غير مباينين بصراعات المالك وقتالهم بصفة عامة . وأحس المصريون بحكمة ان هذه الحكومة تحكم بأحسن ما تستطيعه ، وقد قاوموا بصلابة الجهود التي بذلها محمد علي في القرن التاسع عشر لازالة الاحتكار التركي التمييزي - والمريح مع هذا - للحرب . وقد واجه السلاطين العثمانيون ، وأحمد باي تونس وحكام مسلمون آخرون في القرن التاسع عشر حركات مقاومة مماثلة .

Rosenthal

(٤٠) روزنتال

"Muslim Historiography", pp. 150-72.

David Ayalon

(٤١) دافيد آيلون

"Studies on the Structure of the Mamluk Army-I",

BSOAS 15 (1953) : 205, 210, 212, 214.

(٤٢) ويمكن ان تحسب هذه الأعمال كادب طبقات أيضا ، وهذه دلالة أخرى على مدى التفكك والرخاوة التي يجب ان تفسر بها هذه التصنيفات .

(٤٣) محمد أنيس « مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني » (القاهرة - دار

الجيل للطباعة ، ١٩٦٢) ص ١١ .

(٤٤) وعلى سبيل المثال ، فحتي العيني كتب بعض أعماله التاريخية بالتركية .

Marcais, "Al Aini," EI (1913) I, 213.

ونستطيع ان نحزر أكثر بأن التدهور في قدرة المؤرخ على استخدام لغته جيدا قد يقود الى تبسيط محتوى التاريخ الزمني ، مبعدا بذلك التاريخ عن المدخل التحليلي ، المفاهيمي للقرون المبكرة .

(٤٥) الدسوقي « في الادب الحديث » الجزء الأول - ١٣ .

Rosenthal

(٤٦) روزنتال

"Muslim Historiography", pp. 154-56.

Gibb

(٤٧) جب

"Tarikh", p. 125.

Brockelmann

(٤٨) بروكلمان

"Al-Makrizi", EI, (1913), III, 175.

(٤٩) انظر الفصل السادس

Stanford J. Shaw

(٥٠) ستانفورد ج شو

"The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798 (Princeton, Princeton University Press, 1962), p. 1.

Ibid.

(٥١)

(٥٢) هذا هو رأى البروفيسور هولت Holt ، وهو رأى يبدو لي بعيد الاحتمال

P. M. Holt

انظر ب . م . هولت

"The Beylicate in Ottoman Egypt during the 17th Century." BSOAS 24 (1961) : 214.

(٥٣) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٨ - ١١ ، قارن مقالته « مؤرخ مجهول

سبق الجبرتى » - الهلال - رقم ٧ (١٩٦٤) ص ٢٥ .

Richard N. Verdery

(٥٤) ريتشارد فردرى

"Abd al-Rahman al-Jabarti as a source for Muhammad Ali's Early Years in Egypt (1801-1821)" (Ph. D. dissertation, Princeton University, 1967, p. 5.

ان كلمات مثل تدهور "decline" عرضة بالطبع لاستعمال خاطئ كثير . وقد يكون مصطلح « الثبات » الثقافى افضل بالمقابلة بفترة من الاحياء والابتداع . والتدهور التاريخى يكون فى اغلب الحالات جليا عند التأمل واستعادة الأحداث ، وقد يكون الانطباع الشخصى مثل « الأيام القديمة الحلوة » أو « العصر الذهبى » خياليا كما هو حقيقى . وبالإضافة الى ذلك فان المراقبين المعاصرين لفترة من التدهور قد يجدون أوقاتا أسعد بل وأكثر اشباعا للثقافة من المقابل فى عهد من القلق الممزق . وعلى العكس فان هؤلاء الذين يقاسون النهضة والاحياء قد يرونها (النهضة) مجرد مدمرة لقيم أساسية معينة .

(٥٥) آرنولد جوزيف توينبى Arnold Joseph Toynbee (١٤ أبريل

١٨٨٩ - ٢٢ أكتوبر ١٩٧٥) مؤرخ بريطانى وفيلسوف ، بحث فى انباط نمو وتآكل المدن . كان خلال الفترة ١٩٢٥ - ١٩٥٥ مديرا للدراسات فى المعهد الملكى للشئون الدولية - وأستاذا باحثا فى التاريخ العالمى بجامعة لندن .

فى دراسته البارزة (12 Vols., 1934-61) "Study of History" وهى افضل

أعماله قرر توينبى ان انهيار المدنية يظهر عندما تشمل الاقليات المبدعة فى الاستجابة بنجاح للتحديات وتستسلم للأقليات المتسيدة الحاكمة بالقوة فقط لمجاميع تتحول الى بروليتاريا . فى المجلدات الاولى المنشورة فى ثلاثينيات القرن العشرين أكد توينبى أن الغرب قد لا يستطيع الهرب من هذا المصير . ومع هذا فانه تنبأ فيما بعد بظهور وتطور دين عالمى يجمع أفضل ما فى تقاليد الغرب والشرق ومؤديا الى قيام نظام جديد . ومع ان عمل توينبى قد انتقد من جانب مؤرخين محترفين بحسبانه مجرد تأمل ، الا أنه يبقى ذا دلالة كتحد للمفهوم الأوروبى المركزى للثقافة التاريخية التقليدية .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 19.

الترجم :

(٥٦) اتنى مدين للبروفيسور أنيس للثروة التى احتوتها آراؤه ، رغم أننى طوفت

ابعد قليلا مما فعل .

أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ١٤ - ١٧ .

(٥٧) أحمد شلبى بن عبد الفتى الحنفى المصرى ، ولد فى الربع الأخير من القرن

السابع عشر وتوفى فى سبتمبر/أكتوبر ١٧٣٧ ، وهو حنفى مصرى سنى ، تشكف ثقافة واسعة ، وتعلم بالأزهر . ألف تاريخه « أوضح الاشارات فىمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » - وهى نسخة محفوظة بمكتبة جامعة ييل Yale بالولايات المتحدة الأمريكية ، وتغطى الفترة من القتح العثمانى وحتى سبتمبر ١٧٣٧ .

أما الاسحاقى فهو محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى على الاسحاقى المتوفى الشافعى من بلدة متوف بمصر - أديب شاعر - قرأ على كثير من العلماء ، وكان قاضيا عالما مؤرخا كثير نظم الشعر . ألف كتابه « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » ، و فرغ منه عام ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م .

وثالث الأمثلة هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى المصرى المولود بالقاهرة عام ١٥٩٦ والمتوفى بها عام ١٦٥٠ . نشأ فى بيت علم وثراء ونفوذ . كان أبوه شيخا للإسلام . ألف « عيون الأخبار » فى التاريخ الإسلامى العام مع التركيز على تاريخ مصر - و « النزعة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية » وهو فى تاريخ مصر العثمانية - و « المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية » ولديه يؤرخ لسلطين الدولة العثمانية حتى السلطان سليم الأول .

انظر : مخطوطة « أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » . تقديم وضبط وتصحيح الدكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٨ - ص ٢١ ، ٣٢ - ٣٣ .

وأحمد طريبن « التاريخ والمؤرخون العرب فى العصر الحديث دراسة عن حركة التأليف التاريخى فى أقطار الوطن العربى » مطبعة الانشاء - دمشق ١٩٧٠ ص ٣٩ - ٤٢ .

المترجم

Holt

(٥٨) استخدمت هنا جدول وتقسيم هولت

P. M. Holt

انظر ب . م . هولت

"Al-Jabarti's introduction to the History of Ottoman Egypt" BSOAS 25 (1962) : 40-42.

ويضيف أنيس تصنيفا ثالثا - مدرسة التراجم - وباعترافه هو فانه كان تصنيفا سوريا أكثر منه مصرى (أحضر) الى مصر بمعرفة الجبرتى .

(٥٩) كانت المنطقة الساحلية من الساحل الأفريقى بالبحر الأحمر ، بما فى ذلك موانئ (سواكن) و (مصوع) تسمى (الحبش) عند العثمانيين . وقد احتل القائد العثمانى أوزدمير Ozdmir هذه المنطقة بين عامى ١٥٥٥ - ١٥٥٦ وتم تنظيمها اداريا كولاية أصبح اسمها (ولاية الحبش) .

انظر دانيال كريسيلىوس وعبد الوهاب بكر « صفحات من تاريخ مصر العثمانية » مخطوطة الدرة الحصانة فى أخبار الكنانة للأمير أحمد الدمرداش كشخدا عزبان - دار الزهراء - القاهرة ١٩٩٢ - ص ١٢٤ حاشية ٨٥ .

المترجم

Holt

(٦٠) نقلا عن هولت

"The Beylicate in Ottoman Egypt", pp. 232, 241.

(٦١) بينيدتو كروسى Benedetto Croce (٢٢ فبراير ١٨٦٦ - ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢) . فيلسوف ايطالى وناقد ومؤرخ عاش ودرس فى نابولى . كان شغوفا بكارل ماركس Karl Marx وألف كتابه :
— Historical Materialism and the Economics of Karl Marx (1900)

ترجم الى الانجليزية عام ١٩١٤

ومن هذا الاهتمام دخل في تعاون مع المثالي جيو فاني جنتيل Giovanni Gentile
 أدى هذه إلى هيجل Hegel . شغل كروسى منصب وزير التعليم (١٩٢٠ - ١٩٢١)
 تكن ظهور العاشية التي حاجبها ، أدى الى تقاعده من الحياة العامة وأنهى تعاونه مع جنتيل .
 ترجم العمل الرئيسى لكروسى الى الانجليزية تحت مسمى Philosophy of Spirit
 وهو كتاب من أربعة أجزاء : الجماليات (1902) Aesthetics المنطق (1905) Logic
 فلسفة النفس Philosophy of the Practical (1909)
 التاريخ : نظريته ونظريته History : its theory and practice

آمن كروسى بأنه توجد روح انسانية عالمية ذات أربعة أقسام : حدسية - مفاهيمية
 - سبورية - وأخلاقية . وتظهر الحدسية فى النشاط الفنى - وتفسر المفاهيمية غور التاريخ .
 وعرض الحبيوية نفسها فى الأنظمة القضائية ، والاقتصادية ، والعلمية . أما الأخلاقى
 دعى تسمح للبشر باكتشاف أنفسهم كأفراد أخلاقيين أحرار . ووفقا لكروسى فان التاريخ
 بصور معنى انقبضة الانسانية النظرية على الأنشطة العملية (قانون ، اقتصاد ، علوم ،
 امدى) .

Lexicon Universal Encyclopedia vol. 5.

المترجم

(٦٢) من المؤكد ان معلومات المؤلف عن الجهود المبذولة فى تحقيق أعمال كتاب الفترة
 العثمانية قليلة للغاية . فقد ذكر ان أعمال ابن زنبيل الرمال ، وعلى الشاذلى ، وأحمد
 الدمرداشى ، وإبراهيم مصطفى لم تنشر ولم تحقق ولم تستخدم من أجل البحوث . والواقع
 ان عمل ابن زنبيل الرمال (آخره الممالك) محقق بمعرفة عبد المنعم عامر - القاهرة ١٩٦٢ ،
 وعمل على بن محمد الشاذلى الفراء (ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة) محقق بمعرفة الدكتور/
 عبد الفتاح أحمد طليحات - المجلة التاريخية المصرية - العدد ١٤ - ١٩٦٨ - وعمل أحمد
 الدمرداشى كنعدا عزبان (الدرة المصانة فى أخبار الكنانة) محقق بمعرفة الدكتور/ عبد الرحيم
 عبد الرحمن عبد الرحيم - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة - نصوص عربية
 ودراسات اسلامية - المجلد ٢٨ . ١٩٨٩ . وحققه كل من دانيال كريستيليرس من جامعة
 كاليفورنيا وعبد الوهاب بكر من جامعة الزقازيق (مصر) باللغة الانجليزية بعنوان
 "Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt 1688-1755.

Al-Durra Al-Musana Fi Akhbar Al-Kinana." Arab History and Civil-
 lization-studies and Texts — Vol. 2 — E.J. Brill-Leiden-1991.

كما حقق المؤلفان باللغة العربية تحت عنوان « صفحات من تاريخ مصر العثمانية -
 مخطوطة الدرة المصانة فى أخبار الكنانة - للأمير أحمد الدمرداشى كنعدا عزبان - القاهرة -
 دار الزمراء - ١٩٩٢ .

أما مخطوطة إبراهيم مصطفى التى ذكرها المؤلف - فصحة اسم صاحبها هو « مصطفى
 ابن إبراهيم تابع المرحوم حسن أغا عزبان الدمرداشى » وهى بعنوان « تاريخ وقايح مصر
 القاهرة » بدار الكتب القومية . تحت رقم ٤٠٤٨ مخطوط . وقد حققها الدكتور/ صلاح أحمد
 مريدى - ونشرتها دار المعرفة - الاسكندرية ١٩٨٨ . اما استخدام هذه الأعمال فى البحوث -
 فان أكثر من عمل فى الجامعات المصرية استخدمت فيه هذه الأعمال وغيرها للكشف عن
 غوامض الفترة العثمانية وقد استند المؤلف معلوماته هذه من عمل المرحوم الدكتور/
 محمد أنيس « مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى » الصادر عن معهد الدراسات

العربية التابع لجامعة الدول العربية - وفات المؤلف أن يلاحظ أن ما كتبه المرحوم محمد أنيس كان عام ١٩٦٢ . كما استعان فيما ذكره عن الدمرداش بما ورد في كتاب بيتر جران
Peter Gran

Islamic Roots of Capitalism : Egypt, 1760-1840 (Austin, Texas and London : University of Texas Press, 1979), pp. 68-69.

المترجم

(٦٣) يعتقد أنيس أن معلومات الأجناد قد تكون ذات فائدة عالية . راجع أنيس
« مدرسة التاريخ المصري » ص ٥٥ - ٥٧ .

ولهذه الأسباب فأننى أميل الى الاتفاق مع هولت Holt في تفاؤله الحذر للغاية

انظر هولت

Holt

"Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt," pp 41-42..

(٦٤) وفقا لشهادة الجبرتي نفسه ، فإن دراسة التاريخ كان متجاهلة تماما ومحتقرة
من جانب معاصريه .

دافيد آيلون

David Ayalon.

"Al-Djabarti," EI (1965), II, 355.

وسنلاحظ في الفصل التالى ميل آيلون أحيانا الى المغالاة في قضيته .

(٦٥) كان ابن الأثير وابن خلكان يقرآن في مكة في القرن التاسع عشر ليس من
أجل التنوير والثقافة ولكن من أجل (التالى فى الحوار) .

روزنتال

Rosenthal

"Muslim Historiography", p. 53.

(٦٦) انظر ، على سبيل المثال ج . هيوورث دن J. Heyworth Dunne

"An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London: Luzac and Co., 1939), pp. 41-42, 65.

عبد الرحمن الجبرتي ونهاية التقليد الكلاسيكي

إذا ما وضعنا في الاعتبار الحالة المؤسفة للثقافة التاريخية خلال الفترة العثمانية ، فإن المرء قد يتوقع أن الكتابات المصرية الأولى الجديدة بالاعتبار في القرن التاسع عشر قد نتجت من خارج هذا التأثير . ولكن على العكس ، فمن بين الخواء الظاهر يخرج مؤرخ تبرز جدارته في الواقع جهود سابقه ومعاصريه والمؤرخين المتأخرين أيضا - مؤرخ ينتمي بوضوح لتقليد تاريخي محلي ميت ، لكنه يسعى بشكل ما الى النهوض فوق بيئته الثقافية الجذباء ليصبح ليس مجرد الأخير بل أيضا واحدا من أعظم ممثلي المدرسة الوسيطة النقية للتاريخ الاسلامي .

وعلى نقيض الكثير من مؤرخي القرن التاسع عشر المتأخرين الذين جرى التجاهل لعملهم ، فإن الجبرتي لم يعلم المعجبين . ففي عمل منشور في ١٨٦٣ أشار المستشرق الألماني الشهير فون كريمر Von Kremer الى (العجائب) (١) على أنها « عمل تاريخي يصف تاريخ زمانه بصدق وجدارة التعويل » . وقال توينبي ان الجبرتي قد « يتصدر بلا شك قائمة المرشحين لطبقة الامتياز كمؤرخين قادة للمجتمع المتمددين حتى وقتنا » . واعتبره دافيد آيلون « عملاق بين الأقسام » ودعاه أنيس « أعظم مؤرخ » (٢) .

وعلى ذلك فانه يبدو أنه قد تم التوصل الى الحكم القاطع على الجبرتي (٣) . واذا ما حاول أي شخص أن يتهور باعادة تقييم عمله فانه سيجده نفسه في مواجهة سدد منيع من كل الجوانب مكون من الأفكار العلمية (نسبة الى العلماء) ، التي لا يمكن الهروب من تأثيرها . ومن ناحية أخرى فان تجميع كل هذه الآراء المتعددة معا ثم اخضاع الجبرتي بعد ذلك للتمحيص على أساس المعايير السابق دراستها في الفصل الأول قد ينتج مردودا آخر . وهنا على أية حال هو ما نقصده في هذا الفصل .

ولد عبد الرحمن بن حسن الجبرتي في القاهرة عام ١٧٥٣ أو ١٧٥٤ وتوفي ما بين ١٨٢٤ و ١٨٢٦ (٤) . وقد جاءت أسرته أصلا من قرية

جبرت قرب ميناء زيلع على البحر الأحمر - وهي منطقة كانت تابعة لنجاشي الحبشة وعرفت للتقوى البالغة لسكانها . ومع نهاية القرن السادس عشر هاجر عبد الرحمن الجند السابغ لمؤرخنا الى مصر ليصبح شيخا لرواق الجبرتية بالأزهر الشريف - وهو منصب كان ينتقل وقتئذ من الأب الى الابن (٥) .

وتضع حقيقة كون أسلاف الجبرتي من مشايخ الأزهر - تضع مؤرخنا في الصفوة المثقفة المصرية . وكان والده هو الشخصية الكبيرة الضخمة في حياته . كان (حسن) والد شيخنا والمتوفى عام ١٧٧٤ ثريا . فقد كان رجل أعمال له أقارب بين التجار المصريين ومالكي السفن . ونظرا لوراثته وقفا ضخما من جدته لأبيه (٦) فقد اختار أيضا زوجة من أسرة ثرية ، ولدة ما كان مسئولاً عن قلعة الطور، السويس، والمويلح (٧) . وكان للأسرة ثلاثة منازل على الأقل : واحد في الأبرارفة على النيل ، وآخر فى بولاق ، وثالث فى الصنادقية قرب الأزهر (٨) واحتوت كل هذه المنازل على ممالك ، عبيد وجوار سود وبيض (٩) .

وبصرف النظر عن ثرائه ، فقد زود (حسن) أسرته بمحيط غير مسبوق من ثقافة عهده . فقد كان على علاقات طيبة مع البكوات الممالك والعثمانيين وكان معروفا لدى السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ٧٣) وأعيان عثمانيين آخرين ، اعتادوا أن يرسلوا له كتباً (١٠) . وكان منزله مكانا للقاء مشايخ الأزهر وضم مكتبة جيدة تحوى كتباً عربية وتركية وفارسية الى جانب عدد قليل من المخطوطات النادرة (١١) . ورغم انه كان خبيراً بداءة فى علوم الدين ، الا أن (حسن) كان يعتبر أيضا مرجعا رئيسيا فى الحساب ، الفلك ، التقويم ، الخطوط ، الحفر ، النحت ، وموازين القبان (١٢) .

ويقول الجبرتي نفسه ان والده كان لغويا موهوبا وصلت طلاقته فى التركية والفارسية طلاقة أهل هاتين اللغتين (١٣) ، ويبدو أنه لم ينقب فى التاريخ فى حد ذاته ، لكن معرفته بمجالات أخرى غير دينية قد حفزت ابنه بلا شك الى التحرى فى موضوعات دنيوية مماثلة كالهندسة والتاريخ (١٤) .

عندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ كان الجبرتي فى أربعينياته المبكرة . فاذا ما وضع فى الاعتبار خلفيته التعليمية فانه لا يمكن أن يوجد مواطن مراقب للأحداث أفضل منه . كان الجبرتي على علاقة طيبة بحكام مصر وقادتها الدينيين وكان يمكنه أن يترجم لهم من واقع خبرته الشخصية (١٥) . وقد مكنته صداقته الحميمة باسماعيل الخشاب ، الذى كان عضوا منتظما بالدواوين التى أقامها الفرنسيون من

أن يتصل بوثائق المحكمة الكبيرة (١٦) ، رغم أنه نادرا ما احتاج الى الإشارة اليها حيث انه كان شاهد عيان لكثير من الأحداث التي سجلها .
ومع هذا فان الميزات المادية والثقافية التي امتاز بها الجبرتي على معاصريه لا تزال غير قادرة على شرح نجاحه تماما . فثراؤه ، ودرجة تعلمه العالية نسبيا ، وصلاته بالقادة المصريين ، وقدرته كشاهد عيان مراقب يمكن أن ينتج عنها بسهولة مجرد تاريخ آخر للفترة وليس أى عمل عظيم magnum opus . فاذا كان فى الواقع قد أنتج بصدق عملا عظيما - كما يظن أغلب المثقفين - فلا بد أن عناصر أخرى حققت هذا الانجاز قد وجدت .

رغم أن الجبرتي كانت له اهتمامات متنوعة ، فمن البدهى أن اهتمامه كمؤرخ هو الذى جعله معروفا (١٧) . كتب الجبرتي عمليين ، وربما ثلاثة أعمال تاريخية :

- ١ - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
- ٢ - مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين .
- ٣ - تاريخ مدة الفرنسيين بمصر .

ولا يزال أمر العمل الثالث محل شك ، حيث انه غير واضح ما اذا كان دراسة تاريخية مستقلة أم مجرد نسخة مبدئية من مظهر التقديس (١٨) . وتوجد نسخ عديدة منها فى شكل نسخ تحضيرية . واذا كان المعتقد أنها كتبت حول عام ١٧٩٨ (١٩) ، فانها تكون عبارة عن نقد للفرنسيين ملئ بالأخطاء النحوية والأسلوبية . واذا كان الجبرتي قد قصد من هذه الدراسة أن تكون دراسة تاريخية مستقلة ، فانها تكون بالقطع أقل الأعمال أهمية من ثلاثة الأعمال التى ذكرناها بعاليه ولا تحتاج الى أى اهتمام فى المناقشات التى ستلى .

يقع (عجائب الآثار) ، العمل الرئيسى للجبرتي فى أربعة مجلدات تمتد بمساحة الفترة ١٦٨٨ - ١٨٢١ لكن التفاصيل الدقيقة والتواريخ الصحيحة تبدأ بعد عام ١٧٨٦ (٢٠) . أما مظهر التقديس فهو كتاب أصغر كثيرا ، كتب على ما يبدو بالاتحاد مع (حسن العطار) ويغطى فترة الاحتلال الفرنسى (١٧٩٨ - ١٨٠١) فقط (٢١) . ولقد ظل هناك اعتقاد لفترة طويلة ان (مظهر) قد كتب بعد (العجائب) لكن أغلب المثقفين يتفقون الآن ان (مظهر) قد استكمل فى ديسمبر ١٨٠١ وأن ثلاثة الأجزاء الأولى من (العجائب) قد اكملت فقط فى ١٨٠٥ - ١٨٠٦ (٢٢) . ومن المهم أن يعرف أى عمل أتى أولا ، حيث ان هناك تحولات فى رأى ذات دلالة من عمل الى آخر :

سميت (مظهر) من جانب أحد المثقفين (التاريخ الرسمي للاحتلال الفرنسي) (٢٣) . وقد أهديت الى الحاكم العثماني يوسف باشا ، وأخذت الى السلطان سليم الثالث في استانبول حيث ترجمت الى التركية (٢٤) . وقد كان هناك اعتقاداً لمدة طويلة بوجود نسخة مترجمة للفرنسية بمعرفة ألكسندر كاردان Alexander Cardin (حوالي ١٧٩٠ - حوالي ١٨٣٩) مترجم القنصلية الفرنسية في الاسكندرية (٢٥) . لكن هذا الاعتقاد زال نهائياً الآن بعد أن ثبت دون أى شك أن عمل كاردان هذا هو موجز (للعجائب) وليس ترجمة (لمظهر) (٢٦) . وقد ظهرت النسخة العربية الأصلية من (مظهر) - بما فيها من غرابة - قريباً جداً بعنوان (يوميات الجبرتي) بمعرفة محمد عطا في مجلدين من نشر دار المعارف وبدون تاريخ (٢٧) .

لقد تأخر نشر عجائب الآثار لمدة طويلة نظراً للمطاعن المعارضة التي صبها العمل على عهد محمد علي . وعندما زار فون كريم Von kremer مصر في ١٨٥٠ قال إن (العجائب) أصبح مرجعاً نادراً نظراً لقيام السلطات باتلاف أى نسخ وقعت في أيديها . وقد رفع الحظر عن العمل في نهايات سبعينيات القرن الماضي ، وظهرت أول طبعة من أجزاء (العجائب) في الجريدة السكندرية (مصر) عام ١٨٧٨ . وفي ١٨٧٩ - ١٨٨٠ طبع العمل كله في مطبعة بولاق ، وأصبحت هذه الطبعة بالتبعية الطبعة القياسية والتي يستشهد بها المستشرقون (٢٨) . وتوجد ترجمة فرنسية (للعجائب) بعنوان :

Merveilles biographiques et historiques ou chronique d'
Cheikh Abd El-Rahman El-Djabarti (Cairo, 1888-96)

لكن آيلون Ayalon لا يبالغ عندما يقول إنها « غير دقيقة لدرجة خطيرة ، وترجمتها رديئة ، ومن الخطير استعمالها » (٢٩) .

وتشير الدراسات الحالية الى أن الجزء الثالث من (العجائب) الذي يغطي الفترة ١٧٩٨ - ١٨٠٥ ، هو أساساً امتداد (لمظهر) . فقد انتهى (مظهر) بأحداث يناير ١٨٠٢ واحتوى فقط تراجم لأمرام الممالك وألحقت بهم تراجم للعلماء ليكون هذا الجزء الثالث من (العجائب) (٣٠) . وعلى ذلك فإن (العجائب) يعطى دراسة أكمل للفترة ، ومع هذا فرغم أنه أكثر أهمية ، إلا أنه كتب من وجهة نظر جده مختلفة عن وجهة النظر التي كتب بها (مظهر) .

لتكوين رأى من (مظهر) وحده ، فإن الجبرتي لا يشعر بغير الاحتقار للفرنسيين . وهو يهاجم المنشور الأول لنابليون بعنف معلناً أن الفرنسيين ملحدون برغم تأكيداتهم بعكس ذلك ، وأنهم مع قولهم باحترامهم للقرآن إلا أنهم لا يتورعون عن لمسه بعد التبول . ويرى أن الفرنسيين

سيئو الخلق يخلقون وينتعلون الأحذية فوق السجاجيد الغالية . وعندما يشير الجبرتي الى ضباط فرنسيين معينين فانه لا يتردد في نعتهم بنعوت الى جانب أسمائهم (كاللعين - والكافر - والحبيث - والتعيس) . كما يسخر من اصلاحات الفرنسيين السياسية مدعيا أن أفكار الفرنسيين عن المساواة تعنى فقط حكم المعتوهين . أما عن اصلاحات الجادة في الشئون الصحية وما أشبه فان الجبرتي لا يتكلم (٣١) .

وعلى الجانب الآخر فان (عجائب الآثار) تحكى قصة الغزو الفرنسى من منظور آخر . فالجبرتي يأتى واضحا مؤكدا « أن السلوك العام للكفار صريح وغير معيب ، يعكس سلوك المسلمين » (٣٢) . ومعلومات الفرنسيين العلمية مشروحة بالتفصيل وباعجاب . لا توجد نعوت تتبع الأسماء الفرنسية . وبينما يصف (مظهر) الفرنسيين بأنهم (سكيرون) ، فان (عجائب) يقول فقط انهم يشربون فقط من أجل الانتعاش . وبينما تذكر محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر Kleber في (مظهر) دون اطالة فانها تتلقى ست عشرة صفحة في (العجائب) مليئة بالاعجاب بالاحساس بالعدل عند الفرنسيين . وبينما يوصف المحررون العثمانيون من الحكم الفرنسى (بالجيش المسلم) في (مظهر) ، وهو ما يرى قبول الجبرتي لعودة الحكم الاسلامى ، فانهم في (عجائب) يوصفون ببساطة (بالعثمانيين) أو (الجيش) . وفى تعقيبهِ على جلاء الفرنسيين في (مظهر) يقول الجبرتي انه « كان يوما بهيجا ونهاية للجزع والشرور » . وهى جملة حظرت في (عجائب) . والجبرتي في (العجائب) قانع بملاحظة مشاعر الأهالى بأن عودة الحكم الاسلامى كان فألا حسنا (٣٣) . وفى النهاية ، وربما كان أغرب ما فى الأمر ، ان الجبرتي كان فيما يبدو محبطا لفشل الحملة الانجليزية على مصر عام ١٨٠٧ (٣٤) .

ما الذى جعل الجبرتي يغير فكرته عن الفرنسيين هذا التغير الجذرى ؟ احدى الاجابات هو أنه لما كان (مظهر) يمثل الانطباع الأول عند الجبرتي، فان (عجائب) كانت نتاج ادراكه المؤخر وانعكاسه . ليس من الصعب فهم أسباب رد الفعل الأولى المعارض للاحتلال الفرنسى . كمسلم تقي ، وفوق هذا شيخ أزهرى ، رأى الجبرتي في الفرنسيين متطفلين قلبوا حكم السلطان (الخليفة) ومثليه في مصر (٣٥) . وكان دائما مشمئزاً بالعادات المغايرة الفرنسية ، شاجبا على سبيل المثال ، السلوك الخليع للنساء الفرنسيات ، الذى خشى أن يصيب المصريين (٣٦) . ولقد ظل الجبرتي منعزلا عن الفرنسيين خلال أغلب سنوات الاحتلال الثلاث وانتقد العلماء الذين تدنوا وخدموا ساداتهم الجدد . لكن مع نهاية الوجود الفرنسى وعلى الخصوص بعد اغتيال كليبر شرع الجبرتي يغير أفكاره : وعندما شكل الجنرال جاك مينو Jacques Menou مجلسا حاكما جديدا في

أكتوبر ١٨٠٠ وافق الجبرتي للمرة الأولى على أن يكون عضوا فيه (٣٧) .
ربما كان تحول مينو الى الاسلام قد أزال معارضة هامة للحكم الفرنسي
عند الجبرتي ، وربما يكون قد خلص الى أن استمرار مقاومة الفرنسيين
عديمة الجدوى - فلماذا لا يستسلم للمحتوم ؟ وتشير (مظهر) التي
كتبها بعد رحيل الفرنسيين الى أنه رغم وظيفته في الديوان (والتي لا تشير
اليها تواريخه اطلاقا) فانه مع هذا كان مبتهجا لهزيمة الفرنسيين في
١٨٠١ (٣٨) .

لنأخذ الحوار خطوة أبعد ، فنقول انه اذا لم يكن الموقف المعدل
(للعجائب) تجاه الاحتلال الفرنسي قائما عام ١٨٠١ ، فلا بد انه قد
تشكل فورا فيما بعد - خلال الفترة المضطربة المربكة للاحياء العثماني
(١٨٠١ - ١٨٠٥) . والجبرتي نفسه يقول لنا انه خلال السنوات
الخمس التالية بدء الكثير والكثير من الناس يحنون لعودة الفرنسيين .
فقد أثبت الحكام العثمانيون الجدد أنهم أكثر توحشا مما سبق . ولم
يجاريهم في قسوتهم سوى محمد علي وألبانه غير النظاميين (الدلاة) الذين
احتقرهم الجبرتي لدرجة أنه رفض التوقيع على التماس للمشايخ بطلب
إبقاء (محمد علي) في الباشوية المصرية . حتى المماليك الأثيرون عند
الجبرتي - جاء دورهم عنده الآن ليلومهم على استمرارهم في القتال مع
بعضهم البعض ولعدم قدرتهم على توفير الاستقرار للبلد . وبدء النظام
الوحيد للحكومة الذي عرفه الجبرتي - وهو النظام الفرنسي بالطبع -
يبدو أكثر جاذبية من معظم المماليك والعثمانيين . ومن ثم فان الادراك
الجديد (للعجائب) كان محاولة الجبرتي تعديل ما خلص اليه مسبقا
في (مظهر) (٣٩) . كان (العجائب) عملا ناضجا ، كتب بعد امتحان
طويل للضمير ، وهذا هو السبب في حصوله على تقدير وتعظيم أكثر من
(مظهر) . في حين أن (مظهر) كان ببساطة رواية شاهد عيان للأحداث .
و (العجائب) تاريخ بالمعنى الذي حددناه سابقا . في (العجائب) على
سبيل المثال يروح الجبرتي بعيدا الى جد نقد الشيخ عبد الله الشرقاوي
لرفضه ارتداء الجوكار (Gocarde) (٤٠) ، حيث ان ارتداء قبعة
معينة أو عدم ارتدائها لا صلة له - عند الجبرتي - بأن يكون المرء مسلما
حقيقيا (٤١) . وهذا النوع من الحكم يبين ان الجبرتي قد أخذ وقتا
ليتفكر في معنى الاسلام ومعنى الوجود الفرنسي كلية . وان كون
الفرنسيين كفارا أو حتى حكاما جائرين لا يمكن أن يعنى عينيه عن حقيقة
بعض انجازاتهم الحقيقية : وبرغم تفضيله المطلق للحكم المملوكي ، فانه
يلاحظ بالقبول ان الفرنسيين قد ألغوا السخرة (٤٢) . وبرغم كراهيته
الشديدة لمحمد علي فانه يسجل على نحو واف ان الباشا (المصري) قد
استهل بعض المشروعات العامة القيمة مثل اصلاح سد الاسكندرية عام
١٨١٦ (٤٣) .

ان السمعة التاريخية للجبرتي في محلها تماما . ومع هذا ، فان الحوار المقدم حتى هذه النقطة كان مؤسسا على وجه الخصوص على هذا الجزء من (العجائب) الذي يتناول الاحتلال الفرنسي . (ومظهر التقديس) غير جدير بأى انتباه باستثناء أنه يقدم مفاتيح هامة لفهم (العجائب) . و (مظهر) فى الواقع أفضل من تواريخ زمنية معاصرة أخرى لكنه لم يكن ليوفر على الاطلاق وحده هذه الرتبة من التفوق التى يتمتع بها الجبرتي . وحتى (عجائب الآثار) اذا أخذ فى جملته ، ليس عملا تحليليا أو تفسيريا فى الحقيقة - اذا ما طبقنا المناقشات التى قدمناها فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

عند هذه النقطة يجب أن نعود الى مقاييسنا الأصلية للحكم على حداثة الكتابة التاريخية . فبالنسبة (للغرض) من التاريخ ، على سبيل المثال ، فان الجبرتي يقول :

« اعلم أن التواريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم ، وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم . وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم .

والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى ، وكيف كانت ، وفائدة العبرة بتلك الأحوال ، والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين ، من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد فى الفانى ، ويجتهد فى طلب الباقي » (٤٤) .

وبصورة لا تنكر فان هناك أثرا من التدين ينساب فى كلام الجبرتي عن (الغرض) وخاصة فى الجملة النهائية . لكن النغمة العامة تساعد على الكشف دون حدود . ان الجبرتي لم يشعر فقط بان التاريخ مرتبط ومقيد بالأمور الانسانية - وهو ما يفيد الأجيال القادمة من عبره - لكنه أيضا مهتم بالتسبيب ، حيث ان كلماته نفسها عن الغرض من التاريخ « الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى وكيف كانت » . ونلاحظ ان الجبرتي لا يستخدم كلمة (أخبار) فى أى موضع ، مقررًا بدلا من ذلك ان التاريخ يعنى (بالأحوال) - أحوال الناس . وهذا مدخل مرض للتاريخ عند المقارنة ، ولا يؤدي اذا أنجز - الى تاريخ زمنى Chronicle ذا طابع تقليدى .

وعلى عكس المتوقع ، فان التنظيم العمومى (للعجائب) حولي تماما . وشأنه شأن أغلب كتاب العصور الوسطى فقد تحمس الجبرتي حماسا زائداً للتواريخ والمواعيد مثل قبل الظهر ، ومساء اليوم الثالث فى

رمضان الخ . والواقع أنه لا يوجد تماسك بنائي (للعجائب) أكثر من ذلك المتعلق بمضى الزمن - وهي حقيقة دفعت آيلون Ayalon الى القول بان أفضل وسيلة لدراسة الجبرتي هي اعادة كتابة تاريخه (٤٥) .

فالأحداث والوفيات ترص الى جانب بعضها البعض طالما انهما كانا ينتميان الى نفس السنة . ولا يمثل مشكلة ما أن يكون أو لا يكون للشخص المتوفى أى صلة بالأحداث التى وردت . وكنتيجة لذلك ، فان (العجائب) مربكة وصعبة الاستعمال ، وقوق هذا فهي زاخرة بالاسهاب والاطناب . فللترجمة لمتوفى بعد مرور سنوات عشر على زوال نفوذه وسلطانه ، كان الجبرتي مجبرا على التقاط الكثير من الحقائق والحوادث التى قدمت مسبقا فى القصة التاريخية .

لكن السؤال الأساسى هو ما اذا كان الجبرتي فى ظل خطة كهذه يتعامل مع التاريخ كسلسلة لا تنتهى من الظواهر الخارجية أم انه يركز على الاقناع الفكرى للحوادث . قد يكفيننا مثلان :

١ - « ذو الحجة ١١٨١ هـ / أبريل ١٧٦٣ :

فيه وصلت أخبار عن حسين بك كشكش و خليل بك ، أنهم لما وصلوا الى غزة جمعوا جموعا ، وأنهم قادمون الى مصر . فشرع على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة ، وبرزوا وسافروا .

ثم ورد الخبر بعد ثلاثة أيام أنهم عرجوا الى جهة دمياط ، ونهبوا منها شيئا كثيرا ، ثم حضروا الى المنصورة ونهبوا منها كذلك . فأرسل على بك يأمر التجريدة بالذهاب اليهم ، وأرسل لهم أيضا عسكريا من البحر ، فتلاقوا معهم عند الديرص والجراح من اعمال المنصورة عند سمند . فوقع بينهم وقعة عظيمة ، وانهزمت التجريدة وولوا راجعين ، وقتل فى هذه المعركة سليمان جريجي باش اختيار جميليان ، وأحمد طنان جراكسة (٤٦) وعمر أغا جاوشان أمين الشون . وكانوا صدور الوجاقات .

ولم يزالوا فى هزيمتهم الى دجوة . فلما وصل الخبر بذلك الى على بك اهتم لذلك ونزل الباشا وخرج الى قبة باب النصر خارج القاهرة ، وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد ، وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقليا أو عليه عتامة (٤٧) يشهل نفسه ويطلع الى التجريدة أو يخرج عنه بدلا .

واجتهد على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة أخرى ، وكبيرها محمد بيك أبو الذهب ، وسافروا فى أوائل المحرم ، واجتمعوا بالتجريدة الأولى وسار الجميع خلف حسين بيك و خليل بيك ومن معهم . وكانوا

عدوا الى بر الغربية بعد أن هزموا التجريدة . فلو قدر الله أنهم لما كسروا التجريدة ساقوا خلفهم ، كما فعل على بك وصالح بك ، لسلخوا الى مصر من غير مانع ولكن لم يرد الله تعالى ذلك (٤٨) .

٢ - ومات الأمير قاسم بك أبو سيف وهو مملوك عثمان بك أبي سيف ، الذي سافر بالخزينة ، ومات بالروم وذلك سنة ثمانين ومائة وألف ، وهي آخر خزينة رأيناها سافرت اسلامبول على الوضع القديم ، وعثمان بك هذا مملوك عثمان بك أبي سيف الذي كان من جملة المقاتلين لعل بك الدمياطي و خليل بك قطامش ومحمد بك قطامش في ولاية راغب باشا كما تقدم ، وخدم المترجم مراد بك وكان يعرف بقاسم كاشف أبي سيف ، وكان له اقطاع والتزام وايراد ، واشتهر ذكره في أيام مراد بك ، وبني داره التي بالناصرية وانفق أموالا جمة ، وكان له ملكة وفكرة في هندسة البناء ، واستأجر قطعة عظيمة من أراضي البركة الناصرية تجاه داره من وقف المولوية ، وسورها بالبناء وبني في داخلها قصرا مزخرفا برحبة متسعة ، وقسم تلك الأرض بتقاسيم المزارع وحولها طرق ممهدة مستطيلة ومجارى للمياه التي تصل اليها أيام النيل ومجار أخرى عالية مبنية بالموّن والخاقي من داخلها تجري فيها المياه من السواقي ، ويحيط بذلك جميعه أشجار الصفصاف المتدانية القطاف ، وبداخل تلك البركة المنقسمة النخيل والأشجار ومزارع المقائى والبرسيم والغلة وغيرها يسرح فيها النظر من سائر جهاتها وتنشرح النفوس في أرجائها ومساحاتها ، وجعل السواقي في ناحية تجتمع مياهها في حوض وبأسفله أنابيب تتدفق منها المياه الى حوض أسفل منه ولما حضر حسن باشا الجزايرلى الى مصر وخرج منها أمراؤها تخلف المترجم عن مخدمه واستقر بمصر فقلدوه الامارة والصنحية في سنة احدى ومائتين وألف فعظمت امرته وزادت شهرته ، وتقلد امارة الحج مرتين (٤٩) .

سنجد لدينا هنا طريقة معالجة الجبرتي للأشخاص والحوادث . فالحكاية التاريخية تركز على مجرد المرور الانتقالى من مكان الى آخر ، ولا تعطينا الترجمة أى ادراك حقيقى للشخصية موضوع المناقشة (٥٠) . وطرائق المعالجة الفنية (التقنية) هي نفس الطرائق الخاصة بالتاريخ الزمنى الاسلامى الوسيط . وقد يقدم الجبرتي فى بعض المناسبات مادة قصصية أكثر قليلا من بعض التواريخ الزمنية المملوكية والمصرية العثمانية الجرداء ، لكن يبقى أن الاختلافات طفيفة والأسلوب حافل بالذكريات عن حوادث العساكر العثمانيين . ويقول شفيق غربال ان الجبرتي يستطيع أن يكتب (تراجم خلافة بدية للرجال) ، لكن هذا القول عندنا فيه مبالغة . ويستشهد غربال بتراجم الجبرتي لمرتضى

الزبيدي ومحمد بك الألفى باعتبارها متميزة (٥١) ، ومع ذلك ، فإن الفحص المتأنى لهذه التراجم يثبت انها أفضل قليلا فقط من مثيلاتها الوسيطة البدائية . فأغلب قصة الجبرتي عن الزبيدي تتصل بأناشيد المديح والهدايا التي تلقاها من المعجبين المعاصرين (٥٢) . وترجمة الألفى أطول وتحتوى حكايات مسلية قليلة تصور شخصيته . وكما فى ترجمة قاسم بك ، فإن أغلب الحكاية مخصصة لعدد أماكن الإقامة والقصور التي بناها الألفى (وكل قصر له وصف متقن) ، وتقدير لثروته المادية والرتب العديدة التي حازها (٥٣) . ومعالجة موضوع الرجلين (الزبيدي والألفى) هو أساسا نفس معالجة (الطبقات) من الكتابة ، حيث يظهر مجرد صورة ظلية Silhouette للشخص موضوع الدراسة ، وبالقطع فانه ليس لهذه السجاياء اعتبار (العجائب) فى بعض الأحيان مثلا نموذجيا للكتابة التاريخية (٥٤) .

والتناقض القائم هو أنه رغم أن كلا من المحتوى والأسلوب فى (عجائب الآثار) يضلان اقترابا تقليديا حوليا أساسيا للتاريخ ، فإن كثيرا من عناصره لا تناسب تصورا كهذا . كيف ستيسر لنا رؤية تحليل الجبرتي العويص العميق لأثر الفرنسيين على مصر ، وقدرته على رؤية الحملة الفرنسية من كلا من الجانبين الفرنسى والمصرى ، ملاحظاته القاسية والحادة عن عادات الفرنسيين وحكومتهم ، كيف يتيسر لنا أن نوفق بين ارادته الدائمة فى تقديم تقييمه للرجال والحوادث ، وبين الأدلة المقنعة التى يدلى بها لأفكاره ، والأسلوب التقليدى للمؤرخ الزمنى فى احتباس كل نقده الشخصى لمثل هذه القضايا ؟

والاجابة الوحيدة لمثل هذه الأسئلة هى ان الجبرتي برغم كل شيء أكثر من مجرد مؤرخ حولي . ربما يكون العنصر التفسيري فى كتاباته غير محسوس كما ينبغى أن يكون فى الكتابة التاريخية اليوم ، وأنه يتبع بدقة ممارسة العصور الوسطى التقليدية فى تسجيل المظهر الخارجى للأحداث ، لكن فى نفس الوقت فان العقلية التحليلية الاستجوابية فى (العجائب) قوية لدرجة تجعله فى مرتبة منفصلة عن الأعمال المبكرة . لقد فاز الجبرتي بسمعته العظيمة بفضل هذه المواصفات ، أكثر من أى شيء آخر .

لقد افترض أغلب المثقفين ان العناصر التفسيرية فى (العجائب) قد نتجت عن قدرات الجبرتي الفريدة فى الملاحظة ، مع اغفال حقيقة ان أغلب (العجائب) و (مظهر) تتبع النهج الحولى المقبول الذى يتركنا مع نفس النقاط العمياء التى توجد فى التواريخ الزمنية المبكرة . ولقد شعروا بالحزج عندما اكتشفوا ما ساعده الجبرتي على اخراج مثل هذا العمل الفريد من بيئة تاريخية جذباء . ومثل كل نصراء نظرية الرجل

العظيم ، فقد اضطروا في النهاية الى قبول عبقرية الجبرتي الشخصية
كشيء بدهي - ليس له سوابق - ليس له مواز معاصر - ودون مكملين
له في القرن التاسع عشر . ولا حاجة بنا الى القول بأن مثل هذا التفسير
لا يكفي تماما .

لكن الوجه الآخر من الرأي . . . فهو أن الكثير - ان لم يكن كل -
من العنصر التفسيري في (العجائب) ينبع من طبيعة الموضوع نفسه
وليس من مواهب الجبرتي الشخصية الغامضة . وأقصد بهذا أنه لم يكن
في استطاعة أي مراقب مصري واع أن يسجل تاريخ الاختلال الفرنسي
دون أن يتنبه للخصائص التي وضعت الفرنسيين في وضع منفرد عن
الجماعات المألوفة كالمماليك ، العثمانيين أو حتى السكان المحليين
أنفسهم . لقد كان الفرنسيون - برغم كل شيء - هم الذين عدلوا بعنف
الشكل المصري للحكومة ، والجبرتي لم يكن أكثر من مسجل لهذا الحدث .
وكان الفرنسيون أيضا هم الذين كانت لهم وجهات نظر دينية جذرية
مختلفة وأسلوب حياة غير معتاد كلية ، والجبرتي ببساطة سجل هذه
الاختلافات . وفي النهاية فإن الفرنسيين امتلكوا علما متفوقا وتكنولوجيا،
والجبرتي حاز شرف ملاحظة وتقييم هذا التفوق ، بكلمات أخرى ، فإن
الاختلال الفرنسي كان للمصري ظاهرة فريدة ، لم يكن من الممكن النظر
اليها كما ينظر المرء الى معارك المماليك الداخلية ، وفي الواقع كما نظر
الجبرتي الى هذه المعارك . لقد كانت التجربة الفرنسية مناقضة لأي شيء
عرفه المصريون ، فقد مالت طبيعتها الى استفزاز الفكر واعادة تقييم القيم .
واقترضت من الجبرتي أن يكتب تاريخا مختلفا عن ذلك الذي كان سيكتبه
لولا التجربة الفرنسية التي سببت هذا التغير من جانبه (٥٥) .

« قد يكون غير طبيعي لنا أن نتوقع من الجبرتي أن يسجل مظاهر
الحياة الاجتماعية كما كانت تعيش في ذلك الوقت ، في القاهرة أو في
الريف . هذا نوع جديد من الكلام والكتابة ، التي لم تكن معروفة لرجال
في زمانه وجرى تجاهله من جانب كتاب ومؤلفين . ان أيا من كان قد
عاش بين الناس وشاهد وشارك في عاداتهم كل ساعة من كل يوم قد
لا يهتم بالتطورات المرحلية والتعديلات في حياته أو حياتهم . وماذا دخل
في حياتهم أو اختفى منها ، وماذا اختلط مع الوقت مع حياتهم ، الى أثر
الاحتكاكات والتعاملات بين الناس في التجارة ، الحرب ، أو السفر ،
الى غير ذلك من شئون الحياة التي لا تنى عن التطور والتحول والمزج .

وهكذا فإن الجبرتي آمن أو أحس أن عادات معاصريه والحياة التي
أحاطت بهم - يجب أن تبقى من كل الوجوه كما كانت ، غير ممسوسة
بأي تغيير أو تبدل . وتسجيل هذه العادات أو الكتابة عنها قد يكون
عديم الفائدة ، بافتراض ان الفكرة قد مرت بخاطرة . ومن ناحية أخرى

فان الجبرتي انحرف عن مثل هذه المبادئ فيما يخص فترة معينة سجل تاريخه .. هي على وجه التحديد - فترة الغزو الفرنسي - ففي هذه الحالة سجل الجبرتي فوق كل شيء ، عددا من الآثار الاجتماعية المعينة التي أحدثها جنود هذه الحملة على القاهرة لقد كان انحراف الجبرتي عن مبدئه فيما يخص هذه الفترة طبيعيا ، حيث ان اثر الحم كان واضحا وقويا . ولقد اخذ الجبرتي علما بذلك وأحس بأثرها في حياة القاهريين الاجتماعية التي كان هو أحد أعمدتها » (٥٦) .

لقد وفر (الشرقاوي) المفتاح لهذا الطريق المسدود . فوفقا له ، ف الجبرتي قد استسلم ببساطة لقوة الدفع الطبيعية ، مثلما فعل ابن الأثير منذ قرون كثيرة مبكرة عندما أجبره الوجود الأجنبي المغولي على تخصيص اهتمامه لطرقهم الغربية . وربما كانت قوى الملاحظة عند ابن الأثير أقل حدة من قوى الملاحظة عند الجبرتي ، لكن ربما كان هناك الكثير أيضا ليلاحظ عن الفرنسيين أكثر من المغول ، الذين في المراحل الأولى لغزوهم الأقل لم يجلبوا سوى التدمير . وعلى خلاف الجبرتي ، فان ابن الأثير كما عنده بعد واحد ليستغل به . فاننا اذا نظرنا لوصفه لقتل المغول للأج في بطون الأمهات وممارستهم ببناء الاهرامات من الرؤوس الآدمية سنكتشف أنه لم يكن كسولا في التسجيل (لوحشية هؤلاء الغزاة) كذلك فان ابن فضالان والبيروني كانا مراقبين حريصين من العصور الوسطى للمسارح الروسية والهندية على وجه التحديد ، والتعليقات التي قدمها عن ثقافات الأجنبي مساوية في كثير من الأوجه لعمل الجبرتي من حيث احتياج المؤرخ في كل حالة الى شرح وتقييم لأشياء كان يمكن أن يعتبرها أمورا مسلما بها في محيط ثقافته هو .

لكن لا شيء من هذا يوهن من حقيقة ان الجبرتي قد لاحظ وراقب بذلك متوقفا أكثر من أغلب معاصريه . لكن هذا يفسر أيضا لماذا كان قوي الجبرتي التحليلية ذات عمق متراوح : فهي مختزلة في حاشية الفرنسيين ، وضحلة عندما يتعامل مع المواضيع « التقليدية » ، كتراب كبار العلماء . اذا كان هذا كله يفسر كلية نجاح عمل (العجائب) فانه على الأقل يقدم جزءا من هذا التفسير .

دللنا في الفصل الأول أن الابتعاد عن محتوى التاريخ الزماني Chronicle تجاه الكتابة التاريخية كان من ناحية معينة أقل موضوعية » (٥٧) . ولقد خاطر الجبرتي هذه المخاطرة عندما كتب « الاحتلال الفرنسي ، وهو ما جعل هذه الفصول من (العجائب) أكثر قيمة من التاريخ الزمني دوراني الطاحونة Run-of-the-mill Chronicle . فعندما يأتي الى الفرنسيين ، يبدأ الجبرتي لأول مرة بالتفاعل الشخص

مع مادته ، بدلا من تسجيلها . يهجر « الموضوعية » عديمة اللون في التاريخ الزمني Chronicle ولا يكتب - كما يؤكد آيلون Ayalon رواية هي « نموذج للموضوعية » . والصعوبة هنا تكمن في اختيار آيلون للكلمات ، فهو نفسه يحسها عن طريق مناقضة تأكيده السابق وإضافة انه قد يكون من غير المعقول ان يكون الجبرتي أى شيء أكثر من أن يكون فتاجا لبيئته وأزمته (٥٨) . لكن هذا هو الطرف الآخر ، الذي يعرف أحيانا « بالتاريخ الحتمي » . وهذا غير مناسب ، حيث اننا نتوقع من المؤرخ الجيد ان يتفوق - كما فعل الجبرتي - على بيئته المباشرة من خلال إعادة التفكير في معناها . فعلى سبيل المثال لا يمكن ان يشرح أن مسلك الجبرتي تجاه الفرنسيين ، المماليك ، محمد علي ، أو أى أحد آخر كان مقدما اليه ببساطة كلية بواسطة بيئته . فعلى العكس لقد كون الجبرتي وجهات نظره الخاصة تأسيسا على ملاحظاته ، وكان عنده حس المؤرخ الكافي بداخله ليريد إعادة تقييم الكره الغريزي للكافر الذي شعر به أثناء كتابة (مظهر) . لم يعد الجبرتي هو « المؤرخ الزمني » الموضوعي ، لقد شعر الآن ان واجبه هو ان يتكلم عن القضايا العديدة وأن يجعل معلوما ان (الانحيازات) التي شعر بها قد بلغها بذلك . وقد ساعده منظوره التاريخي على ان يرى وجهى العملة في الاحتلال الفرنسي ، ونتج عن تدقيقه في الحقائق تقديرا واحتراما واضحين للفرنسيين - وهو شعور لم يبذل هو جهدا في اخفائه (٥٩) . وأحكام الجبرتي عن (محمد علي) كانت واضحة وقاطعة ، وكانت ايضا ذات قيمة عظيمة كمصحة للآراء العامة المؤيدة في الأجيال التالية (٦٠) . وعلى ذلك ، فالجبرتي ليس موضوعيا ، اذا كان هذا يعنى (محايدا) . لكنه متفتح العقل ، شامل ، وفوق كل شيء ، متأمل . انه يعطينا كل الحقائق الضرورية لنصل الى استنتاجاتنا الخاصة ، لكنه في نفس الوقت يقدم أفكاره الخاصة عن الشخصيات والحوادث ، فعلى سبيل المثال ، يجعلها الجبرتي واضحة ان المماليك عاملوا العلماء ، باحترام أكثر مما فعل محمد علي ، ولا يخفى رأيه الخاص ان العلماء جديرون بالمناصب الرفيعة باعتبارهم حائزين لأعلى درجات (العلم والعدل) (٦١) . فاذا كنا نرغب في ان نستدل من هذا ان الجبرتي (كعالم) كان غير قادر على الحكم على محمد علي بانصاف ، فان هذا هو ما نمتاز به . والمغزى هنا هو أن الجبرتي هو الذي عاوننا على ان ندرك موضوعا كهذا . فبشرح وجهات نظره بصراحة منحنا الجبرتي عمقا في الفهم التاريخي أبعد بكثير من الامكانيات الهزيلة للتاريخ الزمني Chronicle .

ان ومضات الجبرتي العميقة من نفاذ البصيرة لا تغير من حقيقة ان (العجائب) في أغلبها مجرد نموذج للتاريخ الزمني Chronicle .

الاسلامى الوسيط . ولولا العوامل اللطيفة من المواضيع غير المعتادة والمعاصرة البادية فى الفكرة الرئيسية فيه لكان العمل (العجائب) قد أودى بصاحبه الى زوايا النسيان التاريخى . كان التاريخ المعاصر - كما رأينا شكلا فجا من كتابات العصور الوسطى التاريخية التى نتجت فى بعض من أحسن الأمثلة فى التاريخ الوسيط . كان المسعودى وابن الأثير فى أحسن أحوالهما عندما ناقشا الحوادث التى عايناها بنفسيهما ، حيث ان ذلك كان وقتئذ أفضل ما يستطيع مؤرخ العصور الوسطى بدءا من الطبرى وحتى الجبرتى نفسه ، أن يقدمه فى ظل انعدام التوثيق . ولم تمكنه مصادره بالنسبة للفترات المبكرة من أن يقدم الاقنسان اللازم لجعل من روايته شيئا نافعا بحق .

ومع انه يمكن اعتبار الأجزاء النهائية من (العجائب) تاريخا زمنيا Chronicle وتاريخا معاصرا ، الا ان العمل بشكل عام يحوى خصائص تصنيفات عديدة أخرى أيضا . فالعنصر الخاص بالسير يحتل مساحة أكثر من التاريخ الزمنى - الذى يضع الجبرتى مرة أخرى فى منتصف التجربة الوسيطة Medieval بانصاف . كانت السير دائما شكلا تاريخيا محبوبا ، وأصبحت هكذا خاصة خلال العصور الوسطى المتأخرة (٦٢) . وكان المؤرخون السوريون على وجه الخصوص نشطين للغاية فى هذا المجال ، ولعل غزارة مادة التراجم فى (العجائب) تنبع من تعاون الجبرتى مع المؤرخ السورى المرادى (٦٣) .

كان مسلك الجبرتى فى التراجم هو أساسا (طبقات) العصور الوسطى ، فالفقرات التراجمية والتواريخ الزمنية تتعاقب خلال العمل بأكمله . وكانت النتيجة مزيجا من التاريخ الزمنى ، اليوميات ، والتراجم ، وهذا كان محتوى غير متناسق فى بعض الأوقات الى حد انه كان يتضمن تفاصيل غير متصلة بالموضوع كوصف ممتلكات أميرية Princely estates . وفى هذا المقام أيضا فان (عجائب الآثار) خللت التقليد الوسيط المتأخر .

اتبع الجبرتى أيضا طرائق العصور الوسطى المتأخرة فى الاسلوب ، وأمطر (العجائب) بسخاء «بالسجع» حيث اقتضى التقليد ذلك (المقدمات ، ووصف المعارك والمشاكل الأخرى ، وشحن فقرات عاطفية من المديح والهجاء ، وهكذا) (٦٤) لكنه لم يكن خيرا فى هذا المجال حيث يستطيع أى شخص حسن الاطلاع على الأعمال المبكرة ان يقرر ذلك . بل ان مصر أواخر القرن التاسع عشر انتجت مؤرخين أفضل فى اسلوب السجع من الجبرتى ، رغم انهم كانوا بعيدين كثيرا عن التقليد أكثر منه (٦٥) . لقد كان اسلوب الجبرتى فى الحقيقة فقيرا بصفة عامة ، يعكس التدهور فى المقاييس الأدبية الذى كان قد بدأ فى العصور المملوكية . ويبدو ان السجع كان الوسيلة

الوحيدة التي عرفها الجبرتي ليأتي بجملة خارج بناء الاستناد الموضوعي المكون من عشر كلمات أو أقل . واستخدم قواعد غير ملائمة نحويا ، وعاميات ولغة دارجة ، ولم يثبت في أى مناسبة قدرته على الكتابة على مستوى أعلى (٦٦) . وكما لاحظنا مسبقا ، فإن مثل هذه الأخطاء اللغوية كان يمكن أن تعوق جهوده لتخطي المستوى الضحل من النوع المادي من التاريخ الذي هو جوهر التاريخ الزمني Chronicle .

قبل الاقدام على تقييم نهائي (للعجائب) فإن نظرة على عدد قليل من المؤرخين الآخرين قد تساعدنا على ان نضع الجبرتي في بيئته أو محيطه الملائم وأن نحكم على ما اذا كان بالفعل عملاقا بين الأقرام أم لا .

لقد أنجبت مصر العديد من مؤرخي القرن التاسع عشر المبكر ممن يستحقون الاشادة ، كانوا جميعا معاصرين للجبرتي بصورة أو بأخرى . وكان أشهرهم بلا شك محمد بن عمر التونسي (١٧٨٩ - ١٨٥٧) ، الذي سماه « الشيال » أعظم المحررين المحدثين وصاغى النصوص (٦٧) . باشر التونسي أنشطة أخرى كثيرة ليكون قادرا على تكريس وقت كثير للكتابة التاريخية ، لكنه نشر وصفا لرحلاته الى السودان . وهو مصدر قيم من المادة الجغرافية والاجتماعية فضلا عن المصادر التاريخية . وليسير على نفس النهج السجعي التقليدي المتفشى فقد سمي عمله « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . كان الكتاب مزيجا من ملاحظات التونسي العشوائية عن الحياة السودانية ، والملاحظات متفرقة عن القرآن ، الشعر ، والحكايات . وكأى من مؤرخي العصور الوسطى فقد كان التونسي في أغلب أجزاء كتابه قانعا بأن يصف ، ولم يبحث حقيقة فيما تحت سطح الحوادث . كان ترتيب الكتاب جغرافيا وموضوعيا topical أكثر منه تاريخا زمنيا ، وهذا ما كان متوقعا ، موضوعا في الاعتبار انه لم يكن تاريخا بل قصة رحلة . واسلوب التونسي - مع شذوذه - مطابق بصورة لصيقة للنماذج العربية الكلاسيكية أكثر من الجبرتي - ربما بسبب التدريب المتطور الذي تلقاه كمترجم ومصحيح في مدرسة الطب وفي مطبعة بولاق (٦٨) . وقد تحدى التونسي في بعض المناسبات قواعد النحو والصرف أو انحرف الى فقرات عامية ، لكن هذه الحالات مع هذا تعتبر نادرة بالمقارنة بالجبرتي (٦٩) . وقد كتب التونسي مثل (التشحيذ) قصة عن رحلة أخرى الى السودان (رحلة وداى) وقاموسا طبيا (الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية) . وحرر أيضا العديد من النصوص الطبية (٧٠) .

كان هناك ثلاثة مؤلفين آخرين خلال هذه الفترة - عبد الله الشرقاوى ، إسماعيل الخشاب ، ومصطفى القلعاوى ، لكن ابداعهم العقلي كان أقل

من النونسي ، بيد أنهم كانوا أكثر انتسابا للتاريخ في رواياتهم (٧١) .
وكان كلا من الشرقاوي والخشاب معارف شخصيين للجبرتي .

وعلى خلاف الجبرتي ، فان عبد الله الشرقاوي (المتوفى ١٨١٢)
أحضر من البداية المبكرة أن يعمل متعاوناً مع القوات المحتلة الفرنسية .
وكان أيضاً شيخاً أزهرياً ، لكنه كان ذا شهرة أكثر من الجبرتي . ويبدو
أنه انتهر بنفوق الفرنسيين على بنى وطنه المتخلفين ، فكان اختياره
كرئيس للديوان الأول الذي أقيم تحت الاحتلال اختياراً طبيعياً من جانب
بابليون (٢٧) . وبحسبانه عالماً من علماء زمانه فقد تحاشى التاريخ في
كتاب الأحوال وكتب بدلاً منه مواضيع دينية ولغوية . وكانت كل أعماله
التاريخية ستاً وخمسين صفحة عن تاريخ مصر (تحفة الناظرين فيمن ولي
مصر من الولاة والسلاطين) ومجموعة من التراجم عن الأئمة الشافعية من
القرن الخامس عشر وحتى زمنه (التحفة البهية في طبقات
الشافعية) (٧٣) .

عبرت (تحفة الناظرين) ثمانى طبقات ، وهى نفسها دليل وافر
على مركز الشرقاوي فى مجتمعه . والعمل به نقاط ضعف أساسية ، ومع
ذلك فإن إيجازه المخل وتطبيقه أسلوب الحوليات يجعل منه عملاً عديم
القيمة فى هذه الأيام . ومع أن الكتاب يوحى بأنه دراسة للحوادث المعاصرة
وهو يتجاهل الاحتلال الفرنسى - ربما لأن الشرقاوي أراد أن يغطى دوره
فى الإدارة الفرنسية . كان (تحفة) فى الحقيقة دراسة هيكلية للتاريخ
المصرى من الفتح العربى حتى العصر العثمانى واتجه الى أن يصبح قائمة
بحكام مصر . وتعود شعبيته الفاهرة ربما الى الافتقار الى كتابات تاريخية
معتدلة فى ذلك الوقت .

ولا يستحق عمل الشرقاوي الآخر أى اهتمام . وكما يدل العنوان
صفا فقد كان الكتاب نوعاً من كتب الطبقات وليس به أى خلق أصيل .
وقد انتحل الشرقاوي أغلب معلوماته من كتاب مبكرين أمثال الشعرائى
والسيوطى أو من معاصرين كالجبرتي (٧٤) .

أما عبد اسماعيل الخشاب (المتوفى ١٨١٤) فكان أقل دلالة من
أعمال الشرقاوي . كان والده نجاراً أو تاجر أخشاب كما يوحى اسمه ،
وخلال سنواته المبكرة عمل (كشاهد) فى المحكمة العليا بالقاهرة . ويبدو
أنه كان ضليعاً فى العلم ومحبوفاً من الناس ، وحائزاً لرضا كل أطراف
الحكومة الخبى الذى كان يغطى زمنه . خلال الاحتلال الفرنسى عين كاتباً
رسمياً للديوان الذى أقامه (مينو Jack Menou) وكان أيضاً على علاقات
طيبة مع العديد من العلماء الفرنسيين الذين صحبوا نابليون الى مصر -

وهى حقيقة منعتة من ان يكون قريبا من الدوائر الأزهرية وخاصة الجبرتي (٧٥) ، وكذلك من البقاء في الخدمة مع (محمد علي) وبعض الباشوات العثمانيين الآخرين فيما بعد . ولا بد أن الخشاب كان على اتصال ممتاز بالوثائق ومعرفة وثيقة بأمور الدولة باعتباره كان يشتغل بتسجيل المحاضر الرسمية لاجتماعات المجلس . ويقول الجبرتي لنا انه حاول على أساس هذه المعرفة ان يكتب تاريخا للاحتلال الفرنسي . لكنه اذا كان قد نجح فعلا ، فان عمله لم يعثر عليه لسوء الحظ (٧٦) .

لا يبقى سوى القليل ليقال عن (القلعاوى) . فقد كتب تاريخا زمنيا Chronicle مختصرا عن الحوادث من ١٧٩٨ - ١٨٠٨ ، ولا يحوى شيئا لم يكتبه الجبرتي بصورة أفضل وبتفاصيل أكثر . وكالشرقاوى فانه يحتمل ان يكون قد انتحل أغلب عمله من مصادر أخرى (٧٧) .

ينتمى كل من (التونسى) ، والشرقاوى ، والخشاب والقلعاوى بوضوح الى التقليد الاسلامى الوسيط من التاريخ . ولقد كان هذا التقليد سائدا فى اراض اسلامية أخرى الى جانب مصر : فقد ظل حيا فى شبه الجزيرة العربية والمغرب حتى نهاية القرن التاسع عشر (٧٨) . وفى تركيا أيضا ، رغم الادعاء بجذب التقليد العثمانى (٧٩) ، فان نموذجا صادقا لتاريخ العصور الوسطى ظهر فى تاريخى دولتى - عليه Tarik-i develet-i aliyye (١٢ جزءا) لأحمد جودت Ahmed Jevdet . كان تاريخى جودت Tarikh-i Jevdet كما يسمى ، تاريخا زمنيا للفترة ١٧٧٤ - ١٨٢٦ وكلف صاحبه ما لا يقل عن ثلاثين عاما لاعداده . ورغم ان جودت استخدم كما غزيرا من المادة المصدرية ، فان تاريخه مع هذا لم يسم عن أسلوب المدرسة القديمة ، الترقيات ، الترفيع فى الرتب ، والوفيات - كل هذا سجل فى أسلوب تقليدى . ومع هذا فان تفاصيل (جودت) الثرية وعنايته الفائقة بتسجيل الأحداث نافست الجبرتي وجعلت من عمله أساسا للباحثين المتأخرين . واذا لم يكن (جودت) آخر المؤرخين العثمانيين التقليديين ، فقد كان بالقطع آخر العظماء منهم (٨٠) .

وانجبت لبنان أيضا مؤرخا له بعض الأهمية خلال هذه الفترة - نقولا الترك (١٧٦٣ - ١٨٢٨) . ورغم انه ولد فى دير القمر ، فان أسلافه كانوا يونانيين من القسطنطينية ، التى استمد منها لقبه (الترك) . دخل (نقولا) خدمة الزعيم الدرزي بشير الثانى ، وأرسل الى مصر ليراقب تطور الحملة الفرنسية . وخلال اقامته أغلب الوقت فى دمياط من ١٧٩٨ حتى ١٨٠٤ تمكن من جمع المادة اللازمة لـ (ذكر تملك الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية) .

ورواية الترك بلا شك أرفع من (مظهر) الجبرتي ، وقد تعتبر الآن وثيقة ذات أهمية حاسمة ، ما لم تكن في قدر (العجائب) . ان وجود (العجائب) هو المسئول عن تراجع (الترك) الى مستوى مؤرخ من الدرجة الثانية - وهذا ظلم بين لمواهبه العديدة . فتاريخه يحتوى بالفعل على نسبة كبيرة من الأخطاء ، لكنها قد تكون أخطاء النسخ المتأخرين . وكالجبرتي فان الترك يستعمل السجع بحرية ، ولا يلقي بالا لقواعد النحو ويكتب بالعامية . وترتيب المواد في (ذكر) يتبع الاسلوب الحولي ، ومثل أغلب كتاب العصور الوسطى فان (الترك) لا يعنى بربط الأحداث أو تفسيرها الا عرضا . وفي النهاية فانه لا يخفى انحيازه كعربي مسيحي للاحتلال الفرنسي في كتابة روايته . والفرنسيون في نظر (الترك) هم حملة أعلى حضارة يؤمل أن تحل محل بربرية الأزمنة السابقة (٨١) .

ان دراسة هؤلاء المؤرخين تجعلنا في وضع يسمح لنا بأن نضع الجبرتي في المنظور الملائم . فمن جهة لا يوجد أي غموض على الإطلاق حول سمعته العظيمة ، حيث ان مقارنته بالشرقاوى مثلا تشبه مقارنة القمح بالقش . وحتى تاريخ (الترك) - دون عزله اطلاقا عن المؤرخين الآخرين - يبدو باهتا بلا مضمون عند قياسه (بالعجائب) ، التي ليست أكثر ملاءمة وأكثر دقة بل أيضا أكثر عمقا في الادراك وأكثر توازنا في المنظور (٨٢) . فبينما تبدو مشاعر (الترك) تجاه الفرنسيين أشبه بالمداهنة والنفاق ، فان مشاعر (الجبرتي) هي الاعجاب الحذر (٨٣) . وبينما يعزز (الترك) قضية وفكرة عزيزة على قلبه ، فان الجبرتي يحاول ببساطة أن يصل الى الحقيقة .

هل يمكن اعتبار الجبرتي أعظم من احترف التاريخ بين المسلمين ، قد يبدو في ذلك بعض المبالغة ، نظرا لأن أغلب مظاهر تاريخه مجرد استمرار لمنهجية العصور الوسطى وليس تحسينا لها . ولا تختلف (العجائب) في الأسلوب والشكل عن التواريخ الزمنية الوسيطة الأخرى ، والتي يمكن اعتبار بعضها أفضل من عمله (٨٤) . وأغلب نقاط الضعف في كتابات العصور الوسطى موجودة في عمل الجبرتي ، فعلى سبيل المثال هناك المحتوى المتغاير (٨٥) ، الاقتراب المتنافر المشوش من الأحداث ، والتعامل مع الطبقات كالتعامل مع التراجم ، والتناول الفج للسجع في مراحل معينة ، والاسلوب الأدبي الفقير بصفة عامة ، والترتيب الزمني الصارم للمادة ، وهكذا . وكل هذه الخصائص شائعة في تواريخ العصور الوسطى الإسلامية . ولا يشير وجود هذه الخصائص في كتابات الجبرتي الى شيء فريد في خصوص مساهمته في التاريخ الاسلامي .

وبعد ، فان حوليات الجبرتي تملأ ما كان يمكن ان يعتبر فجوة ضخمة في مفهومنا لمصر في بواكير القرن التاسع عشر . وكما ان كثيرا يمكن ان يقال عن الكثير من الكتابات التاريخية ، فان ما يميز (العجائب) من الجهود الأخرى هو أنها تزودنا بادراك اضافي ، والتفاصيل الثرية والدرجة المذهلة من الدقة (٨٦) . وفي هذه الفصول من (العجائب) حيث يقدم لنا الجبرتي ليس فقط الخبر الخام ، ولكن أيضا تعليقه الثمين عليه - نترك عالم التاريخ الزمني ونبدأ في رؤية الدلالة الحقيقية للحوادث . وفي هذا المقام فان الجبرتي بالقطع لم يكن مؤرخا تقليديا من مؤرخي العصور الوسطى ، بل كان - كما سنرى - أكثر حداثة من العديد من المؤرخين المصريين لأواخر القرن التاسع عشر . لكن هذه السجاياء على العموم ليست سوية في عمله ، وترجع الى طبيعة الموضوع أكثر من ادراك الجبرتي الشخصي لكيفية كتابة التاريخ . ذلك انه رغم ان ملاحظاته عن الفرنسيين واضحة في الواقع ، فانه في باقى (العجائب) يستخسّم بثبات تقنيات أقدم وتقليدية ، مثبتا ان محاولة الوصول الى عمق التجربة الفرنسية كان مفروضا عليه تقريبا من جانب الطبيعة الأجنبية لموضوعه .

قد يبدو أكثر وضوحا الآن تبين ما الذى ساعد الجبرتي ، كنتاج لتقليد تاريخي واهن ، ان يكتب ما كتب . والنقص الوحيد الباقى في هذا الحوار هو ان كلا من (نقولا الترك) و (عبد الله الشرقاوى) كان لهما نفس فرص الجبرتي لملاحظة الفرنسيين ، ومع هذا فان أيا منهما لم ينتج عملا من نفس عيار (عجائب الآثار) . وبنفس الحافز ، فان الجبرتي وحده زين موضوعه بالتفكير العميق والعقل الفطن للمؤرخ . لأنه مهما كانت الأسباب ، فقد شعر الجبرتي في هذه المرحلة بأنه مدفوع لأن يضع أفكارا بدلا من مجرد تسجيلات للحركة المادية . وبعمله هذا فقد كتب الجبرتي تاريخا وليس مجرد تأريخ زمني آخر .

حواشي الفصل الثالث

(١) ترجم المؤلف عنوان تاريخ الجبرتي الى الانجليزية على النحو التالي
Wondrous Seeds of Men and Their Deeds
البذور المدهشة للرجال
وأعمالهم - وهي ترجمة لا تمت بأي صلة لعنوان الكتاب « عجائب الآثار في التراجم
والأخبار » . وقد نوه في حاشيته الى أنه سيحاول بعد ذلك ان يحفظ الإيقاع السجعي
للعناوين في احالة الأعمال الكبرى - راجع ص ٤٣ .
المترجم .

(٢) اخذنا افكار فون كريمير Von Kremer ، توينبي Toynbee وآيلون من مقالة
آيلون نفسه - النظر دائيد آيلون
David Ayalon
"The Historian al-Jabarti and His Background". BSOAS 23 (1960) : 218
عن وضع انيس انظر محمد انيس « الجبرتي أعظم المؤرخين » ، الهلال رقم ١٢
(١٩٦٧) ص ٢٨٧ .

(٣) كانت وجهات النظر السلبية فادرة . فقد رأى سلامة موسى ان الجبرتي « افتقر
لفهم حقيقي للتغيرات العظيمة التي ظهرت وأهميتها التاريخية » . لقد آمن بمعجزات الأولياء ،
وكان لمط عقلية من ذلك الطراز الذي كان موجودا في الشرق في العصور الوسطى » .
سلامة موسى

"Intellectual Currents in Egypt," Middle Eastern Affairs 2 (1951) :
267.

وبالقطع فان مقولة سلامة موسى بأن الجبرتي « افتقر لفهم حقيقي للتغيرات العظيمة التي
ظهرت » يمكن مجادلتها . وبالإضافة الى ذلك فان من الصعب اعتبار حكم (موسى) تاريخيا
إذا توقع ان يكون للجبرتي عقلية الغرب في القرن العشرين .

ولعله من المناسب ذكر وجهة نظر محمد مصطفى زيادة هنا أيضا . فقد كان قليل
التسامح مع الجبرتي عندما قال ان الجبرتي يكتب أكثر من « تاريخا ليوم بعد يوم »
في شكل يوميات » .

انظر زيادة
"Modern Egyptian Historiography" Middle Eastern
Affairs 4 (1953) : 267.

(٤) يقول ماكدونالد Macdonald ان الجبرتي ولد في ١٧٥٤ .

د . ب ماكدونالد D. B. Macdonald
"Al-Djabarti," EI (1913), I, 986.

ومن جهة أخرى فان آيلون Ayalon يعتقد أنه ولد في ١٧٥٣ .

"Al-Djabarti," EI (1956), II, 355.

وهناك خلاف أيضا حول تاريخ وفاته . ففي مقالته عام ١٩١٣ يقبل ماكدونالد رأى المترجمين الفرنسيين « لمجانب الآثار » بأن الجبرتي قد اغتيل على يد عملاء لمحمد علي في يونيو ١٨٢٢ . ومع هذا فإن دراسة حالية تشير إلى أن الجبرتي قد مات ميتة طبيعية . ويقبل آيلون تقرير لين Lane أنه مات في ١٨٢٥ أو ١٨٢٦ .

انظر آيلون Ayalon "The Historian al-Jabarti", pp. 247-48 EI (1956), II 355 . ويقود فحص أنيس لسجلات المحكمة الشرعية إلى اعتقاده أن الجبرتي قد مات في وقت ما عام ١٢٤٠ هـ . أو بالضبط في ٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ و ١٤ مايو ١٨٢٥ .

راجع محمد أنيس « حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية » المجلة التاريخية المصرية ٩ - ١٠ (١٩٦٠ - ٦١) : ٧٠ - ٧٣ .

لقد كانت أيام الجبرتي الأخيرة مليئة بالبؤس . كان مريضا ، وفي الغالب ناقدا لبصره تماما ، حزينا على وفاة ابنه خليل - الذي يحتمل أن يكون قد قتل بمعرفة رجال محمد علي عام ١٨٢٢ - وعاش الجبرتي في عزلة في بيته بالصنادقية .

عن هذا انظر محمود الشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧) I ، ١٥ - ١٦ .

Ayalon

(٥) آيلون

"The Historian al-Jabarti," pp. 237-38.

Ibid., p. 238.

(٦)

وخليل شيبوب « عبد الرحمن الجبرتي » (القاهرة - دار المعارف للطباعة والنشر . سلسلة اقرأ - رقم ٧٠ ١٩٤٨) ص ١٩ .

Ayalon

(٧) آيلون

"The Historian al-Jabarti" pp. 237-38.

وشيبوب « الجبرتي » ص ١٩ .

(٨) الشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » ص ٦ . وتفيد الأدلة الحديثة أنه ربما كان للجبرتي عقاران في الصنادقية وحدهما .

انظر أنيس « حقائق عن الجبرتي » ص ٨٠ - ٨٤ .

(٩) الشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » ، ص ٧ .

Ayalon

(١٠) آيلون

"The Historian al-Jabarti," p. 239.

(١١) شيبوب « الجبرتي » ص ٥ ، ٢٢ - والشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر »

ص ٨ .

Ayalon

(١٢) آيلون

"The Historian al-Jabarti," p. 239.

Verdery

(١٣) فردري

"Al-Jabarti," p. 153.

وربما كان هذا فيه مبالغة . قارن الشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » ص ٥ .

(١٤) محمد فؤاد شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » (القاهرة - مطبعة
جامعة القاهرة ، ١٩٥٨) III ، ١١٦٣ .

(١٥) شبيب « الجبرتي » ص ٥٤ .

(١٦) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » III ، ١١٦٦ .

(١٧) ذكر ادوارد لين Edward Lane على سبيل المثال ان الجبرتي كان مفتونا
« بالف ليلة وليلة » (ومع هذا فان الجبرتي لا يذكر شيئا من ذلك فى العجائب) ويبدو
ايضا انه كان مهتما بالطب وكتب مختصرا (لتذكرة الالباب) لداود الانطاكي .

Ayalon

آيلون

"The Historian al-Jabarti", pp. 246-47

(١٨) ولا يذكر فردري Verdere هذه المخطوطة فى دراسته عن الجبرتي . وقد
قام موري Moreh باشمل تحليل مخطوطي لكل أعمال الجبرتي ، وقد شعر بداءة ان
هذا كان مجرد (مظهر) تحت مسمى مختلف .

S. Moreh

انظر س . موري

"Reputed Autographs of 'Abd al-Rahman al-Jabarti and Related pro-
blems" BSOAS 28 (1965) : 524-36.

وفى دراسة أكثر حداثة وتفصيلا عن الجبرتي يؤكد موري Moreh أنها نص
منفصل ومستقل .

S Moreh

س . موري

"Al-Jabarti's Chronicle of the first Seven Months of the French
Occupation of Egypt (Leiden : E.J. Brill, 1975), p. 18.

Ibid., pp. 18, 23, 26.

(١٩)

(٢٠) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » III ، ١١٦٨ .

Moreh

(٢١) موري

"Al-Jabarti's Chronicle", pp. 18,30.

والشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٦ . قارن آيلون Ayalon الذى يرى
ان دور المطار كان أقل .

Ayalon

آيلون

"The Historian al-Jabarti", p. 245.

(٢٢) لمن يرغب فى متابعة المزيد من المناقشة حول أى الأعمال كتب أولا - راجع
المصادر الآتية : -

Ayalon

١ - آيلون

"The Historian al-Jabarti", pp. 223-24.

٢ - أليس « مدرسة التاريخ للمصرى » ص ٢٤ - ٣٧ .

Moreh

٣ - موري

"Reputed Autographs of al-Jabarti." pp. 536-37.

Moreh

٤ - موري

"Al-Jabarti's Chronicle", p 19

Ismail K. Poonawala

٥ - اسماعيل ك . بوناوالا

'The Evolution of al-Jabarti's Historical Thinking as Reflected in the (Mazhar) and the 'Ajaib", Arabica 15 (1968) : 270-87.

٦ - محمد أنيس « الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار » - مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) : ٥٩ - ٧٠ .

٧ - الشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » ص ٤٣ - ٤٤ .

Verdery

٨ - فردري

"Al-Jabarti", pp. 11-12.

وآراء أنيس ، بوناوالا ، وموري متشابهة لدرجة ان المرء يشك انهم قد استعاروا من بعضهم . (يمثل آيلون والشرقاوي الرأي الاقدم الذي يقول ان (العجائب) قد كتب أولا لكنهما يصلان الى نتائج مختلفة من هذه الحقيقة . انظر الحاشية ٣٩ من هذا الفصل) وقد ظهرت مقالة أنيس أولا ، لكن آيلون والآخرين لم يشيروا اليها . وهذا ليس عدلا في حق أنيس ودعواه السابقة ، لكن اذا كان الامر كذلك فقد ردها أنيس بنفس الاسلوب في « مدرسة التاريخ المصري » التي ظهرت عام ١٩٦٢ - بعد سنة واحدة من ظهور مقالة آيلون عن الجبرتي . وفي « مدرسة التاريخ المصري » يشير أنيس أحيانا الى مقالة آيلون ، لكن هناك أيضا فقرات كاملة مأخوذة بالحرف الواحد من آيلون دون نسبتها في الحواشي اليه (انظر على سبيل المثال « مدرسة التاريخ المصري » ص ٢٧ - ٢٩) . على ان هذا لا يعني بالضرورة ، رغم ذلك أن أنيس قد انتحل عمدا . ان خطوات كتابة الحواشي لا تزال عامة مشوشة في العالم العربي ، وعلى الأقل فان أنيس يذكر مقالة آيلون ، أكثر مما ذكر كتاب آخرون . ولعل نوعية الطباعة في « مدرسة التاريخ المصري » ترك الكثير للكلام وقد تكون جزءا من الصعوبة .

(٢٣) أنيس « مدرسة التاريخ المصري » ص ٢٨ .

Poonawala

(٢٤) بوناوالا .

"Al-Jabarti's Historical Thinking", p. 283.

Moreh

وموري

"Al-Jabarti's Chronicle", p. 23.

(٢٥) الدكتور الشيال شديد التدقيق كان واحدا فقط من الكثيرين الذين وقعوا في هذا الشرك . انظر له :

A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century." Faculty of Arts, no. 15 (Alexandria : Alexandria University Press, 1962), pp. 111-12 n. 12.

(٢٦) عن هذا - انظر فردري

"Al-Jabarti", p., 158 ff.

Moreh

وموري

"Al-Jabarti's Chronicle", pp. 19-21.

Ayalon

(٢٧) آيلون

"The Historian al-Jabarti" p. 245.

(٢٨) يرى موري Moreh ان اخطاء الجبرتي النحوية والاسلوبية قد حذفت عن طبعة بولاق "Al-Jabarti's Chronicle", p. 16. وهو لا يقول ، مع ذلك ، ان محتويات طبعة بولاق تختلف عن النسخ الموقفة من « العجائب » المودعة في

المتحف البريطاني British Museum والمكتبة الوطنية · Bibliotheque National
وينفق فرردى verdery على ان طبعة بولاق قد هذبت بشكل طفيف فقط ان لم يكن قد
حدث بها تعديل على الاطلاق .

انظر فرردى
Verdery
"Al-Jabarti", pp. 17-18, 156-57.

(٢٩) ما لم يشير الى غير ذلك ، فان هذه المعلومة قد أخذت عن آيلون.
"The Historian al-Jabarti," pp. 22-30 Ayalon. وقد ترجمت (العجائب) في
الوقت الحال الى الروسية ، وفي دار الكتب وحدها الآن ما لا يقل عن ثلاثة عشر نسخة
من العمل .

- الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٣ .
- (٣٠) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٣٦ .

Poonawala (٣١) بوناوالا

"Al-Jabarti's Historical Thinking", pp. 274-81.

- (٣٢) « جميع معاملات الكفار سالمة من الغش والنقص بخلاف معاملات المسلمين » .
- الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ١٩ . وفى هذا السياق فان كلمة
(معاملات) قد تشير الى صلفات تجارية .

Poonawala (٣٣) بوناوالا

"Al-Jabarti's Historical Thinking", pp. 286-87.

لمزيد من التفاصيل عن التغيرات فى المصطلحات بين العامين ، والفترات المحذوفة ، الخ
انظر .

- الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٩ - ٤٣ .

• (٣٤) شيبوب « الجبرتى » ص ١٠١ .

• (٣٥) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ، ١١٨٣ .

Matti I. Mousa (٣٦) متى موسى

"The Development of Modern Arabic Fiction" The Islamic Quarterly
13 (1969). 142-43.

• (٣٧) شكرى ، « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ج ٣ ، ١١٨٣ .

• (٣٨) للصدر نفسه ، ص ١١٨٩ - ٩٠ .

• (٣٩) هذا التحليل مبنى على المصادر الآتية :

- ١ - أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٢٧ - ٤٢ .
- ٢ - شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ج ٣ - ١١٨٦ - ٩٣ .

Moreh (٣٠) مورى

"Reputed Autographs of al-Jabarti," pp. 536-37.

٤ - أنيس « الجبرتى » بين « مظهر » و « عجائب » ص ٦٤ - ٦٦ .

ويقول مورى Moreh فى دراسته المتأخرة ان « تاريخ مدة الفرنسيين بمصر » يمثل
انتفاضة الجبرتى القبطية نحو الفرنسى الكافر ، ثم تصبح « مظهر » التى كتبت بعد ذلك
بقليل ، أكثر عداوة بسبب رغبة الجبرتى فى تغطية تعاونه مع قوات الاحتلال الفرنسى وفى

نفس الوقت ليفوز بحظوة العثمانيين . ويستمر موري Moreh في اعتبار (العجائب) مع هذا إعادة تقييم نهائية من جانب الجبرتي للوجود الفرنسي .

موري

Moreh
Al-Jabarti's Chronicle, pp. 23-25.

ويجب ان لا تفلت هذه الفروق البسيطة هنا . ويجب ببساطة ان نلاحظ عداوة الجبرتي الأولية للفرنسيين (كما يبينها كل من (مدة) او (مظهر) قد تحولت الى اعجاب حذر بعد ذلك بعدة سنوات في (عجائب) . ونستطيع أيضا ان نلاحظ مواقف آيلون والشرقاوي . كان آيلون غير متأكد - عندما كتب عام ١٩٦٠ - أي الأعمال جاء أولا . وهكذا فإنه ادعى أن الجبرتي حاول أن يكسب رضا العثمانيين بتقديم « تاريخ معدل » عن الاحتلال الفرنسي للعثمانيين ، معبرا (آيلون) عن شكه في أن يكون (عجائب) قد كتب أولا . وهذه هي نفس النتيجة التي توصل اليها محمود الشرقاوي في دراسته الأكثر تفكيراً وتفصيلاً عن (الجبرتي) ، لكن آيلون حاول (دون نجاح كبير) أن ينافس الشرقاوي . فهو لم يقبل رأي الشرقاوي أن الوجود الفرنسي في مصر أثناء كتابة (العجائب) قد أجبر (الجبرتي) على تبرئة الاحتلال دون حق . وعلى ذلك فإنه استشهد بهجوم (الجبرتي) على (محمد علي) كدليل على دعوى (الجبرتي) أن (عجائب) قد كتبت بأمانة شجاعة وليس لمداينة فرد أو حزب . ومع هذا فإن هذا لم يكن رأياً مقنعاً عند آيلون ، فقد رأى أن (مظهر) لم تكتب بأمانة ، ولكن لمداينة العثمانيين .

عن هذين الموقفين انظر

آيلون

Ayalon

"The Historian al-Jabarti", pp. 231 n. I, 245.

والشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤٠) ذكر الجبرتي في وصف (الجوكار) أنها « العلامة المعروفة بالوردة وهي عبارة عن ثلاث دوائر من جوخ أو غيره متلاصقة ثلاثة ألوان : أزرق وأبيض وأحمر في قدر مقعر الكف وأصفر وأكبر دوايرها متصافرة الثانية أصفر من الأول والثالثة أصفر منها بحيث تبقى الألوان الثلاثة ظاهرة ، وربما شرشروا أطراف الدواير وتفننوا في تحسينها وهي عبارة عن الطاعة وعلامة على الامتثال » .

راجع « عبد الرحمن الجبرتي - دراسات وبحوث » - المكتبة العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٦ - ص ٢٤٣ . حاشية ٣ .

المترجم

(٤١) شكري « مصر في مطلع القرن التاسع عشر » - الجزء الثالث - ص ١١٨٨ .

(٤٢) لويس عوض « المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث » - الجزء الثاني :

الفكر السياسي والاجتماعي (القاهرة - دار المعارف - منشورات مركز الدراسات العربية العالية - الجامعة العربية ، ١٩٦٦) ص ١٤٩ .

(٤٣) شكري « مصر في مطلع القرن التاسع عشر » الجزء الثالث - ١١٨٨ .

(٤٤) محمد قنديل البقلي « المختار من تاريخ الجبرتي » (القاهرة : مطابع الشعب -

كتاب الشعب - رقم ٢٧ - ١٩٥٨) ص ٣ .

وقد قدم المؤلف ترجمة الى الانجليزية للنص الذي استشهد به في ص ٤٩ من كتابه -

وبطبيعة الحال فقد قدمنا نص ما كتبه الجبرتي في هذا الموضع بدلا من الترجمة الانجليزية .

المترجم

Ayalon

(٤٥) آيلون

The Historian al-Jabarti", p. 244.

وهذا هو ما حاول الشرقاوى ان يعله بصورة أو بأخرى فى الجزء الأول من عمله
« مصر فى القرن الثامن عشر » .

(٤٦) ترجم المؤلف جملة « أحمد طنان جراكسة » فى النص الذى كتبه (الجبرتي)
(أحمد الجركسى حامل البيرق) .

Ahmad, The Circassian Standard Bearer.

وأشار فى الحاشية (٤٦) هذه الى ان النص العربى هو « أحمد طنان جراكسة » .
وبالطبع فانه لا توجد أدنى صلة بين ما ترجمه المؤلف وما هو فى النص الأصيل - ولا نفهم
السبب فى ترجمة المؤلف كلمة « طنان » بحامل البيرق - علما بأن حامل البيرق فى لغة ذلك
الزمان وفى المصطلحات العثمانية المستخدمة هو (بيرقدار) - وهو ما لم يرد فى النص
الأصيل - كذلك فان المؤلف أثبت أن تاريخ النص هو ذو الحجة ١١٨١ (أبريل ١٧٦٣) -
وصحة التاريخ الميلادى هى أبريل ١٧٦٨ . ذلك أن الحوادث التى أوردتها المؤلف هنا هى
تلك التى وقعت بين حسين بك كشكش أمير الحج و خليل بك السكران (شيخ البلد)
من ناحية - (وعلى بك) (على بك الكبير فيما بعد) الذى كان قد تقرر نفيه الى أسبوط
من قبل المتنفذين (حسين بك كشكش و خليل بك) .

وقصة المعارك التى دارت بين (على بك) وغريميه فى عام ١٧٦٨ أعظم من أن ينسى
أحد أو يخطئ فى تاريخها - فهى الحوادث التى انتهت بانتصار الأول على المتنفذين المملوكيين
فى طحنا (حسين بك كشكش و خليل بك السكران) وقطع رأس الأول فى ٢٤ مايو ١٧٦٨
والثانى فى ١٨ يوليو من نفس العام . وهو ما سجله الجبرتي فى (عجائبه) فى ٢٧ مايو
١٧٦٨ عندما تحدث عن عودة (محمد بك أبو الذهب) مملوك (على بك) وقائد قواته ،
منتصرا بعد قضاائه على أعداء سيده - ودخوله القاهرة من باب النصر فى موكب عظيم
، وأمامهم الروس محمولة فى صوان من فضة والخدم يقولون صلوا على النبى ٠٠٠٠ وعدتها
سنة رؤوس وهى رأس حسين بك كشكش و خليل بك السكران وحسن بك شبكة وحمزة
بك واسماعيل بك أبى مدفع وصليمان أغا » .

وقية هذا التاريخ ترجع الى انه يسجل تثبيت نفوذ (على بك) فى مصر كشيوخ
للبلد - ومائلا ذلك من انتهاجه سياسة الانفصال عن الحكومة المركزية فى استانبول حتى
عام ١٧٧٢ م .

راجع محمد فنديل البقل « المختار من تاريخ الجبرتي » كتاب الشعب ٢٧ - مرجع
سبق ذكره - ص ٨١ - ٨٢ .

ودانيال كريسيلىوس Daniel Crecelius « جذور مصر الحديثة » - ترجمة
وتعليق عبد الوهاب بكر - مكتبة نهضة الشرق - جامعة القاهرة - القاهرة ١٩٨٥ -
ص ١١٠ - ١١٦ ، ١٤٩ حاشية ٤١ .

وجاك أ . كرابس Jack A. Crabbs
"The writing of History in 19th Century Egypt - A study in National
Transformation" — The American University in Cairo press, Cairo,
Wayne state University Press, Detroit — 1984. p. 50.

المترجم

(٤٧) تقدم الترجمة الفرنسية تعبير Jouissant d'une Solde متمتع بحق الحصول
على قطعة نقدية معينة - كمقابل للنص العربى فى العجائب (عليه عتامة) - ونحن نقبل
التعبير الفرنسى ، بينما نرى ان النص العربى غامض ومبهم .

والواقع ان غموض وإبهام النص عند المؤلف كما ذكر في حاشيته هذه راجع الى عدم فهمه لمصطلح (عتامنه) . فقد استخدم هذا المصطلح في مصر كوحدة حسابية لبيان كمية (الجراية والعليق) التي كان يتلقاها موظفي الديوان الحائزين لرتبة (بيك) وما فوقها من الشئون لأنفسهم ورجالهم وحيواناتهم . وكانت مائة عتامنة تعتبر (وحدة) للحصول على طعام كاف للحاجة اليومية لرجل واحد وحصانه . بكلمات أخرى فان (العتامنة) كانت تشير الى حق شخص ما في تلقي راتب أو أجر من الخزينة . والمصطلح (عليه عتامنة) بالصورة التي ورد بها في النص (فلما وصل الخبر بذلك الى على بك اهتم لذلك ونزل الباشا وخرج الى قبة باب النصر خارج القاهرة ، وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد ، وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقليا أو عليه عتامنة يشعل نفسه ويطلع الى التجريدة أو يخرج عنه بدلا) هذا المصطلح والنص يعنى انه مع وصول أنباء هزيمة التجريدة (الحملة) الموجهة ضد حسين بك كشكش وخليل بيك عند (الديرص والجراح) من أعمال المنصورة - انزعج على بك والباشا (الحاكم) - الذي أمر بتجمع القوات الحكومية عند قبة باب النصر خارج القاهرة ، وجمع أعضاء الاوجاقات العسكرية (الفرق العسكرية السبعة ويسمى الجبرتي (الوجاقلية) ، والعلماء وأرباب السجاجيد (أى السادة البكرية والوفائية والعمرية والخضرية وهم رؤساء الطرق الصوفية في مصر) - وأعلن التغير العام أو التعبئة العامة لمواجهة خطر القوات المتمردة - وأمر الباشا بأن ينضم الى الحملة كل من كان من الأوجاقات أو كان يتقاضى راتبا نقديا أو عينييا من الخزينة (عليه عتامنة) - فاذا لم يستطع فانه يقدم بديلا عنه للاشتراك في الحملة (أو يخرج عنه بدلا) .

راجع دانيال كريسييليوس Daniel Crecelius وعبد الوهاب بكر

Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt 1688-1755 "Al-Durra al-Musana fi Akhbar al-Kinana". E.J. Brill - Leiden, 1991, pp. 49, 128 n. 50, 130 n.

المترجم

- (٤٨) محمد قنديل البقل « المختار من تاريخ الجبرتي » ص ٨١ - ٨٢ .
وقد قدمنا نص ما كتبه الجبرتي في هذا الموضوع بدلا من الترجمة الانجليزية - المترجم .
(٤٩) المصدر نفسه ص ٤٨٥ - ٨٦ . وقد قدمنا نص ما كتبه الجبرتي في هذا الموضع بدلا من الترجمة الانجليزية .

راجع عجائب الآثار في التراجم والأخبار للعلامة المؤرخ « عبد الرحمن الجبرتي » الجزء الخامس - تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، السيد ابراهيم سالم - الطبعة الأولى ١٩٦٦ - لجنة البيان العربي ص ٢٤٦ - ٤٧ .
وعن « أبو سيف عثمان » وأعماله انظر .

دانيال كريسييليوس وعبد الوهاب بكر « صفحات من تاريخ مصر العثمانية في القرن الثامن عشر - مخطوطة الدرة المصانة في أخبار الكنانة للأمير أحمد الدمرداشي كتخدا عزبان » - دار الزهراء - القاهرة ١٩٩٢ - ص ٢٤٦ - ٤٨ .

المترجم

(٥٠) أو كما يصف فردري «Richard Verrery» « ان الجبرتي يميل الى أن يخسر الغاية من أجل الأشجار » .

Verdery

فردري

"Al-Jabarti", p. 115.

(٥١) شفيق غربال « مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين » - الهلال ٦٢ (١٩٥٤) : ٤٩ -

(٥٢) محمد قنديل البقل « المختار من تاريخ الجبرتي » ص ٢٢٣ - ٢٦ -

(٥٣) المصدر نفسه ص ٦٩١ - ٧٠٨ -

(٥٤) حتى آيلون Ayalon كان عليه أن يسلم بأن تراجم الجبرتي عن « العلماء » مقولة نلفاية ، تحتوي أسماء أساتذة العالم ، الكتب التي قرأها ، والأعمال التي ألفها ، الخ . وأنها تبعا لذلك قليلة الفائدة للطلاب .

Ayalon

آيلون

"The Historian al-Jabarti," p. 236.

(٥٥) رغم أننا لا نستطيع أن ننكر ما ذهب إليه المؤلف - ومن قبله الشرقاوي - في أثر « طبيعة الموضوع نفسه » في تشكيل العنصر التفسيري في (عجائب) ، إلا أننا في نفس الوقت لا نتفق مع المؤلف في إنكار « مواهب الجبرتي الشخصية » ودورها في تقديم هذا التاريخ . . . والمؤلف هنا يتناقض مع نفسه في سطور سابقة . فبينما يقول في ص ٥٢ من عمله أن العقلية التحليلية الاستجوابية في (عجائب) قوية لدرجة تجعله في مرتبة مفصلة عن الأعمال المبكرة

The analytic, questioning mind in Ajaib is Strong enough to set it apart from earlier works.

وهو اعتراف بقدرات الجبرتي الشخصية - إذا به يعود فينسب « العنصر التفسيري » في العجايب إلى « طبيعة الموضوع نفسه » وهو هنا (الخصائص التي وضعت الفرنسيين في وضع متفرد - وأنهم عدلوا . . . الشكل المصري للحكومة - وأساليب حياتهم الغير معتادة - وجهات نظرهم الدينية المختلفة - وامتلاكهم لعلم متفوق وتكنولوجيا) . . الخ ما سجله عن الفرنسيين .

ولم يكن المؤلف بكل هذا الوصف « لطبيعة الموضوع » ، لكنه قال أن الجبرتي [لم يكن أكثر من مسجل لهذا الحدث (al-Jabarti merely recorded this event) وهذا في الواقع غبن لدور الجبرتي - لا يبرره ما كتبه الشرقاوي في هذا المقام . لقد نقد الجبرتي الفرنسيين في المواضع التي استلزمت النقد . ولم ينكر أثرهم في المواضع التي وجدهم يستحقون التقدير . وفي هذا كان الرجل موضوعيا في كتابته . لكن من الغلو أن نذهب مذهب المؤلف في أن الفرنسيين قد وجهوا المجتمع المصري والثقافة المصرية وجهة جديدة . فالأرضية التي كان يقف عليها كل من الفريقين - والقول لأحمد عزت عبد الكريم ، كانت جد مختلفة . والجبرتي كان أسبق من الكثير من المؤرخين في تقديم ما للحملة الفرنسية وما عليها .

راجع « عبد الرحمن الجبرتي - بحوث القيم في ندوة أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٦ - ٢٣ أبريل ١٩٧٤ » - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ - ص ٢٥ .

المترجم

(٥٦) الشرقاوي « مصر في القرن الثامن عشر » ص ٤٧ - ٤٨ -

(٥٧) انظر ص ١٤ - ١٦ من الكتاب .

(٥٨) آيلون

Ayalon

"The Historian al-Jabarti", p. 231.

ويقع الشرقاوي في نفس الشرك عندما يقول أن الجبرتي قد كتب « تاريخا دون احساس » .

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٢٨ - ٣٠ • ان احساس الجبرتى
تأتى واضحة عبر عمله • وما يلقى استحسان الشرقاوى هو الاسباب التاريخية المقننة
لهذه الاحاسيس •

(٥٩) يرى الشرقاوى ان موقف الجبرتى النهائى كان منطوقا للغاية ، حيث ان حكم
جارك مينو Jacques Menou الذى ساعد فيه الجبرتى ، كان اكثر قسوة من فترات
حكمه سابقه •

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٠ (ومثل آيلون Ayalon ، فان الشرقاوى
ياتى بصورة عارضة الآن لنقض تأكيده السابق بأن الجبرتى قد كتب « تاريخا بدون
احساس » •

Ayalon

(٦٠) آيلون

"The Historian al-Jabarti" p. 234.

■ ■ ■

(٦١) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » - الجزء الثالث - ص ١١٧١ •

(٦٢) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٤٦ •

(٦٣) المصدر نفسه ص ٥٢ • وربما كانت مدرسة التراجم الأكثر فعالية فى سوريا ،
لكن الغريب ان نجد علماء مثل آيلون Ayalon وأنيس يزعمون أنها كانت مبنية فى
مصر • فأنيس على سبيل المثال ، يصر على ان الجبرتى قد أحضر أسلوب التراجم من بلاد
الشام الى مصر • انظر الحاشية (٥٨) من الفصل السابق • ويذهب آيلون Ayalon
أبعد من ذلك ليقرر أنه من بين كل كتاب الحوليات فى مصر العثمانية فان الجبرتى كان
الوحيد الذى كتب تراجم •

Ayalon

آيلون

"The Historian al-Jabarti" p. 225.

"Al-Djabarti", EI (1965) II, 356.

وقد تكرر هذا فى عمله

واعتقد أنه يمكن دعم رأى كهذا عن طريق النظر الى التراجم نظرة ضيقة للغاية •
عندئذ فان حوليات مصر العثمانية ستبقى حوليات ، حتى ولو كانت تحتوى على تراجم
عديدة كتاريخ الجبرتى • لقد استشهدنا بمثلين من التراجم المصرية العثمانية فى ص
٣٨ - ٣٩ ، ولاحظنا ان ما يسمى بالتاريخ الزمنى الأدبى Literary Chronicle
يشار اليه أيضا بالتاريخ الزمنى للسلطين والباشوات Sultan-Pasha Chronicle
لاحتوائه على تراجم كثيرة للسلطين والباشوات ، الخ • وبالتالي فان موقف جبب Gibb
من كتابة التراجم الاسلامية يبدو منسجما مع حقائق - انه « بالتناقض مع التقليد التاريخى ،
طان التقليد التراجمى biographical tradition الذى هو أقل اعتمادا على التغيرات
السياسية ، حافظ على حيويته ، وخاصة فى سوريا • فقد واطب العلماء الدمشقيون على
كتابة سلاسل من القواميس عن أعيان القرون العاشرة ، الحادية عشرة ، والثانية عشرة
(البيرونى - المحبى - المرادى) وأعمال أخرى خلدت ذكرى علماء مدن ومناطق معينة •
والى جانب هذا ازدهر فى مصر وسوريا نوع من التراجم المتممة المشوشة فى شكل سجع
نثرى ، تحمل الى حد كبير نفس العلاقة بالأعمال السابقة كالتاريخ السجعى النثرى وعلاقته
بالحوليات العادية • والمثل الرئيسى لهذه المدرسة هو المصرى شهاب الدين الخفاجى
(المتوفى ١٠٦٩ : ١٦٥٩) • • • • •

Gibb

"Tarikh" pp. 135-36.

انظر جبب

(٦٤) شبيب « الجبرتي » ص ٨٨ ، وشكري « مصر في مطلع القرن التاسع عشر » الجزء الثالث ، ص ١١٧٦ ، ١١٧٩ .

(٦٥) النظر الفصل التاسع ص ١٧٤ .

Ayalon (٦٦) آيلون

"The Historian al-Jabarti", p. 231 n. 2.

وحتى في عمل موري Moreh باقناع أكثر. pp. 25-30 "Al-Jabarti's Chronicle"

(قارن الشرقاوي الذي يرى أن أخطاء (عجائب) الكثيرة ربما تكون قد نتجت من عدم قدرة الجبرتي على توفير الوقت لكتابته) .

الشرقاوي (مصر في القرن الثامن عشر) ص ٢٦ . ويضيف آيلون Ayalon ان الجبرتي في كتابته بهذه الطريقة كان يتتبع مثال المؤرخين المصريين القدامى ، الذين تحركوا منذ الأزمنة الملوكية تجاه « لغة أدبية حية تضمنت هذه الأشياء » .

Ayalon آيلون

"The Historian al-Jabarti" p, 231.

بل وفي الوقت الحالي ، فان جران Gran قد أكد ان كتابة الجبرتي التاريخية هي خصيصة لما يسمى « بالاحياء في القرن الثامن عشر » Eighteenth-Century revival في مصر ، الذي يصفه جران Gran بأنه يحتوي على أنماط تجارية متغيرة بين مصر وأوروبا ، جهود الطرق الصوفية ذات العقلية الإصلاحية ، الاهتمام للتزايد بـ (١) موقعة بدر (٢) الصحابة و (٣) دراسات الحديث ا وهو تنافر الى حد ما ، ثم يحط جران Gran بعد ذلك من قدر كل من تاريخ الجبرتي وشعره باعتبارهما محاولات ضحلة لكسب رضا حاشية (محمد علي) .

جران Gran

"Islamic Roots of Capitalism", pp. xii-xiv, 73, 88.

وبرغم ما قدمه آيلون Ayalon وجران Gran ، فان الجبرتي انتمى الى حقبة تفتشت فيها تقنيات « الانشاء » والبراعة الأدبية ، سواء في التاريخ العربي ، التركي ، أو الفارسي . ولذلك فانه من غير اللائم الكلام عن حركة متأنية تجاه أشكال أكثر شعبية في الكتابة . لقد كان هناك حركة في الواقع ، لكنها كانت مجرد تدهور في القواعد الأدبية ، ولا تحمل أي اندفاع تجاه ما يسمى « باللغة الأدبية الحية » .

(٦٧) جمال الدين الشيال « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي » (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥١) ص ١٧٩ .

(٦٨) جمال الدين الشيال « دكتور بيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التويسي » ، مجلة كلية الآداب - جامعة فاروق الأول ، (١٩٤٤) : ٢٢١ . قارن الشيال « تاريخ الترجمة » ص ١٨٠ - ٨١ .

(٦٩) قد تكون بعض أخطاء التونسي قد حذفت من طبعة ١٩٦٥ لعمله ، وهي الطبعة الوحيدة التي استخدمتها .

(٧٠) الشيال « دكتور بيرون والشيخان » ص ٢١٨ . وما لم يشار الى العكس ، فان تعليقاتي عن (تشييد) قد أخذت من طبعة خليل محمود عساكر ، مصطفى محمد مسعد

ومحمد مصطفى زيادة لعمل محمد بن عمر التونسي « تشجيد الأذهان بسيرة بلاد العرب
والسودان » (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥) ص ٢٠ - ٢١ وفى
أكثر من موضع .

(٧١) طبقا لجران Gran . فان الشيخ العطار قد كتب أيضا « عملا كبيرا فى مجال
التاريخ مؤسس على منهجية اين خلدون » . وفى عمله هذا ، قاله حول موضوعا دينيا
تهليديا ذا وقار ومهابة الى أساس للجدل العقلانى العلمانى .

جران Gran
"Islamic Roots of Capitalism", pp. 159-61, 243 n. 25.

وانا لم أطلع على عمل العطار عن الخلافة ، لكن اذا كان يمكن تصديق جران Gran
فان العمل لابد أن يكون كلية غير كتاباته الأخرى .

(٧٢) الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٥٥ .

(٧٣) يمكن ان تترجم هذه العناوين الى الانجليزية كالاتى :

١ - "Gems of Observation in Egyptian Government and
Administration"

Dazzling Jewels of the shafiite schools ٢ -

وقد تكون الترجمة التالية قريبة الى (التلمذة البهية فى طبقات الشافعية) . لكننا
لا نوافق المؤلف فى ترجمته للعنوان الأول (تحفة الناظرين فىمن دلى مصر من الولاة
والسلطين) - فالترجمة غير دقيقة ، وقد ترجم المؤلف كلمة الولاة الى Government
وترجم كلمة السلطين الى Administration ، وهى ترجمة بعيدة للغاية عن العنوان .
المترجم .

(٧٤) عن حياة الشرقاوى وكتاباته انظر
Ayalon "The Historian al-Jabarti", pp. 248-49.

الشيال "A History of Egyptian Historiography", pp. 12-14.

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٥٥ - ٥٧ .

جورجى زيدان : تاريخ أدب اللغة العربية (القاهرة : مطبعة الهلال - ١٩١٤) المجلد
الرابع ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٧٥) كما ذكرنا من قبل فقد كان ممكنا للجبرتى ان يحصل على مادة موثقة رسمية
من خلال صداقته لاسماعيل الخشاب .

الظر ص ٤٥ .

(٧٦) عن الخشاب النظر

جران Gran
١ - "Islamic Roots of Capitalism", pp. 60-61, 80, 224 n 46.

آيلون Ayalon
٢ - "The Historian al-Jabarti" pp. 241-43.

الشيال ٣ - "A History of Egyptian Historiography.

(٧٧) عن تاريخ القلعاوى انظر فردري
Verdery
"Al-Jabarti", pp. 13-14, 70.

(٧٨) جب
Gibb
"Tarikh", p. 135.

(٧٩) النظر الفصل الأول ص ٢١ .

(٨٠) عن جودت والمؤرخين العثمانيين المتأخرين انظر كوران
Kuran.
"Ottoman Historiography", pp. 422-23.

(٨١) عن حياة « الترك » وعمله انظر على وجه الخصوص جورج م . حداد
Georg M. Haddad
"The Historical Work of Nigula el-Turk," 1763-1828, Journal of the
American Oriental Society 81 (1961) : 247-51.

وتحتاج وجهات نظر حداد الى بعض العلاج ، نظرا لانه - كايلون Ayalon
قد أصبح مفتونا بعض الشيء بموضوعه ، عن هذا العلاج انظر هنري بيريه
Henri Pérès
"L'institut d'Egypte et l'Oeuvre de Bonaparte Jugés par deux historiens
arabes Contemporains", Arabica 4 (1957) : 120-29.

والشيال

"A History of Egyptian Distoriography," pp. 16-17.

(٨٢) كان واضحا انه ليس من السهل استغلال الجبرتي ، فعندما حاول الفرنسيون
- على سبيل المثال - اقناعه بان نزول الانجليز في مصر عام ١٨٠١ لا يشكل تهديدا لوضعهم ،
عقب الجبرتي بقوله « وكلام كثير من هذا النمط في معنى ذلك : من بحر الغفلة »
كما وردت عند فردري Verdery
"Al-Jabarti", p. 44.

وقد قدمت النص العربي وفق ما كتبه الجبرتي في « العجايب » .
انظر محمد حسنين البقل « المختار من تاريخ الجبرتي » ج ٤ - كتاب الشعب - مطابع
الشعب ١٩٥٨ ص ٤٣٧ .

المتوهم

(٨٣) بيريه
Pérès
"L'institut d'Egypte et L'oeuvre de Bonaparte," p. 122.

(٨٤) لعمل المسعودي ، والبلاذري ، والطبري من بين أعمال جيدة أخرى هي أعمال
من الدرجة الأولى . وحتى من بين معاصري الجبرتي فان « تاريخ جودت باشا » والى حد ما عمل
النونسي أحمد بن أبي ضياف لا يقل في انجازه عن عمل الجبرتي .

لدراسة تقييمية لعمل ابن أبي ضياف انظر ل . كارل براون L. Carl Brown
"The Tunisia of Ahmad Bey, 1837-1855 (Princeton : Princeton Univer-
sity Press, 1974), p. 12.

(٨٥) فعلى سبيل المثال تحتوي أخبار الجبرتي عن السياسة بعض الأخبار عن الطقس ،
غارات البدو في بعض الأحيان ، قتل بعض رجال الأعمال القاهريين البارزين ، الخ .

فردري
Verdery
"Al-Jabarti", pp. 150-51.

(٨٦) تحتوى المجلدات الأربعة من (العجائب) مقدار ضخما من النشر التاريخي .
ولذلك فليس من المستغرب ان يختلف العلماء بعض الشيء حول دقته بصفة عامة . ويدعى
آيلون - الذى يسرف كمادته فى المدح - ان الجيرتى كان دقيقا وموثوقا به فى كل جزئية
بصورة تطابق « روائع التاريخ » الفرنسية التى كتبت عن الفترة .

آيلون

Ayalon

"The Historian al-Jabarti", pp. 232-33.

ويعطى فردرى Verdery أيضا الجيرتى درجات عالية لدقته ، وخاصة عندما يكتب
عن حوادث القاهرة .

فردرى

Verdery

" Al-Jabarti", pp. 38-39, 44, 68, 154-155.

ومع هذا فان آيلون Ayalon وفردرى Verdery لم يأخذا فى اعتبارهما
آراء « عبد الرحمن الرافعى » الذى قام بدراسة شاملة ومجتهدة عن دقة الجيرتى وانتهى
الى نتائج مختلفة تماما عن ما انتهى اليه الباحثان .

انظر الرافعى « تاريخ الحركة القومية » جزءان (القاهرة : مطبعة النهضة ، ١٩٢٩)
الجزء الأول ص ٩٩ ، ١٠٥ ، ٦ ، ١٠٩ ، ١٩٦ - ٩٧ . الجزء الثانى ٢٢٥ - ٢٦ ، ٢٩٠
ومواضع أخرى .

وفيما يتعلق بتمكن الجيرتى ، فانه يقدم فى خمسة وعشرون صفحة فقط دراسة
عن الغزو المصرى لشبه الجزيرة العربية تعد أكثر حيوية مما يمكن ان يأتيها مؤرخ سعودى
معاصر فى مائتى صفحة . كما انه مصدر قيم أيضا للمعلومات عن التاريخ الاقتصادى والمالى .

فردرى

Verdery

' Al-Jabarti", pp. 109-10, 117.

رفاعة الطهطاوى وبدايات التأثير الغربى

أن تستطيع الفترة العثمانية فى مصر - المفترض انها كانت فترة انحدار ثقافى ومادى - أن تنتج مؤرخا فى منزلة الجبرتى بينما لا يستطيع عهد محمد على (١٨٠٥ - ٤٩) الذى يعتبر عادة فترة من القوة الدافعة الى الامام ، والتحديث والاصلاح ، أن يلد مؤرخا من الدرجة الأولى - أن يكون الأمر كذلك ، فانه باعث على الحيرة . كان هذا الشذوذ الواضح راجع للمظاهر الثقافية سريعة التغير فى عهد الى آخر . لقد كانت أسس انجازات الجبرتى هى التقليد التاريخى الاسلامى الوسيط ، الذى رغم انه كان فى مرحلة الاحتضار الا انه كان على الأقل مفهوما بوضوح ومستمر فى العمل . لكن مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأت تتحرك فى أكثر من اتجاه جذرى ، لم تفهم مصر الكثير منه حتى الآن (١) . كانت عيوب الأشكال الحولية القديمة قد بدأت تتضح ، لكن لم يكن من السهل ترجمة هذا الإدراك الى تطبيق فعلى للمنهجية التاريخية الجديدة .

كانت هناك أيضا صعوبة عملية . فقد كانت الحركة الثقافية المصرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر محدودة لدرجة كبيرة بالرغبات الشخصية للحاكم ، الذى لم يكن اهتمامه يتجاوز مشروعا عسكريا وتطبيقاته . كان نظام محمد على التعليمى بأكمله موجها بصفة أساسية لخدمة الاحتياجات العسكرية ، وكانت وجهة نظره فى الحياة لا تسمح بأى تطورات ذات دلالة للدراسات التاريخية .

ويحتمل ان ما أنتقد (التاريخ) من النسيان الكلى هو احساس الحاكم المصرى انه (التاريخ) قد يكون له صلة ولو غامضة بالشئون الخربية والادارة العامة . كان للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) بعض الاضطرابات المماثلة ، وأمل ان ينقذ امبراطوريته بتتبع النموذج التاريخى لبطرس الأكبر (٢) . ويبدو أن محمد على بدوره كان قد اعتبر نفسه الشكل الحديث للاسكندر الأكبر . فقد شعر ان دراسة شخصيات

الحكام العظام كالاسكندر ، يوليوس قيصر ، بطرس الأكبر ، كاترين الثانية ، نابليون الأول، وشارل الثاني عشر قد تمكنه من أن يجعل من مصر قوة عظمى . وقد شجعه مستشاروه الفرنسيون على قراءة التاريخ في ضوء ذلك ، لكن جهله باللغات باستثناء التركية (التي كان لا يجيدها تماما أيضا) استلزمت ترجمة كتب التاريخ الى هذه اللغة (٣) . وجرت حركة ترجمة ضخمة لمؤلفات فرنسية ، ايطالية وحتى عربية الى اللغة التركية . ومن بين أهم هذه الأعمال كانت (المقدمة Prologmena) لابن خلدون ، الأمير لماكيا فيلي ، (مظهر) للجبرتي ، وتاريخ فرنسي عن كاترين العظيمة ، وتاريخ نابليون ، وتاريخ ايطاليا (٤)

ويوجد اشارة أخرى الى اهتمام محمد علي بالتاريخ في أمر تنفيذي صادر منه الى خزينته (١٨٢٩) يذكر فيه تحديدا انه قد قرأ في كتب التاريخ ان (التركة الأشرفية) كانت قد حفرت أصلا بمعرفة الاسكندر الأكبر . بل ان هناك دليلا يقول انه انتوى تكليف من يلزم بكتابة موسوعة تاريخية لعهد (كتاب العمران) ، وأكثر من ذلك انه أراد ان يسجل ذكرياته عن الفترة . لكن الكم الضخم من اهتماماته حال دون تحقيق أي من هذه المشروعات (٥) .

وعلى ذلك فإن تقرير بورنج Bowring ، الذي يصف محمد علي بأنه جاهل تماما بالتاريخ ، لا يجب ان يؤخذ بجديّة (٦) . فالرجل (بورنج) لم يكن بالتأكيد ذلك المراقب المنصف للأحداث ، وربما يكون قد راقب الباشا المصري في اجدي نوبات انفعاليه . وما كان محمد علي ليقبل بأي حال أي تضمينات للأوروبيين بأنه لم يكن يعرف التاريخ بما فيه الكفاية ، أو أي شيء آخر في هذا المضمون . بالاضافة الى ذلك ، فإن اللقاء مع بورنج Bowring تم قبل ١٨٤٠ بوقت قصير ، وهو وقت كان يستطيع فيه محمد علي أن يزعم ، بقدر كبير من التبرير ، انه كان ناجحا بدرجة كافية دون ان يكون عالما بأي شيء في التاريخ . ومن المحقق ان بورنج اختار ان يقبل مثل هذه التصريحات بشكلها الظاهري ، رغم ان عبء الدليل المشار اليه في سطورنا السابقة يناقض تقريره . لقد كان محمد علي بصراحة مهتما بالتاريخ ولهذا فقد كلف (الطهطاوي) بان يتولى من بين اشياء أخرى - ترجمة العديد من الأعمال التاريخية الى التركية .

ومثلما فاق الجبرتي كل معاصريه ، كذلك فإن سمعة الطهطاوي بزت في الواقع كل مصري بواكير القرن التاسع عشر . كانت سيرة الطهطاوي على غير المؤلفات متعددة المظاهر ، وقد فُحصت هذه السيرة من أكثر من منظور مختلف (٧) . فقد كان ، على سبيل المثال ، شخصية هامة ليس فقط من اجل الأعمال التاريخية التي قام بها فعلا ، ولكن من اجل قوة

الدفع والاحساس بالاتجاه الذى أعطاه للدراسات التاريخية بصفة عامة .
لقد كان الطهطاوى هو الذى أرسى حجر الأساس للانجازات التاريخية
المصرية التالية ، أكثر من أى شخص آخر .

ولد رفاعة الطهطاوى فى نفس السنة التى ترك فيها الفرنسيون مصر
(١٨٠١) . ويزعم كاتب سيرته (صالح مجدى) انه ينحدر من أصول
رفيعة تقود الى الحسين حفيد الرسول عليه الصلاة والسلام (٨) . لكن هذا
اذا كان صحيحا (وعادة ما تطرح هذه الأشياء) ، فان نسبه لا يبدو
انه قد ساعده فى أى شىء مادم . والمعلوم ان عائلته كانت فقيرة
تماما (٩) .

فى عام ١٨١٧ كان الطهطاوى محظوظا عندما قبل كطالب بالأزهر .
وبالطبع فانه اشتغل بالأزهر كطالب فى البداية ثم مدرسا فيما بعد ، حتى
١٨٢٤ ، عندما عين (واعظا) فى أحد آليات الجيش الجديد (١٠) . وخلال
دراسته بالأزهر تتلمذ على الشيخ (حسن العطار) أحد الشخصيات ذات
التأثير الكبير فى حياته . كان العطار أحد الأصدقاء المقربين للجبرتى وكان
أحد الأزهرين المحترمين للغاية فى وقته . وخلال الحملة الفرنسية حافظ
العطار على صلات وثيقة مع الدوائر العلمية الفرنسية . وقد اكتشف
- متأثرا بما رآه - الحاجة الى الاصلاح فى التعليم المصرى ، والعلم
والمجتمع . وبعد رحيل الحملة الفرنسية ، سافر (العطار) الى سوريا
والاناضول (١٨٠٢ - ١٥) وتزوج بتركية خلال اقامته فى
الاناضول (١١) . جاءت ذروة نفوذ العطار فيما بعد عندما عاد الى مصر
وعينه محمد على شيخا للأزهر ومحررا للجريدة المصرية الرسمية (الوقائع
المصرية) . فى ذلك الوقت اقام (رفاعة) صلته الوثيقة بالعطار ، وقامت
صداقة حميمة بين الرجلين . وقد أصبح (رفاعة) مدينا فيما بعد لهذه
الصداقة ، حيث ان العطار هو الذى فتح الباب للفرص العديدة التى
جاغت له .

فعلى سبيل المثال ، عندما سئل محمد على (العطار) ان يسمى
له اماما ليؤم أول بعثة تعليمية مصرية الى فرنسا عام ١٨٢٦ ، اختار العطار
(رفاعة) . فقضى (رفاعة) خمس سنوات رائعة ومنتجة فى باريس .
وعندما عاد رفاعة الى مصر عام ١٨٣١ ليبدأ عملا ممتازا فى الحكومة ، يبدو
أن العطار هو أيضا الذى اقترح عليه أن يكتب دراسة عن تجاربه فى
فرنسا . وقد أصبحت هذه الدراسة بالطبع هذا العمل الناجح « تخلص
الابرين فى تخلص باريز » (١٢) .

بالقطع لم يكن متوقعا من (رفاعة) أن يتعلم الفرنسية وهو امام
للطلبة المصريين الذين يدرسون فى باريس . ومع هذا فانه بدأ دراسة
اللغة بمجرد ان تركت الباخرة الميناء ، وفى وقت قصير استطاع ان يتوفر

على معلومات في ميادين معينة في التاريخ ، الجغرافيا ، الفلسفة ،
والادب (١٣) . كان مدير البعثة المصرية في باريس هو ادموند - فرانسوا
جومار Edmond Francois Jomard ، الذي كان عضو حملة
نابليون عام ١٧٩٨ وفيما بعد مشرفا على نشر العمل التذكاري
Description de l'Egypt . كان جومار بحكم التخصص مهندسا ،
لكنه كان جغرافيا ضليعا أيضا وربما استطاع أن يحيل أفكار (الطهطاوى)
الخاصة الى هذا الاتجاه (١٤) . وبالإضافة الى جومار فقد كان (الطهطاوى)
محظوظا بما فيه الكفاية لأن يتصادق مع بعض مشاهير المستشرقين
الفرنسيين في ذلك الزمان أمثال سلفستر دى ساسى Silvester de Sacy
فى الكوليج دى فرانس Collège de France ، كوسان دى برسيفال
Coussin de Perceval فى الايكول دى لانج اورينتال Ecole de
langues Orientales ، وجوزيف رينو Joseph Reinaud فى
المكتبة الوطنية Bibliotheque Nationale (١٥) . ومن السهل تصور
ما الذى كان حتما يدور فى أذهان هؤلاء الناس من أفكار ، حيث أن سنة
١٨٢٢ سجلت فك الأثرى شامبليون Champollion لأسرار
الهيروغليفية المصرية . ولا شك ان الطهطاوى كمصرى كان سريع الاستجابة
لهذا الكشف الكبير وما سببه من إثارة ، وأظهر من جانبه اهتماما حيويا
بمصر الفرعونية (١٦) . ولابد انه ناقش التاريخ الاسلامى مع دى ساسى
de Sacy وآخرين ولابد انه لاحظ الاختلافات الضخمة فى
المنهجية التاريخية بين مصر وأوروبا . فحقيقة ان التاريخ كان يعتبر مهنة
ذات شأن فى أوروبا قد أصابته بهزة شديدة .

لقد اعتبر الطهطاوى ان اقامته المؤقتة فى باريس فرصة عظيمة أكثر
منها تضحية . فما يوصف به عادة الأزهرى بضيق الأفق والتخوف من
التلوث بالغرب المسيحي لا ينطبق على سلوكه تجاه هذه التجربة
الفريدة (١٧) . فقد اغتنم الفرصة (وجوده فى فرنسا) الى أقصاها بادئا
بالحصول على البراعة فى اللغة الفرنسية ، ثم بعد ذلك قراءة كم كبير من
الموضوعات (١٨) . أصبح التاريخ والجغرافيا هما أفضل الموضوعات
عنه ، وضمت بعض دراسته الرئيسية :

- (١) بحث فى التاريخ القديم (٢) مدخل الى الفلسفة الاغريقية (٣)
- كتاب فى الأساطير اليونانية (٤) كتاب ديبينج (Depping)
- Les moeurs des peuples (٥) تاريخ مونتسكيو Montesquieu عن
- الامبراطورية الرومانية (٦) ترجمة عن نابليون (٧) كتاب مالتبرون
- Universal Geography (Malte-Brun) (٨) كتاب مونتسكيو
- l'esprit des lois (Montesquieu) (٩) أجزاء من أعمال فولتير Voltaire
- وكونديلاك Condillak (١٩) .

والى جانب القراءة فقد وجد الطهطاوى وقتا اثناء وجوده فى باريس ليترجم اثنا عشر عملا فرنسيا الى العربية ، بما فى ذلك تاريخ الاسكندر الأكبر ، ودراسة فى العلوم السياسية ، وجزء من جغرافية مالتبرون Matle-Brun السابق ذكرها (٢٠) .

وبينما كان الطهطاوى يمارس مهام وظيفته الدينية (كامام للبعثة التعليمية) فى باريس تعرف على مساحات عريضة من الثقافة الأوروبية . وعندما عاد الى مصر عام ١٨٣١ ، كان نجمه لا يزال فى صعود . فقد استقبله ابراهيم باشا شخصا فى الاسكندرية ، وكافاه على خدماته بمنحه ٣٠ فدانا فى منطقة الخانكة . وعين وقتئذ مترجما لمدرسة الطب الجديدة . وهى أول مرة يتولى فيها مصرى هذا المنصب . وخدم أيضا لمدة كترجم بمدرسة المدفعية ، لكن أهم منصب له الى حد بعيد كان نظارة مدرسة الألسن ، التى أسست عام ١٨٣٥ لتعليم (العلوم التكميلية) كالتاريخ ، الجغرافيا والرياضيات . وقد اضيف عام ١٨٤١ (قلم الترجمة) الى مدرسة الألسن ، وسنناقش كلاهما فى الفصل الخامس بالتفصيل . ظل الطهطاوى ناظرا لمدرسة الألسن (الترجمة بعد ١٨٤١) للستة عشر عاما التالية . بل وأوكل اليه تحرير (الوقائع المصرية) لزمنا ، واعترافا بفضلته وتفوقه فقد رقا محمد على (فى ١٨٤٤) الى رتبة (القائمقام) . وفى ١٨٤٧ تلقى ترقية اضافية الى رتبة (الأميرالاي) مع منحة من الأرض قدرها ٢٥٠ فدانا — وكذلك حديقة مساحتها ٣٦ فدانا لقاء الانتهاء من ترجمة جغرافية مالتبرون Malte Brun وقد اضاف (سعيد) فيما بعد ٢٠٠ فدان الى هذه الأملاك المتزايدة بسرعة ، وأضاف اسماعيل الى هذا ٢٥٠ فدانا أخرى (٢١) . وهكذا فبالرغم من اصوله المتواضعة ، فان الطهطاوى أصبح فى ذلك الوقت أحد كبار أثرياء مصر (٢٢) .

ولم يحدث لرفاعة أن خشى طوال حياته الوظيفية على مستقبله ورفاهيته سوى مرة واحدة . وكان هذا فى عهد عباس الذى تولى السلطة عام ١٨٤٩ واغلق بسرعة اغلب منشآت جده المدرسية الجديدة . وفى العام التالى ارسل رفاعة (أو نفى كما يزعم) الى السودان . ولا تبدو أسباب عباس فى ابعاده واضحة ، لكن هناك على الأقل ثلاثة احتمالات محددة :

(١) احتواء الطبعة الثانية من تخلص الابريز عام ١٨٤٩ على فقرات تنقد مبدأ الحكم المطلق .

(٢) مؤامرات على مبارك ضده .

(٣) غيرة بعض مشايخ الأزهر ، الذين شعروا انه كان يتعدى على وظائفهم كمعلمين للشباب المصرى .

لكل هذا ، فان (الطهطاوى) حاول أن يفيد أحسن فائدة من سنواته الثلاثة فى الخرطوم . فقد تركت له واجباته التعليمية كمدير للمدرسة المصرية وقتما لينجز الترجمة العربية لكتاب فنيسلون Les aventures de Telemaque (Fenelon) الذى نشر فى بيروت حيث كان أكثر صراحة فى نقد الحكم المطلق من (تخلص) (٢٣) . وأسند الكثير من واجبات (رفاعه) السابقة الى معاصره الأصغر سنا والأقدر (على مبارك) الذى يبدو انه كان حائزا على ثقة عباس الكاملة . لهذا فانه كان لبعض الوقت المنافس الرئيسى (لرفاعة) فى العطف الملكى .

ومع تولي سعيد السلطة عام ١٨٥٤ أعيد رفاعة الى مصر وأرسل مبارك الى (القرم) . ومع هذا فان انشغال سعيد باهتماماته بالإصلاح العسكرى وحفر قناة السويس ، أدى الى بقاء الطهطاوى لعدة أشهر بلا عمل (٢٤) . فى ١٨٥٥ عين وكيلا للمدرسة الحربية التى انشئت فى نفس السنة لتعليم الضباط مهام الأركان حرب General Staff . وعند تقاعد الكولونيل سيف Colonel Seves (سليمان باشا) بعد سنوات قليلة رقى (الطهطاوى) الى مدير لها . وخلال نفس الفترة كان ذا اثر فى حث الحكومة على القيام بطبع كتب الأدب العربى العتيقة مثل تفسير فخر الدين الرازى ومقامات الحريرى . وفجأة انتهت مهامه الرسمية فى ١٨٦١ عندما قرر سعيد إلغاء المدرسة الحربية . وعلى مدى العامين التالين ظل (رفاعه) بلا عمل مرة أخرى (٢٥) .

بتولى اسماعيل الخديوية عام ١٨٦٣ بدأ ما يسمى بالنهضة المصرية . كان اسماعيل أكثر وافضل تعليما من سابقيه ، وبخطط بعيدة المدى للإصلاح والرغبة فى ان يجعل من مصر « قطعة من أوروبا » . ولمثل هذا المشروع الطموح فقد احتاج الأمير الجديد الى مواهب كل الرجال المتعلمين ، وبرغم سنى (رفاعه) الطويلة التى كان يحملها على كتفيه فقد أصبح مرة أخرى قطبا محوريا فى هذا المشروع . عينه (اسماعيل) فورا مديرا لقلم الترجمة الذى أعيد احياؤه ، والذى كان دوره الأساسى وقتئذ هو ترجمة كود نابليون (Code Napoleon) ووثائق قانونية أخرى الى العربية . أعيد كذلك فتح (مدرسة الألسن) فى ١٨٦٨ تحت مسمى (مدرسة الادارة والألسن) ، رغم ان رفاعة لم يخدم فى هيئة التدريس بها . فقد كلف من قبل اسماعيل بمهام أعظم وأصبح العضو الوحيد الدائم فى قوسبيون المدارس (٢٦) .

وسوف نجرى بالطبع تقييما لكتابات الطهطاوى التاريخية فى مواضع أخرى من هذا الفصل . من الواضح بالفعل أن أهمية الطهطاوى للدراسات التاريخية والتعليم بصفة عامة فاقت انتاجه الأدبى . لقد لعب (رفاعه)

دورا انشائيا فى مناطق كثيرة مختلفة ، وكانت خدمته الأعظم لبلده هى نفوذه الواسع والمنتشر على التلاميذ (٢٧) . وترجم هو وتلاميذه فى مدرسة الألسن ما يربو على ١٠٠٠ كتاب الى التركية والعربية (٢٨) . وكان أغلب هذه الكتب فى مجالات تقنية متنوعة ، لكن القائمة الآتية تضم نماذج قليلة من النصوص التاريخية والشبه تاريخية الكثيرة :

١ - اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى أوزوبا - ترجمة خليفة محمود .

٢ - اتحاف ملوك الزمان بتاريخ امبراطورية شارلكان - ترجمة خليفة محمود .

٣ - نظم الآلىء فى السلوك فىمن حكم فرنسا من الملوك - ترجمة عبد الله أبو السعود .

٤ - قناسة أهل العصر فى خلاصة تاريخ مصر - ترجمة عبد الله أبو السعود (من تاريخ ماريوت بك (Marriot) عن مصر القديمة) .
٥ - كتاب غاية الأدب فى خلاصة تاريخ العرب - ترجمة محمد عبد الرازق (من تاريخ سيديلوت Sedillot عن العرب) .

٦ - برهان البيان وبيان البرهان فى استكمال واختلال دولة الرومان ترجمة حسن الجبيلى (٢٩) .

وقد ساعدته جهوده الصحفية على ان يلفت الانتباه الى موضوعات ذات أهمية تاريخية . فقد استطاع من خلال تعيينه محررا (بالوقائع المصرية) عام ١٨٤٢ ان يوجه الصحيفة الى حد ما نحو الاهتمام بالأنباء رغم العين المراقبة التى كان يسلكها حاكم مصر على مثل هذا الأمر . وتحت ادارة الطهطاوى ، على سبيل المثال ، بدأت اللغة العربية تتسيد على التركية (٣٠) وتحول محور نشاط الصحيفة من مجرد مدح الحاكم الى مناقشة الأحداث الجديدة بالنشر ، ومن مجرد النشر التقريرى الى تحليل نقدى أكثر للشئون الداخلية والخارجية (٣١) . فتحت حكم محمد على كان الحذر واجبا ، ولذلك فان النتائج كانت مع هذا هزيلة .

خلال عهد اسماعيل حصل الطهطاوى على فرصة ثانية فى الصحافة ، وفى هذه المرة سمح له بحرية أكثر فى العمل . ففي ١٨٧٠ عينه (على مبارك) محررا للجريدة الجديدة (روضة المدارس) التى أنشئت من أجل إعادة احياء اللغة العربية والثقافة ونشر (المعارف الحديثة) (٣٢) . وقد نشرت (روضة المدارس) مقالات تغطى مجالات واسعة من الاهتمامات ، بما فى ذلك التاريخ . وشارك الطهطاوى نفسه فى كثير من هذه المقالات ،

وظهرت ترجمته للرسول عليه الصلاة والسلام في هذه الجريدة لأول مرة في شكل حلقات متتابعة . وفيما بعد نشرت هذه الترجمة في شكلها الكامل (٣٣) .

ومع ان اهتمامات الطهطاوى الخاصة كانت في التاريخ والجغرافيا ، الا انه كان يضع في الاعتبار دائما رغبات حاكم البلاد في قصر جهوده على الميادين التقنية كالرياضيات والعلوم الطبيعية والتطبيقية ، والقانون . ومع ذلك فقد عمل على توجيه اهتمام ضخم تجاه الاهتمامات التي اعتبرها هو نفسه جديرة بالدراسة ، بل ونجح لفترة ما في أن ينشئ مدرسة التاريخ والجغرافيا - وهي دلالة واضحة على الأهمية التي اولاهها لهذه الموضوعات (٣٤) . لقد كان الطهطاوى بحق موظفا حرا ، وكان في قدرته ان يشيد مشروعات أكثر طموحا . ولا نعرف ما اذا كان قد حاول ان يوظف اهتمام محمد على بالتاريخ ، لكنه بالقطع قد شجع تلاميذه على متابعة الدراسات التاريخية .

الى جانب وظائف الطهطاوى كمعلم ، مدير ، ومترجم ، فقد كان أيضا كاتباً . ويعدد (بدوى) ثمانية وعشرين عملا من انواع مختلفة كتبها ، أو ترجمها ، أو أشرف على تحريرها - وهو انجاز ضخم ، اذا وضع في الاعتبار تعدد واجباته الأخرى (٣٥) . ومن بين هذه الثمانية وعشرين عملا - اعمال تاريخية وشبه تاريخية الى جانب أربعة دراسات كبيرة كتبها الطهطاوى نفسه .

١ - مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية .

٢ - تخلص الابريز في تلخيص باريز .

٣ - أنوار توفيق الجليل في اخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل .

٤ - نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز (٣٦) .

وسنناقش كلا من هذه الموضوعات في دوره .

من بين هذه الأعمال الأربعة ينحصر اهتمامنا (بمناهج الألباب) . فهو الوحيد الذي يناقش التاريخ المصرى الحديث ، ومع هذا فانه ليس تاريخا على الإطلاق - اذا تكلمنا بتحديد (٣٧) . فالمحتوى التاريخي في الغالب يأتي اتفاقا وهو واحد فقط من بين عدد عظيم من الموضوعات التي يحتويها الكتاب ، كالأخلاق ، الصدقات في الاسلام ، الشعر ، مناهج التعليم ، التوفيق بين أحزاب الدينية المختلفة في الدولة ، اصلاح الحكومة المحلية ، تفسير القرآن ، حديث ، الجغرافية المصرية ، الخ . و (مناهج) في الواقع خليط من المعلومات دون وحدة بنائية من أى نوع . وهو يحتاج

الى تفكير وملاحظة كبيرين للتحقق حتى من أمل الطهطاوى فى ان يحققه من هذا الكتاب .

ويبدو أن اهتمام الكاتب هو بما يسميه (المنافع العمومية) . والمصطلح العربى ، مع هذا ، غير واضح ، وان المرء ليعجب عن أسباب تجنب الطهطاوى لمفاهيم تقليدية أكثر (العمران) . ان عدم ملائمة مصطلحاته تجبره على توسيع تعريفه السابق (المنافع العمومية) ، ثم ينطلق ليفرق بين معنيين أساسيين لتمدين الناس :

(١) من خلال الدين ، الذى سيرفع الناس أخلاقيا (٢) من خلال (التمدن المادى) كالتقدم فى الزراعة ، التجارة والصناعة (٣٨) . ويقرر ان (الصناعة) تماثل (المنافع العمومية) (٣٩) .

اذا كان هذا يبدو واضحا بما فيه الكفاية ، فان مؤلفنا مع هذا يناقض نفسه عندما يزعم ان (المنافع العمومية) يمكن ان توازى كلمة Industrie (صناعة) الفرنسية (٤٠) ، مستبعدا بذلك الصناعة والتجارة من التعريف . وربما كان هذا التناقض راجع الى رغبة (الطهطاوى) فى تملق (السان سيمونية) (٤١) التى كانت البدعة السائدة فى فرنسا وقت اقامة الطهطاوى بها ، وربما أخذ المصطلح معه الى مصر . ومن غير المحتمل أنه قصد استبعاد الزراعة والتجارة من التعريف ، أى أننا اذا حكمنا من هذا التأكيد انه من بين الاشكال الثلاثة للنشاط الاقتصادى - الزراعة ، التجارة ، والصناعة - فان الزراعة هى الأكثر نفعا (٤٢) . ويحتمل ان يكون الطهطاوى قد انغمس فى بعض التفلسف اللغوى عندما أضاف مصطلح (Industrie) فان كان الأمر كذلك ، فان الفحوى العام لبقية المناقشة تشير الى أن تعريف (حوراني) « للمنافع العمومية » بأنه هو « النشاط الاقتصادى Economic activity يكون قريبا جدا الى ما قصده (الطهطاوى) بهذا التعبير (٤٣) .

ورغم ان النشاط الاقتصادى هو نقطة اهتمام العمل ، فان (رفاعه) مع هذا يتكلم عن تشكيلة من الموضوعات الأخرى . فالكتاب يبدأ بشرح موجز لمصر ، جغرافيتها ، ودورها التاريخى المجيد الذى لعبته (٤٤) . هذه هى « المقدمة » . يلى ذلك خمسة فصول (٤٥) وخاتمة . فى الفصل الأول يكتب بلا ترابط حوالى مائة صفحة دون موضوع أساسى واضح أو غرض . ثم ينقلب سريعا جيئة وذهابا من التفسير الى الحديث الى الشعر ، ورغم محاولة معتدلة عارضة لتقديم تبرير دينى لبعض (الأفكار الجديدة) التى يقترحها أو يقدمها فيما بعد فى الكتاب ، فانه لا يوجد مع هذا أى وحدة عضوية فى المناقشة (٤٦) .

فى الفصل الثانى (٤١ صفحة) يكتب (رفاعه) عن التاريخ القديم والوسيط وعلى وجه الخصوص عن المنجزات العلمية العظيمة للعرب كاختراع البوصلة ، وتفوق العرب فى صناعة الساعات ، والخبرة السورية فى صناعة الصباغة الخ (٤٧) ويقاد القارىء الى نتيجة خلاصتها انه اذا كان العرب علماء عظام وتقنيون فى الماضى ، فانهم يمكن ان يصبحوا كذلك فى المستقبل .

ويتنم الفصل الثالث (٣٧ صفحة) فى الغالب وخاصة بالتاريخ القديم . ويشير رفاعه الى (بابيلون ، Babylon) القديمة على انها (مملكة عربية) وبالطبع فانه يكتب عن الانجازات الخالدة لمصر فى ظل الفراعنة . ويتكلم بصورة انتقائية عن الشخصيات البارزة فى التاريخ الغربى القديم مثل سولون Solon ، الاسكندر الاكبر والبطلمة (٤٨) ، وفى صفحتين يقفز من البطلمة الى عهد محمد على . ويذكر فى هاتين الصفحتين ان المماليك والعثمانيين هم الذين تسببوا فى تدهور مصر من وضعها المجيد السابق (٤٩) .

يبدأ الفصل الرابع بمدح مطول لمحمد على ثم ينتقل بعد ذلك للحديث باختصار عن الحكام العظام مثل « مولانا » سليمان العظيم ، فرنسيس الاول ، ولويس الرابع عشر . ويعاق الطهطاوى باستحسان على استخدام لويس الرابع عشر لرجال أمثال كولبير Colbert وتورين Turenne والتضمن هنا يتصل باستخدام محمد على أيضا لرجال ذوى قدرات مؤكدة بدلا من ذوى الأصول الاجتماعية (٥٠) . وينتهى الفصل بنظرة الى مشروعات محمد على الاصلاحية العديدة (٥١) .

والفصل الخامس عبارة عن قائمة باصلاحات أخرى يرى (الطهطاوى) اننا قد تكون مفيدة للتخطيط فى المستقبل ، كالاصلاح الزراعى ، استيراد شجر التوت وماعز المارينو ، وتشجيع زراعة القطن ، وقصب السكر ، وانتاج الماشية (٥٢) . ويشير الى أن المخترعات « الحديثة » كالتلغراف ، السكك الحديدية ، والخدمة البريدية كان لها مقابل اسلامى متمتع بالقداسة التى اقدم (٥٣) . وينتهى الفصل بحاشية سياسية تقود مباشرة الى « نتيجة » يناقش فيها الطبقات الاجتماعية ، حقوق الحكام ورعاياهم ، الواجبات المدنية ، وضرورة تسجيل خدمات موظفى الخدمة العامة المستبشرين (٥٤) . وكل هذه الأشياء لا تمت للتاريخ بصلة ولا تعيننا فى شيء (٥٥) .

لم يكن القصد من (هناهج) ان يكون تاريخا بل كدليل ثقافى عام لزمانه . ورغم أنه قرىء على مستوى واسع ولاقى تقديرا ، فان أمل الطهطاوى فى أن يدمج فى المنهج الدراسى فى جلول مدارسنا رُسُخنة معينة

لم يتحقق تماما (٥٦) : كان عدم انتظام الكتاب موحيا بالمدخل الوسيط للتاريخ كأدب عام ، رغم انه في مظاهر أخرى اختلف جوهريا عن كتابات العصور الوسطى . وربما كان الطهطاوى قد قصد منه ان يكون نسخة مصرية مما اتصل بعلمه في فرنسا كالاقتصاد السياسى *Economie Politique* رغم أنه في هذه الحالة كان لديه معرفة ضئيلة بهذا العلم شديد الصعوبة والتعقيد .

ومع هذا فإن (مناهج) اقتحم في بعده التاريخى أرضا جديدة هامة ، ولأول مرة ابتعد التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر عن التقنيات الحولية القديمة بعنف . كان العمل موضوعاتيا *topically* أكثر منه حوليا ، وعملت موضوعاته تحليليا أكثر منه وصفيا . وكأى مؤرخ آخر ، فقد كتب الطهطاوى من وجهة نظر معينة اشتملت فى حالته على :

(١) الفخر بمنجزات العرب الماضية (٢) الإعجاب بفرنسا والثقافة الفرنسية (٣) الولاء للأبيرة العلوية (٥٧) .

وكل هذه الأشياء انحيازات واضحة ، وبناء على ذلك فإنها يجب ان توضح فى الاعتبار فى أى تقدير لعمله . ومع هذا فان وضع ارثه العربى - المصرى ووظيفته فى الاعتبار ، ينبغى ان يتوقع معه أن تعكس كتاباته مثل هذه الاتجاهات . وفي الواقع فانه لا يوجد استغراب مع هذه الاتجاهات ، طالما كان فى استطاعته ان يقدم دليلا تاريخيا قويا ليدعمها .

ولا يخفى (مناهج) اعجاب (الطهطاوى) بمحمد على ويرمز اليه عامة بـ *Cennetmekan*) وهو تعبير تركى يسبغ الاحترام على الحاكم المتوفى (٥٨) . فيبدأ بمناقشة عهد محمد على فى أسلوب عصور وسطى متأخرة ، بانيا تعبيرا سجعيا مزخرفا على آخر لصفحتين كاملتين (٥٩) . (لم يكن متصورا فى وقته ان يخاطب حاكم مهيب بطريقة أخرى غير هذا .) وعلى خلاف كتاب العصور الوسطى ، مع هذا ، فانه يذهب الى تعديد أسبابه التاريخية فى اعجابه . فيذكر ، على سبيل المثال ، ان محمد على هو الذى حرر مكة والمدينة من الوهابيين ، الذين جعلوا من الحج مهمة خطيرة (٦٠) . ويكتب عن الحرب فى اليونان ، مزودا ايانا بمعلومات قيمة عن وجهة النظر المصرية لهذا الحدث ، ويؤكد ان الغزو المصرى للمورة كان محتملا نتيجة للهجمات اليونانية على المسلمين ومساجدهم . فاليونانيون - وفقا للطهطاوى - لم ينتهكوا (الشريعة العيسوية) فقط بل (النواميس الطبيعية) أيضا (٦١) . ولا يدخل فى المناقشة قضية الاستقلال أو الاستقلال الذاتى لليونانيين (وفى الواقع ، لماذا تدخل ؟) ، ولا يرى الطهطاوى فى هذه الحرب نوعا من التوسع الإقليمى من جانب محمد على .

بعد مقارنة محمد علي بلويس الرابع عشر ، و ابراهيم باشا بالجنرال تورين Turenne ينتقل الطهطاوى الى تقدير سياسات محمد علي الداخلية . ومع تمسكه بايمانه ان الزراعة هي أكبر مصدر قوة لمصر (٦٢)، فانه ينفق وقتا كثيرا لاصلاحات محمد علي الزراعية . ومع أن اختصاص الطهطاوى كان التعليم ، الذي كان يتصور ان يتباهى به فانه مع ذلك يقتصر على سبع صفحات ليذكر فيها اصلاحات محمد علي التعليمية بالمقابلة لتسعة عشر صفحة للزراعة . أيضا فانه يصف بصورة مطولة سياسات محمد علي في السودان ، وخاصة جهوده لاكتشاف مصادر جديدة من الثروة المعدنية (٦٣) .

وسواء اتفقنا مع وجهة نظر الطهطاوى أو لم نتفق ، فان كتابته عن محمد علي كان لها بلا جدال طعم حديث . لقد عرض نفسه بالطبع لتهمة الانحياز ، لكنه بفعله هذا فانه هز أيضا البنية المجدبة للتاريخ الحولى . وهذا المظهر لكتابات يجعله أكثر حداثة من الجبرتي . فبينما تأتي بصيرة الجبرتي بصورة عرضية الى حد ما ، فان بصيرة الطهطاوى عبارة عن نتيجة مباشرة للاتجاه الجديد الذي يأخذه في الكتابة التاريخية .

هناك علامة مميزة في كتابات الطهطاوى ، فبالخلاف لكتابات الجبرتي تبدو التقارير الناشئة وغير الناضجة للقومية المصرية التي تحتويها هذه الكتابات . وهذا النوع من الانحياز قد ظهر كسمة مشتركة للنشاط الثقافي والفكري في القرن التاسع عشر بصفة عامة (٦٤) ، وفي حالة مصر فان بعض الاحساس بشخصية اقليمية منفصلة ظهرت حتى قبل القرن التاسع عشر . ومن المشكوك فيه امكانية تسمية هذا الاحساس (قومية) بالمعنى الحقيقي للكلمة ، رغم ان المثقفين الغربيين والعرب ليسوا على اتفاق تام على هذه القضايا (٦٥) .

وأيا كان تفكير المرء عن (القومية) في العصور الوسطى أو القديمة ، فان (القومية) كانت قد ظهرت في وقت (الطهطاوى) ، وتركت وشما لا يمحي في كتاباته ، كما في (مناهج) على سبيل المثال عندما يقرر انه قد كتب الكتاب كخدمة (للوطن) (٦٦) وهو لا يهدى العمل لمحمد علي ولكن لمصر ، « في ذكر هذا الوطن وما قاله في شأن تمدينه أرباب الفطن » (٦٧) . وليبرر هذه الاحاسيس فانه يستشهد بالتقليد النبوي (حب الوطن من الايمان) (٦٨) . ويتبع هذا سلسلة من الأشعار الحماسية الوطنية (٦٩) . وفي موضع من كتابه يشير الى مصر بأنها « أم الدنيا » وهو ما يعنى أنها متميزة عن وأفضل بعض الشئ من سوريا أو العراق (٧٠) .

ولا يبدو اذا ان هناك مبالغة في القول بان الطهطاوى كان قوميًا مصريًا (٧١) . فقد تكون القومية قد مرت بعض التهذيبات الايديولوجية

المعينة في العصور التالية ، لكن هذا لا يغير من الدافع وراء هذه الأحاسيس .
فعند الطهطاوى عملت « القومية » حتى من المنظور المفرط في الرومانسية
التي فهمها به كواقع للكتابة التاريخية وكذلك كمحدد أساسى للمدخل الذى
يتخذه (الكاتب) تجاه الموضوع . فقد اسرف فى تخصيص كتابته لوطنه
واعتبر هذا بلا شك كعاطفة نقية ، نبيلة ، وطبيعية كلية . ويحتمل انه
لم يتضح له ان صراعا فلسفيا قد يثور بين التفانى نحو « الوطن » والتفانى
« للحقيقة التاريخية » .

من الناحية المثالية فان الطهطاوى كان يجب عليه ان يتبين هذه
الامكانية ، لكنه فى الواقع لم يضع نفسه فى المشاكل . فهو أساسا كان
رجلا أميناً ولم يحاول بادراك ان يشوه أو يزيّف السجل التاريخى . وكتب
دون ارتباك من وجهة نظر مصرية ، لكنه كان حذرا فى دعم مواقفه نحو
المادة اللازمة وبالإضافة الى ذلك فان « قوميته » كان لها مظاهرها الايجابية ،
التي ساعدته فى بعض الأحيان على ان يضع فاصلا بين نفسه والأسرة
الحاكمة فى مصر ، التي كانت مسئوليتها - كما زعم الطهطاوى - هى
حكم البلاد بحكمة . ولقد قال انه يمكن للتاريخ ان يؤدي خدمة فى تحويل
الحكام عن التصرفات الباطشة التي قد تتهمهم بها الأجيال القادمة (٧٢) .
لم تترك مهام الطهطاوى العديدة كادارى ، محرر ، مترجم ، معلم ،
وأديب - له وقتا كافيا ليخصصه للأبحاث التاريخية المحضة . وبالإضافة
(لناهج) يبدو انه كان عنده آمال فى كتابة تاريخ متعدد الأجزاء عن مصر
من العصور المبكرة وحتى القرن التاسع عشر ، ولكن مع نهاية القرن فانه
كان قد انجز فقط جزءين فقط من السلسلة التي أرادها - أحدهما عن
مصر القديمة والآخر عن الرسول وبواكير الاسلام . وحاول فى كل من
الحالتين ان يجعل عمله متفقا مع المقاييس التاريخية الحديثة - مثلما فعل
فى (مناهج) . فعلى سبيل المثال ادمج فى دراسته عن مصر القديمة
تشكيلة واسعة من المصادر الأوروبية والعربية بل وضمنها قليلا من
الاكتشافات الأثرية الحديثة الكثيرة (٧٣) . لقد تحقق من ان مجرد التاريخ
الحولى لا يكون مجددا ، ومن ثم فانه حاول أن يذهب فيما تحت سطح
الأحداث (٧٤) . لقد استقبل الكتاب استقبالا حسنا ، دالا على أن حدائته لم
تنجح كثيرا عند الأتقياء ، المسلمين المتعلمين جيدا ؛ ذلك انه كان على
الطهطاوى أن يكون حريصا على ألا يضايق المعتقدات الدينية الراسخة .
وتبعاً لذلك فقد فسر مجرى التاريخ القديم على انه يعزّز أجزاء معينة من
القرآن ، بل وأكثر من ذلك سذاجة فقد قبل بعض الخرافات والأساطير
التي رغم انها مسلية ، الا أنها لم تشكل جزءا من أى معالجة تاريخية فى
الموضوع (٧٥) .

كان الجزء الثانى من سلسلته التي لم تكمل عن حياة محمد (عليه

الصلاة والسلام) . وكما يتوقع ، فإن المعالجة هنا كانت حذرة ومتحفظة ،
وانحجم الطهطاوى بأمانة مع التفسير الأدبى للقرآن (٧٦) . وفى احدي
النقاط الهامة منلت ترجمة الطهطاوى للنبي (عليه الصلاة والسلام)
عندما آخر فى التكنيك . فلأنه كان غير قانع بأن يكتب مجرد تاريخ حولي ،
فقد حاول بدلا من ذلك ان يضمن فى دراسته دراسة مستفيضة عن
المؤسسات الإسلامية المبكرة - وهى بدعة هامة فى زمانه ، ربما يكون
قد أوحى له بها قراءاته لتاريخ فولتير Voltaire عن لويس الرابع
عشر ، الذى حاز شهرة لهذا السبب بالتحديد . وأيا كان الايجاز ، فإن
نهاية الايجاز ، اثبتت ان الطهطاوى كان مدركا للاتجاهات الجديدة التى
كان التاريخ الأوروبى فى القرن التاسع عشر يتخذها (٧٧) .

أما العمل الرابع والأخير للطهطاوى فكان « تخليص الأبريز فى
تخليص باريز » ، الذى اجتاز ثلاث طبعات فى مصر وحدها ، وترجم
فيما بعد الى التركية ، محققا انتشارا واسعا فى استانبول كما فى
مصر (٧٨) . كان (تخليص) عبارة عن قصة رحلة وليس عملا فى التاريخ ،
لكنه احتوى مظاهر معينة سوف تساعدنا على فهم الطهطاوى نفسه بصورة
أفضل . فهناك شيان عن (تخليص) لهما أهمية خاصة .

أولا ، فإن (تخليص) يضم ثروة من التفاصيل وعمقا فى التعليق
نذكر فورا بوصف (الجبرتي) للفرنسيين . يفحص (الطهطاوى) كل
مظاهر الحياة الفرنسية - السياسية ، وضع المرأة ، عادات الأكل ، الأثاث ،
العلوم ، الخ . وهو ليس مجرد مراقب مدقق فقط للمشهد الفرنسى ، فهو
كالجبرتي لا يتردد فى التعليق بشخصيا على ما يصادفه (٧٩) .

وهكذا فإن (تخليص) يجوز الإحساس بالدهى والحيوية التى
لا يوجد مثيلا فى أى عمل أجبر من أعماله ، لأنه واجه بعض المظاهر
الأساسية كما واجه الجبرتي ، مثل الثقافة الأجنبية وطريقة الحياة التى
تطلبت تحليلًا مكثفا ونقدا . ولقد كان مختلفا كلية عن الكتابة عن الوطن
الذى يأتى منه الإنسان ، وهذا باد (مثل الجبرتي) عندما حاول دوين نجاح
فى (مناهج) ان يطبق نفس التقنيات .

والنظر الآخر فى (تخليص) هو أسلوبه ، الذى يمثل فى مظاهر
كثيرة تقدما أدبيا هاما . فرغم انه لا يستطيع ان يهجر السجع بأكمله ،
فانه فى (تخليص) بذل مجهودا جادا ولأول مرة ليقلل استخدامه بصورة
جذرية ، وأن يكتب بصفة عامة ، مباشرة وبدقة وإيجاز قدر استطاعته (٨٠) .
وبمقارنة (مناهج) و (أنوار) (بتخليص) فإن العملان الأولان ضعيفان
أسلوبيا تماما ، ويمكن تبين ذلك من الفقرة التالية :

« وسميتها مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية متحفها
بها حضرة ولى عهد هذا الوطن الشريف وحامى حمى مصر المنيف الوزير
الأعظم والمشير الأفخم الجامع لأسباب الفضائل والحكم والرافع لجمعية
المعارف تحت لواء أبيه أعلى علم من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق حضرة
محمد باشا توفيق لازال فى ظل والده متمتعا بطريف العز وتالده » (٨١) .

كان هذا السجع الأجوف اسلوبا من أساليب العصور الوسطى
التقليدية المتأخرة ، ومع هذا فان الطهطاوى لم يتردد فى استخدام هذا
الاسلوب فى (مناهج) . أما فى (تخليص الابريز) فان السجع أصبح
ندرة ، وحتى القصص تبدو أرفع كثيرا من قصص أعماله الأخرى ، واللغة
العربية فى (تخليص) تتدفق بسلاسة وسهولة دون اضاءة وقت
أو مسافة ، على نقيض أسلوب (مناهج) الغير متقن والمليء بالاطناب
والمقاطع الانتقالية المبتورة (٨٢) .

ولا يمكن تفسير أو شرح هذه التناقضات فى نطاق التطور الأدبى
الشخصى للطهطاوى (٨٣) . والتفسير الوحيد المقبول هو أن يكون
(تخليص) ، على خلاف « مناهج » « وأنوار » ، قد كتب أولا فى شكل
مسودة تمهيدية بينما كان الطهطاوى لا يزال مع البعثة التعليمية المصرية
فى باريس (ثم نقح بعد ذلك على مهل) . ولقد كان فيما يبدو مليئا
بالاخطاء النحوية والاسلوبية التى استطاع المستشرق الفرنسى سيلفستر
دى ساسى Silvester de Sacy ان يلفت النظر اليها (٨٤) . ومن
المثير للسخرية أن يكون دى ساسى de Sacy هو الذى ساعد الطهطاوى
فى صقل اسلوب الكتاب - وهو اختيار لم يبق قائما طويلا سواء بالنسبة
(لمناهج) أو (أنوار) لسوء الحظ .

لم يكن الطهطاوى - مع وضع كل شيء فى الاعتبار - مؤرخا من
الدرجة الأولى . فهو لم ير الكتابة التاريخية وظيفة أساسية فى الحياة
ولم يتناقش تشجيعا ملحوظا للجهود التى بذلها (فى هذا الصدد) . ومع هذا
فانه ليس صوابا استبعاد مساهمته كلية . فقد كان حديثا عن الجبرتى
فى أوجه كثيرة وكان لا يقل عنه دقة فى الملاحظة . وفى الأسلوب فانه يمكن
القول انه ساوى الجبرتى على الأقل ، واذا كانت له بعض الهنات تتعلق
بالاقتان والابهام فان هذا يعود الى محاولته أن يوضح مفاهيم أجنبية ومعقدة
لم تكن اللغة العربية مستعدة لتقبلها بعد . ومحاولته معاملة التاريخ بالتوكيد
على التنظيم على حساب العوامل الأخرى وأن يدمج نتائج البحث الغربية
فى روايته لم يفهما تماما بل ونفذا على غير المطلوب ، لكن هذا كان محاولة
(وفى الواقع ، أول محاولة) .

كتب الطهطاوى عن محمد على بطريقة جديدة ومبتكرة ، ركز على الموضوعات ذات المغزى كالزراعة ، التجارة ، والتعليم . لكنه كان فى الشكل شاردا ، ملأ عمله بالاستطراد وعدم التتبع . non sequiturs . وكان يعود باستمرار الى المناهج القديمة من العودة الى قضايا داخلية كالتقاليد أو الشعر المعروف جيدا . ومع هذا فخلال كتابته كان يحاول الحفاظ على رؤيته مثبتة على نوع جديد من التاريخ الذى يحمل قليلا من المماثلة للأنماط التى تعود الى العصور الوسطى مثل « حوليات السلطان - الباشا » . كان هذا هو ما أثبت فى النهاية انه غير قادر على تحقيقه . لكن الجبرتى فى هذا المقام لم يكن ليستطيع حتى ان يتصوره .

وعلى عكس الجبرتى - فان الطهطاوى نشأ فى جو من التغيرات الثقافية المستمرة . وكما لاحظ البروفيسور أنيس فانه لم يكن من المقبول لمثل هذا العهد ان ينتج مؤرخا فى منزلة الجبرتى (٨٥) . وكان على الطهطاوى ان يعمل فى موطن ثقافى انتقالى ، كما كان تحت رحمة نزوات حكام لم يكونوا على الاطلاق متعاطفين مع أى دراسات ليبرالية ايا كان نوعها . لقد أرسى الطهطاوى القاعدة وأقام المثل للأجيال المقبلة ، وحقق الكثير كمدير ، معلم ، ومؤلف . واذا اخذنا ما حققه بتماميته فان هذه المنجزات كانت مدهشة . وهى تبرر رتبة التفوق والتميز التى حازها فى اعين بنى وطنه .

حواشي الفصل الرابع

- (١) أنيس « مدرسة التاريخ المصري » ص ١٦ .
- (٢) ادوارد س . كريزي Edward S. Creasy
"History of the Ottoman Turks" (Beirut : Khayats, Oriental Reprints, no. 1, 1961), pp. 456-59.
- (٣) يخلص فردري Verdery من تقارير المراقبين المعاصرين الى ان محمد علي تعلم القراءة في وقت ما في الأربعينيات من عمره .
فردري Verdery
"Al-Jabarli", p. 7.
- (٤) زياده Ziada
"Modern Egyptian Historiography", p. 267.
- والشغال « تاريخ الترجمة » ص ١٦٦ - ٦٨ .
- (٥) جاك تاجر Jacques Tagher
"Mohammad Ali etudiat l'histoire et regardeait des memoires"
Chaiers d'histoire egyptienne 2 (1949) : 73-75.
- (٦) عن تقرير بورنج Bowring انظر الشغال
"A History of Egyptian Historiography", p. 19.
- (٧) رغم ان الكثير قد كتب عن الطهطاوى ، فإنه لا توجد دراسة عن دوره كدورخ . وهذا هو ما يعنى به هذا الفصل من التركيز على هذا المظهر من سيرته .
- (٨) أحمد أحمد بدوى « رفاة رافع الطهطاوى » (القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربى - بدون تاريخ) ص ١٢ .
- (٩) موريس شيمول Maurice Chemoul
"Rifaa Bey," EI (1913), III, 1155.
- قارن جبريل باير Gabriel Baer
"A History of Landownership in Egypt, 1800-1950."
London, New York, and Toronto : Oxford University Press, 1962), p. 49.
- (١٠) بدوى « الطهطاوى » ص ١٧ - ١٩ ، قارن جمال الدين الشغال « رفاة رافع الطهطاوى » نوابغ الفكر العربى « رقم ٢٤ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٨) ص ٢٢ .
- (١١) لعل غيابه المطول عن مصر والذي كان يعتبر غير عادى بصورة كبيرة بالنسبة لعالم فى زمانه ، يوحى بأنه ربما يكون قد وصم بالتعاون .

(١٢) ان أشمل دراسة عن حياة العطار وكتابات هي جران uerig
"Islamic Roots of Capitalism" p. 76.

انظر أيضا (١) سامى بدرأوى « الشيخ حسن العطار » - المجلة - رقم ٩٩ (١٩٦٥)
ص ٣٠ - ٣٥ .

٢ - بدوى « الطهطاوى » ص ١٦ .

٣ - الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٤٩ .

٤ - آيلون
Ayalon

"The Historian al-Jabarti", p. 243.

٥ - الشيال « الطهطاوى » ص ٢٤ .

٦ - عماره « الأعمال الكاملة » ص ٤٦ .

(١٣) الدسوقي « فى الأدب الحديث » ج ١ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(١٤) رفاعة بدوى رافع الطهطاوى « تخلص الابريز فى تلخيص باريز » تحقيق
مهدي علام وأحمد أحمد بدوى وأنور أوقا (القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبي وأولاده ،
١٩٥٨) ، ص ٥ - ٦ . ووفقا لمحمد عماره فان هذه الطبعة من (تخلص) يعيها حذف
متعمد يشوه معانى الطهطاوى . والنماذج التى يستشهد عماره بها (عمارة « الأعمال الكاملة »
ص ٢٤ - ٢٦) مع هذا لا توفر دعما مقنعا لمثل هذا الاتهام ، وتحقيقه هو لأعمال الطهطاوى
لا تقل فى الشك فى هذا المقام عن النسخة المصرية .

للمزيد عن هذا انظر حاشية ٥٥ من هذا الفصل .

(١٥) « تخلص الابريز » ص ٢٩ . وقد افترضت هنا أن الجملة العربية « دار الكتب
الفرنسية » تقابل جملة « المكتبة القومية الفرنسية »
Bibliothèque Nationale

(١٦) انظر على سبيل المثال ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٧) كان الطهطاوى شاذًا عن علماء زمانه من حيث اعتباره كل المعرفة - وليس فقط
العلوم الدينية - مفيدة .

عمارة « الأعمال الكاملة » ، ص ٢٢٧ - ٢٩ .

(١٨) الشيال « الطهطاوى » ص ٣٠ .

(١٩) هذا مركب مأخوذ من بدوى « الطهطاوى » ص ٢١ - ٢٢ ، ٢٧ - ٢٨ .

عوض « المؤثرات الأجنبية » ص ٢٠٠ .

« وتخلص الابريز » ص ٣٠ - ٣١ ، ٢٤١ .

(٢٠) بدوى « الطهطاوى » ص ٢٨ - ٢٩ . ولقد شاهدنا أن محمد على كان مهتما

بسير الرجال مثل الاسكندر الأكبر .

(٢١) الشيال « تاريخ الترجمة » ، ص ١٣١ - ١٤١ ، ويؤيد باير Baer

هذه الأرقام ويضيف أن الطهطاوى اشترى بصفة خاصة ٩٠٠ فدان خلال فترة حياته وأن
ورثته وسعوا أملاكه فى النهاية الى ٢٥٠٠ فدان .

باير
Baer
"Islamic Roots of Capitalism" p. 67.

(٢٢) بالاضافة الى العائد من هذه الأراضي ، فان الترقية الى رتبة اميرالاي (عميد)

حملت معها راتبا قدره ١٣٠٠٠ قرش شهريا . الدسوقي « فى الأدب الحديث » ج ١ ،
ص ٣٠ .

لقد خلقت جهود محمد علي في التحديث كثيرا من هذه الفرص لرجال من أصول متواضعة كالطهطاوى ، حيث ان محمد علي كان قد قضى أو حاول تجنب الاعتماد على الطبقة التقليدية الأولى والثانية (مشايخ الأزهر والأمراء المماليك) . وهكذا فان رتب الحكومة أصبحت مفتوحة لمن يفترف من الرجال الأجدد ، مثلما اعترف الطهطاوى نفسه بامتنان في تاريخه عن عهد محمد علي .

• قارن ص ٧٦ •

(٢٣) وبالتبعية فان العمل كان غير فعال كوسيلة « لتعليم » عباس عن شرور الاستبداد ، وهو ما دفع الطهطاوى الى ترجمته الى المقام الاول .

• عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦١ •

(٢٤) وفقا لمؤلف معين فان الطهطاوى قد اقترح (دون جدوى على ما يظهر) ان يقيم (سعيد) نظاما من المدارس الشعبية الابتدائية لتعليم جموع المصريين موضوعات كاللغات التركية والفارسية والعربية ، والتاريخ المصرى والعثمانى . . .

انظر ج • ت J. T. (يفترض ان يكون جاك تاجر) •

"La Creation d'eclos populaires en Egypte, selon un projet de Rifaa Rafee", Chaiers d'histoire egyptienne 1 (1944), 186-88.

• لنسوه النخط فان تاجر لا يقدم أى بينة لهذا التأكيد •

(٢٥) المعلومات التراجمية Biographical عن أنشطة وفاعه خلال عهدي عباس وسعيد قد أخذت من الشيال « الطهطاوى » ص ٣٩ - ٤٥ :

(٢٦) عن سيرة الطهطاوى في عهد اسماعيل انظر الشيال « الطهطاوى » ص ٤٦ - ٥٠ ، وبدوى « الطهطاوى » ص ٦٢ - ٦٣ •

• (٢٧) بدوى « الطهطاوى » ص ٩٤ - ٩٨ •

Moosa

(٢٨) موسى

"Modern Arabic Fiction", pp. 145-46:

(٢٩) يمكن الحصول على قائمة أكثر اكتمالا في بدوى « الطهطاوى » ص ٩٤ - ٩٥ •
ومما يؤسف له ان بدوى لا يكشف دائما عن الأعمال الأوروبية التي أخذت منها الترجمة •
(٣٠) طبقا لعمارة فان الطهطاوى نفسه كان هو مهندس هذا التغيير •

• عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٥٤ •

(٣١) ابراهيم عبده « اعلام الصحافة العربية » (القاهرة : مكتبة الآداب بالجمامير • ١٩٤٤) ص ٤١ - ٤٦ •

(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٩ •

(٣٣) بدوى « الطهطاوى » ص ٧٤ - ٧٧ • قارن عبده « اعلام الصحافة العربية » ص ٤٧ •

• (٣٤) الشيال « تاريخ الترجمة » ص ٣٨ - ٣٩ •

• وعمارة « الأعمال الكاملة » ص ٥٤ •

(٣٥) بدوى « الطهطاوى » ص ٣٥١ - ٥٣ • قارن عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٨ - ٨٤ ، ويؤزم حوزانى ان الطهطاوى نفسه قد قام بترجمات لحوالى ٢٠ عملا •

Albert Hourani

البرت حوراني

'Arabic Thought in the Liberal Age' 1798-1939.

(London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962), p. 71.

(٣٦) لقد استخدمت ترجمة حوراني لسجع « مناهج الألباب » .

Hourani

حوراني

"Arabic Thought", p. 72.

أما الترجمات الثلاث الأخرى فهي من تأليف

والواقع أن المؤلف قد خافه التوفيق فيما ذهب إليه من ترجمة لمؤلفات الطهطاوى -

كذلك فعل حوراني .

فبالنسبة لحوراني فقد ترجم كلمة « الألباب » بكلمة قلوب Hear's فقال على مناهج

الألباب المصرية The Paths of Egyptian hearts . وألباب في مؤلف الطهطاوى

تعنى العقول في اللغة العربية ومفردتها لب - واللبيب هو العاقل . وكان المفروض أن

يستخدم كلمة Minds

انظر مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان ،

بيروت ١٩٨٧ .

أما المؤلف فقد ترجم كلمة « تلخيص » بكلمة تصوير - تخطيط - وصف

delineation . وكان المفروض أن يستخدم كلمة تلخيص Abridgement

أو Summarising - ولم يكن هناك داع لترجمة باريس بجملته « المعرفة الباريسية

Parisian Tore . فكان المفروض أن يكون العنوان هو

The Purification of Gold ore in the Summarising of Paris.

كذلك فانه في ترجمة عنوان كتاب « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق

بنى اسماعيل - ترجم جملة « أنوار توفيق الجليل » بجملة The Glory and God-given

Resplendence. وهي تمنى مجد وعطاء الله المتألق - بينما المقصود في هذا المقطع

من العنوان هو الأمير محمد توفيق خديو مصر ١٨٧٩ - ١٨٩٢ والترجمة الصحيحة تكون

The Resplendence of Tewfik the Great.

ثم جاء في الشق الثاني من العنوان « في أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل ، فلم

يترجم « وتوثيق بنى اسماعيل » الترجمة السليمة واكتفى بقوله ونسل اسماعيل

and Ishmael's descendants - لكن الطهطاوى كان يقصد تأصيل سلالة الخديو

اسماعيل وعلى ذلك فان الترجمة الصحيحة تكون

and the genealogy of Ishmael's family

وجاء الخطا الثالث في ترجمة عنوان كتاب الطهطاوى الرابع « نهاية الإيجاز في سيرة

ساكن الحجاز » ، حيث اعتقد المؤلف أن « ساكن الحجاز » تعنى سكان بلاد الحجاز دون أن

يدرك أن « سيرة ساكن الحجاز » تعنى الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وعلى ذلك

فالترجمة الصحيحة هنا تكون

The final briefing on the biography of Prophet Mohammed

ولعل العذر الوحيد لخطا المؤلف هو احتمال انه لم يقرأ الكتاب . « فنهاية الإيجاز في

سيرة ساكن الحجاز » عبارة عن ترجمة للرسول عليه الصلاة والسلام بدأ الطهطاوى نشرها

على حلقات في مجلة روضة للدارس - ثم طبع في كتاب فيما بعد بمعرفة ابنه . في هذا

العمل تتبع رفاعة حياة الرسول منذ مولده الى وفاته ، وأفرد فصلا للحديث عن زوجات

النبي ، وفصلا عن معجزاته - وعقد فصلا عن نظام الحكومة في عصر النبي . وليس في الكتاب أى إشارة الى سكان الحجاز أو أى حجازى .

انظر الشيال « التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر » - المكتبة التاريخية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٥٨ - ص ٨٠ - ٨٣ .

المترجم

(٣٧) أسماء أحد الكتاب « دراسة عن التقدم الوطنى » .

جمال محمود أحمد "The intellectual Origins of Egyptian Nationalism (London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1960), p. 13.

ويرى آخر أن الدلالة الأساسية فيه تنبع من كونه انطباعة واضحة وجلية عن القومية المصرية .

أنور عبد الملك

Ideologie et renaissance nationale : l'Egypte moderne (Paris : Edition Anthropos Paris, 1969), pp. 222-23.

روصف جمال محمود أحمد أكثر ملأمة .

(٣٨) ربما يكون هذا قطعة مهذبة من التعديلية الدينية . فالطهطاوى يعامل الإسلام هنا كنافع أكثر منه صادق ، وبالإضافة الى ذلك كواحد من أى نظم دينية شرعية متساوية .

(٣٩) رفاعة رافع الطهطاوى « كتاب مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب المصرية » (القاهرة ، مطبعة شركة الرغائب ، ١٩١٢) ص ٧ - ٩ . ولا بد ان هذه هى النسخة التى يزعم عمارة أنها ظهرت عام ١٩١١ . والكتاب ظهر أول ما ظهر عام ١٨٦٩ .

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٩ .

(٤٠) مناهج الألباب ص ١٢٩ .

(٤١) السان سيمونية مذهب اشتراكى نشأ في فرنسا خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر - وينسب الى الكونت هنرى دى سان سيمون Claude Henri de Rouvroy de Saint Simon الذى كان يسعى لايجاد (أفضل السبل لنهضة الانسان والانسانية) . ارتأى سان سيمون ان تحقيق هذا المطلب لا يتحقق الا بوسيلتى العلم والصناعة . لذلك فقد دعا الى قيام دولة صناعية يديرها العلماء والمهندسون Technocrat الذين يشكلون حكومة الفنيين Technocracy

وان تستهدف دولة العلماء انتاج المفيد للحياة عن طريق استغلال قوى الطبيعة من خلال التعاون بين الافراد . كذلك فقد كان يرى باعتباره مؤسس الاشتراكية الفرنسية وجوب امتلاك المجتمع لأدوات الانتاج حتى يتحرر العامل من قهر مالك أدوات الانتاج .

دعا سان سيمون الى الجمهورية كنظام للحكم فى المجتمع الصناعى الذى دعا الى قيامه . وقد رأت حكومة فرنسا فى السان سيمونية خطرا على الأمن العام ونظام الحكم . ويدعو للثورة فسجن أتباع هذا المذهب فى ديسمبر ١٨٣٢ وحتى أغسطس ١٨٣٣ . اتصل السان سيمونيون بمحمد على عام ١٨٣٣ وجاءوا الى مصر لمحاولة اقناعه بشق قناة السويس لكنه فضل اقامة سدود تحجز خلفها المياه لتحويل الري فى مصر من ري حوضى الى ري دائم . عن سان سيمون والسان سيمونية انظر دكتور محمود ضالح منسى « أتباع سان

صبيون ونشاطهم في مصر ١٨٢٣ - ١٨٢٦ « - المجلة المصرية للدراسات التاريخية -
العدد ٢٧ - ١٩٦٥ .

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 17.

المترجم

(٤٢) « مناهج الألباب » ص ٨٠ .

Hourani

(٤٣) حوراني

"Arabic Thought", p. 72.

(٤٤) « مناهج الألباب » ص ٧ - ٢٣ .

(٤٥) سمي رفاة هذه الأقسام « كتب » ، وهي ما نسميها الآن فصولا .

(٤٦) يحمل ان الفصل الأول استخدم كستارة دخان لتجنب اعتراضات المتحفظين.
الدينيين . انه لمن البسط للعزائم حقا ان كثيرا من الكتاب قد القوا بالكتاب دون حتى
استكمال قراءة الفصل الاول .

(٤٧) « مناهج الألباب » ص ١٢٩ - ٦٩ .

(٤٨) المصدر نفسه ص ١٧٠ - ٢٢٦ . دون مراعاة لاهتمام حاكمه بمثل هؤلاء الرجال .

(٤٩) المصدر نفسه ص ٢٠٥ .

(٥٠) المصدر نفسه ص ٢١٧ - ٢١ . وطبقا لعمارة فان الطهطاوى نفسه كان مسئولا
عن ادخال مبادئ جديدة يمكن بها الحكم على تصرفات الرجال . فقد اعتبر الموهبة
و « المواهب الحميدة والفضائل المفيدة » أكثر أهمية من عائلة المرء ، ثروته ، أو وضعه
الاجتماعي . وليطبق هذه النقطة في وطنه فقد قارن إنجازات الرسول عليه الصلاة والسلام
بقبيلة قريش ورجالاتها ذوى الأصل العريق . عبارة « الأعمال الخالدة » .

ومن المعروف ان محمدا عليه الصلاة والسلام المولود عام ٥٧٠م أحد أفراد قريش هاشم
من قبيلة قريش أعرق قبائل شبه الجزيرة العربية ، وان جده كان عبد المطلب . أما عمه
ابو طالب فكان رئيس قريش هاشم بعد وفاة عبد المطلب عام ٥٧٨م . من ثم فان الرسول
عليه الصلاة والسلام كان من قبيلة قريش التي اعتبر المؤلف أفرادها ذوى نسب وجنس .

المترجم

(٥١) « مناهج الألباب » ص ٢٢٥ - ٤٩ .

(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٦٨ - ٣٢٢ .

(٥٣) المصدر نفسه ص ٣٢٨ - ٤٠ .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٣٤٨ - ٤٤٥ .

(٥٥) كتب حوراني أفضل دراسة مختصرة عن أفكار الطهطاوى السياسية ، مؤسسة
بالدرجة الأولى على خاتمة « مناهج » .

حوراني

Hourani

"Arabic Thought", pp. 73-83.

وتحاول بعض التفسيرات العربية الحديثة الحالية لسياسة الطهطاوى ان تصنفه
كاشتراكي اولي Proto-Socialist ، وعلى ذلك فانه يجب أخذها بحذر . ففي كتابه
« تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر » (القاهرة ١٩٦٩) يؤكد (رفعت السعيد) ان الطهطاوى.

ساند الاشتراكية علنا في « مناهج الألباب » . أما لويس عوض فانه يحرف في (المؤثرات الأجنبية ص ١٧٥) أفكار الطهطاوى ليجعلها غير مفهومة ، وفي مقالة عام ١٩٦٨ في ا. هرام يسمى الطهطاوى « رجعى » وتابع للاشتراكيين المعتدلين : « وبينما لا يقل حسين فوزى النجار تعاطفا مع اليسار الا انه كاتب حريص (قارئ حاشية ٥٥ من الفصل الاول) ويرى ان الطهطاوى مع وعظه بأن العدالة ، الشرف ، والرفاهية رموز للمجتمع الصالح ، الا انه لم يبد ميولا واضحة تجاه الاشتراكية (التعليق على أقوال عوض « المؤثرات الأجنبية » هو من عندي ، أما الأحكام الأخرى فقد أخذت عن عمارة (الطبعة الجديدة لأعمال الطهطاوى ص ١٧٧) ، وبالنسبة فان كتاب عمارة هو مثل آخر لمحاولة تحميل الطهطاوى بكلمات لم يقلها . وهكذا فانه وفقا لعمارة فان الطهطاوى كان مدركا (للمصراعات الطبقيّة) في فرنسا (ص ١٠٦) ، وأدان « الامبريالية » العثمانية (ص ١٤٤ وما بعدها) ، وفضل القوى « التقدمية » في وقته على المصالح القطاعية التي يمثلها الأتراك ، الجراكسة ، والألبان (١٨٣) ، فهم فكرة المساواة باحساس « بورجوازي » (١٨٥) ، اعتبر العمل اليدوى نافعا وعمل الخدم في المنازل غير مفيد (ص ١٩١) ، ناقش دور الملكية الخاصة في « البناء الفوقى » للمجتمع (ص ١٩٢) ، حلل « النظام الطبقي » لمصر الق-يمة (نفس الصفحة) ، عرض آثار الفكر الاشتراكي ، اذا لم يكن من وجهة نظر اشتراكية (ص ١٩٥) ، وأراد تجنب مصر « طبقيّة التعليم » (ص ٢٣٥) . وفي محاولاته المستمرة ليصوغ الطهطاوى كرها في قالب معين ، فان عمارة اضطر الى تقديم آراء تبدو مناقضة لأكيداته السابقة . فعلى سبيل المثال ، هو يوافق على ان الطهطاوى آمن (بالرق) (ص ١٩١ - ٩٢) وفي قصر التعليم العالي على أبناء الأغنياء (ص ٢٣٦) . ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى ، لكن هذا كاف لاثبات ان النتيجة مشوشة وخليط مشوش .

J. Heyworth-Dunne

(٥٦) ج . هيوورث - دن

"Rifa'ah Badawi Rafi al-Tahtawi : The Egyptian Revivalist", BSOAS 10 (1940-42) : 405.

قارن الشيال « الطهطاوى » ص ٥٠ - ٥١ .

(٥٧) وفقا لعمارة فان الطهطاوى كان يرى ان الحكام ليسوا مسئولين امام رعاياهم ولكن امام الله فقط (عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦١) - واتهام الطهطاوى من جانب عمارة في مناسبات أخرى بأنه « المفكر الليبرالى الديمقراطى » هو دليل آخر على صعوبة وضع الطهطاوى في القالب الاشتراكي .

المصدر نفسه ص ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٧٠ وما بعدها ، ١٩٣ - ٩٤ ، ١٩٩ .

(٥٨) « مناهج الألباب » ص ٢٠٧ ومواضع أخرى من العمل .

(٥٩) المصدر نفسه ص ٢٠٧ - ٨

(٦٠) المصدر نفسه ص ٢١١ .

(٦١) المصدر نفسه .

(٦٢) انظر ص ٧٥ .

(٦٣) « مناهج الألباب » ص ٢٢١ - ٨١ . ويزعم عمارة ان الطهطاوى انتقد « نقداً مادنا » سيامة محمد على الزراعية ، وتخطيطه الكلى السيء وانشغاله بالأمور العسكرية . « عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦٥ - ٦٦ . واذا كان الأمر كذلك ، فقد كانت بالفعل سياسات معتدلة .

(٦٤) انظر ص ١٦ - ١٨ • ووفقا لاحد الكتاب • فان القومية المصرية لم تصبح قوة حقيقية الا بعد الحرب الأولى ، عندما تولي محمد حسين هيكل تحرير جريدة « السياسة » •

Abdul Mu'id Khan

عبد المعيد خان

"Modern Tendencies in Arabic literature", p. 322.

وهذه رواية سخيقة جرى نقدها في كل خطوة من التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر بدا من الطهطاوى مرورا بأحمد عرابى ، عبد الله النديم ، يعقوب صفتوح ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، شوقي ، البارودى ، حافظ ، الخ • لكن على الجانب الآخر يمكن تقديم قضية أخرى ، هى غياب الاحساس بالقومية العربية فى مصر ؛ فحتى عام ١٩٤٤ أشار « عبد الرحمن الرافعى » الى القومية العربية مستخفا بالفكرة التى تقول بان البلاد العربية عندها أى وعى مشترك حقيقى •

عبد الرحمن الرافعى « فى اعقاب الثورة المصرية » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١) الجزء الثالث ، ١٤٢ •

(٦٥) يناقش أغلب المثقفون الغربيون على سبيل المثال بجدية الرأى الذى يقول ان المشاعر القومية او حتى الأمم قد ظهرت فى الازمنة القديمة أو الوسيطة • ومن ناحية أخرى فان المؤرخون العرب يدفعون بالتفسير المضاد الى أقصاه وذلك فى بحثهم عن الشخصية القومية • ويعتبر قسطنطين زريق (الوعى القومى - بيروت ١٩٢٨) محمدا عليه الصلاة والسلام « مهندس الوحدة العربية » • ويشير الى « الوعى العربى » - بدلا من الاسلامى - حتى خلال الفترة الاسلامية المبكرة •

Chejne

شجنه

"The Use of History By Modern Arabic Writers", pp. 395-96.

ولقد بلغ التهور بعبد الرحمن الرافعى حد الكتابة عن الشعور القومى المصرى خلال الازمنة الفرعونية •

انظر الرافعى « تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة » (القاهرة : مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٣) •

(٦٦) « مناهج الالباب » ص ٤ •

(٦٧) المصدر نفسه ص ٧ • وقد استعنت فى تقديم النص الاصلى بالرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » - ج ٣ - عصر محمد على - ط ١ (١٩٣٠) مطبعة النهضة - ص ٥٠٦ •

للمترجم

(٦٨) المصدر نفسه ص ١٠ • ويحتمل ان يكون عمارة مصيبا فى تصور ان الطهطاوى كان اول كاتب عربى يستخدم هذا الشعار •

(٦٩) « مناهج الالباب » ص ١٠ - ١٦ • وقد كانت « الوطنيات » أحد مظاهر قوة الطهطاوى •

(٧٠) عوض « المؤثرات الأجنبية » ص ٢٠٧ •

(٧١) سيتذكر القارىء تصوير عبد الملك « للمناهج » ، انظر حاشية ٣٧ من هذا الفصل • ويتطرق عمارة بالحوار الى ما هو أبعد فيدعو الطهطاوى أبو القومية العربية •

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٣٢ .

(٧٢) « مناهج الألباب » ص ٣٥٦ . وطبقا لعمارة ، فان الطهطاوى أيد خلق رأى عام مستنير كمفيد فى هذا الصدد .

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦٣ . وعلى أى حال فان اتجاه الطهطاوى حافل بالذكريات عن أدب "Mirros of Princes" الذى ربما كان فى عقله عندما كتب « مناهج » . وكما قرر هنا فان الغرض من التاريخ هو (المساعدة على الكشف Heuristic)

(٧٣) الشيال "A History of Egyptian Historiography," pp. 35-36.

(٧٤) هذا تعليق ناقد معاصر « لأنوار » ، وهو يشير الى ان المدخل « الجديد » كان يعتبر ضروريا فى الواقع . وهذا النقد موجود فى المقدمة فى « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » (القاهرة : بدون رقم - ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ - ٦٩) الجزء الأول ، ١٤ .

(٧٥) بدوى « الطهطاوى » ص ١١٩ - ٢٠ .

(٧٦) المصدر نفسه ص ١٢٦ - ٢٧ وعمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٧ .

(٧٧) لمعلومات أكثر عن الاطار التنظيمى « لنهاية الايجاز » انظر الشيال

"A History of Egyptian Historiography", pp. 37-38.

Heyworth-Dunne

(٧٨) هيوارث - دن

"Rifa'ah al-Tahtawi", p. 401.

والطبقات الأولى (١٨٣٤) والثالثة (١٩٠٥) من « تخلص » متطابقة ، لكن الطهطاوى أجرى بعض الإضافات والآصلاحات للطبعة الثانية (١٨٤٩) .

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٨ .

(٧٩) « تخلص الأبريز » ص ٩٨ وما بعدها ، ١١٩ وما بعدها ، ١٣٢ - ١٣٣ ونرى مواضع أخرى .

(٨٠) المصدر نفسه ص ٤٧ ، ٥٧ - ٥٨ ، ٨٠ ، وعمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٧ - ٧٨ .

(٨١) « مناهج الألباب » ص ٥ - وقد استعنت فى تقديم النص الأصل بنفس المرجع - الطبعة الثانية المطبوع عام ١٩١٢ - ١٣٣٠ بمعرفة مطبعة شركة الرغائب - والمودعة بدار الكتب القومية .

المترجم

(٨٢) لم ينقد الشيال من كتب الطهطاوى سوى « أنوار » و « نهاية الايجاز » - أما « تخلص » و « مناهج » فقد سكنت عنهما تماما ولم يشر الا الى عنوان « مناهج » الذى أخطأ فيه فسماه « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب المصرية » بينما عنوان الكتاب هو « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب المصرية » .

انظر الشيال « التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر » - المكتبة التاريخية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٥٨ - ص ٧٠ - ٨٣ .

المترجم

(٨٣) لسبب واحد هو أن « تخلص » قد نشر قبل كل من « مناهج » و « أنوار » .

(٨٤) « تخلص الابريز » ص ٣٨ ، ويرى عمارة ان الطهطاوى قد لجأ بتأن الى العامية المصرية عندما أعوزه المقابل من اللغة الكلاسيكية .

انظر عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٣ . وهذا أقرب كثيرا الى التقبل مثل الدعوى بتفضيل ما سعى بالنسبة للجبرتي « اللغة الأدبية الحية » .

انظر حاشية ٦٦ من الفصل الثالث .

(٨٥) انظر ص ٦٧ . أو كما أوردها أحمد بدوى « كان عصر محمد علي عصر ترجمة أكثر منه عصر انشاء » . بدوى « الطهطاوى » ص ٤١ .

التاريخ والتعليم المصرى

هناك ما هو أكثر للرواية والتسجيل عن مجرد سلسلة من الكتابات التاريخية - إذا ما نحن استخدمنا جملة ماينيكه Meinecke (١) . فقد ناقشنا فى المقدمة حاجة المؤرخ لتاريخ يتحرى كل العناصر التى تجعل كتابة التاريخ سهلا - نظام التعليم ، الجو الثقافى والسياسى العام ، امكانيات البحث الهادف ، الوعى التاريخى لمجتمع ما ، الخ . وهدف هذا الفصل بناء على ما تقدم هو فحص نظام التعليم المصرى والأهمية المتزايدة للتاريخ التى حصل عليها فى اطار هذا النظام ، وحتى الآن فاننا لم نطرق هذه الميادين ، حيث ان المؤرخين الذين ناقشنا أمرهما قبلا يسبق أحدهما النظام التعليمى المصرى الحديث بينما ساعد الثانى على خلقه . وعلى كل حال فمن الآن فصاعدا سنجد ان أغلب المؤرخين المصريين كانوا الى حد ما نتاج نظامهم التعليمى .

سنبدأ بحثنا بأقدم مؤسسة تعليمية فى مصر - جامعة الأزهر التى أسست منذ أكثر من ألف عام . كان الأزهر أهم مركز للتعليم الاسلامى على مدى الفترة الوسيطة . ولقد تدهور نفوذه فى الأزمنة الحالية ، ومع ذلك فانه يبقى قلعة تعليمية دينية فى كل من مصر والعالم الاسلامى بصفة عامة .

وكما رأينا فان التصور الاسلامى الوسيط للتعليم كان موجها نحو الدراسات الدينية - الفقهية ولم يترك أى مكان لحرف أو مهنة كالتاريخ (٢) . وكان منهج الأزهر مع نهاية القرن التاسع عشر يعكس هذا الاتجاه ، حيث انه قسم (العلوم) الى ثلاثة أقسام عريضة - دينية - لغوية - وعقلية ، امتص الاثنان الأولان منهم أكثر من وقت الطالب ولم يترك للثالث سوى القليل . اعتبر المنطق ، الرياضيات ، الجبر ، الميقات ، الفلك ، الفلسفة ، وأدب البحث « علوم عقلية » ، بينما لم يعتبر التاريخ والجغرافيا كذلك ، وفى ترجمات الجبرتنى الجديدة للعلماء

المصريين من النادر أن نجد واحدا مهتما بالتاريخ أو بالفنون الأدبية (٣) .
أهمت الدراسات التاريخية إهمالا تاما ، حتى بمقاييس العصور الوسطى
العليا .

تغير الأزهر قليلا فى عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩) . ورغم
أنه كثيرا ما يزعم بأن محمد على قد كسر ظهر الأزهر عندما وضع نهاية
لاحتكاره للتعليم وبمصادرته للعوائد الضخمة الموقوفة عليه ، فإن هذا
الضرر المقلل به مبالغ فيه . بل إن محمد على لم يكن لديه الخيار ليرفض
التعاون مع مشايخ الأزهر الذين كانوا لا يزالون أفضل الرجال المتعلمين
فى مصر الى حد بعيد ، ورغم أنه حاول أن يحتكر ميادين أخرى لصالح
الدولة ، فإن من الأمور ذات الدلالة أن « المدارس الجديدة » التى أسسها
قد نافست الأزهر فقط ولم يكن المقصود بها الحلول محله بأى وجه .
ورغبة محمد على فى التعليم الأكثر جلة ، وادخال الأنظمة العالمية (باللغة
العربية) أيضا أجبره على أن ينشد التعاون مع الأزهريين الذين أرسل
الكثيرين منهم - مثل الطهطاوى - الى أوروبا مع بعثات تعليمية عديدة (٤) .
وهكذا فإن الأزهر قام بدور معسكر الامداد بالرجال لمحمد على ، ولم يكن
من الحكمة أن يقطع كلية اليد التى كانت تطعم مدارس دولته الجديدة .
وعندما أكد سيطرته الكاملة ، فإنه ترك الأزهريون يديرون شئونهم
كما كانوا يديرونها فى السابق ، وعلى ذلك فإن البدع فى مدارس الدولة
لم يكن لها أى أثر ملحوظ على المناهج الأزهرية أو أساليب التعليم (٥) .

وكمؤسسة دينية ، فقد كان الأزهر - بادراك - بطيئا فى قبول
الأفكار الجديدة . وربما حمل مركزه المنافس وزنا أكبر له خلال عهد
اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، وذلك عندما أصبحت اللغة العربية هى
لغة التعليم فى مدارس الدولة . كان ١٢٧ أزهريا يشتغلون عام ١٨٧٥
بالتدريس فى مدارس النظام الحكومى من بين مجموع مدرسى الحكومة
البالغ عددهم ٣٦٦ مدرسا ، وقد عزز دور دار العلوم (الذى سيناقش
لاحقا) ككلية معلمين للأزهريين سمعة الأزهر كمؤسسة وحيدة يستطيع
خريجوها أن يعرضوا براعة تامة فى كل مظاهر اللغة العربية (٦) .

ورغم أن الأزهر كان مضطرا لأن يوسع من تسهيلاتة خلال عهد
اسماعيل ، إلا أنه لم يستسلم للكثير من أفكار هذه الفترة التعليمية
الجديدة . ومن خلال العمل المتعاون مع الشيخ مصطفى العروسى
(شيخ الأزهر ١٨٦٤ - ١٨٧٠) فإن اسماعيل سعى الى دفع بعض
الاصلاحات المحدودة ، ورفع المستوى التعليمى المطلوب ليؤهل المدرس ،
ولكن دون تعديل المنهج أو أساليب التعليم . وظلت الدراسة بالأزهر
محصورة فى « العلوم الاثنى عشرة » ، وظل كل مقترح لنظام جديد معرضا:

للاتهام بالهرطقة (٧) . ولقد رأينا الطهطاوى وموقفه الغير متفق مع مفهوم الأزهر من التعليم (٩) ، كما حاول « محمد عبده » فيما بعد ان يدخل الى المنهج الدراسى الأزهرى بعض المواد كالرياضيات الحديثة ، الهندسة ، الجبر ، الجغرافيا والتاريخ . وبعد معركة طويلة وشاقة تنازل الأزهر متفضلا ووافق على دمج التاريخ والجغرافيا فى برنامجيه الدراسى الرسمى (٩) .

كان تعديل المنهج الدراسى خلال نهايات القرن التاسع عشر طفيفا . فقد أقام برنامج الدراسة الرسمى للأزهر ثلاثة تصنيفات غير متساوية حجما :

١ - العلوم النقلية - الأديان ، الفقه ، تفسير القرآن ، التلاوة ، الحديث ، والعقيدة .

٢ - اللغة العربية والأدب ، النحو والصرف ، البلاغة ، علم الموسوعات ، أصول الكلمات ، العروض ، والانشاء .

٣ - التاريخ ، الجغرافيا ، العلوم الطبيعية ، الرياضيات ، والفلك . ولم يستخدم التصنيف الثالث بجدية عند كثير من الأزهرين (١٠) . ولم تخضع ميزانية وإدارة الأزهر لسيطرة الدولة قبل منتصف العشرينيات من هذا القرن (١١) . وأمكن ادخال اصلاحات أسرع وأكفا بواسطة الحكومة نفسها . وفى ذلك الوقت أيضا كانت الدفعة للتغيير آتية من جانب الأزهرين أنفسهم ، حيث كانوا يجدون أنفسهم غير مؤهلين اطلاقا لوظائف فى الحكومة ، إدارة الأعمال ، أو المهن .

ولسنا فى حاجة الى الدخول فى تفاصيل عن التطورات الحالية فى تاريخ الأزهر ، فيما عدا القول ان العقود الثلاثة الأخيرة قد شهدت توائم الأزهر مع العالم المعاصر وتقديمه اليوم لدراسات تتوازي مع تلك التى تدرس فى المعاهد العلمانية . وبالقطع فان الأزهر لن يسترد أبدا مركزه القديم الأولى لكنه يبدو وقد توائم مع دوره الجديد كمدرسة ملية اسلامية حديثة ، وهو ليس على الاطلاق عضو تعليمى ميت (١٢) .

ولما كان الأزهر قد أثبت فى أغلب الأحوال انه غير راغب أو غير قادر على ان يقدم للمصريين شيئا من التدريب المتقدم فى أى من العلوم الجديدة ، فقد كان على حكام مصر فى القرن التاسع عشر ان يلجأوا الى خارج هذا البناء لخلق جهاز تعليمى حديث ، ولقد كان هذا دورا طويلا وشاقا ، مليء بالشراك وخيبة الأمل . ومع هذا ، فقد كان دورا ضروريا

إذا كان على مصر أن تضيق الفجوة العلمية والتعليمية التي تفصل بينها وبين جيرانها الأوروبيين الأكثر تقدما .

انشئت أسس النظام التعليمي الجديد خلال عهد محمد علي .
ولأنه كان معنى بتقوية مصر عسكريا واقتصاديا فان المدارس العديدة المتنوعة التي انشئها - المدفعية ، المشاة ، البحرية ، أركان الحرب ، الفرسان ، الطب البيطرى ، القبالة ، الزراعة ، الطب ، الخ . . كانت كلها موجهة وجهة تقنية بحثة ومالت الى تجاهل الدراسات التاريخية (١٣) .
ومع هذا ، فان التاريخ أدخل فى مناهج قليلة ، والفضل يرجع فى المقام الأول الى الطهطاوى . ففي شهور قليلة نجح الطهطاوى فى اقامة مدرسة لتعليم التاريخ والجغرافيا خصيصا (١٤) . لكن التجربة كانت قصيرة العمر وعلى المدى البعيد - وباستثناء مدرسة الادارة الملكية المؤسسة عام ١٨٣٤ والتي اشتغلت بنصوص تاريخية فرنسية بسيطة (١٥) ، فان التدريب الوحيد فى التاريخ الذى يعتبر ذو دلالة والذي حصل عليه المصريون فى جيل محمد علي كان ذلك الذى ألقى فى مدرسة اللغات وادارة الترجمة ، والميتين كانتا تحت اشراف الطهطاوى .

عملت كل مدارس محمد علي المتنوعة بداءة تحت رعاية « ديوان الجهادية » . لديك فلم يكن لديها حرية اختيار المواد الدراسية ، وفوق هذا ، فان اهتمامات هذه المدارس كانت تابعة لاهتمامات هذا « الديوان » الذى كان عنده أمور ملحة أخرى ليهتم بها (١٦) . ولحسن الحظ فمع انشاء « شورى المدارس » والاعلان عن قانون الاصلاح التعليمي الجديد فى ١٨٣٦ (١٧) ، انشئت خمسة وخمسون مدرسة نظامية (جديدة) ابتدائية واثنتان تجهيزيتان . كانت الأخبرنان هما (قصر العينى) فى القاهرة وبها ١٥٠٠ تلميذ ورأس التين فى الاسكندرية وبها خمسمائة تلميذ (١٨) . كان لكل من المدرستين برنامج دراسى مدته أربعة سنوات يتضمن التاريخ فى السنوات الثالثة والرابعة . وكان طلبة السنة الثالثة يقرءون المجلد الأول من تاريخ الطهطاوى عن مصر القديمة ، ودرس طلبة الفرقة الرابعة المجلد الثانى عن الرسول والاسلام المبكر ، وكان تاريخ (واصف) يقرء أيضا كجزء من برنامج تعليم اللغتين التركيبية والفارسية (١٩) . أما تاريخ مصر الحديث فقد جرى تجاهله تماما .

كان ادخال التاريخ فى منهج المدرسة الثانوية يعنى ان منزلته كانت قد بدأت فى التحسن . ومع هذا ، فان التعليم المصرى بصفة عامة قاسى ردة قاسية عام ١٨٤١ ، فى أعقاب هزيمة مصر فى بلاد الشام وتوقيع معاهدة لندن . كانت الخزينة خاوية ، والوظائف للخريجين الجدد غير متوفرة ، وكان محمد علي قد اعتبر نفسه رجلا مهزوما . وتبعاً لذلك فان

الإصلاح التعليمي عام ١٨٤١ دعا إلى تخفيضات ضخمة في الاعتمادات والافراد ، وخاصة في المدارس الابتدائية التي أنقصت إلى ٣٨ في ١٨٤٠ ونهائيا إلى ٤ عام ١٨٤١ بعد أن كانت قد بلغت عام ١٨٣٦ (٦٧) مدرسة . ومن المفارقات الغريبة أن الإلغاء لم يشمل أي مدرسة من المدارس ذات المستوى الأعلى ، مما يعني أن التخفيض في المدارس النظامية الابتدائية كان مؤقتا ، وفي انتظار إعادة تنظيم النظام كله . ولكن مع إلغاء أغلب مدارس الدولة الابتدائية فإن المدارس الثانوية كان يمكنها أن تستمر في الحصول على طلابها من الكتائب الكثيرة التي لم تمسها إجراءات محمد علي الإصلاحية . ولما كان هذا يحتمل أن يرتب تدهورا في المستوى التعليمي للطلاب الداخلين إلى هذه المدارس ، فإن إعادة فتح بعض المدارس النظامية الابتدائية في السنوات التالية ، ربما كان حلا لهذا الضرر (٢٠) .

من أكثر المسائل أهمية لنا هنا ، هو استبقاء المدارس المتخصصة بعد عام ١٨٤١ وخاصة مدرسة اللغات . عند انشائها في عام ١٨٣٥ باسم (مدرسة الترجمة) كان ملحقا بها ثمانون طالبا ، وزاد هذا العدد إلى ١٥٠ ، ومع حلول عام ١٨٣٩ خرجت المدرسة عددا قليلا كلفوا بأعمال ترجمة النصوص التاريخية والأدبية (٢١) .

في ظل خطة إعادة التنظيم لعام ١٨٤١ ظل التاريخ جزءا من منهج مدرسة اللغات (٢٢) ، وقد ضم إلى هذا المعهد إدارة الترجمة التي احتوت أربعة فروع لـ (١) النصوص العلمية والرياضية (٢) الطب والفيزياء (٣) الآداب والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلسفة والقانون (٤) الترجمات التركية ، وكان عدد المترجمين في هذه الإدارة لا يقل عن خمسين مترجما في أي وقت (٢٣) .

ورغم نزعات « محمد علي » الحربية ، فإن منزلة التاريخ تحسنت بعض الشيء عن أيام « الجبرتي » . فقرأ وعلم ، أولا في مدرسة الإدارة الملكية وفيما بعد في كل من المدارس التجهيزية ومدرسة اللغات . ولم يعط اهتمام حتى ذلك الوقت لمصر الحديثة ، ولم يكتب أي عمل تاريخي أصلي من أي نوع . لكن بدءا من الطهطاوي مرورا بكل مراحل التعيم الأدنى كان التركيز والاهتمام بالتاريخ يكسب بوضوح قوة دفع .

خلال السنتين الأخيرتين من عهد محمد علي كان ابنه (إبراهيم باشا) يتولى فعليا كل مظاهر الإدارة . كان إبراهيم رجلا غير عادي وأصبح يعتبر أشبه بالبطل القومي . ومع هذا ، فليس واضحا كلية ماذا كان

ينوى ان يفعل بنظام أبيه التعليمي خلال الوقت القصير الذى تولى فيه ادارته . ويعتقد هيوارت دون Heyworth-Dunne معتمدا على دراسات هامون Hamont وشيلشر Schoelcher أن ابراهيم نفسه كان مسؤولا بصفه مبدئية عن تقليل البرنامج التعليمي منذ فترة ما بعد الحرب السورية (٢٤) . لكن « احمد عزت عبد الكريم » لا يوافق على هذا الرأى ويرى ان أفكار ابراهيم التعليمية كانت متقدمة بصفه عامة بسقاييس وقته . ويزعم عبد الكريم ان ابراهيم هو الذى أدخل فى نظام المدرسة « المنهج التجريبي » مستخدما قصص الأطفال ، والنصوص الجغرافية بدلا من المواد الازهرية الدينية المعتادة . ويؤكد ان هذا كان مجهودا واعيا لتعديل التعليم المصرى على أسس انجليزيه (٢٥) .

إذا كان اتجاه ابراهيم نحو التعليم متكافئا (مع اتجاهات سلفه) ، فان سياسة الحاكمين التاليين - عباس الأول (١٨٤٩ - ٥٤) وسعيد (١٨٥٤ - ٦٣) - واضحة تماما . كان « عباس » قاسيا ومقتصدًا ، تعرض لقدر كبير من الافتراء من جانب المصادر الأوروبية والمصرية على السواء ، وبتوليئه السلطة فقد قيل بان « قوة الدفع للأمام » لمصر قد تعرضت لتوقف مفاجئ (٢٦) . لقد بدأ عباس دولا ب حركة الدولة لدرجة كبيرة ، لكن أغلب الأحكام التاريخية التى أعلنت عن عهده كانت قاسية للغاية . فالكثير مما يسمى « بقوة الدفع » كان قد توقف مع عام ١٨٤١ : وكما قلنا قبل ذلك فان أربعة فقط من المدارس السبعة وستون النظامية الابتدائية السابقة كانت تعمل عندما جاء عباس الى الحكم (٢٧) . ومع انقاص وضعه فان « عباسا » قد أسدى لمصر صنيعا رائعا من بعض النواحي ، حيث ان سلوكه « المهمل اللطيف » أعطى مصر الفرصة لتتعافى من الارهاق الذى سببه لها عهد محمد على - وأمن لها حريتها - ولو لبعض الوقت على الأقل - من السيطرة الأوروبية .

لم يقم « سعيد » الحاكم التالى بأى تغيير جذرى لسياسات « عباس » . كان مهتما بالتوسع فى المسائل العسكرية واقتراح حفر قناة السويس (٢٨) . ولقد لخص فى احدى المناسبات فلسفته فى التعليم بقوله : ولماذا أفتح أعين الناس ؟ ان حكمهم يصبح أصعب (٢٩) . وبالطبع فان عقلية كهذه لابد ان يصاب التعليم فى ظلها بالركود ، رغم اننا قد رأينا أن وضع الطهطاوى فى هذه الفترة قد تحسن عما كان عليه فى عهد عباس . وفى النهاية كلف بالاشراف على ما لا يقل عن خمسة وظائف عليا : (١) مديرا للمدرسة الحربية (٢) مدير ادارة التوجيه (٣) مدير مدرسة المحاسبة ، ومن العجيب انها كانت نسخة مخفضة من المدرسة السابقة للغات (٤) مدير مدرسة المهندسخانة (٥) مفتش عام ادارة

المباني (٣٠) • ومع هذا فمن غير المحتمل انه كان للتاريخ نصيب فى
أى من هذه المدارس (٣١) •

تحت القيادة الديناميكية للخديو اسماعيل (١٨٦٣ - ٧٩) بدأ
التعليم المصرى يتقدم بسرعة مرة أخرى ، فلم يكن عند اسماعيل ما يسمى
بمشروع طموح أو مكلف ، ويبدو انه - مدركا أو غير مدرك - كان يشكل
حكمه على نهج حكم نابليون الثالث والامبراطورية الثانية • فبينما كن
البارون هاوسمان Baron Haussman (٣٢) على سبيل المثال يعيد
بناء باريس ، كان اسماعيل يزين القاهرة والاسكندرية بالقصور ،
والمباني على الطراز الأوروبي من كل الأنواع ، والأوبرا • ومول اشاء
السكك الحديدية ، والقنوات ، والفنارات ، وخطوط التلغراف ، وخدمات
الموانئ الجديدة ، والمصانع ، والخدمة البريدية (٣٣) •

ولم تكن سياساته التعليمية أقل طموحا ، وأضاف الى المدرسة
الأولية والمدرسة الثانوية والمدرسة الحربية ومدرسة الطب ومدرسة
القبالة ، ومدرسة الصيدلة الوحيدة التى كانت لاتزال تعمل منذ العهد
السابق (٣٤) أضاف المدارس التالية بالتدريج : (١) البوليتكنيك ،
أنشئت ١٨٦٦ (٢) الطب البيطرى ، أنشئت ١٨٦٧ - ١٨٧٩
(٣) المحاسبة ، أنشئت ١٨٦٧ - ١٨٧٣ (٤) المساحة ، أنشئت
١٨٦٧ (٥) مدرسة الفنون والصنائع ، أنشئت ١٨٦٨ (٦) مدرسة
العلوم العسكرية ، أنشئت ١٨٦٨ - ١٨٢٧ (٧) مدرسة النقاشين ،
أنشئت ١٨٦٩ - ١٨٧١ (٨) مدرسة الحقوق ، أنشئت ١٨٦٨
(٩) مدرسة اللسان المصرى القديم ، أنشئت ١٨٧٠ - ١٨٧٥
(١٠) مدرسة البنات ، ١٨٧٣ (١١) مدرسة دار العلوم ، أنشئت
١٨٧٣ (٣٥) •

وارتفعت الحصة المخصصة للتعليم فى الميزانية من ستة آلاف جنيه
الى ثمانون ألفا ، وعدد المدارس الأولية من ١٨٥ الى ٤٠٠٠ ، وعدد
التلاميذ الى رقم جديد هو ١٠٠.٠٠٠ (٣٦) • وكان اليد الراعية للكثير
من هذه التغييرات هو على مبارك (٣٧) ، الذى ستناقش كتاباته وسيرته
فى الفصل التالى •

جاء أهم اصلاح تعليمى فى عهد اسماعيل فى عام ١٨٦٨ • فوفقا
لعلى مبارك - ناظر المعارف فى عهده - استمرت المدارس الأولية تؤدى
دورها وفق المناهج التقليدية بتحفيظ القرآن والدراسة الكلاسيكية
لغة العربية (٣٨) • وللخروج من هذه التجارب فان لائحة رجب (قانون
التعليم الصادر عام ١٨٦٨) وضع كل مدارس تحفيظ القرآن التى كانت
لا تزال أكبر نوع من المدارس الأولية عددا فى مصر ، تحت اشراف

الحكومة • وأقيمت ثلاثة أصناف من التعليم الأولى طبقا لحجم المدينة أو المنطقة التي بها المدرسة • ففي المدرسة الصغرى (نوع ١) ظل المقرر مثل السابق • لكن مدارس النوع الثانى التى تضم أكثر من سبعين تلميذا أصبح لها موضوعاتها المحدثة التى اشتملت على الاقتصاديات ، التاريخ ، الجغرافيا ، بل وحتى لغة أجنبية • أما المدارس المركزية وهى النوع الثالث فى التصنيف والتى يقبل بها أفضل التلاميذ فقد ضم المنتج علم الحيوان ، النباتات ، الزراعة الى جانب المواد السابق ذكرها (٣٩) •

ولقد كان من الممكن أن ينتج عن التشريع الجديد أفضل النتائج فى الدراسات التاريخية لو كان من الممكن تطبيق كل هذه الخطط • لأن المشكلة كانت تنحصر فى أنه « لا يوجد مدرسو تاريخ يستحقون الكلام عنهم ، واعتمد توفيرهم على كلية معلمين ، وانسحب هذا على الجغرافيا ، التى كانت تدرس بأساليب غاية فى السوء ووصل الأمر الى حد حفظ الأسماء فقط » (٤٠) • كان الافتقار الى أفراد مؤهلين والصعوبات المالية الهائلة التى واجهت ادارة اسماعيل فى سبعينيات القرن - كان هذا يعنى ان البرامج التعليمية المقترحة يجب ان تقطع وتوقف بصرامة • وهكذا فان الكثير من الاصلاحات خضعت لقرار البقاء على الورق (٤١) •

مرت المدارس الثانوية ببعض التوسع - فقد أقام قانون ١٨٦٨ مدرستان فقط ، واحدة فى القاهرة (العباسية) وأخرى فى الاسكندرية (رأس التين مرة أخرى) (٤٢) • وكانت المدرسة الثانوية فى القاهرة تحت الاشراف الشخصى لعلى مبارك ، وحرص على ان يزورها مرة للتفتيش كل يوم • ومع الوقت أصبحت مدرسة القاهرة الثانوية التى نقلت من العباسية الى قصر مصطفى فاضل فى درب الجماميز - مركز الحركة التعليمية بأكملها (٤٣) • ومن عام ١٨٤٧ فصاعدا كان التاريخ يدرس فى كل سنة من برنامج سنوات المدرسة الأربعة • وركز الاهتمام على الجوانب الآتية :

السنة الأولى : مصر القديمة والشرق الأدنى

السنة الثانية : اليونان القديمة ، الفترة الهلينية ، الجمهورية الرومانية وعصر الامبراطورية المبكر •

السنة الثالثة : الامبراطورية الرومانية حتى ثيودوسيوس Theodosius ، الغزوات البربرية ، التاريخ ما قبل الاسلامى والاسلامى ، اسبانيا المسلمة وصقلية •

السنة الرابعة : تاريخ العرب الوسيط : الصليبيون ، الأيوبيون ،
والمماليك حتى الفتح العثماني (٤٤) .

وكانت كل مقررات التاريخ في أفضلها مجرد مباحث مختصرة
للأحداث ويحتمل ان تكون قد اعتمدت على تاريخ الطهطاوى كمصدرها
الأولى : وفي ١٨٦٥ أمر اسماعيل مطبعة بولاق أن تطبع خمسمائة نسخة
جديدة من الكتاب (٤٥) .

كان التعليم في عصر اسماعيل لا يزال الى حد كبير تقني التوجه ،
وكان التاريخ يدرس فقط في المهندسخانة ومدرسة الادارة والألسن (٤٦) .
وبالطبع في دار العلوم (٤٧) . وعلمت المدرسة البحرية وبعض المدارس
الحربية مقررات بحثية في الجغرافيا لكنها لم تقدم أى دروس في
التاريخ (٤٨) .

وبالإضافة الى المدارس النظامية فان اسماعيل بذل كل جهد ليشجع
اقامة المدارس الخاصة والطائفية ومدارس الجماعات . ومن ١٨٧٥ الى
١٨٨٧ زاد الالتحاق في المدارس الأجنبية من ١٨٩١٦ الى ٢٧٢٦٤ بينما
كان الالتحاق في المدارس المصرية من ٤٨٧٨ الى ٥٥٠٠ فقط (٤٩) .
وبصفة عامة ، فان برامج التعليم في المدارس الأجنبية ومدارس الجماعات
مالت الى الضعف في اللغة العربية والى القوة في اللغات الأجنبية ،
الرياضيات ، الجغرافيا والتاريخ (٥٠) . وقد بلغ التسامح الروحي عند
اسماعيل حد دعم المدارس النظامية للأقباط ماليا . وكانت أكبر مدرسة
قبطية في القاهرة تتمتع بمنهج متطور بما في ذلك مواد كالفرنسية ،
الانجليزية ، الايطالية ، الحساب ، الهندسة ، التاريخ ، الجغرافيا
والمنطق (٥١) .

كان سجل اسماعيل التعليمي العام سجلا جيدا بكل وضوح .
ورغم ان كثيرا من مشروعاته بعيدة المدى لم تتحقق ، الا أنه لا يمكن
انكار انه كان يملك حسا ضميريا أكثر من أسلافه في خصوص تعليم
شعبه . وبالنسبة للدراسات التاريخية فقد كان المصريون في عهد
اسماعيل يتلقون دراسات فيه في كل المدارس الابتدائية - باستثناء
المدارس الابتدائية الصغرى - طالما سمحت الاعتمادات ، وفي المدارس
الثانوية ، وفي المدارس التخصصية . وكان انشاء « دار العلوم » في
عهد اسماعيل - كما سنرى فيما بعد - علامة مميزة في كل من تطور
التعليم المصري وفي الدراسات التاريخية (٥٢) .

قام الحاكم التاليان - توفيق (١٨٧٩ - ٩٢) وعباس حلمي .
(١٨٩٢ - ١٩١٤) بجهود أعظم لنشر وتجديد النظام التعليمي المصري .

فبعد تولى توفيق الحكم ، شكل لجنة حكومية لدراسة طرق أكثر لتغريب المنهج فى مدارس الحكومة ، وقد وجه هذه المرة انتباه خاص للعلوم التطبيقية ، ودعى طلاب المدارس الابتدائية الذين لم يرغبوا فى استكمال دراستهم الثانوية لدخول (فصول تكلميلية) كان التركيز فيها على المسائل الزراعية أو التجارية تبعا للمنطقة التى ينتمى إليها الطالب . وقد جعلت ثورة عرابى تحقيق هذه الخطط مستحيلا لفترة ، لكن عودة اليندوء فى عام ١٨٨٥ مكنت الحكومة مرة أخرى من البدء فى التحرك قدما لانجاز مقترحات ١٨٨٠ (٥٣) .

كان توفيق وكيلا حرا (للسلطان) الى حد تمضيل التوسع فى النظام التعليمى . فقد ارتفع المخصص للمدارس فى الميزانية بانتصاف من ٥٩٤١٥ جنيه عام ١٨٨٠ الى ٨١٩٤٩ عام ١٨٨١ ، لكن المشاغل المالية أصبحت أكثر حدة فى ظل الاحتلال البريطانى بعد أن كان نصيب التعليم من الميزانية قد وصل الى ٨٨٠٧٩ جنيها عام ١٨٨٢ (٥٤) . كانت أوروبا الآن فى موقف يسمح لها بأن تجبر مصر على احترام التزاماتها المالية التى كانت كبيرة الى حد أن ما تبقى لمجالات كالتعليم كان قليلا . فقد طبق كرومر Cromer بداءة سلسلة من الميزانيات المتقشفة ، ولم تتحسن الأمور الا بعد فترة طويلة للغاية وبعد ان تمكنت مصر من تحقيق السيولة المالية ورحيل كرومر . فحتى ١٨٩٠ كان ٨١٠٠٠ جنيه هو المبلغ الرمزي الذى ينفق على التعليم ، لكن هذا المبلغ أصبح ٤٥٠٤٥٠ جنيها مع عام ١٩٠٨ (٥٥) .

كان التقدم الذى قدمه البريطانيون للتعليم المصرى قليلا جدا ومتاخرا جدا . فمن ١٨٨٢ الى ١٩٠٢ سمح كرومر بأقل من ١٪ من الميزانية للتعليم ، وحتى بعد رحيله فإن الرقم لم يتجاوز ٣٤٪ (٥٦) . وكان مستحيلا مجاراة الزيادات السكانية ، وبدأ الوطنيون المصريون يشيرون الى أن هدف بريطانيا هو نفس هدف (سعيد) - وهو ابقاء مصر جاهلة لكي تحكم بسهولة . وقد جابو كرومر بحجة مفادها ان مشاكل الميزانية قد منعت الكثير من الجهود المكثفة أن تبذل ، وزعم أيضا ان أغلب طبقة الباشوات كانوا يعارضون فكرة « التعليم الشعبى » (٥٧) ، ومع هذا فاننا نجد رجالا أمثال « أحمد لطفى السيد » ، مصطفى كامل ، وسعد زغلول وهبوا حياتهم لتعليم أبناء وطنهم . والحقيقة هى أن « كرومر » كان معنى بانتاج موظفى حكومة أكفاء من المستوى الأدنى وليس مثقفين Litrati ، ذلك أنه الغى مدرسه اللغات وتوقف عن الاستمرار فى برنامج البعثات التعليمية الى أوروبا . مركزا على المدارس الابتدائية والثانوية (٥٨) .

لم يحدث سوى بعض التغيرات القليلة ذات الأهمية في منهج المدارس الحكومية في ظل الاحتلال البريطاني . ففي عام ١٨٦٢ على سبيل المثال مد برنامج الدراسة في المدارس الثانوية من اربع سنوات الى خمس . ودرست الفيزياء والكيمياء والتاريخ وبعض الهندسة بالفرنسية أو الانجليزية ، وارتفع تعليم اللغات الأجنبية بشدة . وتكون الأسبوع المدرسي من ثلاثة وثلاثون ساعة ، خصص سبع منها بالعربية في السنة الأولى ، وخمسة عشر في الثانية ، وأربعة عشر في الثالثة ، وثلاثة عشر في الرابعة ، واثني عشر في السنة الخامسة والنهائية . وبناء على اقتراح دوربك Dor Bey أصبح تخصص طلبة السنة الثالثة في العلوم أو الآداب هو القاعدة (٥٩) .

ووافق البريطانيون أيضا (ولو متأخرا) عام ١٩١١ على المساعدة على تخفيف النقص المتكرر في اعتمادات التعليم بالسماح لمجالس المديرية بفرض ضريبة قدرها ٥٪ على الأراضي من أجل دعم الكتاتيب : وكنتيجة لذلك فقد أقيم ثلاث وتسعون كتابا جديدا في الحال (٦٠) . وفي ١٩١٣ ألان البريطانيون في النهاية من موقعهم تجاه البعثات التعليمية . كان المصريون يطالبون منذ زمن بالتوسع في برامج الدراسة بالخارج ، ووافقت نظارة المعارف على اقامة (لجنة ارشاد الطلبة المصريين) . وقررت هذه اللجنة تقديم العون المالي لبرامج الدراسة في أوروبا لستمائة وأربعة عشر طالبا ، ٣٧٣ في بريطانيا ، ١٣٩ في فرنسا ، ٦٤ في سويسرا ، الخ (٦١) .

كان لمصر مع بداية الحرب العالمية الأولى حوالي خمسة آلاف مدرسة من كل الأنواع والمستويات (٦٢) . وغطت هذه المدارس كل النطاق من الكتاب الإلزامي ذو الشيخ المعلم الى الجامعة المصرية (٦٣) . ومن الصعب القطع بعدد هذه المدارس التي تحت الدعم الحكومي . فقد تراوح الدعم الحكومي من عون مالي حكومي كامل الى مقدار من الزيادة في المعونة (٦٤) .

تلقت المدارس الأولية والثانوية مع ١٩١٤ تحديثا ضخما في مناهجها . فقد تضمن منهج المدرسة الأولية تعاليم الدين ، النحو والصرف والاعراب ، الخط ، الرياضة ، الهندسة ، الرسم ، ومعلومات عامة (مثل التاريخ والجغرافيا والصحة الخ) ، رياضة بدنية للأولاد ، وتدريب منزلي للبنات (٦٥) . وفي المدارس الثانوية ظل البرنامج يتبع مشروع إعادة التنظيم الذي رسمه دوربك Dor Bey والذي بمقتضاه

يتخصص الطالب في السنتين النهائيتين في الآداب أو العلوم • ومع
منتصف العشرينيات حاز التاريخ شعبية كتخصص أدبي حر (٦٦) •

أصبح التعليم في مجال الآداب الحرة والعلوم الاجتماعية في ذلك
الوقت عند نقطة الانطلاق • وبعد الحصول على الاستقلال وعمل مسودة
الدستور في ١٩٢٢ ، تزايد التقدم • لكن صعوبات ضخمة كانت لاتزال
باقية ، وحتى ١٩٣٧ كان ٨٠٪ من الرجال المصريين و ٩٦٪ من النساء
المصريات أميون (٦٧) • لكن بدءا من نهايات القرن التاسع عشر فصاعدا
بدء التركيز المتزايد على العلوم الاجتماعية والانسانيات ، والأعداد المتزايدة
من المصريين الذين كانوا يدرسون هذه الموضوعات في أوروبا ، الهجرة
المستمرة لاصحفيين السوريين المتعلمين ، نضوج أتباع الأفغانى ومحمد
عبد - بدء كل هذا في خلق جمهور للتعليم ، والاهتمام ، والوقت اللازم
لتشكيل سوق للكتاب عامة وللمؤرخين خاصة (٦٨) •

زود اصلاح النظام التعليمى كل جيل جديد من المصريين بفرص
أكبر لدراسة التاريخ • ولم تستطع البلد كلها مع ذلك ان تتحمل
الانتظار حتى تدرب شبابها على العلوم الجديدة فى الداخل واضطرت
على مدى القرن التاسع عشر ان ترسل الطلاب الى الخارج للتدريب
المتقدم • وكان الطهطاوى واحدا من الأوائل الذين اظهروا اهتماما
بالدراسات التاريخية وفقا لهذا الاعتبار •

خلال أغلب القرن التاسع عشر أرسل الطلاب المصريون الى الخارج
لدراسة العلوم الطبيعية ، الهندسة ، أو الطب ، لكنهم لم يتلقوا أى
اتصال مباشر بأى من العلوم الاجتماعية • محمد على ، على سبيل المثال ،
أرسل ٣٩٩ طالبا الى أوروبا قضى أغلبهم كالطهطاوى سنوات عديدة
بالخارج (٦٩) • ومع هذا فان ستة منهم فقط تخصصوا فى مواد قد
تتضمن بعض الدراسة الرسمية للتاريخ (٧٠) • أما الآخرين جميعا فقد
وجهوا علميا - وهى حقيقة لم تكن بالضرورة تمنعهم من الحصول على
معلومات غزيرة فى مجالات أخرى ، لو أنهم كانوا على نفس نزعة الطهطاوى
وميوله • وبنفس القدر فأننا لا يجب ان نفترض ان هؤلاء الطلاب
بتخصصاتهم التقنية والعلمية لم يتلقوا أى دراسات أيا كانت فى ميادين
غير علمية • فعلى سبيل المثال ، خلال المرحلة المبكرة من التدريب بالخارج
كان على الطلبة المصريين ان يدرسوا لغة أوروبية ، ولم يكونوا يستطيعون
ان يفعلوا ذلك من قراءة نصوص تقنية أو علمية • ونعرف ان الطلبة
المقيمين فى المدرسة الحربية المصرية بباريس عام ١٨٤٤ لدراسة
الموضوعات العسكرية البحتة كانوا يعطون أيضا بعض التعليم فى التاريخ

والجغرافيا ، وهو ما يمكن ان يكون قد حفز انتباههم في هذه الموضوعات (٧١) .

واصل التوجه التقنى - العلمى للبعثات العلمية المصرية بالخارج . واصل توجهه هذا فى فترة الاحتلال البريطانى . وكان عباس الأول وسعيد قد خفضا لدرجة كبيرة أعداد الطلبة فى مثل هذه البرامج ، ورغم ان اسماعيل قد نشط هذا الاتجاه التعليمى ومول فرص تعليم ١٧٢ شابا مصرية بين ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ، الا انه مع هذا لم يرسل أحدا الى الخارج للتخصص فى العلوم الاجتماعية (٧٢) .

حدث تغير ملحوظ فى نهايات القرن التاسع عشر . فبينما كانت ٩٦٪ من البعثات التعليمية الى أوروبا قبل ١٨٨٢ ذات توجهات تقنية ، فان ٦٠٪ من المصريين الذين أرسلوا الى الخارج خلال الاحتلال تخصصوا فى الانسانيات والعلوم الاجتماعية . والى جانب هؤلاء الذين كانوا يدرسون فى الخارج على نفقة الحكومة ، كان هناك مئات آخرون فى أوروبا يدرسون على نفقتهم (٧٣) . ولا توجد لدينا احصائيات بما كان يدرسه هؤلاء ، لكن أحد الكتاب كان يعتقد انهم كانوا يدرسون القانون ، الطب ومجالات مهنية أخرى (٧٤) .

زاد عدد المصريين المسافرين للخارج للدراسة أكثر فأكثر بعد الحرب العالمية الأولى . وخلال أواخر عشرينيات القرن العشرين وبواكير ثلاثينياته كان هناك ٣٠٠ - ٥٠٠ طالب مصرى بالخارج على نفقة الحكومة الى جانب ٦٠٠ - ٨٠٠ آخرين يدرسون على نفقتهم (٧٥) . وأغلب مشاهير المؤرخين المصريين فى الأوقات الحالية - شفيق غربال ، محمد صبرى ، ومحمد أنيس ، من بين آخرين - حصلوا على درجاتهم العلمية العالية من جامعات بريطانية أو فرنسية . وعند استكمال دراساتهم عادوا الى بلدهم ليقدّموا تقنيات تاريخية حديثة الى تلاميذهم .

حدثت تطورات حاسمة ثلاثة فى أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ، ونظرا لأهميتها الطاغية بالنسبة للتعليم المصرى وللتأريخ خاصة - فقد تم استبعادها حتى الآن لنتمكن من اعطاؤها اهتماما خاصا :

فانشاء دار الكتب عام ١٨٧٠ ، ودار العلوم عام ١٨٧١ ، والجامعة المصرية عام ١٩٠٨ يستحق اهتماما منفصلا .

فى مجال توافر الوثائق والمصادر التاريخية الأخرى كانت مصر وحتى القرن العشرين تماثل ايطاليا عصر النهضة . ومثلما كان بوكاشيو

Boccaccio (٧٦) يبكى فرحا عند اكتشاف مخطوطة قديمة لا تقدر بثمن في مونت كاسينو Monte Cassino ، فان مؤرخى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين كانوا يجدون استحالة فى تعيين مكان الوثائق التاريخية الهامة التى لا يزال أغلبها يرقد متعفنا فى ركن منسى بمبنى حكومى أو أرشيف أسرة أو أحد المساجد .

اتخذت أول خطوات هامة لحفظ الارث التاريخى المصرى خلال عهد اسماعيل . وعندما زار السلطان عبد العزيز القاهرة فى ١٨٦٥ اقترح ان يقيم اسماعيل مكتبة خديوية لجميع وحفظ الوثائق التاريخية . وأحب الخديو الفكرة وعهد بتنفيذها الى وزيره للتعليم على مبارك (٧٧) . وكانت النتيجة هى المكتبة القومية المصرية - التى تعد أكبر مكتبة فى العالم العربى حتى الآن .

كانت عملية العثور ، شراء ، تحرير ، وفهرسة الكتب الكثيرة والوثائق التى وجدت مكانها أخيرا فى دار الكتب مهمة ضخمة ، ولا يزال هذا العمل غير مستكمل حتى الان (١٩٨٤) . ومع هذا فان محفوظات الدار تمت بانتظام منذ ابتدائها . كان مكان دار الكتب فى الأصل فى قصر الأمير مصطفى فاضل بدرب الجماميز ، وهو نفس المبنى الذى كانت به وزارة المعارف - وفى ١٩٠٤ تكاثر عدد مجموعاتنا الى ٥٤٠٠٠ مجلد ، واحتاج الأمر الى نقلها الى ميدان باب الخلق (٧٨) . وفى ١٩١٣ اتسعت الدار لحوالى ٧٠٠٠٠ كتاب منها ٣٢٠٠ عمل تاريخى باللغة العربية (٧٩) . وخلال العقود التالية استلزم التوسع نقل جزء من رصيدها سنويا الى القلعة (٨٠) . واليوم ، فبالإضافة الى المبنى الرئيسى بميدان أحمد ماهر ، فان الدار لها أحد عشر فرعا ويضم المبنى الرئيسى مليون مجلد (٨١) .

ودار الكتب هى أكبر مكتبة مصرية ، ويستخدم مصادرها دارسون فى كل الميادين . وهناك مكتبات أخرى مع هذا تحتوى على مجموعات هامة من المادة التاريخية :

١ - مكتبة الأزهر : أقيمت أصلا عام ١٨٧٩ ، وفى ١٩١٣ كانت تضم حوالى ٣٦٠٠٠ كتاب و ١١٠٠٠ وثيقة . وكما هو متوقع فان أغلبية هذه المجموعة فى العلوم الدينية ، وللتاريخ والجغرافيا فيها حوالى ألف مجلد (٨٢) .

٢ - مكتبة البلدية بالاسكندرية : أنشئت عام ١٨٩٢ واتسعت ل ١٦٩٣ مجلدا . ومكتبة جامعة الاسكندرية تفوقها أهمية الآن وتضم حوالى مليون مجلد ، أغلبها باللغات الأوروبية (٨٣) .

٣ - المكتبات الخاصة : وكما فى أى دولة نامية ، فان المجموعات

الخاصة كانت ولزمن طويل واحدة من المصادر الرئيسية للسجلات .
ومن بين المكتبات الخاصة الرئيسية مكتبات أحمد تيجور ، أحمد زكي
باشا ، محمد بك آصف ، أحمد الحسينى ، على رفاعة (أحد ورثة رفاعة) ،
عبد الله فكرى ، ابراهيم حلیم باشا ، الخ . وبعض أكثر مقتنيات
دار الكتب أهمية سلمت اليها من المجموعات الخاصة لرجال أعمال
مصطفى فاضل والشيخ الشنقيطى .

٤ - مكتبات مدارس واتحادات أخرى : وأمثلتها مكتبة مدرسة
الحقوق التى تضم ١٩٩٥٠ مجلد ، مكتبة مدرسة الطب (١٠٠٠٠ مجلد) ،
أكاديمية العلوم (٢٣٠٠٠ مجلد) ، ومكتبة الجمعية الجغرافية
(٥٠٠٠ مجلد) . وقد حوت مكتبة الجامعة المصرية فى البداية ١١٩٣٠
مجلدا . وضمت مكتبة المخابرات التابعة لوزارة الحربية خمسة آلاف
مجلد أغلبها فى التاريخ ، الجغرافيا ، الاقتصاد ، والادارة العامة .

كان أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين بالنسبة
لمصر وقت اعداد المصادر . وكان لايزال كم كبير من الوقت لازما لجعل
المجموعات المتسعة بالمكتبات الجديدة صالحة للاستخدام ، وهكذا مال
المؤرخون المصريون فى هذه الفترة الى الكتابة عن موضوعات لهم القدرة
على الوصول الى وثائقها اللازمة شخصيا . ولم يتيسر قدر كاف من الاعداد
للمصادر يسمح للباحثين المحترفين باستخدام المكتبات لانجاز بحث
ذو قيمة الا فى نهاية فترتنا فقط .

رغم ان مادة التاريخ قد نجحت فى الزحف الى مناهج المدارس
الابتدائية والثانوية وبعض المدارس المتخصصة خلال القرن التاسع عشر ،
الا أن ثباتها كتخصص أكاديمي ظل غير مؤكد حتى اقامة « دار العلوم »
عام ١٨٧١ .

جاءت فكرة هذا المعهد من على مبارك الذى لاحظ أن الفجوة بين
التعليم الأزهرى والتعليم العام قد استمرت وأن ادخال العلوم الجديدة
فى منهج الأزهر هو محاولة عديمة الجدوى - فقرر أن ينشئ مؤسسة
تعليمية جديدة كلية (٨٤)

فتحت دار العلوم أبوابها عام ١٨٧١ لتقدم على أيدي علماء مصريين
وأوروبيين مقررات فى القرآن ، الشريعة ، والأدب العربى ، التاريخ ،
النبات ، الفيزياء ، الفلك ، الميكانيكا ، فن العمارة ، وبناء السكك
الحديدية (٨٥) . كان تقدمها فى البداية بطيئا ، وبين ١٨٧٢ - ١٨٧٩
خرجت حوالى ٢٧ طالبا فقط . وفوق هذا ، فان الخريجين أنفسهم كانوا
لايزالون متشبعين بمبادئ الأزهر من حيث عدم القدرة على تدريس أى

شيء سوى العلوم التقليدية ، بل ان معرفتهم للعربية كانت محل تساؤل (٨٦) . وكان الاستثناء محل الاعتبار هو « محمد عبده » الذي عين في عام ١٨٧٨ بقسم التاريخ بالمدرسة . لكنه مع الأسف فصل بعد سنة واحدة من التدريس في الوقت الذي طرد فيه الأفغانى من البلاد (٨٧) .

بسبب المساوىء الواضحة في بنية المدرسة ، فقد أقيمت مدرسة « معلمين » جديدة في عام ١٨٨٠ باسم « مدرسة المعلمين المركزية Ecole normale centrale تحت ادارة الفرنسى موجييل Mougel . انقسمت هذه المدرسة الى فرعين ، احدهما للمواد التقليدية كالقرآن واللغة العربية والثانى للفروع الجديدة الدراسية كاللغات الأوروبية ، التاريخ ، والجغرافيا . كانت الخطة هي تجنييد كل الهيئة التدريسية من دار العلوم لتملا الفرع الأول فقط . لكن حيث ان هذا كان سيحتاج الى توسع ضخم في الأفراد لمدة سنين عديدة وربما عقد كامل (٨٨) فان الخطة كانت أكثر من طموحة .

وبرغم العقبات الأولية ، فان مدرسة المعلمين تقدمت تقدما متصلا ومع عام ١٩٣٧ كانت قد خرجت ٢٤٣٥ معلما جديدا (٨٩) . وأصبح التاريخ واحدا من المواد الأساسية في المنهج الذى كان يطور وفق كل حديث من وقت لآخر . فعلى سبيل المثال ، مع حلول عام ١٩٣٠ كان التوجه الدينى للجانب التقليدى من المنهج قد أهمل لحد كبير لصالح تركيز على الثقافة العربية والمدنية (٩٠) . ولا زالت المدرسة تؤدى وظيفتها حتى الآن كجزء من جامعة القاهرة ، ومن بين خريجيه بعض أعظم مؤرخى مصر كمحمد فؤاد شكرى ، محمد رفعت ، محمد أنيس وأحمد عبد الرحيم مصطفى (٩١) .

ورغم التقدم الذى حققته مصر في التعليم خلال القرن التاسع عشر، فقد كانت لاتزال مفتقرة الى جامعة حديثة قادرة على تخريج وتمويل وتوظيف مؤرخين محترفين وباحثين ، وبات واضحا انه اذا أرادت مصر انتاج أعداد مناسبة من العلماء ليس فقط في التاريخ ولكن أيضا في الفنون والعلوم بصفة عامة ، فان هذه الخطوة النهائية الحاسمة لابد أن تخطى . وهكذا ففي عام ١٩٠٨ اقترح عدد من المثقفين المصريين اقامة أول مؤسسة للفنون الحرة المصرية المؤسسة على النمط الغربى - الجامعة المصرية .

جاءت نواة هذا المشروع أساسا من الدوائر القومية ، ويتفق أغلب المثقفين على ان الفكرة نفسها تعود جذورها الى مصطفى كامل (٩٢) . وقد مات مصطفى كامل نفسه قبل انشاء الجامعة ، وسقط حزبه من

دائرة رضا كل من القصر وقوى الاحتلال ، وبالتبعية فانه ذوى فى ظلام
النسيان) . وما ان حصلت الخطط على مصادره القوى حتى اقيمت لجنة
تضهيرية برئاسة الامير احمد فؤاد ، وسعد زعلول (وكيل منظمة
الاستشفاء فى ذلك الوقت) كنائب للرئيس ، وقاسم امين سكرتير
وحسن سعيد كامين للصندوق . كانت المشكلة التى على اللجنة ان
تواجهها هى الحاجة الى النقود ، حيث ان الجامعة كانت سمول من الموارد
الخاصة . كذلك فان الأزمة المالية فى سنة ١٩٠٧ عطلت التقدم لبعض
الوقت ، لكن نظارة الأوقاف وبعد أقل من عام جاءت لاتخاذ المشروع
وقدمت إعانة مالية سنوية قدرها خمسة آلاف جنيه ، أضافت وزارة
المعارف اليها ألفى جنيه سنويا ، وتبرع حسن باشا زايد بخمسين فدان
من أملاكه الخاصة . وتأكد نجاح المشروع بعد ذلك بوقت قصير عندما
أصبحت الجامعة تحت رعاية الأميرة فاطمة (عمة الخديو) التى ساهمت
بأرض أخرى ، ومبنى جديد ، وثمانية عشر ألفا من الجنيهات فى شكل
مجوهراتها الشخصية . وفى ١٩١٣ بلغت أصول الجامعة المالية
عشرون ألفا من الجنيهات كوديعة فى البنك الألمانى Deutsche Bank .
وبلغت عوائد الاستثمار ثلاثة آلاف جنيه (٩٣) .

كان خلق جامعة جديدة من فراغ عملا ضخما ، وبرغم هذه التبرعات
الضخمة فان الجامعة المصرية بدأت بداية بطيئة للغاية . كان عدد الطلبة
المتخفين صغيرا فى البداية : فى ١٩١١ - ١٢ التحق ٣٤٤ رجلا
و ٧٧ امرأة فقط (٩٤) . وكانت العقبة الأخرى هى النقص الخطير فى
المعلمين المؤهلين ، وهو ما حاولت الجامعة ان تعالجه عام ١٩١١ عن طريق
إرسال ثلاثين طالبا مصرية الى الخارج للدراسة العليا . وتلقى كل طالب
منهم منحة دراسية قدرها ٤٣٨٠ جنيها مصرية فى العام (٩٥) على ان
يقوم عند العودة الى بلاده بعد استكمال دراسته بتدريس مقررات
متقدمة .

تضمن المنهج الدراسى فى الجامعة المصرية فى العام ١٩٠٨ - ٩
مناهج دراسية حديثة كالحضارة الاسلامية ، التاريخ العربى ، الجغرافيا
وفقه اللغة ، والأدب الفرنسى والانجليزى . وفى عام ١٩٠٩ - ١٠
أضيف التاريخ والفلك العربى ، الفيزياء ، العلوم السياسية ، والأدب
العربى ، وفى عام ١٩١٠ - ١١ أضيف تاريخ الشرق الأوسط ، وفه
اللغة السامية ، الفلسفة العربية والأخلاق ، تاريخ الفلسفة وعلم
الاجتماع (٩٦) .

لكن الحرب العالمية الأولى قطعت هذه المسيرة المتواضعة من الانجازات ،
وأصبح مصير الجامعة معطلا بصفة مؤقتة . على أى حال فبعد الاستقلال

حولت الجامعة الى معهد حكومى ومنذ ذلك الوقت بدأت تنمو ببطا .
ومع انها كانت مؤسسة للفنون والاداب الحرة على نحو كامل حتى عام
١٦١٥ الا انها استقبلت فى ذلك العام ثلاثة كليات جديدة هى الحقوق ،
الطب ، والعلوم - وبدأت تنشق طريقها لتصبح واحدة من أفضل
مؤسسات التعليم العالى فى الشرق الأوسط (٩٧) . وفى ثلاثينيات
النسرين كان التاريخ والجغرافيا اثنين من أكثر تخصصات الجامعة شعبية (٩٨)
ولم تعد هناك مشكلة العثور على الأشخاص المؤهلين لتدريس هذه المواد .
أصبح أحمد لطفى السيد أول مدير للجامعة ، وانخرط رجال أمثال
طه حسين واسماعيل رأفت وعدد من العلماء الأوربيين المشهورين فى
سلك معلميها (٩٩) . وفى قسم التاريخ نفسه كان رجال أكفاء أمثال
شفيق غربال ومحمد مصطفى زيادة يبدأون فى استلام الزمام من
المستشرقين الأوربيين (١٠٠) .

فى ١٩٤٠ تحول اسم الجامعة الى فؤاد الأول وفى ١٩٥٢ الى جامعة
القاهرة . وفى ١٩٥٣ - ١٩٥٤ كان عدد كلياتها تسعة ، ووصل عدد
طلبتها الى ٢٤٠٠٠ (١٠١) . وقد بلغ عدد الطلبة الآن ١٠٠٠٠٠ فى
القاهرة وحدها ، الى جانب أربعة جامعات أخرى فى الاسكندرية (أنشئت
عام ١٩٤٢) ، عين شمس ، طنطا ، أسيوط .

يتحدد كم وكيف الكتابة التاريخية التى ينتجها بلد ما - لدرجة
كبيرة - بوضع النظام التعليمى لذلك البلد والمناخ الفكرى الذى يساعد على
خلقه . وقد دخلت مصر الى القرن التاسع عشر وهى معتمدة كلية على
طريقة الفهم الأزهرى الوسيط للتعليم الذى كان يتجاهل الدراسات
التاريخية . ثم تركت مصر هذا الاتجاه وهى مزودة بشبكة متسعة
ومحدثة من المدارس التى أصبح التاريخ فيها مقرا أساسيا ومعترفا به .
أصبح الكثير من المصريين قادرين على السفر الى الخارج للدراسة العليا ،
وحتى هؤلاء الذين تخصصوا فى ميادين تقنية اتصلوا كثيرا واهتموا
بالتاريخ خلال دراساتهم . أنشئت المكتبات ، ودرس المدرسون العلوم
الانسانية والاجتماعية ، ونشأت جامعة للفنون والآداب الحرة . وتغير
المناخ الكلى للدراسات التاريخية تغيرا جذريا ، وأفاد المؤرخون المصريون
فى أواخر القرن التاسع عشر من هذا الجو المساعد .

حواشي الفصل الخامس

(١) فريدريش ماينيكه Friedrich Meinecke • مؤرخ الماني مرموق • جامد ليكتب تاريخا يربط التطورات السياسية بالتيارات الثقافية والعرقية • وكويطني الماني غيور فقد حاول ماينيكه ان يبرهن في

Weltbürgertum und Nationalstaat (Cosmopolitanism and the Nation-state, 1907 ; Eng. trans., 1970).

ان الدولة الالمانية قد مثلت توليفة فريدة من القوة السياسية والثقافة • ومع هذا فانه تحرر فيما بعد من الأوهام بقيام الحرب الأولى فاعترف في كتابه

Idee der Staatsräson in der neueren Geschichte (1924 ; trans. as Machiavellism, 1957).

بان مثل هذه التوليفة لم تعد ممكنة في المجتمع الجماهيري الحديث • ومع هذا فانه أعاد التأكيد في عمله الكبير الأخير

Die Entstehung des Historismus (1936; trans. as Historicism, 1972).

بايمانه بالمشاركة الإيجابية للفكر الكلاسيكي الالمانى والثقافة في الحضارة الغربية الحديثة
Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 13, p. 282.

المترجم

(٢) قارن ص ٢٨ - ٢٩ من الفصل الثاني •

Heyworth-Dunne

(٣) هيوارث دن

"Education in Modern Egypt", pp., 41-42, 75.

(٤) محمد بديع شريف ، زكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الكريم • دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة • (القاهرة : مطبعة الرسالة بدون تاريخ) من ٥٦٠ - ٦١ •
(٥) الشيبال • تاريخ الترجمة • ص ٢٢٥ •

Heyworth-Dunne

(٦) هيوارث دن •

"Education in Modern Egypt," pp., 376, 395.

(٧) المصدر نفسه ص ٣٩٨ - ٤٠١ •

(٨) انظر الحاشية ١٧ من الفصل الرابع •

Heyworth-Dunne

(٩) هيوارث دن

"Education in Modern Egypt," p. 403.

Moussa

وموسى

"Intellectual Currents in Egypt," p. 270.

S. A. Morrison

(١٠) ص ١ • موريسون

"El Azhar Today and Tomorrow," The Moslem World 16 (1926) : 132-33,

Achille Sekaly

(١١) أشيل سكيلى

"L'Université d'el-Azhar et ses transformations", Revue des Etudes Islamiques 1 (1927) : 465-66.

(١٢) أكثر الدراسات تفصيلا عن الأزهر هو كتاب سنية قراءة « تاريخ الأزهر فى ألف عام (القاهرة : مكتب الصحافة الدولى للصحافة والنشر ، ١٩٦٨) » .

(١٣) أحمد عزت عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨) ، ص ٢٥١ - ٣٢٦ ، ٣٤٥ - ٤٢١ .

(١٤) انظر ص ٧٣ - ٧٤ من الفصل الرابع « وقارن الشيال « تاريخ الترجمة » ص ١٣٠ - ٣٤٠ .

(١٥) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ٣٢٧ - ٢٨ .

(١٦) المصدر نفسه ص ٨٤ - ٨٥ .

(١٧) فى فبراير ١٨٣٧ فى الواقع ، رغم ان النظام الجديد فى أغلب الأمور الأخرى أصبح نافذا فى ١٨٣٦ . المصدر نفسه ٩٣ - ٩٦ .

(١٨) كانت الاعداد فى بعض الأحيان فيما دون هذه الأرقام المثالية مع ذلك . المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(١٩) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٢٢ - ٢٨ ، ١٣٣ - ٣٤ .

(٢١) عرف الخريجون فيما يبدو كلا من الفرنسية والعربية بدرجة تكفى لترجمة المواد الغير تقنية لكنهم كانوا لا يزالون غير مجهزين للتعامل مع النصوص العلمية . المصدر نفسه ص ٣٢٢ - ٣٣ ، ٣٤٠ - ٤١ ، والشيال « الطهاوى » ص ٢٢ - ٣٣ .

(٢٢) بدوى « الطهاوى » ص ٤٣ .

(٢٣) الشيال « الطهاوى » ص ٣٥ .

(٢٤) هيوارث دن

Heyworth-Dunne

"Education in Modern Egypt", pp. 229 ff., 235-36, 240.

(٢٥) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ١٤٠ - ٤١ .

(٢٦) فى الحقيقة فان النفوذ الفرنسى لم يتعرض لانقطاع مفاجئ ، وأغلب الروايات الرديئة عن عهد عباس هى من المراقبين الفرنسيين بالتبعية .

(٢٧) تابع الغاء هذه المدارس الأربعة وكذلك فعل بأغلب مدارس محمد على المتخصصة . انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ١٣٤ ، وهيوارث دن

Heyworth Dunne

"Education in Modern Egypt", p. 297.

(٢٨) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » ج ١ عصر عباس وسعيد - القاهرة - مطبعة النصر - ١٩٤٥ ص ١٧١ - ٧٢ .

(٢٩) والتر برجمان

Walter Björkmann

"Probleme des ägyptischen Bildungswesens," Die welt des Islam 22 (1940) : 115.

Heyworth Dunne

(٣٠) هيوارث دن

"Education in Modern Egypt", p. 317.

(٣١) كان من المتوقع عقلا ان تواصل مدرسة المحاسبة التي علمت في اوقات عديدة لغات اجنبية ومباحة ، سياسة « الالسن » فيما يتعلق بالتاريخ . ومع هذا فان كلا من هيوارث دن Heyworth Dunne وعبد الكريم يتفقان على ان التاريخ لم يكن يعلم فيها .

Heyworth Dunne

هيوارث دن

"Education in Modern Egypt," pp. 267-68, 317, 355.

وعبد الكريم « تاريخ التعليم في عصر محمد علي » من ٣٢٥ - ٢٦ .

Georges Eugene Haüssmann

(٣٢) البارون جورج ايوجين هاوسمان

(٢٧ مارس ١٨٠٩ - ١١ يناير ١٨٩١) ادارى فرنسى للمجالس البلدية ومخطط حضري ، غير مظهر باريس القرن التاسع عشر . كانت عائلته متميزة في الشئون الثورية والناپليونية الفرنسية . بعد تعلمه القانون دخل هاوسمان الخدمة المدنية وارتقى ليصبح حاكم منطقة السين Seine dept. التي ضمت مدينة باريس . وظل في هذا المنصب من ١٨٥٣ الى ١٨٧٠ . في ظل امبراطورية نابليون الثالث الثانية . وبفضل السلطة المعطاة له من الامبراطور فان هاوسمان قام بحملة مكثفة للأشغال العامة مصحبة لتحديث وتجديد باريس من أجل جعلها أكثر صحة وروثقا للعيش وأسهل للحكومة لتضبطها . شقت الشوارع العريضة التي تكتنفها الأشجار عبر الممرات المعقدة القديمة والضيقة لتسهيل الحركة حول المدينة ، وشيدت أنظمة للصرف والمياه لتقليل الأخطار الصحية . وأقام هاوسمان غابة بولونيا Bois de Boulogne وأغلب حدائق باريس ، وبني محطات السكة الحديد الرئيسية فيها ، دار الأوبرا ، والسوق المعروف بـ Les Halles الذي هدم عام ١٩٧١ . وعند موت هاوسمان كان عمله قد مارس نفوذا رئيسيا على تخطيط المدن في العالم .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 10, p. 69.

المترجم

M. Sabry

(٣٣) م . صبرى

"La genese de l'esprit national egyptien, 1863-1882".

Thèse principale de Doctorat des lettres présentée à la Faculté des lettres de l'Université de Paris (Paris : le recteur de l'Académie de Paris, 1924), pp. 82-89.

Moosa

(٣٤) موسى

"Modern Arabic Fiction", p. 151.

Sabry

(٣٥) صبرى

"l'esprit national egyptien", p. 89.

(٣٦) خليل صابات « مطبعة بولاق في عهدى الثانى ، ١٨٤١ - ١٨٨٢ » . مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٤ (١٩٦٢) : ٢٣ . وتبدو هذه الأرقام متضخمة قليلا ، لأن الكتائب مجسوبة من بين الأرقام .

Henri Loaut

(٣٧) هنرى لاوست

"Introduction à une étude de l'enseignement arabe en Egypte", Revue des Etudes Islamiques 7 (1933) : 302.

Heyworth Dunne

(٣٨) هيوارث دن

"Education in Modern Egypt", p. 361.

كتاية التاريخ - ١٤٥

Fritz Steppat

(٣٩) فريتز شتبيات

"National Education Projects in Egypt Before the British Occupation",
Beginnings of Modernization in the Middle East : The Nineteenth
Century eds. William R. Polk and Richard L. Chamber , Publications
of the Center for Middle Eastern Studies, no. 1 (Chicago and London :
University of Chicago Press, 1968), pp. 289, p. 90.

قارن سعيد زايد « على مبارك وأعماله » الألف كتاب ، رقم ١٩٩ (القاهرة : مكتبة
الأجلو المصرية ، بدون تاريخ) ص ٧٣ ، ٧٦ .

Heyworth Dunne

« ٤٠ » هيوارث دن

"Education in Modern Egypt," p. 435.

(٤١) لا يوجد اثنين متفقين تماما على مدى انخفاض خلال سبعينيات القرن التاسع عشر
فهيوارث دن Heyworth-Dunne يقول ان عدد الطلبة انخفض من ١٣٦٨ الى ٦٦٣ خلال
الفترة ١٨٧٣ - ٧٨ . المصدر نفسه ، ص ٣٨٣ . ويؤكد شتبيات Steppat ان عدد تلاميذ
المدارس الأولية تحت حكم اسماعيل ربما لم يتجاوز الخمسة آلاف وخمسمائة تلميذ الذين
كانوا طاقة المشروع الذي وضع في عصر محمد علي . شتبيات Steppat
"Education Projects in Egypt", p. 294.
وكلا الرقمين يون شاسع من رقم المائة ألف الذي زعمه صابأت : والحقيقة الأساسية
هي أن المدارس الابتدائية تدهورت بشكل كبير خلال منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر .

Abdel-Malek

(٤٢) عبد الملك

L'Egypte modern", p. 158.

Heyworth-Dunne

(٤٣) هيوارث دن

Education in Modern Egypt, p. 353.

(٤٤) أحمد عزت عبد الكريم « تاريخ التعليم في مصر » . القاهرة : مطبعة النصر ،
١٩٤٥ (الجزء الثاني ، ٤٣١ - ولا يتفق هيوارث دن Heyworth-Dunne مع عبد الكريم
ويتمسك بأن لا تاريخ على الإطلاق كان يدرس في مدرسة القاهرة الثانوية .

Heyworth-Dunne

هيوارث دن

"Education in Modern Egypt", p. 354.

ودليل عبد الكريم مستمد من وثائق أصلية من الأرشيف المصري . أما هيوارث دن
Heyworth-Dunne فيستمد أدلته في الأغلب من تقارير صادرة عن مراقبين أوروبيين .

(٤٥) صابأت « مطبعة بولاق » ص ٢٤ .

Code Napoleon

(٤٦) أحييت عام ١٨٦٦ للقيام أساسا بترجمة كود نابليون

ووثائق قانونية أخرى . وتشير المصادر الفرنسية إليها باسم "Ecole de Droit"

عبد الكريم « تاريخ التعليم في مصر » - الجزء الثاني . ص ٥٤٦ .

(٤٧) المصدر نفسه ص ٤٩٨ ، ٥٥٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩٨ . ولا يذكر هيوارث دن

Heyworth-Dunne التاريخ كجزء من المنهج في « المهندسخانة » .

Heyworth-Dunne

هيوارث دن

"Education in Modern Egypt, pp. 354-55.

(٤٨) المصدر نفسه من ٣٤٨ ، ٣٥١ .

(٤٩) زايد « على مبارك » ص ٦٨ .

Heyworth-Dunne هيوارث دن
"Education in Modern Egypt," p. 436.

(٥١) عبد الكريم « تاريخ التعليم في عصر محمد علي » ص ٦٦٨ .

(٥٢) انظر ص ١٠١ - ٢ من هذا الفصل .

(٥٣) اسماعيل محمد القباني « سياسة التعليم في مصر » (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤) ص ٦ - ٧ .

Heyworth-Dunne هيوارث دن
"Education in Modern Egypt", p. 428.

Björkmann برلمان
"Probleme des ägyptischen Bildungswesens," p. 117.

Robert Tignor روبرت تيجنور
"Modernization and British Rule in Egypt, 1882-1914".
(Princeton : Princeton University Press, 1966), p. 346.

Björkmann برلمان
"Probleme des ägyptischen Bildungswesens", p. 116.

Moosa موسى
"Modern Arabic Fiction," p. 156.

Laoust لاوست
"L'enseignement arabe en Egypt," p. 310.

لتفاصيل أكثر عن تعليم اللغة الأجنبية انظر الفصل الحادي عشر ص ٢٠٦ - ٧ .

(٦٠) زيدان « تاريخ أدب اللغة العربية » الجزء الرابع ٣٥٠ - ويزعم القباني ان هذا الاجراء قد عمل به عام ١٩٠٩ .
القباني « سياسة التعليم في مصر » ص ٧ .

(٦١) زيدان « تاريخ أدب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٣٥ .

(٦٢) تخمين مضطرب مبني على الاحصائيات المتناقضة التي أوردها علماء عديدون .
لزيدان على سبيل المثال يزعم ان العدد الكلي للمدارس وصل الى ٥٠٠٠ عام ١٩١٣ ، ضمت حوالي ٤٠٠٠٠٠ طالب . وهذا يمثل من وجهة نظره تدهورا عن الوضع عام ١٨٨٢ عندما كان عدد المدارس الأولية ٥٣٧٠ والمدارس الثانوية ٢٧ (ومع هذا فقد كان عدد الطلاب ١٤٢٢١٧) . وطبقا لزيدان فان تقديرات ١٨٨٢ فوق ذلك لم تتضمن المدارس « الخاصة » أو « التجهيزية » الجديدة .

زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٢٤ - ٣٦ . وأرقام زيدان
مؤيدة تقريبا بمقالة ظهرت عام ١٩١٤ ربما كانت هي أيضا مؤسسة على كتاب زيدان .
وطبقا لهذا المصدر ، فإنه في عام ١٩١٣ كان هناك ٨٠٧ مدرسة حكومية ، ٢٨٠٠ مدرسة
تحفيظ قرآن ، و ١١٠٠ مدرسة أخرى بجموع قدره ٥٧٠٧ .

Henri Laoust

هنري لاوست

'Mitteilungen : Agypten," Die Welt des Islams 2 (1915) : 336.

(٦٣) عن الجامعة المصرية انظر ص ١٠٢ - ٢ من هذا الفصل .

(٦٤) تتعارض الاحصائيات بصورة جذرية بشأن هذه المسائل . فناداف سافران
Nadaf Safran يزعم انه كان هناك ٦٨ مدرسة ابتدائية وثانوية مدعومة حكوميا
في مصر عام ١٩١٤ ، الى جانب ٧٣٩ مدرسة خاصة و ٣٢٨ مدرسة تبشيرية وتابعة لجماعات
Communal

Nadav Safran

ناداف سافران

"Egypt in Search of Political Community"

(Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1961), p. 55.

ومن الواضح ان سافران Safran لا يضم الى « المدارس الابتدائية » آلاف الكتائب
العديدة . وهذا مفضل حيث انه طبقا لمقالة عام ١٩١٤ المستشهد بها في السطور السابقة
فان « الكتائب » كانت تتلقى معونة الحكومة State supported

Henri Laoust

هنري لاوست

"Mitteilungen : Agypten," p. 336.

وربما يرجع الارتباك والتشويش الى حقيقة ان كثيرا من المدارس التي كانت تتلقى
معونة الحكومة "Governmental aid" لم تكن تحصل عليها مباشرة من وزارة المعارف .
ولاوست Laoust على سبيل المثال يقرر ان ٥٢١ مدرسة من أنواع عديدة كانت تتلقى
عام ١٩١٧ دعما ماليا من الحكومة المركزية (ولكن ليس من الوزارة) او من مجالس
للبيريات . ويزعم أيضا ان ١٢١ مدرسة أولية كانت تحت الاشراف المباشر للوزارة في نفس
العام (١٩١٧) . هذه الاحصائيات تتناقض بوضوح مع أرقام سافران Safran حيث انه
لا يمكن ان يزيد عدد « المدارس المدعومة من الدولة » هذه الزيادة الكبيرة وخاصة خلال
سنوات الحرب .

Laoust

لاوست

"L'enseignement arabe en Egypt," p. 305

ولا يبدو واضحا على الأقل انه كان في عام ١٩١٤ ستة مدارس ثانوية مدعومة من
الدولة . ويتفق حول هذه النقطة كل من بروكمان Björkmann ولاوست Laoust

Björkmann

بروكمان

"Probleme des agyptischen Bildungswesens." p. 121.

Laoust

ولاوست

"L'enseignement arabe en Egypte", p. 310.

ويمثل هذا زيادة قدرها ثلاثة أضعاف بالمقارنة بعهد اسماعيل .

Laoust

(٦٥) لاوست

"L'enseignement arabe en Egypte", p. 306.

(٦٦) المصدر نفسه ص ٣١٠ - ٣١٢ .

Björkmann

(٦٧) بروكمان

"Probleme des ägyptischen Bildungswesen", p. 112.

Safran

(٦٨) سافران

"Egypt in Search of Political Community", pp. 55-52.

(٦٩) يختلف العلماء حول عدد الطلاب الذين أرسلهم محمد علي فعلا الى أوروبا .
وأكثر الدراسات تفصيلا عن البعثات التعليمية المصرية هي دراسة عمر طوسون التي استخدمت
أرقامها هنا .

انظر الأمير عمر طوسون « البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول
وسعيد (الاسكندرية : مطبعة صلاح الدين ، ١٩٣٤) ، ص ٤٠٤ - ٨ .

(٧٠) درس اثنان « العلوم السياسية » وأربعة درسوا « الإدارة العامة » .
عبد الكريم « تاريخ التعليم في عصر محمد علي » ص ٤٣٥ - ٣٦ .

Heyworth-Dunne

(٧١) هيوارث دن

"Education in Modern Egypt", pp. 245-46.

من الصعب إيجاد صلات مباشرة ، لكنه أمر ذو دلالة ان ثلاثة من مؤرخينا المتأخرين
للقرون التاسع عشر - علي مبارك ، أمين سامي ، واسماعيل سرهنك باشا - قد ضموا الى
دائرة التاريخ من خلال التدريب في ميادين تقنية - علمية . والطباطوي نفسه اجتاز الكثير
من التدريب التقني وكتب كتباً في الرياضيات والهندسة . لقائمة عن هذه الأعمال انظر
بدوي « الطباطوي » ص ٣٥٩ - ٥٣ .
وخلال دراسته للميادين التقنية في باريس أظهر اهتماما بالتاريخ .

(٧٢) عن عباس وسعيد انظر طوسون « البعثات العلمية » ص ٤١٦ وما بعدها .
عن اسماعيل انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم في مصر » الجزء الثاني - ص ٦٩٥ - ٧٧٥ .
تارن هيوارث دن

Heyworth-Dunne

"Education in Modern Egypt", p. 394.

Safran

(٧٣) سافران

"Egypt in Search of Political Community", pp. 55-56.

ويتفق عبد الملك مع نسبة ٩٦٪ لا قبل ١٨٨٢ التي أوردتها سافران
عن نسبة التوجه التقني للبعثات ، لكنه يزعم وقد أسس زعمه على عمل م . م . مشرف
(London, 1947) "Cultural Survey of Modern Egypt" أن حوالي ٧٥٪
(٢١٥ من ٢٨٩) من بعثات ما بعد ١٨٨٢ كانت في « الأدب » . ويعتقد عبد الملك ان
الاختلال لم يرسل أي طالب مصري الى الخارج قبل ١٩٠٦ - ٧ ، وهو ما يعني انه كان
هناك برنامج مكثف غير معقول بعد ذلك التاريخ . ويلخص عبد الملك السياسة التعليمية
البريطانية في مصر بقوله أنها أجبرت مصر « على التخلي عن تسليحها الحديث ، بقدر ما كان
عليها ان تتوقف عن الاستثمار في أن تكون قوة حربية وصناعية ، وأن تهبط نفسها بدلاً

من ذلك مع موظفي الحكومة - أساتذة اللغات والمشرعين - ليتسلموا التعليم من القوة المحتلة ولا شيء غير ذلك » . ويقول عبد الملك ان هذه السياسة تقود الى نزاع استقلال الثقافة المصرية والتردى والايلولة الى الزوال .

عبد الملك

"L'Egypte moderne, pp. 355-56.

وهكذا فان عبد الملك يأخذ البريطانيين الى مهمة تسهيل هذه الاشياء التي كان الوطنيون المصريون أنفسهم يطالبون بها وهي التركيز الأكبر على تعليم جيد في الميادين الغير تقنية .

Tignor

(٧٤) تيجنور

"Modernization in Egypt," p. 339.

ومصطفى كامل على سبيل المثال ذهب الى أوروبا لدراسة القانون . انظر حاشية ١٧ من الفصل الثامن .

Björkman.

(٧٥) بروكمان

"Probleme des ägyptischen Bildungswesens", p. 127

(٧٦) جيوفاني بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣١٣ - ١٣٧٥) شاعر وكاتب

إيطالي . يعرف « بابي النثر الايطالي الكلاسيكي » . لتفاصيل عن بوكاشيو انظر

"Probleme des ägyptischen Bildungswesens", p. 127.

للمترجم

(٧٧) زيدان « تاريخ أدب اللغة العربية » الجزء الرابع ص ١١٢ - ١٣ .

(٧٨) بدون مؤلف « دار الكتب في عهد الثورة » ١٩٥٢ - ١٩٦٢ (القاهرة : مطبعة

دار الكتب ، ١٩٦٢) ص ٥ - ٦ .

(٧٩) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ١١٤ - ١٥ .

(٨٠) « دار الكتب في عهد الثورة » ص ٦ - ٧ .

(٨١) "The world of Learning, 24 th ed. (London : Europe Publications, Ltd., 1973), I, 375.

(٨٢) ما لم يذكر العكس فان المعلومات الآتية عن المكتبات المصرية قد أخذت من زيدان

« تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ١١٤ - ١٦ ، ١١٨ - ١٢٠ ، ١٢٥ - ٢٨ .

A .P. Wales

(٨٣) طبعة ١ - ب . ويلز

"International Library Directory (London : The A.P. wales Organization, 1968), p. 213.

(٨٤) عبد للحسن طه بدر « تطور الرواية العربية الحديثة في مصر » ١٨٧٠ -

١٩٢٨ « - مكتبة الدراسات الأدبية ، رقم ٣٢ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣) ص

٢٦ - ٢٧ .

ودون الرغبة في التقليل من أهمية دور مبارك ، إلا انه يجب ان يلمح ان اليد المرشدة

للكلية في أيامها الأولى كان ادوارد دور Edouard Dor (المفتش العام للتعليم خلال

سبعينيات القرن التاسع عشر ثم مستشارا بحكم المنصب بعد ذلك لوزير المعارف) . عن

دور دوربك Dor Bey انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم في مصر » الجزء الثاني ،

ص ٥٩٩ وما بعدها .

Sleppat

(٨٥) شتبيات

"Education Projects in Egypt", pp. 292-93.

Heyworth-Dunn

(٨٦) هيوارث دن

"Education in Modern Egypt", p. 379.

ومن الواضح الآن أن اتجاه هيوارث دن Heyworth-Dunne تجاه التعليم
المصرى سلبى بثبات .

C. C. Adams

(٨٧) س . س . آدامز

"Mohammad Abdub, The Reformer," The Moslem World 19 (1939) .
268.

(٨٨) عبد الكريم « تاريخ التعليم في مصر » الجزء الثاني ، ٦٠٧ .

(٨٩) « دار العلوم : حديث صادق جوهر بك » ، المقتطف ٣٩ (١٩٣٧) : ١٥٣ .
عن نمو الكلية في عهدى توفيق وعباس الثانى انظر أمين سامى باشا « المدارس في ربع
قرن : من سنة ١٨٧٥ - ١٩٠٠ » ، المقتطف ٣٨ (١٩٣٦) ٦٠٠ - ٦٠١ .

Laoust

(٩٠) لاوست

"L'enseignement arabe en Egypte", p. 318.

(٩١) تخرج محمد فؤاد شكرى ومحمد رفعت من مدرسة المعلمين ، أما محمد أليس
فقد تخرج من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٣ ، وكذلك تخرج منها أحمد عبد الرحيم
مصطفى عام ١٩٤٦ .

المترجم

(٩٢) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٤٤ . وقد أمل الحزب
الوطنى ان ينشر معرفة تاريخ مصر الحديث بين جموع غير المتعلمين ومن أجل ذلك فانه
أقام مدارس ليلية للفقراء عام ١٩٠٨ . ومع عام ١٩٠٩ كان هناك أربعة مدارس من هذا
النوع تضم منها مائة وعشرون تلميذا : ودرس فيها كل من التاريخ الإسلامى والمصرى .
انظر عبد الرحمن الرافعى « محمد فريد : رمز الاخلاص والتضحية » (القاهرة :
مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١) ، ص ١٠٩ .

(٩٣) المعلومة مأخوذة من زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ،

٤٤ - ٤٥ .

Laura Veccia Vaglieri

(٩٤) لاورافيشيا فاجليرى

"Notizie sulle Università Egiziane", Oriente Moderno 30 (1950) : 89.

(٩٥) المصدر نفسه

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

James A. Bellami

(٩٧) جيمس أ . بيلامى

"Cairo University," Middle Eastern Affairs 6 (1955) : 185.

Laoust

(٩٨) لاوست

"L'enseignement arabe en Egypte," p. 321.

(٩٩) عن أعضاء هيئة التدريس بالجامعة المصرية ، انظر على وجه الخصوص محمد
محمود زيتون « جامعة فؤاد الأول » - الرسالة ، رقم ٨٩٣ (١٩٥٠) ، ص ٩١١ ، ولنفس
المؤلف « قلندم الجامعة » ، الرسالة ، رقم ٨٩٤ (١٩٥٠) ص ٩٣٧ .

(١٠٠) عن سيرة غربال انظر محمد أنيس « شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث » ، المجلة ، رقم ٥٨ (١٩٦١) ص ١٣ .

عن زيادة انظر عبد الفتاح عاشور « الدكتور محمد مصطفى زيادة » - المجلة ، رقم ١٤٥ (١٩٦٩) ص ٣٢ - ٣٣ .

Bellamy

(١٠١) بيلامى

"Cairo University", p. 185.

الموسوعيان : علي مبارك وأمين سامي

بصرف النظر عن الجبرتي ، فقد كان علي مبارك هو الشخص الوحيد في القرن التاسع عشر الذي كتب عملا تاريخيا ضخما (أو لأغراض الدقة ، بيوجرافيا ، طبوغرافيا) (الخطط التوفيقية) . ورغم أنه يستشهد بالجبرتي مرارا إلا أنه لا يعتبر تابعه . ان عجائب الآثار والخطط التوفيقية مختلفان تماما في البنية ، المحتوى ، والأهداف . وإلى جانب ذلك فإن قوة الجبرتي الخلاقة كانت أكثر تفوقا عن تلك التي لدى مبارك ، الذي كان أساسا مصنفا أو جامعا (١) .

جذب كلا من الجبرتي والطهطاوي اهتمام المستشرقين الغربيين لأكثر من قرن . وحلل عملهما من وجهات نظر عديدة ومختلفة ، والأعمال الأدبية عنهما الآن كبيرة بما فيه الكفاية إلى حد أن المهتمين بالشئون الثقافية ممن لا يقرأون العربية يستطيعون أن يتعلموا منها الكثير . ومن المؤسف ان المادة العلمية عن المؤرخين الذين سوف ندرسهم في الفصول التالية أقل سهولة في الحصول عليها ، حتى للقارئ العربي . فكل من الرجال وانجازاتهم الأدبية لابد أن تعرف تماما ، أو أن تقدر .

تلقي سيرة علي مبارك وأمين سامي وآخرين ضوءا قيما على التطور الأبعد للدراسات التاريخية في مصر القرن التاسع عشر . هذه السير هامة جدا للتبصر الذي تلقىه على المناخ الثقافي المتغير لأواخر القرن التاسع عشر والنشاط العام للاحتكاك الثقافي والتحديث . وعن طريق التأمل في النشاطات المهنية والخلاقة لمثل هؤلاء الرجال نستطيع أن نعمق فهمنا للتغير الاجتماعي والثقافي المصري بصفة عامة .

ولد علي مبارك عام ١٨٢٣ في قرية برنبال الجديدة بالدقهلية (٢) . ولم تكن أسرته ثرية ومثل أغلب الصبية المصريين فقد تلقى تعليمه الابتدائي

في كتاب القرية (٣) وقد أدى تفوقه في هذه المرحلة المبكرة الى اختياره للتعلم في مدرسة القاهرة الثانوية المعروفة بقصر العيني (٤) . كان ذلك توقيتا نموذجيا ، فقد كان برنامج محمد علي التعليمي في أقصى انطلاقه . في ١٨٣٢ كانت المدرسة تضم ١٢٢٠ تلميذا واتسعت مكتبتها لمجموعة ضخمة من الكتب تراوحت بين ١٢٠٠٠ - ١٥٠٠٠ مجلدا . أغلبها بالفرنسية والاطالية (٥) . كانت هذه فرصة رائعة لمبارك ليدرس حتى مع الظروف المعيشية الغير مواتية هناك (بشهادته هو) . اذ يقول لنا أن كثيرا من اليوم كان يقضى في تدريبات السير . وارتدى الطلاب أحزمة خشنة ووزع الطعام السيء دون عدالة ، وكان التعليم غير كاف وعند الليل كان النوم على حشايا مملوءة بنبات الحلفاء (٦) . كان النظام التعليمي الجديدة قد مد في الحجم بسرعة لا تتناسب مع تنظيمه في الحقيقة . ولم تكن الصلة بين كتاب القرية ، والمدارس الثانوية والمدارس ذات التدريب الخاص قد تأسست بوضوح بعد ، وكانت (قصر العيني) تلحق بفصولها كلا من الطلبة المبتدئين والمتقدمين . بل انه لم يكن معروفا على وجه اليقين ما الذي كان التلاميذ يجهزون له حيث ان التخرج لم يكن يضمن الاستمرار الى تدريب أكثر تخصصا (٧) .

ومع هذا فان مبارك أبدى استعدادا وأداء متميزا في دراساته ، وفي ١٨٣٩ قبل في مدرسة المهندسخانة التي كانت تحت الادارة العتيدة لمحمود الفلكي (٨) . وفي هذه المدرسة تلقى مبارك دراسات في الميكانيكا ، الديناميكا ، الهيدروليكا ، الطبوغرافيا ، الفلك ، الكيمياء ، الجيولوجيا ، ومظهر الكون وتركيبه العام . وحيث ان الكتب المدرسية لم تكن متيسرة لهذه المواد فان كل التعليم في المهندسخانة كان شفويا (٩) .

في ١٨٤٤ كان مبارك محظوظا ليختار لمصاحبة أنجال محمد علي في بعثة تعليمية الى باريس (١٠) . وفي فرنسا قضى خمس سنوات دارسا العلوم العسكرية بصفة أساسية في باريس و Metz . وفي عام ١٨٥٠ وفي اعقاب موت محمد علي استدعيت البعثة كلها الى مصر (١١) .

توقع حاكم مصر الجديد عباس الأول وقد نفى الطهطاوي الى السودان أن يتولى مبارك بعضا من واجباته . في البداية كان علي (مبارك) أن يشنع بوظيفة المعلم المتواضعة في المدرسة الحربية بطرة (١٢) ، وفي رتبة الملازم (يوزباشي) . لكن عباسا سرعان ما رقاءه مع حماد بك (عبد العاطي) وعلى إبراهيم الى وظيفة المراقب على امتحانات الهندسة الاقليمية . وقد استلزم هذا المنصب سفرا مستمرا من مديرية الى مديرية لاقامة مستويات الامتحان . وهو جهد أعطاه الفرصة بلا شك لأن يجمع المادة اللازمة (للخطط) . رسم مبارك مشروعا عمليا منخفض التكاليف للتعليم المصري ، نتج عنه تعيينه كأول (ناظر) وطني للمعارف . كما تلقى ترقية

الى رتبة الكولونيل (أميرالاي) وهدية من الأرض الزراعية مساحتها ثلاثمائة فدان (١٣) . ومع انه كان قد أصبح ثريا ، الا ان عباسا لم يتركه ينسى أبدا كيف يمكن لمثل هذه الثروة أن تعمل وأن تدمر بكل سهولة . فقد قال عباس انه يمكنه أن يجعله يرتدى ملابس الفلاحين وأن يعيش في شظف كما كان في السابق (١٤) . ووفقا لهذا التهديد فان مبارك حرص على أن لا يدان أبدا بارتكاب أقل هفوة .

وباعتلاء سعيد السلطة عام ١٨٥٤ فقد تعرضت حياة مبارك الوظيفية لتراجع سريع ، فأرسل الى القرم مع الجيش المصرى . ومضت سنتان ونصف قبل عودته الى مصر ، لكنه ظل مع هذا بعيدا عن عطف ورضاء سعيد ، وفي النهاية فان فشله فى أن يجد وظيفة مربحة أرغمته على بيع كل فدادينه الثلاثمائة . ولمدة عين (كوكيل) فى نظارة الجهادية ، ثم فى نظارة الداخلية وفى غرفة التجارة ، وأخيرا كمهندس مقيم لجزء من مصر العليا . كانت هذه الوظائف مؤقتة مع ذلك ، ولم تنجح أبدا فى إزالة سحب الشك التى كان يلصقها سعيد بكل من كان قريبا من عباس (١٥) . وهكذا فقد كان على (على مبارك) أن ينتظر تغير الحظ حتى يأتى اسماعيل الى العرش فى ١٨٦٣ . فعين مشرفا على القناطر الخيرية وأصبح مسئولاً عن مشروع إعادة توجيه مياه النيل من فرع رشيد . وبعد سنوات من العمل كوكيل لنظارة المعارف ، أصبح ناظرا لها فى ١٨٦٨ . وفى نفس الوقت كان ناظرا للأشغال وبعد فترة قصيرة عهد اليه بنظارة (عموم الأوقاف) أيضا (١٦) .

بوضع النزعة التقنية - العلمية المتنامية عند الأسرة الحاكمة المصرية فى الحسبان ، فان اختيار اسماعيل لمهندس كمبارك ليكون ناظرا للمعارف لم يكن مفاجأة . ومع ذلك فرغم كونه تقنى من البداية فقد أثبت مبارك انه مبتكر جدير بالاعتبار وإدارى لا يكل . وكانت معرفته بالشئون الأوروبية واسعة كالمطهاوى ، وبعد اقامته فى فرنسا لمدة خمس سنوات قام فى عام ١٨٦٧ بجولة تفقدية قصيرة للمدارس الأوروبية ، وهذا ساعده على فحص الكتب الدراسية ، المناهج ، وأساليب التعليم (١٧) . وكوزير للمعارف فقد طبق مبارك بعضا من المعلومات التى حصل عليها وخاصة فى صياغة (لائحة رجب) الصادرة عام ١٨٦٨ . كان الإيحاء لعمل هذا القانون صادر من مبارك أساسا (١٨) ، ومن أجل التأكد من تنفيذ التوجيهات الجديدة فقد نقل مدرسة القاهرة الثانوية من العباسية الى قصر (درب الجماميز) حيث يستطيع أن يتفقد فصولها شخصيا وبصفة يومية (١٩) . كذلك فقد عهد اليه بتنفيذ مشروع انشاء المكتبة القومية الجديدة ، ويقف الآن تمثال له على قمة درجات دار الكتب اعترافا بجهوده ككاتب التعليم المصرى (٢٠) .

شعر مبارك بشئدة باحتياج المصريين الى اتصال أكثر باللغات الأوروبية ، وفي الحقيقة فقد أراد أن يجعل التعليم المصرى بصفة عامة أوروبيا (٢١) . ولما كان الأزهر قد عجز عن القيام بهذه المبادرة ، فقد قرر مبارك ان يقيم مؤسسة جديدة هي (دار العلوم) . والقيمت تحت رعايته سلسلة من المحاضرات العامة عن العلوم « الجديدة » ، الى جانب أحاديث عن مصر الفرعونية للمستشرق الأوروبى بروكش Brugsch (٢٢) . ولنشر المعرفة بالأساليب التعليمية الحديثة فقد أنشأ مجلة (روضة المدارس) وشارك بمقالات عديدة فيها (٢٣) .

ويبدو أن طاقات مبارك لم تكن تعرف حدودا . فقد وجد وقتا ليمارس أنشطة كثيرة خارج ميدان التعليم . فقد كان مسئولا كناظر للأشغال العامة عن انشاء كل مشروعات اسماعيل البنائية الكثيرة كالقصور والشوارع والقناطر ومصارف الرى الخ (٢٤) . وكان متوليا عمليات انشاء الخط الحديدى المصرى حتى ١٨٧٠ . وكان انشاء معامل الفيزياء والكيمياء فى دار العلوم داخلا فى نطاق اشرافه . ولفترة ما كان مبارك هو المفاوض الرئيسى فى مسائل حقوق الأراضى بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس (٢٥) .

ظل مبارك حائزا على رضا اسماعيل حتى ١٨٧٠ ، عندما تسببت دعائس الحاشية المضحوبة باتجاهات اسماعيل المتزايدة نحو المحسوبية فى ترك مبارك لمناصبه العديدة واحدا تلو الآخر . وعلى مدى السنوات القليلة التالية كان يعين فى ويفصل من نفس المناصب التى شغلها خلال الستينيات بالتبادل . وذهبت الوظائف السخية والمكافآت الممتازة الى أعضاء من الأسرة المالكة وأصبح على (مبارك) أن يقنع بمنصب (مستشار) أو (وكيل) بدلا من المناصب الوزارية العليا (٢٦) .

هكذا كان سعود مبارك فى أفول عندما أتت الثورة العربية بالمزيد من المتاعب له . كانت الأحداث عام ١٨٨٠ تجرى بسرعة مروعة ، وقاد الاضطراب الى تفسيرات عديدة ومتنوعة لها ، وتراوحت هذه التفسيرات من أفكار الولاء التى تبناها زياض باشا ونوبار نزولا الى التدرج الدستورى لرجال أمثال شريف باشا و (ربما) البارودى ، انتهاء بالموقف الثورى لعبد الله النديم وأحمد غرابى . ولقد كان موقف مبارك السياسى قريبا جدا من موقف أصحاب أفكار الولاء - وهى حقيقة منسوبة قدرا كبيرا من الارتباك للمؤرخين المصريين « الثوريين » فى العقود القليلة الأخيرة . فقد كان يمكن ان يكتب عن رجال مثل نوبار وزياض باشا بارثياخ أنهم أوغاد تاريخيون ، دون ان يرفع أحد حاجبيه دهشة . أما بالنسبة لعلى مبارك بتاريخه

الطويل المتميز كموظف عام وتفوقه الغير منازع كمعلم ومؤرخ ، فان اسمه كان ينبغي ان يترك دون تلميح . وكان على المؤرخين المصريين - وفقا لما فات - أن يغوصوا في حيل بارعة أكروباتية لاختيار الألفاظ التي تصلح لاقامة ما يناسب التاريخ الرائع للرجل (٢٧) . ومع هذا فاننا اذا ما تجاهلنا مطالب (التاريخ الثورى) revolutionary historiography فان من الواضح ان مبارك قد عارض بنشاط كل ما ناضل العراقيون من أجله . فقد كان عضوا في كل الوزارات التي سمت عرابى طاغية ، والتي تدينها المعتقدات التاريخية التقليدية بالمثل . كان وزيرا للمعارف في وزارة نوبار الشهيرة التي ضمت وزيرين أوروبيين (أغسطس ١٨٧٨ - فبراير ١٨٧٩) . ثم انضم الى وزارة توفيق قصيرة العمر حيث شغل منصبى ناظر المعارف وناظر عموم الأوقاف . وكان عضوا في وزارة رياض باشا التي سقطت في سبتمبر ١٨٨١ مع ثورة عرابى . وكان أيضا في وزارة رياض الثانية (١٨٨٨ - ٩١) (٢٨) .

وعلى نقيض ذلك فان مبارك لم يتقلد أى وظيفة فيما يسمى « بالحكومات الشعبية » ، باستثناء وزارة شريف باشا الرابعة (١٨٨٢ - ٨٤) (٢٩) . ومع الاشارات الأولى للاضطرابات الثورية لجأ مبارك الى قريته (برنبال الجديدة) حيث لزمها حتى بعد معركة (كفر الدوار أغسطس ١٨٨٢) (٣٠) . ودافع مبارك عن الحديو اسماعيل في كتبه وسمى أعظم أعماله باسم خليفة اسماعيل (توفيق) (٣١) . وقد أشار عرابى الى مبارك في مذكراته بوزير الأشغال (في زمان الاستبداد) . وسماه عبد الله النديم خائنا بلا تحفظ . ويزعم محمود فهمى ان مبارك قد ذهب (فى معارضته للثورة العرابية) الى حد ارسال خطاب الى مزارعى محافظة الشرقية حاثا اياهم على عدم مساعدة عرابى وأتباعه بأى شكل . وقد أشار مبارك - فى المناسبات القليلة التي علق فيها على الأحداث الثورية - الى (انصاف) توفيق واتهم العراقيون بحرق مدينة الاسكندرية ، وبصفة عامة بتجاوز (حد الأدب) (٣٢) .

ورغم هذه الحقائق فان المؤرخين المصريين المعاصرين لا يزالون يحاولون ربط مبارك بشكل ما بقضية عرابى . لكن معارضة عرابى لم تكن تعادل بالضرورة خيانة للرد لوطنه ، ومبارك الذى لم يكن مناصرا للعنف السياسى على الاطلاق كشف عن أصالة حبه لبلده بوسائل أخرى أهدأ . فالاصلاحات التعليمية على سبيل المثال انبثقت من ايمان شخصى راسخ بأن تعليم شباب مصر هو خدمة أفضل للوطن (٣٣) . وقد أكد مبارك فى روايته (علم الدين) ان الوطنى الحقيقى هو من قصد فى المقام الأول الى نشر المعرفة بين بنى قومه (٣٤) ؛ وقد حوت (خطته) بنفس هذا الغرض المحدد (٣٥) . ويبدو مبارك فى بعض الأحيان وقد استندت به فكرة الحاجة الى تقليل

التقهقر المصرى ، ومع ذلك فقد استطاع فى (نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر) أن يرسم صورة متملقة للغاية للشخصية المصرية مركزا على الشفقة الطبيعية ، الصبر ، والثابرة التى يتحلى بها الشعب الى جانب استعدادهم لقبول الطرق والأفكار الجديدة . وطبقا لمبارك فان خطيئة المصريين الوحيدة هى أنهم فقراء (٣٦) .

كان لعلى مبارك خلال حياته الوظيفية فى الحكومة وحدها تأثير على مصر لا يقل عن تأثير رفاعة الطهطاوى أو أى شخصية من شخصيات القرن التاسع عشر . لم يكن للمشروعات التى أوحى بها أو أنجزها تأثير بارز دائما ، لكنها كانت تستهدف توفير غلة مربحة للأجيال المقبلة . كان مبارك معلما ، تقنيا ، اداريا ، سياسيا ، ومثقفا لم تستطع أى حكومة منذ عباس الاول أن تجد عنه بديلا .

كان مبارك أيضا كاتباً وافر الانتاج . ومع ان « الخطط التوفيقية » كان يمكنها وحدها ان تضمن له الخلود ، الا أنه مع ذلك كتب عددا من الكتب الأخرى . كان البعض من هذه الأعمال كراسيات تقنية تتعلق بالرياضيات ، المحاسبة ، الهندسة ، العلوم العسكرية ، الخ . ولم يكن لى منها علاقة بالتاريخ (٣٧) . وسنركز على الأعمال التى لها صلة الى حد ما بالتاريخ .

فى (نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر) (٣٨) ركز مبارك على تاريخ الزراعة المصرية . ملمحا الى أن أحوال الزراعة المصرية كان يمكن أن تكون أفضل فى الماضى عما كانت عليه فى زمنه - وهو اقتراح قد يولد فى مفهومه الظاهرى الشك فى ذهن اسماعيل فى ولاء أعظم كبار موظفيه - ثم واصل مبارك تتبع تاريخ التجارة ومشروعات الرى فى وادى النيل . واختتم عمله بمقترحات للإصلاح فى المستقبل (٣٩) ، جعلت الكتاب فى تنظيمه مماثلا (لناهج) الطهطاوى . فقد ضم العاملين مواد تاريخية وغير تاريخية تقود الى بيان نهائى كلى للسياسة Policy .

فى مسحة أدبية نقية كتب مبارك روايته الطويلة (علم الدين) ، وهى قصة شيخ أزهرى (ربما كان الطهطاوى نفسه) ذهب الى الخارج لتعلم الأساليب الأوروبية . وخلال اسفاره التقى بانجليزى ناقش معه بتفصيل كبير المظاهر الايجابية والسلبية لكل من المدينتين . كان هدف الكتاب تعليميا بصورة واضحة ، والعمل هو النموذج الاول للرواية التعليمية Erziehungsroman فى الأدب المصرى (٤٠) . والعمل طويل قصة novel ، اذ يبلغ حجمه أربعة مجلدات ضخمة مرتبة فى سلسلة من (المسامرات) (٤١) . والاسلوب خليط انتقالى من النثر المقروء الواضح مع استخدام متكرر للاصطلاحات السجعية . ورغم ان

العمل وفر فرصة عظيمة لمبارك لأن يعلق على التاريخ العربى والمصرى ، فان كثيرا من مزاعمه خيالية وغريبة على الأقل . فعلى سبيل المثال ، يذكر مبارك أن ابن رشد جاء من الموصل (بدلا من اسبانيا) وأنه عاش فى القرن الثالث عشر (بدلا من الثانى عشر) . ويشير فى نقطة ما الى تيمور لنك على أنه عربى ويزعم ان مصدر النيل يقع فى الفردوس (كشف عن مصدر النيل قبل عدة سنوات من نشر الكتاب) . وتحتوى (علم الدين) أيضا على مناقشات مطولة فى القرآن ، الحديث ، الشعر ، والأمثال ، وحكايات أخلاقية (٤٢) .

ورغم ان مبارك قد تلقى تعليمه كمهندس الا أنه يبرز فى كتاباته - كالتطاول - اهتماما أصيلا بالتاريخ . وقد تضمنت أعماله دراسة أصلية لتاريخ الموازين والمكاييل المصرية (الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان) (٤٣) ، وترجمة لتاريخ سيديلوت Sedillot عن العرب من الفرنسية والذي ظهر عام ١٨٩٢ باسم « خلاصة تاريخ العرب » (٤٤) . ويقال أيضا انه كتب تاريخا عن الحضارة الاسلامية (أثر الاسلام فى المدنية والعمران) ، لكنه فقد للأسف (٤٥) .

ونظرا للمهام الرسمية الكثيرة التى كان على مبارك ان يقوم بها ، فان الكتابات التى أشرنا اليها تحتوى على سجل أدبى مثير للاعجاب . وأيا كانت مظاهر الضعف الكيفى التى قد نجدها فى عمله ، فان مبارك مع هذا كان رجلا غير محدود الطاقات يحاول ويتحرى ليعالج أمراضا اقتصادية واجتماعية كثيرة . كان مبارك مقتنعا بحاجة بلده للمعرفة العلمية والتقنية الى جانب التعليم الحديث والغربى ، وفى نفس الوقت فقد كان ملما تماما ومقدرا بـماضى العرب والاسلام ولم يكن كازها أبدا الدفاع عنها فى كتاباته . وكتقنى بالتعليم ورجل غير ميال للصراع السياسى بحكم تركيبه المزاجى فانه نادرا ما كان يكشف عن حبه العميق لبلده . لم يكن ممن يعبرون عن عواطفهم علنا عندما كان الأمر يتعلق بالوطنية ، رغم اننا نستطيع ان نستشف هذا كتيار تحتى رقيق من خلال كتاباته (٤٦) . اختار مبارك لعمله الكبير أكثر الجهود البحثية الوسيطة قسوة ووعورة - الخطط - حيث ان هذا الاسلوب من الكتابة كان يكلفه فهرسة كل مظهر وأى منظر عرفه وتعلق به . وكانت المحصلة عملا لاقى من التهليل فى الحقيقة ما فاق أى عمل آخر قام بكتابته .

تم التمهيد

لما كان « أدب الخطط » يحظى فى مصر بشعبية أكثر من أى من أجزاء العالم الاسلامى ، فقد كان من الملائم أن يتم احياء هذا الشكل على يد مصرى (٤٧) . كانت «خطط» مبارك نسخة معدلة من خطط تقى الدين المقرئى فى القرن الخامس عشر ، ولقد قرر فى الصفحة الأولى منها أنه

لن يقصر مجال الكتاب على القاهرة وحدها وانما سيغطي كل مدن وبلاد مصر كالمقریزی (٤٨) .

ومصادر هذه (الخطط الجديدة) (٤٩) هي الحكايات العربية التقليدية ، حكايات الرحالة الأوربيين ، الخرائط ، سجلات الملكية ، حجج الأوقاف ، واقتباسات من أنواع مختلفة (٥٠) . لكن على الرغم من هذه التشكيلة الواسعة من المادة ، فان مبارك لا يعمل حرفيا وفقا لوعوده . فيشير اشارات عرضية لهرودوت ، وفي المجلد المخصص لقياس النيل يقدم احصائيات قليلة من كتابات الأمير البولندي رادزويل Radziwil والرحالة الانجليزى شو Show ، والفرنسى فولنى Volney ، ووصف مصر Description de l'Egypte (٥١) . ومع هذا فقد كان اعتماده على المصادر الغربية قليلا ، وكان يستخلم فى أغلب الوقت مادة عربية تقليدية كالذهبي ، السيوطى ، والمقریزی على وجه الخصوص (٥٢) . وفى كثير من الأحوال لا يعطى مبارك ايضاحا بمصدر معلوماته جاعلا الأمر مزدوج الصعوبة عند محاولة التأكد من دقة هذه المعلومات (٥٣) . ويعود هذا الخلل الشائع الى أيام المؤرخ الاسلامى فى العصور الوسطى .

«والخطط التوفيقية» هي بكل المقاييس انجاز عملاق يصل الى عشرون مجلدا . ومن الصعب الحكم كم من العمل كان من انتاجه هو شخصيا ، ويقرر مبارك نفسه بصراحة ان أعماله الرسمية الكثيرة جعلت من المستحيل عليه أن يكمل هذا المهمة وحده . وقد عدد خدمات العلماء العديدين (جهابذة العلوم) الذى رفعوا اليه بانتظام المادة التى جمعوها (٥٤) . ويفترض ان مبارك قام بعد ذلك بمراجعة وتنقيح واختيار هذه المعلومات ثم حررها لتشكل عملا مقبولا (٥٥) . ولا بد ان نصيبه من العمل كان كبيرا ، حيث ان المحتوى يعكس بشدة اهتماماته الشخصية والاسلوب متماسك ومتسق بصورة تكفى للتدليل على ان أغلب الكتابة كانت لشخص واحد (٥٦) .

لقد ذكرنا من قبل ان القصد فى أدب الخطط هو فى العادة طبوغرافى - معمارى أكثر منه تاريخى خالص (٥٧) . « وخطط » مبارك هي نموذج لما ذكرنا ، ذلك ان القصة التاريخية تنتهى فى الصحيفة السابعة والسبعون من المجلد الأول . وتغطية الفترات التاريخية العديدة شاذ وغريب أيضا كما يبينه تنظيم هذا المجلد :

الصفحة

الموضوع

٥٥ - ٤	تاريخ القاهرة منذ انشائها فى عهد الفاطميين وحتى عام ١٥١٧
٦٠ - ٥٥	مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨)
٦٢ - ٦١	الاحتلال الفرنسى
٧٦ - ٦٥	عصر محمد على
٧٧ - ٧٦	ابراهيم ، عباس ، سعيد ، اسماعيل ، توفيق
٧٧ وما بعدها	جغرافية القاهرة وطبوغرافيتها

وتعطى المجلدات ٢ - ٦ وصفا للشوارع ، المزارات ، المدارس ، القصور ، المستشفيات ، الحدائق ، الخ بالقاهرة مع تنظيم كل فئة تنظيما أبجديا (٥٨) . ويعالج المجلد السابع مدينة الاسكندرية بنفس الأسلوب . فبعد مقدمة تاريخية مختصرة يأتى الى وصف المدينة متضمنا بعض مرافقها الحديثة كالطرق الحديدية والتلغراف (٥٩) . وتتبع المجلدات ٨ - ١٧ نفس البنية بالنسبة للمدن المصرية الأخرى .

تعكس المجلدات الثلاثة الأخيرة من « الخطط التوفيقية » تأثير التعليم الهندسى على مبارك واهتمامه بالزراعة المصرية وعلى الخصوص بالنيل (٦٠) . وفى المجلد الثامن عشر يتتبع قراءات مستوى مياه النيل من العام العشرين لما بعد الهجرة حتى زمنه . والمجلد التاسع عشر يحوى مناقشة عن القنوات ومشروعات الري (٦١) : فيشرح مبارك كيف ان النيل قد غير مجراه عبر العصور وكيف ان «باب اللوق» لا بد وأنها كانت تحت الماء فى وقت ما . ويتتبع أيضا فكرة القناة عند السويس (ترعة البرزخ) من أقدم العصور وحتى القرن التاسع عشر ، وينتهى بتوبيخ لطيف لسياسة اسماعيل حول هذا الموضوع . ويتصل المجلد الأخير بتاريخ النقود الاسلامية ، وربما كان هذا اشارة الى ان مبارك كان مدركا لأهمية العملات فى دراسة التاريخ . ويؤكد هنا ان أقدم عملة فضية اسلامية يعود تاريخها الى العام التاسع والسبعين بعد الهجرة (٦٢) .

تبدو الخطط التوفيقية من المناقشة السابقة ذات فائدة محدودة للمؤرخ . لكن العكس هو الصحيح ، حيث أن أغلب المعلومات التاريخية الخالصة بالعمل لا يتضمنها المدخل المختصر لكنها موهبة ، وفى الحقيقة مدفونة ، فى التفاصيل الغزيرة عن الطبوغرافيا المصرية . فمجلد الاسكندرية على سبيل المثال يحوى دراسة قيمة عن تطور نظام السكك الحديدية المصرية ، والتراجم الكثيرة - التى قد تصل فى مجموعها الى نصف المحتوى الكلى للمجلد (٦٣) - ذات قيمة تاريخية رائعة .

وفى هذه الفصول يبدأ مبارك بالحديث عن مسجد أو شارع سمي باسم شخصية تاريخية ، ثم يستطرد الى ترجمة لهذه الشخصية ، واذا كان المسجد أو الشارع قد اعيد تسميته كما هي العادة - فانه يقدم ترجمة للشخص الأصلي . وهكذا فانه يدمج عددا ضخما من التراجم فى الخطط لشخصيات ما كان يمكن لها ان ترى النور لولاه (٦٤) . ويزود مبارك القارىء بمنجم من المعلومات عن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لمصر القرن التاسع عشر (٦٥) ، مع أن هذا فى شكل تراجم تمثل للأسف « طبقات » العصور الوسطى ، كذلك فان المعلومات المقدمة هى من النوع السطحي الواقعى ذو القيمة القليلة للمثقفين المحدثين . وفى هذا المقال فان « خطط مبارك تقليدية للغاية . فالراوية التاريخية مكسوة فى قالب الحولى النموذجى للعصور الوسطى . وكثير من التراجم أقل معلومات من تلك التى قدمها الجبرتي (٦٦) .

اذا نحن أخذنا « الخطط التوفيقية » وفق ما قصد لها أن تكون فهى ممثل محترم شامل للتقليد التاريخى الاسلامى الوسيط . ونطاق العمل لا يقل شمولا عن خطط المقريزى ، ومع ان الدقة لا عيب فيها على الاطلاق فانها يحتمل ان تكون أفضل من دقة المقريزى بكثير (٦٧) . اما النقد الباطنى التاريخى فهو مفتقد فى كتابات مبارك ، وهذا هو ما يقوده أحيانا الى تقديم تقارير منافية للعقل ومضحكة . وهو ككتاب العصور الوسطى ينقل ببساطة ودون تعليق أو نقد اخطاء الكتاب السابقين (٦٨) .

لا يمكن اعتبار « الخطط التوفيقية » تاريخا سواء من حيث المحتوى أو من حيث الشكل . يمكن ان تسمى دائرة معارف ، خلاصة وافية لمادة واقعية ، أو مجموعة من المصادر التاريخية ، لكنها فى التحليل النهائى تفتقد هذا المزيج والتوليفة من الدليل evidence والنقد Criticism الذى لا غنى عنه Sine qua non فى الكتابة التاريخية الحديثة .

لقد كان الطهطاوى بل وحتى الجبرتي محللين ومفسرين أكثر من مبارك ، الذى عامل التاريخ بثبات كسلسلة زمنية من الأحداث . حقيقة ان محاولته دمج منجزات المثقفين الأوروبين فى عمله ، وانتباهه لعلم النقود ، واهتمامه بالمقاييس الدقيقة كلها اشارة الى التقنيات الجديدة والاتجاهات نحو الكتابة التاريخية وهو ما غفل عنه كلا من الجبرتي والطهطاوى بصفة أساسية . وتخصيصه قرابة مجلد كامل لمصر الفرعونية يكشف عن مدى تأثير علماء المصريات الأوروبين على الكتابة التاريخية المصرية (٦٩) . ومع وجود هذه الاستثناءات الطفيفة ، فان « الخطط التوفيقية » تبقى مع ذلك عملا تقليديا شاملا . ورغم ان « الخطط »

نفسها ليست تاريخا بالمفهوم الحديث للكلمة ، فقد وفرت مساحة من المصادر النفيسة التي لا غنى عنها للدراسات التاريخية التالية .

ربما يكون مبارك قد أحس - مع احجامة عن القيام بأى تعليق شخصى على الحوادث - بأن تاريخه قد يأخذ شكل التاريخ الحولى الثابت الموضوعى الذى ساد العصور الوسطى . فقد علمته دراسته ان يحترم الدقة العلمية ، وكان قادرا على تعزيز التأثير الموضوعى لكتاباتة عن طريق تقويتها بجداول احصائية ورسوم بيانية وحسابات رياضية من أنواع عديدة (٧٠) . لقد كانت هذه الأساليب ابتداعات فى وقتها وسرعان ما اقتبسها العديد من معاصريه الأحداث أمثال الكتابين السوريين فيليب جلاد وجرجس حنين والأرمنى يعقوب أرتين (٧١) . وكان هؤلاء هم الأساس للانجازات الموسوعية لأمين سامى الذى تمتد سيرته الى النهاية القصوى للفترة موضوع الدراسة (٧٢) .

هناك الكثير من أوجه الشبه فى حياة وكتابات كل من على مبارك وأمين سامى ، فعلى سبيل المثال تلقى كل منهما تعليما تقنيا فى المهندسخانة . وفى الحقيقة فان شيئا لا يعلم عن سنوات أمين سامى المبكرة . فهو يبرز من الخمول فى عصر اسماعيل فقط عند ما يتلقى وظيفة تعاليمية فى مدرسة المساحة ببنى سويف حيث يبقى هناك لمدة خمس سنوات . وكشأن مبارك فقد أظهر نشاطا فيما بعد فى نظارة المعارف حيث عمل تحت اشراف دوربك Dor Bey . ومع هذا فان وظيفته الأكبر أهمية ودواما جاءت خلال عهد توفيق عندما أصبح مشاركا فى ادارة المدرسة الخديوية بالناصرية التى كانت تقبل ابناء الأسر النبيلة المصرية فقط ، والتى كانت مستوياتها تبعا لذلك أعلى من أى مدرسة عامة أخرى . فى النهاية أصبح أمين سامى مديرا للمدرسة وظل فى هذا المنصب لمدة ربع قرن . ولفترة ما كان الرجل مديرا لدار العلوم (٧٣) وهذا مكنه من التحرك داخل الدوائر الاجتماعية والثقافية المصرية العالية .

كانت الكثير من اهتمامات أمين سامى مماثلة لاهتمامات على مبارك الذى ربما كان ناصحه ومعلمه . كان شغف أمين سامى طوال حياته هو التعليم . وكان فعالا فى جهود نشر واصلاح التعليم الابتدائى والثانوى فى عهد كل من توفيق وعباس حلمى الثانى ، وساعد فى اعادة تنظيم دار العلوم (٧٤) . وفى اعقاب استقلال عام ١٩٢٢ رحب بمشروع ادخال التعليم المجانى الاجبارى الالزامى فى مصر ودعم فكرة توسيع نطاق التعليم للمصريات (٧٥) . ومثل على مبارك فقد تنبه أمين سامى الى الأهمية الطاغية للزراعة بالنسبة لمصر وفى « تقويم النيل » واصل جهود مبارك لتسجيل تاريخ محاولات السيطرة على مياه النيل . وحتى فى السياسة فقد حاكى

أمين سامى مبارك ، حيث كان « مواليا » بدرجة كبيرة . فقد فاز بوظيفته كمدير لدار العلوم من مصطفى فهمى - أحد أكثر رؤساء الوزارات بغضا فى عيون الوطنيين المصريين (٧٦) . وظل يمارس نشاطه فى الحياة العامة حتى ١٩٢٨ كعضو فى مجلس الشيوخ (٧٧) . لكن هذه العضوية لم تكن تعنى تمتعه بتعاطف شعبى، فقد كان الدستور يخول الملك حق تعيين خمس أعضاء هذا المجلس .

تساعد وجهات نظر مبارك وأمين سامى السياسية على فهم الرجلين ، لكنها لا تبدو - باستثناء واحد محتمل (٧٨) - ذات تأثير على نحو غير ملائم على كتاباتهما التاريخية . فأى من الرجلين لم يعتبر نفسه سياسيا بل رجلا عمليا له مهمة يؤديها . وكلا من الرجلين خدم بلاده طويلا وجيدا فى وظائف ادارية متنوعة . فمبارك حاول ككاتب ان يضع فهرسا يشمل كل شخصية هامة ومكان فى الماضى المصرى . وكان هدف سامى هو أن يضع تاريخا نهائيا لبلاده .

يقول لنا أمين سامى أن تقويم النيل احتاج ربع قرن ليكتب (٧٩) . وقد أنجز العمل من خلال احساس ثنائى « بالالتزام بالعلم والتاريخ » والرغبة فى « خدمة أرض الأجداد الحبيبة » (٨٠) . وقصد منه تلبية احتياجات المؤرخين والعلماء والمهندسين (٨١) ، لهذا فقد كان عبارة عن مزيج من المادة المتباينة المتراوحة بين ما هو تقنى وتاريخى وشعرى (٨٢) .

يتألف « تقويم النيل » من مقدمة وثلاثة اجزاء وملحق . ومع هذا فان الجزء الثالث مقسم الى ثلاثة مجلدات كبيرة ، تجعل العمل كله ستة مجلدات بمفهومنا للكلمة (٨٣) . وينظم العمل وفق التقسيم الآتى :

المجلد الأول : تاريخ مصر ٦٢٢ - ١٥١٦

المجلد الثانى : مصر ١٥١٧ - ١٨٤٨

المجلد الثالث ، الجزء الأول : مصر ١٨٤٨ - ١٨٦٣

المجلد الثالث ، الجزء الثانى : مصر ١٨٦٣ - ١٨٧٢

المجلد الثالث ، الجزء الثالث : مصر ١٨٧٣ - ١٨٧٩

الملحق : خلاصة تناقش الكبارى ، القنوات ، القناطر ، والخزانات على النيل « من فجر التاريخ الى الوقت الحالى » .

لكنها فى الواقع لا تحوى أى معلومات عن تطورات ما قبل القرن التاسع عشر .

كان أمين سامى يقصد ان يصل براويته التاريخية حتى عام ١٩١٥ ، من أجل أن يقابل آخر قراءة لمقياس النيل كان قد سجلها فى المقدمة . لكن

النطاق الجبار للعمل حال دون ذلك ، وأصبح « أمين سامى » عاجزا عن التقدم فى المجلد الثالث الذى أصبح فى النهاية كبيرا لدرجه انه قسمه الى الأجزاء الثلاثة السابق الإشارة إليها .

فى بداية المجلد الأول حدد سامى المنهجية التى انتواها فى تتبع « التفاصيل التاريخية المتصلة بالحالة العامة للخلافة والأمور الخاصة بمصر » . وقال انه سيتجنب تقنيات المؤرخين المبكرين الذين كتبوا مجرد تراجم للشخصيات الهامة ، وأعمالهم وتواريخ الميلاد والوفاة دون إشارة الى « عملية التغير التاريخى » (٨٤) . وانه فوق هذا لن يرتكب اخطاء مؤرخين آخرين معينين ، الذين كتبوا فى الواقع عن التغير التاريخى لكن « على سبيل الحكاية والقياس » ، دون الانتباه الى « سلسلة من الحوادث » يستأزم بعضها بعضا . وبكلمات أخرى فان « تقويم النيل » سيتعامل مع التاريخ بطريقة الحوليات وكسلسلة من (السبب والغاية) (٨٥) .

ولعل انتباه أمين سامى الى المنهج التاريخى الملائم هو انعكاس للتأثيرات الأوروبية المتزايدة المتخللة للتاريخ المصرى . فهو يؤكد أن « تقويم النيل » سوف لن يكون مجرد كتالوج آخر للأسماء والتواريخ ، ولكنه محاولة الى الغوص فيما تحت سطح الظاهرة التاريخية . وإشارته للغرض تعد أكثر الاشارات تعقيدا حتى الآن .

بعد سماع كل هذه النيات الجادة ، فان ما تقابله لدى قراءة « تقويم النيل » هو انحسار مفاجئ عندما نكتشف ان سامى قد فشل تماما فيما وعد به . يبدو ظاهريا انه لم يكن لديه أى فكرة عن كيفية تنفيذ خطته ، فوضع نفسه فى مشكلة حالة بتقديم ما خلص الى انه نموذج للمنهج « الجديد » : يتساءل أمين سامى : لماذا تدهورت الخلافة العباسية الجبارة الى حد امكانية تدميرها بواسطة أعداء الاسلام ؟ وكانت الاجابة عنده هى ان العباسيين فقدوا روح قتالهم القديمة وتحولوا بدلا عنها الى حياة الدعة والاسترخاء (٨٦) . ويبدو أن أمين سامى قد افترض ان هذا كان كيفية عمل « التاريخ الحديث » .

لو كان سامى استمر فيما يسميه بالاسلوب التحليلى ، لكانت النتائج هى الكارثة .

فبعد تقديمه بعض التملق للمفهوم (المنهج الجديد) مع هذا المثال الذى عرضه (عن تفسير تدهور الخلافة العباسية) ينقلب الى أشكال مأثوفة للكتابة . لقد أصبح « تقويم النيل » كما وضعه أمين سامى آخر الأمثلة المصرية المشهورة لحوليات العصور الوسطى .

في المجلد الأول يتتبع أمين سامى تاريخ مصر والعالم الاسلامى حتى عام ١٥١٦ . وكما تذهب الحوليات فان الكتاب سهل فى مناقشته . فالبنية واضحة والطباعة جيدة ، والسنوات تتدفق فى تتابع منتظم وتحتل الرواية التاريخية جانبا من الصفحة ، بينما يغطى مد النيل وجزره فى نفس السنة الجانب الآخر . ولم يعد هناك مكان للسجع ، والنشر يأتى سهلا غير معقد عاكسا اسلوب أفضل كتاب حوليات العصور الوسطى . وكما هو متوقع فان المصادر نادرا ما يشار اليها - والأسلوب يفصح عن ان كتلا كبيرة من المعلومات كان يمكن أن تغربل وتنقى دون تعديل من روايات العصور الوسطى . وبعبءا عن كونه تاريخ تام لمصر فان مجلد أمين سامى الأول هو ببساطة تنقيح لمادة قديمة ولذلك فان من النادر استخدامه فى هذه الأيام .

ويحتوى المجلد الثانى على بعض الأخطاء الأساسية التى يحتويها المجلد الأول ، رغم ان أمين سامى حاول فى هذه المرة أن يدمج مصادر أوروبية قليلة كجوزيف فون هامر Joseph Von Hammer وكلوت بك Clot Bey . ويعترف باعتماده الثقيل على نقولا الترك ، جودت باشا ، ابن اياس ومحمد فريد ، وبالنسبة لحوادث ما بعد عام ١٨٠٥ فقد أشار على وجه الخصوص فى الغالب الى الجبرتى والوقائع المصرية (٨٧) .

وللمجلد قيمة معينة فى الثروة من الوثائق والاحصائيات التى يحتويها : فتاوى رسمية وفرمانات ، تعداد السكان ، تقلب أسعار القطن ، وتقديرات للقوة الحربية والبحرية . والترتيب هنا مرة أخرى زمنى بطريقة محددة ولا يمكن النظر الى الموضوعات بطريقة غير ذلك . ويخلو التيار الذى لا ينتهى من الوثائق والاحصائيات من أى تعليق مصاحب . ومع هذا فان المجلد الثانى عمل مرجعى جيد من حيث ان المعلومات التى يحتويها لا يمكن ان توجد بسهولة فى أى مرجع آخر .

وتتزايد قيمة « تقويم النيل » لدرجة كبيرة بالأجزاء الثلاثة من المجلد الثالث والآخر التى تغطى الفترة القصيرة نسبيا ١٨٤٩ - ٧٩ . ففي هذه الأجزاء يضمن سامى عمله الكثير من الوثائق الأساسية التى كان له وحده - عندما عمل فى دار المحفوظات منذ عام ١٨٨٠ - فرصة الوصول اليها . ترجمت السجلات التركية بصورة ملائمة الى العربية (٨٨) . والمتن مزود بالكثير من الجداول والرسوم البيانية ، بعض منها يتعلق بالنيل ومسائل تتصل به ، لكن هناك البعض مما يتعلق بمجالات أخرى كالتعليم ، طوائف الحرف ، الايرادات ، الخ . وفى بعض الأحيان تأتى التفاصيل خالية من التناسب ، بل وتصل فى عدم تناسبها أحيانا الى حد ذكر أسماء ومدد

الخدمة لكل مديري المديرية المصرية ، أسماء ورتب ضباط الجيش وأسماء ومدد خدمة مدرسي المدارس . والمعلومات أيضا مقدمة دون أى تعليقات ، وتبدو فى قيمتها ما يماثل قيمة دليل التليفون (٨٩) .

وعلى الرغم من الضعف البنائى « لتقويم النيل » ، فقد كان العمل التاريخى المصرى الوحيد فى القرن التاسع عشر الذى اقترب نطاقه من نطاق « الخطط » الموسوعية . وفى مجال الدقة والعناية البحثية فإن أمين سامى ربما كان يستحق ثناء أكثر من مبارك ، حيث انه ضمن عمله الكثير من المصادر الأوروبية أكثر من مبارك ويعترف هو نفسه ان نشر العمل قد تأخر عدة مرات بسبب الحاجة الى التأكد من مصداقية المصادر العربية والتركية بالمقارنة مع شهادات المراقبين الأوروبيين (٩٠) . ولعدم اكتفائه بالاعتماد على مجموعات السجلات المصرية ، فقد أرسل أمين سامى الى استانبول للحصول على مادة معينة (٩١) . وعلى وجه العموم فقد كان أمين سامى باحثا منهجيا أكثر من على مبارك ، ولولا الشكل المشوش والغير رشيق « لتقويم النيل » لكان بالقطع محل استخدام حتى الآن من جانب الباحثين .

كتب أمين سامى دراستين قصيرتين أخريين ، وكلاهما عن التعليم . كانت أولاهما « التعليم فى مصر » (٩٢) وهى أكثر تعبئة بالمادة الاحصائية من « تقويم النيل » . ولم تكن تاريخا على الاطلاق ، وانما مائلت ميزانية تعليمية . احتوت هذه الدراسة على معلومات قليلة الأهمية عن الفترة السابقة على عهد اسماعيل ، لكن التفاصيل تزدحم بعد ذلك موصلة الى تقييم نهائى للتعليم المصرى كما كان عام ١٩١٤ - ١٥ . ولقد كان يمكن للكتاب أن يكون أكثر أهمية كمرجع لولا افتقاره لأى تعليق مصاحب ، وتنظيمه الهزيل .

ظهر عمل أمين سامى التاريخى الكبير والأخير (مصر والنيل) عام ١٩٣٨ . وبالحكم على الكتاب من بنيته فانه كان نتاج قومسيون ملكى وبالتالى فهو جزء من جهد الملك لحفظ السمعة الملكية الملطخة . والكتاب يحوى صفحة كاملة لصور كل حكام مصر من محمد على وصولا الى فاروق .

وتنظيم « مصر والنيل » أكثر ارباكا وحيرة من أى من أعمال أمين سامى السابقة : وحتى هذه النقطة من سجله فقد كان أمين سامى لا يزال غير قادر على ترتيب مترابط . فالكتاب يبدأ بدراسة مختصرة لجهود الفراعنة فى ضبط مجرى النيل كبناء الخزانات ، مشروعات الري ، واجراءات تقليل التغرين Silting . ثم يقفز المؤلف فجأة عبر ألف عام الى استكشافات سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker فى السودان ومشروعات محمد على للري . وهكذا فان المصادر تتراوح من هيرودوت

Herodotus الى تاريخ ماريوت بك Marriott Bey عن مصر القديمة الى الأرشيف الرسمي الحكومى (٩٣) .

ويلى ذلك وصف للتعليم المصرى والرفاهية العامة خلال العصور الوسطى - وهذه المعلومات مستقاة من ابن خلدون ، ابن دقماق ، والمقرىزى (٩٤) . واذا نحن ضمنا الجزئين الأولين معا فانهما يمثلان ثلث الكتاب . ويتكون الثلثين الآخرين من قائمة من الرسوم البيانية والاحصائيات التى توثق تطور التعليم المصرى من عهد محمد على وحتى فاروق . وقد استمدت هذه المادة مباشرة من « تقويم النيل » ورتبت ببساطة فى شكل جدولى (٩٥) . وعلى ذلك ، فالى جانب عدم ترابط الكتاب فانه لا يحوى أى مادة جديدة وليس به أى قيمة كمرجع على الإطلاق .

ومثل كل المؤرخين فى عهد ما قبل الاحتراف ، فان الكتابة التاريخية عند على مبارك وأمين سامى كانت عملا اضافيا . فقد كان كلا من الرجلين موظفا حكوميا متفانيا فى المقام الأول ، أمضى حياته كمعلم ، مهندس ، ومنظم حكومى . وقد أعجبا - كالتطهاوى قبلهما - بالأسرة الحاكمة فى مصر ولم يتورطا فى الاضطرابات الثورية فى زمنهما (٩٦) . ولو كانا فعلا ذلك لكان ذلك معادلا لحياة الخمول ، ولكانا غير قادرين على المساعدة فى تنمية وطنهما . وهذا ما كان سيواجه أى ثورى ، وأيا كانت دوافع على مبارك وأمين سامى ، فقد اختارا ان يعملوا من خلال النظام بدلا من ان لا يعملوا على الإطلاق .

بالرغم من واجباتهما الرسمية الكثيرة والضغط القاسى عليهما لقصر جهودهما على الميادين التقنية ، فان كلا من الرجلين كشفا عن مثل هذا الاهتمام المكثف بتاريخ وطنهم الى حد محاولة كل منهما - بطريقته الخاصة - أن يجمع فى أعماله كل ألوان الطيف Spectrum من المعرفة التاريخية . ومع أنهما فشلا على وجه العموم فى هدفهما ، فانهما نجحا من منظور آخر : لقد جعلت الشمولية الشديدة التى عاملها بها الموضوع من عملهما عملا لا غنى عنه بصرف النظر عن أخطائه .

ورغم أن التطهاوى مثل جيلا أقدم وأكثر « تقليدية » من المصريين ، من على مبارك وأمين سامى ، فانه مع هذا قد أثبت فى النهاية أنه أكثر قدرة منهما على التكيف مع أفكار جديدة . ولقد كانت هذه الخصوصية راجعة فيما يحتمل الى خلفيته الأزهرية جزئيا ، تلك الخلفية التى تجاهلت التاريخ لنفسه لكنها غدت ببطأ فى خريجيتها قدرة على التفكير فى مصطلحات غير المصطلحات الكمية وحدها . لقد كان التطهاوى أكثر اطلاعا وتألفا مع المفاهيم والأفكار التجريدية العقلية من على مبارك وأمين سامى ، الذين كانا قد علما القياس منذ البداية ، وعلى أساس ذلك ، وبرغم ذلك فقد

أرادا أن يجربا التاريخ - فأخرجنا نتاجا من نتاج العصور الوسطى أساسا، لطفه فقط ذلك الاتقان والدقة الإحصائية التي للعالم • وربما لم يكونا قد تبينا أن أعمالهما لم تضيف زيادة في الفهم التاريخي ، لكن هذه الأعمال كانت على نمط (المسعودي) تصنيفا لكميات ضخمة من المادة التاريخية (٩٧) • وحتى في مجال (الأسلوب) فقد كانا على أكثر تقدير سائرين على الأقدام • وقد استطاع « أمين سامي » فقط أن ينجز عمله دون سجع ، لكن أسلوبه وأسلوب على مبارك كان بعيدا عن المنافسة مع أسلوب « المؤرخين الوطنيين » مثل مصطفى كامل أو محمد فريد • على أن الأهمية الباقية لتاريخهما تبقى في إبعادهما الموسوعية التي كانت كافية في حد ذاتها لأن تضمن الخلود لهما • ان « الخطط التوفيقية » و « تقويم النيل » ليسا مشوقين (كتاريخ) في حد ذاته ، لكن التشويق فيهما يعود الى كونهما (مصدرا) للكتابة التاريخية ، وهذا (المصدر) أكثر متانة من (التاريخ) دائما •

لقد خدم على مبارك وأمين سامي مصر في وظائف رسمية عديدة ولمدة قرن بينهما • وفوق هذا ، فقد خصصا كل دقيقة من وقتهما لجمع المادة اللازمة لإعادة بناء الارث القومي المصري • ولقد كان هذا في ذلك الوقت عملا غير مشكور ، محتاج الى تفان غير أناني للوطن • وبصرف النظر عن البحث ، فان الكتابة الفعلية لعمل « كالخطط التوفيقية » أو « تقويم النيل » لا بد وأن تكون قد استغرقت سنوات كثيرة • كان مبارك وسامي أكفاء للمهمة ، بالرغم من الخدمات الكثيرة التي كلف كل من الرجلين بأدائها •

حواشى الفصل السادس

- (١) آيلون
Ayalon
"The Historian al-Jabarti", p. 219 n. 1.
- (٢) الشيال
"A History of Egyptian Historiography", p. 48.
- (٣) المصدر نفسه ، ومحمود الشرقاوى وعبد الله المشد « على مبارك : حياته ودعوته وآثاره » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢) ص ١٤ .
فاز هذا الكتاب بالجائزة الأدبية للأكاديمية العربية للغات .
- (٤) محمد عبد الكريم « على مبارك : حياته ومؤثره » (القاهرة : مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ) ص ٢٧ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .
- (٧) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ٥١ .
- (٨) لمزيد من المعلومات عن الفلكى انظر ص ١٣٠ .
- (٩) الشرقاوى « على مبارك » ، ص ٣٤ .
- (١٠) السماء (بعثات الأندجال) . وكان الخديو التالى اسماعيل من بين أعضاء هذه البعثة ، ونجاح مبارك فيما بعد كموظف حكومى كان يرجع بدرجة ليست قليلة الى علاقته الطويلة مع حاكم مصر فى المستقبل .
- (١١) يرغم الشرقاوى ان مبارك عاد الى مصر بالفعل عام ١٨٤٦ .
- الشرقاوى « على مبارك » ص ٣٦ ، ٣٩ . ومع هذا فان الشيال والرافعى متفقان على تاريخ ١٨٥٠ .
- الشيال
"A History of Egyptian Historiography", p. 48.
- وعبد الرحمن الرافعى « عصر اسماعيل » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨) ، الجزء الأول ، ٢٢١ .
- (١٢) أحيانا تنهجى طره Tarrah أو طره Tarah
والواقع أن النطق الصحيح للكلمة هو طره Torah
المترجم

(١٣) الشرقاوى « على مبارك » ص ٢٨ - ٢٩ ، ٤٢ - ٤٤ .

(١٤) زايد « على مبارك » ص ٦٠ .

(١٥) عن أنشطة مبارك في عهد سعيد انظر الشرقاوى « على مبارك » ص ٤٤ - ٥٠ .

(١٦) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الاول ، ٢٢٨ - ٢٩ .

(١٧) هيوارث دن
Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 352-53.

(١٨) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الاول ، ٢٣١ .

(١٩) قارن ص ٩٤ من الفصل الخامس (ص من هذا العمل) .

(٢٠) محمد عبد الكريم « على مبارك » ص ٩١ .

(٢١) الشرقاوى « على مبارك » ص ٥٤ - ٥٧ .

(٢٢) هيوارث دن
Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 353-54.

(٢٣) محمد عبد الكريم « على مبارك » ص ٨٨ .

(٢٤) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الاول ، ٢٣٥ - ٣٦ . قارن الشرقاوى « على مبارك » ص ٥٨ - ٥٩ ، ٦٢ .

(٢٥) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الاول ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ - ٣٦ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ - ٢٧ .

(٢٧) يقول محمود الشرقاوى معقبا ، على سبيل المثال على قبول على مبارك لمنصب لى وزارة رياض باشا الأولى أنه « بعيدا عن الاحترام لمشاعر على مبارك الوطنية فأننا يجب أن نذكر انه أطرى عمل هذه الوزارة ، وفى اطلاقها يديه للسيطرة على الادارة التى ادارها . لكن موافقته على الرجال الذين فيها وادماج المراقبين الأوروبيين كانت موافقة الغير قادر على فعل أى شئ سوى التسليم بأمر واقع Fait accompli و (محظور الضرورات) .

الشرقاوى « على مبارك » ص ٦٥ . ويعتبر كلا من الشرقاوى ومحمد عبد الكريم اختيار مبارك فى عام ١٨٨٢ كوسيط بين توفيق والعرايين دليل على ان مبارك كان على علاقات صداقة مع القوى الثورية .

الشرقاوى « على مبارك » ص ٧٠ ومحمد عبد الكريم « على مبارك » ص ١١٥ . وهذا لغو بالطبع . فقد اختير مبارك لهذه المهمة لأنه أراد - أكثر من أى شخص آخر - ان يحفظ السلم بين العرايين والخديو . والوزراء أمثال نوبار ، رياض ، ومبارك نفسه كانوا فى الحقيقة غير محبوبين عند المصريين . وكان هذا بسبب صلاتهم الأوروبية المتعددة .

الكسندر شولش
Alexander Schölch

"Agypten den Agyptern Die Politische und gesellschaftliche Krise der Jahre 1878-1882 in Agypten (zurich and Freiburg. Atlantis verlag, 1972), pp. 87, 230-33.

وتوجد تبريرات أخرى لأفكار على مبارك السياسية فى مقالة الشرقاوى « على مبارك والثورة العربية » ، المجلة ، رقم ٤١ (١٩٦٠) ص ٤٥ - ٥١ .

ومن بين كل مزاعم الشرقاوى فان أكثرها غرابة هو ذلك الرأى الجدل الذى يقول ان سلوك مبارك كوكيل غرفة التجارة المصرية هو الدليل على انه « مصرى القلب والمأطفة » ، فقد كان أكثر عدالة من المدير السابق الذى كان أرمنيا : الشرقاوى « على مبارك » ، ص ٩٧ .

(٢٨) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الأول ، ٢٣٧ - ٤١ .

(٢٩) المصدر نفسه . وحتى هذه يجب ان ينظر اليها « كنظام ترميم » جاء فى اعتقاب الاحتلال .

(٣٠) الشرقاوى « على مبارك » ص ٦٩ .

(٣١) يقول جابريل باير Gabriel Baer أن مبارك يمجّد دون تحفظ حكام مصر فى القرن التاسع عشر .

جابريل باير
Gabriel Baer
"Ali Mubarak's Khitat as a source for the History of Modern Egypt,"
Political and Social Change in Modern Egypt : Historical studies from
the ottoman Conquest to the United Arab Republic, ed. P.M. Holt
(London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1968),
p. 24.

(٣٢) الشرقاوى « على مبارك » ص ١٩٥ ، ١٩٨ - ٩٩ ، ٢٠٣ - ٥ .

(٣٣) محمد أحمد خلف الله « على مبارك وآثاره » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ) ص ١٤٧ .

(٣٤) الشرقاوى « على مبارك » ص ١٢١ .

(٣٥) على مبارك « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والمشهورة » (بولاق : المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ - ٨٩) الجزء الأول ، ٣ .

(٣٦) عن وطنية مبارك انظر الآتى : -

١ - شولش

Schölch

"Agypten den Agyptern," p. 122.

٢ - الشرقاوى « على مبارك » ص ١٣٦ ، ١٤٢ - ٤٣ ، ١٥٣ .

٣ - خلف الله « على مبارك » ص ٢١١ - ١٣ .

٤ - بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٥٤ .

ويلاحظ أيضا ان « وطنيا على الوطنية » مثل مصطفى كامل كان متأثرا بأمانة مبارك واستقامته ودافع عنه باستمرار خلال حياته . الشرقاوى « على مبارك » ، ص ١٧٧ - ٧٩ .
ونستطيع ان نرى كثيرا من الوقود اللازم لتفنيد اتهامات الشرقاوى بافتقار مبارك للوطنية قد جاء من الشرقاوى نفسه . وهذا غريب ولكنه نتيجة شائعة للرقابة الفقيرة المفروضة على الكتابة التاريخية .

(٣٧) فعلى سبيل المثال كانت « تذكرة المهندسين » عبارة عن كتيب تعليمى للرياضيات والعلوم الطبيعية ، وتناول « تقريب الهندسة » المبادئ الأساسية للمحاسبة ، العلوم العسكرية ، التحصينات ، الخ .

عن هذه الكتب انظر خلف الله « على مبارك وآثاره » .

وقد انقسمت مؤلفات علي مبارك الى مؤلفات تاريخية - ومؤلفات في التربية والتعليم -
ومؤلفات جغرافية وثقافية عامة - ومدرسية .

فشملت المؤلفات التاريخية :

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والمشهورة .
- نخبة الفكر في تدبير نيل مصر .
- الميزان في الأقيسة والأوزان .
- آثار الاسلام في المدنية والعمارة .
- وكتب في التربية والتعليم .
- مخطوط التربية وما يترتب عليها من تقدم الشعوب .
- وألف في الجغرافية .

- حقائق الأخبار في أوصاف البحار .

وله من المؤلفات الثقافية كتابين هما :

- علم الدين .

- الكشف والبيان في اجتماع مادتي الانسان

أما مؤلفاته المدرسية فشملت الكتب الآتية :

- تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين .

- تقريب الهندسة .

- خواص الأعداد .

- طريق الهجاء والتعريف على القراءة في اللغة العربية .

وكانت الكتب المترجمة هي :

- تنوير الأفهام في تفهيم الأجسام - وهو كتاب يناقش التغذية باللغة الفرنسية .

- خلاصة تاريخ العرب - وهو من تأليف العالم والمستشرق الفرنسي إيمانويل سيديو

Emmanuel Sedillot المولود في مونت مورنس Montmorency

(١٧٧٧ - ١٨٣٢) :

راجع دكتور/ سمير محمد طه « علي مبارك وأثره في الحياة الفكرية والسياسية في مصر

في القرن التاسع عشر » - مكتبة سعيد رافت - جامعة شمس - القاهرة - ١٩٨٥ -

ص ١٥٣ - ١٨٧ .

Larousse Universel — Tom Second Paris — Librairie Larousse —
1923, p. 915.

المترجم

(٣٨) ترجمتي لعنوان كتاب « نخبة الفكر في تدبير نيل مصر » .

وقد ترجم المؤلف العنوان كالآتي

Thoughts Most Worthwhile on the Taming of Egypt's Nile.

وتعني بالعربية « أكثر الأفكار جدارة بالاهتمام في ترويض نيل مصر » .

ولعل الترجمة الصحيحة بالانجليزية لكتاب علي مبارك هذا قد تكون
The best of Thought in the Arrangement of Egypt's Nile.

فجملته the best of thought أقرب كثيرا لجملته نخبه الفكر ، وكلمة
arrangement وتعنى تدبير تتفق مع الكلمة العربية تماما وتفضل كلمة Taming
التي تعنى تدجين - تدليل - قرويض - تلطيف .
المترجم

(٣٩) خلف الله « علي مبارك » ص ٢٠٨ - ٩ .

(٤٠) بدر « تطور الرواية في مصر » ص ٣١ ، ٦٣ - ٦٤ .

(٤١) « وعلم الدين » في حد ذاتها يجب ان تعتبر اول عمل أدبي عربي حديث يظهر
في شكل حوار روائى (ديالوج) . وهو تميز أعطى كثيرا على سبيل الخطأ لعمل المويلحي
« حديث بن هشام » .

الشرقاوى « علي مبارك » ص ١١٨ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ - ٤٧ .

(٤٣) الشيبال

"A History of Egyptian Historiography", p. 52.

(٤٤) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ١٩٢ . ويقول علي مبارك
ان سيدور Sedillot قد ولد بباريس في ٢٣ يونيو عام ١٨٠٨ . لكن
Larousse Univrsl تذكر انه ولد في مونت مورنسى Montmorency عام ١٧٧٧
وتوفى عام ١٨٢٢ .

راجع دكتور/ سمير محمد طه « علي مبارك وأثره في الحياة الفكرية والسياسية في
مصر القرن التاسع عشر » ص ١٨٥ .

"Larousse Univer el," p. 915.

المترجم

(٥٠) الراغب « عصر اسماعيل » ، الجزء الأول ، ص ٢٤٠ - ٤١ .

ويقول الدكتور/ سمير طه عن هذا الكتاب « آثار الاسلام في المدنية وال عمران » ان
علي مبارك قد ألفه ولم يطبع - وأن محمد بك درى الحكيم ذكر في كتابه « حياة المغفور
على مبارك باشا » - القاهرة ١٣١١ هـ - ١٨٩٤ م ، ص ٦١ : ان علي مبارك « أكمل كتابا
جليلًا سماه آثار الاسلام في المدنية وال عمران » فكان هذا الكتاب آخر عمل له مبرور وخاتمة
سعيه المشكور فانه نعم الكتاب شرح فيه كل ما أدخله الاسلام من العمران في الممالك
وما ترتب عليه من المدنية والنظام وما تضمنه من الحكم والعلوم العالية بمعارات تكفل
بيان المطلوب على وجه صحيح مقبول الا أن هذا الكتاب لم يطبع الى الآن والذى نعرفه من
أمره انه لما أكمله تأليفًا وتبليغًا أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره عليه
ويدقق في مراجعته أصول الأحاديث النبوية التي فيه فكان كذلك وقراء هذا الأستاذ لآخر
حرف فيه وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات في الحديث عدة أوراق الحقها بذلك
الكتاب وما هو باقى فيما نعلم بخزانة مؤلفه رحمه الله ينتظر من أهل العلم والعرفان
التفاتة الى طبعه لتعم به الفائدة ويعرف فضل الاسلام في تقدم البلدان » .

راجع د/ سمير محمد طه « علي باشا مبارك وأثره في الحياة الفكرية والسياسية في
مصر في القرن التاسع عشر » ص ١٦٨ .

المترجم

(٤٦) شفيق غربال « رسالة المؤرخ » - الهلال ٦٥ (١٩٥٧) : ١٣ - ١٤ .

(٤٧) ليس معنى هذا أن المصريين هم الوحيدون الذين كتبوا « الخطط » . ففي العصر الحديث على سبيل المثال نجد أن محمد كرد علي قد كتب كتاب خطط الشام (٦ مؤلفات ، دمشق ، ١٩٢٥ - ٢٨) . وربما كان هذا مجرد مصادفة ، لكن كرد علي قضى بعض الوقت في مصر . جمال الدين الشيال « المؤرخون السوريون في مصر في القرن التاسع عشر » - المجلة - رقم ٢٣ (١٩٥٨) ص ٦٥ .

وفن تأليف « الخطط » فن مصرى أصيل كما يقول د. سمير طه . فقد نشأ في مصر الإسلامية وأول من ألف فيه الكندي ، وكان آخر من كتب فيه تقي الدين المقرئ من القرن الخامس عشر الميلادي .

راجع د/سمير محمد طه « على باشا مبارك وأثره في الحياة الفكرية والسياسية في مصر في القرن التاسع عشر » ص ١٥٥ .

و د/ أحمد طربين « التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث - دراسة عن حركة التأليف التاريخي في أقطار الوطن العربي » مطبعة الانشاء بدمشق ١٩٧٠ - ص ٨٣ .

المترجم

(٤٨) « الخطط التوفيقية » الجزء الأول ، ص ١ ، ٣ . ويعنف جابرييل باير Bobriel Baer على مبارك على هذه المبالغة . فوفقا لتقديرات باير Baer فإن على مبارك تناول أقل من ١٠٪ من المجموع العام للمدن والبلاد المصرية .

باير Baer
"Mubarak's Khitat", p. 25.

بل انه حتى بحساب باير Baer فإن مبارك ضمن معلومات عن ١١٥٥ مكان - وهو رقم ضئيل .

(٤٩) والخطط القديمة هي خطط المقرئ .

(٥٠) « الخطط التوفيقية » - الجزء الأول ، ص ٢ . ويرى باير Baer أن حجج الأوقاف وسجلات الملكية هي أكثر المصادر أهمية في معلومات على مبارك .

باير Baer
"Mubarak's Khitat", p. 15.

(٥١) الشرقاوي « على مبارك » ص ١١٣ - ١٤ ، ووفقا لباير Baer فإن "Description de l'Egypte" كانت أكثر ما رجع اليه مبارك ، بينما كان استخدامه لقولني Volney قليلا .

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 18-20.

(٥٢) من وجهة نظر باير Baer فإن الجبرتي كان أكثر المصادر العربية أهمية .

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 17-18.

ومع هذا فإن بحثي كشف عن اشارات كثيرة جدا للمقرئ أكثر من أي مؤلف آخر . (٥٣) كان لمبارك حرية الوصول الى الكثير من المادة الارشيفية لدرجة تجعل من الصعب ان لم يكن مستحيلا تتبع كل فصادره ، وقد قام باير Baer بأكثر الدراسات شمولاً

لمصادر مبارك ويرى أنه أفاد أفادة واسعة - رغم أنها في أغلب الأحوال غير معترف بها وغير مقبولة - من الكتب الإحصائية السنوية المنشورة لريني Regny ، أميجي Amici ودوربك Dor Bey

Baer باير
"Mubarak's Khitat", pp. 13-14.

(٥٤) « الخطط التوفيقية » - الجزء الأول ، ص ٢ .

(٥٥) استخدم مصطلح Workable (عمل) هنا بحرية حيث ان تنظيم « الخطط التوفيقية » وفق المقاييس الحديثة مشوش Chaotic وباير Baer على صواب في الامل في ان يفهرس العمل يوما ما (Baer, p. 22) بشرط ان يوجد شخص يقبل ان يعذب نفسه بالقيام بهذا العمل (الفهرسة) .

(٦) يرى باير Baer ان ملاحظات مبارك الشخصية قد لعبت دورا رئيسيا في « الخطط » .

Baer باير
"Mubarak's Khitat", pp. 15-16.

(١٧) انظر ص ٣٢ ، ٣٦ من الفصل الثاني .

(٥٨) زل باير Baer بقوله ان مبارك لم يرتب مادته أبجديا .

Baer باير
"Mubarak's Khitat", p. 21.

(٥٩) « الخطط التوفيقية » . الجزء الثامن - مواضع كثيرة .

(٦٠) اشارة الى احتمال ان يكون « مبارك » قد قرأ « مناهج الالباب » .

(٦١) هناك تداخل كبير بين هذا المجلد من « الخطط التوفيقية » و « نخبة الفكر في تدبير نيل مصر » .

(٦٢) المعلومات المقدمة عن المجلدات الثلاثة الأخيرة من « الخطط التوفيقية » قد أخذت من كتاب الشرقاوي « على مبارك » ص ١١٣ - ١٦ .

وباير Baer لا يتفق بشأن موضوع السويس ، زاعما ان ما أورده مبارك بشأن استكمال القناة لا يتضمن أى نقد لحكومة اسماعيل .

Baer باير
"Mubarak's Khitat", pp. 24-25.

(٦٣) هذا التقدير لعبد الملك

L'Egypte moderne", p. 426. عبد الملك

(٦٤) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » - الجزء الرابع ، ص ٢٩١ .

Baer باير
"Mubarak's Khitat", pp. 26-27.

(٦٦) باستثناء الترجمة الشخصية لمبارك نفسه التي تعد واحدة من أفضل الأمثلة الإسلامية في نوعه .

(٦٧) كان باير Baer أكثر من نزاع للانتقاد في تأكيد ان الدقة « لم تكن واحدة من حسنات « خطط » مبارك » . ويؤسس رأيه على أخطاء مبارك في تهجى الأسماء الأوروبية وتقديره الخاطئ للمسافات بين المدن المصرية العديدة .

Baer

باير

"Mubarak's Khitat", pp. 22-23.

Baer

(٦٨) الشرقاوى « على مبارك » ، ص ١١٣ . قارن باير

"Mubarak's Khitat", p. 21

Caesar E. Farah

(٦٩) سيزار فرح

"The Impact of the West on the Conflict of Ideologies in the Arab World," Islamic Culture 35 (196) : 111.

وستذكر ان الطباطاوى كان أول من تأثر بالفرعونية ، التي تطرح احتمال ان يكون مبارك قد قرأ « مناهج الألباب » و/ أو « أنوار توفيق » .

(٧٠) هذا هو تصوير عبد الملك لتاريخ على مبارك .

"L'Egypte moderne", p. 426.

انظر عبد الملك

(٧١) لم يكن جرجس حنين سوريا ، فهو مصرى - ابن حنين عبد السيد من عائلة البغل بالقيوم ، ولد حوالى عام ١٨٥١ . أدخله والده مدرسة المرسلين الأمريكيتين بالقيوم . وخدم بالحكومة كاتباً فرئيس كتاب فى عدد من مديريات القطر ثم انتقل فى عام ١٨٩٣ الى المالية فعين رئيس قلم فى مراقبة الأموال غير المقررة ثم رئيس قلم فى مراقبة الأموال المقررة . وفى يناير ١٨٩٧ رقى وكيلاً لإدارة الأموال المقررة ثم رقى مديراً لهذه الإدارة فى يناير ١٩٠١ . وقد انتدب لمدرسة البوليس والإدارة لتدريس القوانين المالية . وقد وضع كتاباً لتلك القوانين لتلاميذ هذه المدرسة . وعين عضواً فى لجنة إدارة تلك المدرسة . وانتخب عضواً فى المجلس الملى فى ديسمبر ١٩٠٥ .

فى عام ١٩٠٤ ألف كتابه الشهير « الأطيان والضرائب فى القطر المصرى » . وفى عام ١٩٠٩ وضع كتاب « مجموع قوانين الأموال المقررة ولوائجها » . وله خطبة فى « الضرائب المقارئة » . حصل على رتبة البكوية . وتوفى عام ١٩١١ .

راجع رمزى تادرس « الأقباط فى القرن العشرين » الجزء الرابع - القاهرة - طبع فى جريدة مصر - ١٩١٠ ص ٤٩ - ٦١ .

المترجم

(٧٢) يزعم عبد الملك ان مبارك لم يبدء « مدرسة » حقيقية للكتابة التاريخية . يمكن تحديدها .

L'Egypte moderne", p. 425.

عبد الملك

كتابة التاريخ - ١٧٧

ولقد كان النموذج التوثيقي الإحصائي من التاريخ هو من صناعة مبارك ، وفيما بعد اقتفى خطواته مؤرخون أمثال جلال ، حنين ، ارتين ، النقاش ، وأمين سامي . ويحمل عمل اسماعيل صرهنك باشا أيضا آثارا من تأثير مبارك .

(٧٣) المعلومات البيوجرافية مأخوذة من أمين سامي « لما كنت معلما » - الهلال ٤٥ (١٩٣٧) : ص ٦١٠ - ١٢ .

(٧٤) سامي « المدارس في ربيع قرن » ص ٥٩٨ - ٦٠١ .

(٧٥) أمين سامي « تطورنا في أربعين عاما : التربية والتعليم » - الهلال ٤٠ (١٩٣١) : ٢٣ - ٣٢ .

(٧٦) كان رئيسا للنظار ١٨٩١ - ٩٣ و ١٨٩٥ - ١٩٠٨ . عن النظرة الوطنية لمصطفى فهمي انظر عبد الرحمن الرافعي « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٢) ص ١٩٤ - ٩٥ . ووجهة نظر الرافعي مؤيدة في عمل روبرت تيجنور Robert Tignor

"Modernization in Egypt", p. 346.

(٧٧) يدون مؤلف ، نقد « لتقويم النيل » لأمين سامي ، في المقتطف ٧٣ (١٩٢٨) : ص ١٠٠ .

(٧٨) انظر ص ١٢٣ من الفصل السادس .

(٧٩) أمين سامي باشا « تقويم النيل » (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩١٩ - ٣٦) ، المقدمة ، ص ٥٠ .

(٨٠) « تقويم النيل » ، مقدمة الملحق . ومثل مبارك ، فإن سامي نادرا ما يعرض مشاعره الخاصة بشأن أي موضوع معين ، ومع هذا فقد سمح لنفسه مرة واحدة في « تقويم النيل » أن يمدح مصر كبلد يستطيع فيها (صاحب المواهب النشيط) أن يصعد قدما .

المصدر نفسه - الجزء الأول - ص ١١٧ . والصيغة بها بعض الذكريات عن الطهطاوى (انظر ص ٧٦ ، ٨٤ حاشية ٥٠ من الفصل الرابع) .

(٨١) « تقويم النيل » ، المجلد الثالث - الجزء الثاني ص ٣٠ .

(٨٢) اتبع سامي تقليد العصور الوسطى باقحام شعر كتب على شرف مناسبة عظيمة في مواقع وثيقة الصلة بالموضوع .

المصدر نفسه - المجلد الثالث - الجزء الثاني - ومواضع أخرى .

(٨٣) المقدمة والمجلد الأول مرتبطان ببعضهما كوحدة واحدة .

(٨٤) اعتقد ان هذه هي أفضل ترجمة للكلمة دول (مفردا دولة) . فالمعنى المعتاد لكلمة State لا يتماشى مع هذا السياق .

وقد بحثت في النص عن صلة بين ما ذكره المؤلف في حاشيته والنص فلم أجد - اذ أن النص يقول :

At the start of Volume I Sami outlined the methodology he intended to use in tracing the various "historical particulars relating to the

general state of the Caliphate and the, specific affairs of Egypt." He would eschew, he said the techniques of earlier historians, who had written mere biographies of notables, their accomplishments and birth and death dates, without reference to "the process of historical change."

المترجم

- (٨٥) « تقويم النيل » ، المجلد الأول ، ص ١١٧ .
- (٨٦) المصدر نفسه . ومثل الكثيرين من مؤرخي القرن التاسع عشر المسلمين ، فقد كان لدى سامي معرفة ماضية بآين خلدون .
- (٨٧) المصدر نفسه . المجلد الثاني ، ومواضع أخرى .
- (٨٨) المصدر نفسه . ص ٢٧ - ٢٨ . قارن المجلد الثالث ، الجزء الأول ص ٣١ .
- (٨٩) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ومواضع أخرى .
- (٩٠) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، الجزء الثاني ، ص ٢٢ .
- (٩١) المصدر نفسه .
- (٩٢) العنوان الكامل للكتاب هو « التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ وبيان تفصيل لنشر التعليم الأول بأنحاء الديار المصرية (القاهرة : مطبعة المعارف : ١٩١٧) » .
- (٩٣) أمين سامي باشا « مصر والنيل من فجر التاريخ الى الآن (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨) ص ٣ - ١٣ .
- (٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٤ - ١٦ .
- (٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٧ - ٥١ .
- (٩٦) في لغة مبارك المنمقة المزخرفة « بلغت (مصر) قمة السعادة والازدهار في ظل حكم العائلة الجيدة للميكنا ومولانا الجليل المرحوم الحاج الخديو محمد علي » . الخطط التوفيقية » ، المقدمة ، ص ٢ . وقد عبر سامي عن نفس هذه العواطف بمصطلحات أقل تودجا مشيرا الى محمد علي بأنه هو الذي « سبب رفعة مصر الى قمة قوتها ورفاهيتها ، حتى أنها أصبحت في عهده جزءا من طليعة الدول صاحبة الشأن » . وعندما تولى العرش جلس العدل والدين التقويم الى جانبه وشاركاه في حكمه » .
- « تقويم النيل » ، المجلد الثاني ، ص ٢٧ .
- (٩٧) قارن ص ٣١ من الفصل الثاني .

المؤرخون الاخباريون المحدثون : شاروييم وسرهناك

مع نهاية القرن التاسع عشر كانت الكتابات التاريخية المصرية قد أصبحت أكثر عددا ، أكثر دقة ، وأفضل تنظيما (١) . كانت مصر تنتج لأول مرة ليس فقط مصنفين أمثال علي مبارك وأمين سامي ولكن مؤرخين مبدعين وجادين من مؤرخي الفترات القديمة والوسيطة (كمحمود الفلكي) ، (علي بهجت) و (أحمد كمال) الى جانب سرب من الكتاب الجدد المشتغلين بالفترة الحديثة من التاريخ المصري . وقبل الالتفات الى الموضوع الاساسي لهذا الفصل (المؤرخون الاخباريون المحدثون) دعونا نختلس نظرة الى حياة وكتابات كتاب المصريين والعصور الوسطى المصريين في القرن التاسع عشر . وبينما لا يعنينا هنا محتوى أعمالهم ، الا أن حقيقة ان المصريين كانوا يركزون الاهتمامات والمعرفة بماضيهم قبل الاسلامي ، لدليل طيب على ان المناخ العقلي والفكري في القرن التاسع عشر كان يتغير حقيقة .

كان محمود الفلكي (١٨١٥ - ١٨٨٥) مؤرخا ، فلكيا ، ومهندسا كتب حوالي خمسة عشر كتابا ومقالة في موضوعات متنوعة . درس الفلك لتسع سنوات في باريس ، سافر عبر كل أوروبا ونشر مقالات عن موضوعات علمية وتاريخية في جرائد أوروبية كبيرة . وقد سمح بنشر أغلب أعماله التي بالفرنسية أصلا وترجمت مؤخرا فقط الى العربية . تضمنت اهتماماته التاريخية الاسكندرانية في العصور البطلمية والرومانية، التقويم العربي قبل الاسلام ، التاريخ الصحيح للهجرة ، وكتابات الغزالي (٢) .

كان علي بهجت (المولود في ١٨٥٩) خريجا من مدرسة الادارة والالسن وأصبح فيما بعد أمينا لمتحف الفن العربي في القاهرة . تولى مسئولية الحفريات بالفسنطاط عام ١٩١٢ وبالتالي نشر بالاشتراك مع خبراء فرنسيين في هذا المجال كتبا عديدة عن نتائج أبحاثه ، وقد تضمنت

هذه الكتب وصفا للآنية المصنوعة من السيراميك والبلاط المدهون بالجليز Glaze الذى عشر عليه أثناء الحفريات • وترجم أيضا الى العربية العديد من الدراسات الاثرية القديمة من اللغات الأوروبية (٣) •

ربما كان أحمد كمال (المولود فى ١٨٦٠) أول مصرى فى العصور الحديثة يبرع فى الهيروغليفية • كتب تاريخا مفصلا عن مصر القديمة ، مستخدما مصادر أصلية كهيرودوت Herodotus وديودورس Diodorus ، وأعمال علماء المصريات الأوروبيين المعاصرين كبروجس Brugsch (٤) ، ومخطوطات ونتاج صفى انسانى محفوظ فى المتاحف الفرنسية • عمل فى المتحف المصرى للآثار القديمة وكرس حياته لاثارة اهتمام بنى وطنه بالفترة الفرعونية • وقد تحوى قائمة كاملة بمنشوراته العشرات من الأعمال (٥) •

أثارت الأبحاث التى قام بها رجال أمثال الفلكى ، على بهجت ، و (الى حد أقل) أحمد كمال اهتماما كبيرا فى أوروبا ونشرت مرارا فى جرائد أوروبية محترمة • عمل الرجال الثلاثة عن قرب مع معاصرين أوروبيين محترفين ومالوا الى التشرب سريعا بالأساليب الأوروبية لدراسة التاريخ • وكان هذا ترتيبا مفيدا للأوروبيين أيضا ، اذ دون شركائهم المصريين ربما كانوا قد حرموا فى المصادر العربية كالمقريزى ، القلقشندي ، ابن دقماق ، الخ • وهكذا فمع اقتراب القرن التاسع عشر من نهايته ، كان بقدرة مصر ان تزعم انتاجها لمتخصصيها المصريين فى الفلك ، الآثار القديمة ، المصريات ، والفترات الرومانية والبطلمية من التاريخ المصرى • ولم تعد بعد ذلك مضطرة للاعتماد على الخبرات الأوروبية دون سواها فى هذه المجالات •

من الصعب اعتبار المصريين الذين كانوا قد دربوا بدقة شديدة فى مجالات المعرفة والدراسة المختصة بواسطة أساتذة أوروبيين ، من الصعب اعتبارهم « شخصيات انتقالية » • لقد انجبت مصر عددا رائعا من الكتاب خلال هذه الفترة ، كان لهم موضع قدم فى كل من المعسكرين المنهجيين • كان علي مبارك وأمين سامى أمثلة جيدة لهذا النفر من المصريين • فقد تحقق كل منهما ان المنهجية التاريخية كانت تتغير فعلا ، ومع هذا فانهما فى التحليل النهائى كانا غير قادرين على الكتابة بغير الطريقة التقليدية • ولقد وجد الجيل التالى من المؤرخين ان من الصعب عليهم التقيد بالمدرسة القديمة • صحيح انهم لم يكونوا قد أصبحوا عصريين بعد - ليس حتى بمفهوم العصرية التى كان عليها ماكيافيللى Machiavelli - لكنهم عمدوا الى ضرب التوازن الدقيق بين القديم والجديد مما دعانى الى تسميتهم بالاخباريين المحدثين Neo-chroniclers

من بين كل الرجال الذين يشكلون مادة هذا العمل ، فان الاخباريون المحدثون اكثرهم انغمارا . فالقليل هو الذى يعرف عن حياة كل منهم ، حيث أنهم سلكوا بصفة عامة فى وجودهم تواضعا وبنواريا عميا . وكتاباتهم لانزال حتى اليوم لازمة لدرجة قصوى لطالب التاريخ المصرى الحديث ، ومع هذا فان أحدا لم يفكر فى تحليل الأساس المفاهيمى الذى نبوا منه . وهذا سوء حظ كبير ، حيث انه بصرف النظر عن الاهمية الجوهرية لعملهم ، فان مشاركتهم تقدم أفضل تصوير للتأثير الأجنبى (الغربى على سبيل المثال) فى تعديل نسيج انماط تفكير الناس . ان التأثير الغربى فى كتابات على مبارك وأمين سامى قليل للغاية ليسمح لنا ان ندركه بوضوح ، بعكس ضخامة هذا التأثير فى كتابات المؤرخين القوميين . فقط فان التوتر بين التقليدين التاريخيين يبدو واضحا بصورة لا مجال للخطأ فيها فى كتابات الاخباريين المحدثين ، وهذا يقدم لنا اجابات هامة عن طبيعة نتاج الاحتكاك الثقافى .

ومع ان هذا الفصل معنى أساسا بأعمال ميخائيل شاروويم واسماعيل سرهنك باشا ، الا اننا مع هذا يجب ان نرقب بايجاز عمل شخصية تسبقهما وتقل عنهما فى الاهمية . تلك هى شخصية محمود فهمى الذى أنتج تاريخا حوليا شبه تقليدى . كان الرجل يحكم المهنة مهندسا عسكريا عمل عن قرب مع (عرابى) . ونفى فيما بعد بسبب نشاطه الثورى الى سيلان ، وبينما كان هناك أنتج تاريخه الممتع . وقد تمكن بفضل استخدام كل المصادر المتوفرة له فى الجزيرة (وأغلبها أعمال عامة بالفرنسية والانجليزية) من ان يكتب تاريخا عالميا فى أربعة مجلدات . لم يكن فهمى أول أو آخر مصرى يصيغ عملا كهذا ، لكنه يبدو الوحيد فيما قبل الحرب العظمى الذى أكمل فعلا دراسة متعددة المجلدات عن تاريخ العالم (٦) .

جعل محمود فهمى عنوان كتابه - فى ولاء صادق للتقليد الاسلامى- مسجوعا ، وكذلك بدأ روايته التاريخية نفسها (٧) . لكن السجع لم يستمر لأكثر من صفحة واحدة أصبح بعدها الاسلوب العادى فى الكتابة يسير قدما غير مزخرف ومحددا فى أغلب الأحوال بالأخبار . وقد ألح محمود فهمى مثل أمين سامى والكثيرين الآخرين الى نظرية ابن خلدون عن دورة الحضارات Cyclical theory of Civilizations ، وذلك ليعطى تاريخه مذاقا تحليليا (٨) . لكن القصة نفسها لاتضم الا أثرا قليلا من هذا المذاق وكذلك تنقصها الوسيلة التفسيرية ولم تزد عن كونها أثرا منقحا للمراجع الأوروبية المتيسر الحصول عليها . ولا توجد أى قيمة حقيقية للقارئ العصرى اللهم الا فى الفقرات الخاصة بتاريخ مصر الحديث

وخاصة وصف أحداث الثورة العرابية (٩) . ففي هذا القسم يعالج محمود فهمى موضوعه من منظور نقدي بصورة أكثر ، مفسرا الحوادث كصاحب ذكريات أكثر منه مؤرخا . وروايته عن « ثورة عرابي » هي رواية شاهد عيان جديرة بالاعتبار أكثر من كونها تاريخا . لكنها أيضا - وهنا تكمن أهميتها - محاولة بدائية لكسر حاجز التعامل الغير نقدي الموضوعي للتاريخ الحولى .

ولأن عمل محمود فهمى لم يكن عمل عالم أو مبتكر ، فانه لم يصمد لاختبار الزمن . فهو يصور كيف يستطيع مؤرخ مصرى ان يكتب تاريخا حوليا تقليديا عن حوادث لم يشترك فيها ، ومع هذا فانه كالجبرتي وجد انه من المستحيل متابعة نفس الطريقة عندما وصل الى مجموعة من الظروف ذات المعنى . يمكن اعتبار فهمى واحدا من قمم المدرسة القومية فيما يتعلق بفصله عن مصر الحديثة . لكن لما كان القسم الحديث من العمل غير قياسى بالنسبة للعمل كله بصفة عامة - الذى لا يعدو أن يكون نسخة عصرية للتاريخ الحولى ، فان من المناسب ان نضم (محمود فهمى) هنا (١٠) .

كان العمل التاريخى لميخائيل شاروويم (١٨٦١ - ١٩٢٠) أكثر أهمية من عمل محمود فهمى . كان شاروويم قبطيا ، ولد فى حي السقاين بالقاهرة حيث التحق بالمدرسة الاولى والمدرسة الثانوية . فضلا عن براعته فى اللغة القبطية والعربية ، فقد تطلع أيضا فى الانجليزية والفرنسية ، وكان عمره أربعة عشر عاما فقط عندما عين فى قلم التحريرات الأفرنجية بنظارة المالية . تقلب شاروويم فى مناصب عديدة خلال فترة حياته ، فأصبح قاضيا بمحكمة المنصورة الأهلية عام ١٨٨٤ ورئيسا للنيابة بها فيما بعد . فى عام ١٨٩٩ عاد الى نظارة المالية ناظرا فى ادارة أملاك الميرى الحرة (الدومين) (١١) . وبعد تقاعده عام ١٩٠٣ كرس كل اهتمامه للتاريخ ، ولقد كان لفترة ما رئيسا (لجمعية التوفيق القبطية) وكان زعيما معترفا به للمجتمع القبطى المصرى (١٢) .

ومع ان شاروويم كان مستوولا أيضا عن تحقيق ونشر مخطوطة قديمة وقيمة (١٣) ، فان ذكره الطيبة تعود بالدرجة الأولى الى تاريخه عن مصر . سمي العمل « بالكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » "A definitive History of Ancient and Modern Egypt" وظهر عام ١٨٩٨ - ١٩٠٠ فى أربعة مجلدات ضخمة (١٤) . خلا كلا من العنوان والنص من السجع ، وقد جعل هذا شاروويم أول مؤرخ مصرى بارز يتخلص تماما من الأنماط الاسلوبية القديمة (١٥) .

تم تنظيم المجلدات الأربعة على الوجه التالي •

المجلد الأول : مصر القديمة من نوح الى الفتح العربى •

المجلد الثانى : الجزيرة العربية فيما قبل الاسلام ، الخلافة ،
الفاطمين ، الايوبيين والمماليك حتى الفتح العثمانى •

المجلد الثالث : مصر العثمانية حتى عام ١٨٠٥ وتأسيس دولة
محمد على •

المجلد الرابع : مصر والامبراطورية العثمانية حتى نهاية عهد توفيق •
وسنركز تحليلنا على الجزء الأخير من المجلد الثالث وكامل المجلد
الرابع وهما الأقسام التى تعالج الفترة الحديثة •

مع ابتعاده عن نماذج السجع الخاصة بالأزمنة السابقة ، فان
شاروبيم لم يجد بديلا أنيفا ليلجا اليه • ويبدو انه كان يبحث عن أداة
تعبير محكمة واقتصادية (الأسلوب المباشر ؟) ، وهى تلك التى أخذت
فى النهاية شكل الجمل القصيرة ذات البناء الاسنادى الموضوعى
Subject-predicate Construction • وقد أجرى شاروبيم
ربط هذه الجمل واحدة بعد أخرى بصورة متصلة ، مع بعض الضم العربى
المألوف للزمن باعتباره رابطة العقد الوحيدة • كان شاروبيم يتبع قاعدة
الممارسة الحولية ، كما ان تاريخه يحمل على الأقل تماثلا مع التاريخ
الزمنى العربى الخاص بالعصور الوسطى • وهناك مقاطع ، يبلغ طولها
فى بعض الأحيان عشرات dozens من الصفحات مما يعطى الاحساس
بأن لا شئ ذو أهمية قد حدث فيما عدا مرور الزمن (١٦) •

ومع هذا ، فان الانطباع الابتدائى مضلل ، والأمر لا يحتاج الى كثير
من الفحص لنرى ان التاريخ الزمنى الذى كتبه شاروبيم أكثر ثقيفا
بدرجة كبيرة من معظم كتابات الآخرين • ذلك أنه ، الى جانب مناقشة
الحوادث التاريخية نفسها ، فان شاروبيم يذهب مرارا وراء الأسباب
التي وراء هذه الحوادث ، فهو يحاول ، على سبيل المثال ، ان يثبت
دوافع نابليون لغزو مصر : « قال البعض أنها كانت من أجل مضايقة
البريطانيين وتدمير قوتهم • وقال البعض انها كانت لفتح المدن والأمصار •
وقال البعض أشياء أخرى » (١٧) • وبصورة مماثلة فان شاروبيم
لا يكتفى فى روايته عن غزو محمد على لسوريا الا بعد ان يحدد سببين
محتملين على الأقل لشن هذا الهجوم : (١) العدو الضخم من المصريين
الذين هربوا الى عكا ليتجنبوا التجنيد (٢) وقاحة الجزائر السابقة التى
لم ينسها محمد على (١٨) •

فى مجال اهتمامه بالتقييم النقدى للرجال والحوادث ، افترق ميخائيل شاروويم عن مؤرخ العصور الوسطى النموذجى . فتقييمه لعهد محمد على على سبيل المثال تضمن ملامح ايجابيه كاصلاح ترعة الأشرفية واصلاح الجيش وانشاء المدارس الحديثة والمصانع وفتح السودان . لكنه فى نفس الوقت لفت الانتباه الى الطبيعة المصادرة لضرائب محمد على وللعيب الذى وضعته على المصريين (١٩) . ودون التوضيح بموضوعيته فقد نجح شاروويم فى رسم صورة تاريخية أكثر كمالات ومعلوماتية عما احتوته الكتابات التاريخية الوسيطة . فقد كان تحليليا بوعى وثبات أكثر من أفضل قرنائه العصور وسطويين .

كان مثل هذا التناول للتاريخ يعد تجديدا بمقاييس زمانه ، لكن شاروويم كان حريصا ان لا يذهب بالأمر أبعد مما يلزم . فقد فضل ، كلما كان ممكنا ، ان يتجنب النقد الشخصى بالاحتماء وراء معان أخرى من التفسير التاريخى ذات السوابق المتمتعة بغداسة القدم – بمعنى مزاوله تبطين روايات مختلفة لنفس الحادث . كان لهذا التكنيك ميزة أن يرى المؤرخ بأسلوب الطبرى والمسعودى ان التاريخ قد يعنى أشياء مختلفة لأناس مختلفين ، وفى نفس الوقت فانه يحرس دعواه الشخصىة بالحياد المطلق دون ان يتعرض للأذى . كان هذا اسلوبا للتفسير التاريخى أكثر أمانا وأكثر اغراءا لشاروويم من فكرة المغامرة على وضع غير مستقر . وقد أعطى هذا الأسلوب مع ذلك مجالا كبيرا للتحليل والنقد ، وكان شاروويم سريعا فى الاحساس بالامكانيات التى وفرها هذا الأسلوب للكفاءة البارعة للدعوى التاريخية . فعلى سبيل المثال ، عندما كتب شاروويم عن اعتقال الحاكم العثمانى خسرو باشا فى ١٨٠٣ قال ان الاعتقال نتج فى رأى « كتاب معينين » عن صراع خسرو مع أقارب طاهر باشا (٢٠) . وصدرت أسباب الثورة اليونانية فى ١٨٢١ بكلمات (قال أصحاب التاريخ) (٢١) ، وظهر تعبير (قال بعض الكتاب) مرارا (٢٢) . كان التكنيك مستعيدا لأفضل ما فى التاريخ الزمنى الراقى Hochchronik فى العصور الوسطى ، لكن شاروويم نجح بواسطة التكرار الذى لجأ اليه فى اعطاء عمله مسحة حديثة طفيفة (٢٣) . وفى كل مناسبة كان يعطى تقاريره صفة عدم القطعية كخط رجعة وكان فى كل الأوقات مدركا لما لموضوعه من اثار للنزاع .

كانت السمة المميزة لتاريخ شاروويم هى عدالته المدققة . وكلما زادت القضية خلافية كلما زادت قدرته على معالجتها بأناقة . فمن المستحيل على سبيل المثال ان تقول عند قراءة بحثه عن الهجوم البريطانى على مصر بقيادة الجنرال فريزر Frazer (١٨٠٧) ان مؤرخا مصريا قد كتب هذه القصة (٢٤) . وكذلك فى وصفه للنزاع الذى بدر بين

شريف باشا والعراقيين (فبراير ١٨٨٢) فانه يظل غير متحيز تماما .
فهو يقول أولا ان نواب المجلس تحولوا ضد شريف عندما رفض ان يسمح
لهم بان يصوتوا على ميزانية الحكومة . لكنه يعود فينقذ الباشا بالتلميح
الى اعتقاده بأن القوى الأوروبية ببساطة لن تسمح له بذلك (٢٥) .
ثم هو يترك للقارىء بعد ذلك ان يقرر ما اذا كان شريف أقل من وطني
حقيقى كما يزعم كثير من المؤرخين القوميين ، أم أنه ضحية الظروف .

لم يكن « الكافى فى التاريخ » مجرد تاريخ زمنى آخر . فالتاريخ
كما عامله شاروويم كان له مذاق تحليلى مميز ، ومع هذا فقد احتفظ له
بالبناء الأساسى للتاريخ الزمنى . لقد حقق شاروويم توازنا ملحوظا فى
تغطيته لموضوعات شديدة الخلافية كالاحتلال الفرنسى ، وعصر محمد على ،
وثورة عرابى دون الحاجة الى تجنب أى من الموضوعات نفسها . وفوق
هذا ، فان حقيقة انه لم يقصر دراسته على المسائل السياسية البحتة هو
علامة أخرى على حداثة كتاباته . فقد كتب عن كارثة الجراد عام ١٨٤٢ ،
ثورة البدو فى عهد سعيد وجفاف ١٨٨٩ - ٩٠ (٢٦) ، وكلها قراءات
مفيدة للمؤرخ الاجتماعى أو الاقتصادى أيضا . وهناك أيضا قصص مطولة
عن جهود اسماعيل للحصول على الاعتراف القانونى بمبدأ حق البكر فى
الارث (فرمان الوراثة فى ٢٧ مايو ١٨٦٦) والتطورات فى السودان فى
أواخر القرن التاسع عشر (٢٧) . وليس من السهل دائما اكتشاف
مصدر معلومات شاروويم ، لكن من المؤكد انه كان له فرصة الوصول الى
كثير من الوثائق الهامة كنتيجة لسجل خدمته الطويل فى الحكومة (٢٨) .

يمثل عمل شاروويم خطوة حقيقية نحو التاريخ الحديث . فبينما
دافع كثيرا عن المنهجية والمزاج العام للتاريخ الزمنى ، فانه مع ذلك ركز
الانتباه على الدوافع ، الأسباب ، ونتائج الأفعال التاريخية . وكتاب
العصور الوسطى يحاول شاروويم ان يتجنب (النقد الباطنى
Internal Criticism) لكنه يعوض ذلك بتقديم جوانب أخرى
لاقصية . وهو حريص للغاية على أن يجسر على مقارنة محمد على بلويس
الرابع عشر (كما فعل الطهطاوى) ، لكن هذا الحرص هو الذى يجعل من
شاروويم مصدرا للمعلومات أكثر اعتمادا عليه من سلفه الأزهرى .

ومثل أهمية دور شاروويم كان اسماعيل سرهنك باشا الذى ترك له
كمعاصر لشاروويم ان يقيم الدليل على المدى البعيد الذى يمكن ان يدفع
اليه التاريخ الزمنى العربى الوسيط . لم يكن سرهنك الأخير فقط ولكنه
كان أيضا وبلاشك أحد أرفع المهنيين فى فن الكتابة التاريخية الوسيطة .

ولا يعرف الكثير عن حياة سرهنك ، رغم أنه يقدم لنا بعض
الحقائق القليلة عن والده ، الذى أخذه إبراهيم باشا من كريت ، وفى

عام ١٨٢٥ التحق بالمدرسة الحربية (بقصر العيني) • فى عام ١٨٣٠ نقل الى المدرسة البحرية حيث اكمل دراساته • وفيما بعد تقلد مناصب عليا فى البحرية المصرية وشارك فى عمليات بحرية هامة خلال حرب القرم على سبيل المثال • وتقاعد فى عهد سعيد لكن عهد اسماعيل شهد نشاطا متجددا له • وكان تقاعده النهائى فى عام ١٨٨٧ ، وتوفى فى ١٨٩٥ (٢٩) •

ولا توجد ترجمة لسيرة سرهنك نفسه (٣٠) • لكن المرحوم جمال الدين الشيال ، لحسن الحظ ، أخذ على عاتقه مهمة البحث الشاقة فى تاريخ سرهنك واستخراج كل دقيقة من المعلومات ذات الصلة بحياة المؤلف • وانتهى الى الصورة الغير كاملة الآتية •

اختير اسماعيل سرهنك كأحد الطلبة القليلين الممتازين للقبول بالمدرسة البحرية التى أعيد احيائها من جديد فى عهد اسماعيل • ولما كانت هذه المدرسة قد أعيد انشائها فى ١٨٦٧ ، فان سرهنك قد دخلها فى سن ما بين ١٣ - ١٥ ، وينتهى الشيال الى انه ربما كان قد ولد عام ١٨٥٤ • عند تخرجه بدأ سرهنك كوالده فى تسنم الرتب ، وفى النهاية وصل الى رتبة الادميرال (ميرالاي) ويعرف عنه انه شارك فى العمليات البحرية فى البحر الأحمر وبعيدا عن ساحل أثيوبيا والعرب • وعندما أرسلت السفينة البخارية « المحروسة » الى لندن للاصلاح عام ١٨٧٢ ، وعادت الى مصر عبر استانبول كان سرهنك واحدا من قادتها • وانتهى وضعه الفعال فجأة مع الاحتلال البريطانى عندما حلت البحرية المصرية ، ويبدو أنه علم بعد ذلك العلوم العسكرية والمدفعية البحرية للوحدات التى أعيد تنظيمها من البحرية المصرية • وتوفى عام ١٩٢٤ (٣١) •

وكما قصد سرهنك أصلا فقد جاء (حقائق الأخبار فى دول البحار) (٣٢) فى ثلاثة مجلدات ضخمة • وقد ظهرت كل هذه المجلدات بالفعل - فى ١٨٩٥ ، ١٨٩٨ و ١٩٢٣ - لكن المجلد الأول فقط هو الذى كان كما خطط له سرهنك ، فقد غطى الفترات القديمة والوسيطة ، مع تركيز ضخم على البلاد العربية (ما عدا مصر) والامبراطورية العثمانية أكثر من الحضارة الغربية (٣٣) • وكان المجلد الثانى مخصصا أصلا لتغطية مصر ، فرنسا ، وبريطانيا العظمى (٣٤) ، لكن الأمر انتهى بتخصيص المجلد كله لمصر وحدها • غطت الصفحات المائتان والعشرون الأولى التاريخ المصرى حتى نهاية عهد محمد على ، وتناول باقى المجلد (٣٦٤ صفحة) الحوادث حتى أوائل القرن العشرين • كان سرهنك قد انحرف بعيدا كثيرا فى المجلد الثانى عن هدفه الأصلى • ولم يستطع

التقدم أكثر في المجلد الثالث والنهائي الذي كان قد أمل أن يعالج فيه البلاد المتبقية من غرب أوروبا إلى جانب روسيا (٣٥) . وأخيرا ظهر المجلد بعد مرور ثمانية وعشرون عاما من نشر المجلد الثاني وأعطى عنوانا جانبيا هو « المجلد الثالث ، الجزء الأول » . كان المجلد أقصر كثيرا من أى من سابقيه واحتوى (استندراك واعتذار) ، قرر فيه سرهنك « أن الموقف السياسى العام قد تغير ، متضمنا أمرا ثابتا بينى وبين قوة نيأتى » (٣٦) . كان هذا - وفقا للشياى - اشارة إلى الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ إلى جانب التعديلات التى أجريت على نظام الحروف فى (مطبعة) بولاق ، والتى أخرت طبع كتاب سرهنك (٣٧) . على أى حال فإن المجلد الثالث تناول تاريخ فرنسا من كلوفيس Clovis إلى شارل السابع Charles VII فقط .

وفرت مناصب سرهنك المتنوعة فى نظارة البحرية له الفرصة ليطلع على الكثير من الوثائق الرسمية . وزوده أصدقائه فى ادارات الحكومة الأخرى بمعلومات أكثر ، ونتيجة لذلك ، فإن تاريخه مزدان بالسجلات الرسمية التى قد لا يتوفر البعض منها فى أى مكان آخر . فهو يعدد على سبيل المثال أسماء وسعات السفن المصرية خلال عهد محمد على فضلا عن كميات وأنماط التحصينات الساحلية ، الذخيرة والمدفعية المستخدمة فى ذلك الوقت (٣٨) . ويترجم سرهنك الاوراق القنصلية الفرنسية ووثائق الخارجية البريطانية إلى العربية ، وفى مناقشته للاحتلال الفرنسى للصومال يذهب إلى حد فحص المراسلات الدبلوماسية الايطالية ذات الصلة بالموضوع (٣٩) .

ولا يقتصر اهتمام سرهنك بالمصادر الأصلية ، لكنه يهتم أيضا بالمصادر الثانوية ، ومن المدهش أن يلاحظ المرء كيف بحث كل جوانب القضية بتمكن . والقائمة التالية تعطى فكرة ما عن تنوع المادة التى يستخدمها : تاريخ مانجان Mengin عن مصر فى عصر محمد على ، أعمال كلوت بك Clot Bey ، الجبرتى ، مذكرات أحمد عرابى ، « تاريخ الحرب السودانية » لجابرييل حداد Gabriel Haddad ، ترجمة هانز ريسنر Hans Riesner لأحمد عرابى ، « تاريخ محمد على باشا » للشيوخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى ، الجرائد الأوروبية والمحلية ، الخ (٤٠) . وحيثما كان ممكنا فإن سرهنك يسعى إلى المعاصرة فى المصادر .

ويكشف شغف سرهنك بالوثائق الأصلية ، وفوق كل شىء ، بالتحليلات الاحصائية ، عن التأثير المستمر « لمدرسة » مبارك للتاريخ المصرى (٤١) . وابتداءا بمبارك فصاعدا أصبح المؤرخون المصريون مدركين

بصورة زائدة لأهمية الأصالة في الدراسات التاريخية - وذلك في شكل
مادة مصدريّة جديدة - أو ميدان جديد للبحث أو نظرة جديدة للانسياء •
ولم يكن كل ممارسى هذا المنهج متساوين في النجاح ككتاب مبدعين ،
لكن سرهنك يقف على الأقل كواحد من القليلين الذين بانوا أهلا للأشكال
الثلاثة التي تتضمنها الأصالة في الدراسات التاريخية • فقد استخدم
مادة مصدريّة جديدة وأصلية ، وكان تاريخه أول محاولة مصريّة حديثة
لدراسة موضوعاتية topical حقيقية لمنطقة ضيقة محددة (تاريخ
القوى البحريّة) • وفي مجال التفسير • حيث جعلت (طبيعة التاريخ
الزمنى) امكانية اختراقه صعبة للغاية ، فان سرهنك بذل محاولة أفضل
من أى من سابقه لكتابة تاريخ مفاهيمى Conceptual أكثر من مجرد
تاريخ ميكانيكى صرف •

وفقا لسرهنك فان الغرض من « حقائق الأخبار » كان سد بعض
من الفجوات الموجودة في المعرفة التاريخية ، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ
القوى البحريّة (٤٢) • وقد فعل هذا جزئيا عن طريق استخدام مادة
جديدة ومفيدة ، لكن ما كان أكثر أهمية في هذا الصدد هو معالجته
الشاملة والنادرة للموضوع وأحكامه الجريئة والرفيعة عن الرجال
والحوادث • وهو لم يشارك شاروبيم في موانعه المنهجية ، وهذا على
وجه التحديد ما جعل لعمله هذه القيمة •

لتصوير هذه النقاط ، دعونا نخبر عن قرب تكتيك سرهنك
التاريخى • في دراسته للاحتلال الفرنسى يعطى سرهنك للقارىء المصرى
ادراكا أعظم للدوافع الفرنسية عن كتاب مبكرين • ولا يغلف الحدث
كمسألة معرّية بحتة ، أو كما أصبح مجاراة للحديث فيما بعد بأن
يتخلص منه كمؤامرة امبريالية • ولكنه بدلا من ذلك يضع في الاعتبار
المنافسة الفرنسية - الروسية في أوروبا وما جرى في تيلست Tilsit
من محاولة تقسيم باقى العالم بين القوتين العظميين • ويذكر أيضا أهمية
وضع مصر الجغرافى والدور الذى لعبته كحلقة وصل بين أوروبا ، الهند
والشرق الأقصى (٤٣) •

وعندما ينتقل سرهنك الى عصر محمد على ، فانه يرسم له صورة
عامة محببة مدعومة بثروة من المعلومات الاحصائية ، وبالطبع فانه يلمح
الى اصلاحات الباشا فى التعليم والزراعة والى فتوحاته فى السودان ،
المورة وسوريا (٤٤) • وفى معالجته للسياسة الخارجية ، فانه يحاول
ان يصل الى الباعث الرئيسى لمغامرات محمد على العسكرية • ويؤكد أن
فتح السودان كان لا يتجاوز الهدف التقليدى لمصر قوية ، ويلاحظ ان
المنطقة كانت تابعة لمصر منذ أيام الأسرة الثانية عشرة الفرعونية (٤٥) •

ويزعم ان محمد علي أمل من خلال فتحه للسودان أن يكتشف المعادن التمينه ، وأن يضع نهاية للمقاومة المملوكية لخدمه ، وان يتخلص من التمزيق القبلي لطرق التجارة للجنوب (٤٦) .

كانت المسألة السورية على الجانب الآخر - وفقا لسرهنك - نتيجة لتشكيلة من العناصر المختلفة . فهو يلمح مثل شارو بيم الى وجود اللاجئين المصريين في عكا والحد الذي حمله محمد علي للمرحوم الجزائر باشا . لكنه يذهب أيضا الى اعتبار المحيط الأعرضي ، كحقيقة ان محمد علي قد وعد بحكم المورة ثم أجبر أن يشهد أسطوله يدمر بأكمله دون أي مقابل . وسرهنك واع دائما للنفوذ الأوروبي وتأثيره على الحوادث وفي هذا السياق فإنه يقدم فرضية تشجيع فرنسا عمليا للغزو السوري بهدف صرف الانتباه عن محاولتها استعمار الجزائر (٤٧) .

لم يكن عند سرهنك الكثير ليقوله عن عباس الأول سوى التأسف على اغلاقه الكثير من مدارس محمد علي (٤٨) . ثم يتحول الى اسماعيل فيعصفه لافتتاحه الكثير من المشروعات المكلفة وقليلة الفائدة التي لم تحقق أي نفع للمصريين . وكانت نتيجة تبذير اسماعيل - في نظر سرهنك - وقوع مصر تحت مديونية أوروبا ، وهذا ما أدى في النهاية الى السيطرة الأوروبية على البلاد (٤٩) .

ويقول سرهنك ان التدخل الأوروبي أصبح في أواخر السبعينيات غير محتمل وكان مزاج الناس يقرب من الثورة . وفي مناسسته لأحداث الثورة نفسها يعبر سرهنك عن فكرة مؤداها عدم امكانية تحميل جماعة معينة المسؤولية الكاملة للكارثة . فقد كان عرابي قد أصبح في ذلك الوقت بطلا في أعين الناس ، ولا شك أنه بذل جهدا مخلصا من ابدية ليحصل على سيطرة شعبية أعظم على الجهاز الحكومي . ومع ذلك فإن العصبية العرابية خرجت عن السيطرة فيما بعد ، وتجاوزت الحدود الملائمة لسلطتها خلال حادثة الاسكندرية وكذلك خلال دعوتها لخلع توفيق . ويفحص سرهنك حادثة (مذبح الاسكندرية) في الحادي عشر من يونيو ١٨٨٢ من وجهتي النظر الأوروبية والمصرية ، ومرة أخرى يتجنب تحميل اللوم كله لفريق دون آخر . فيقول ان الأوروبيين كان لديهم أسباب وجيهة للخوف من سيطرة الفوغاء على الشوارع ، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا محقين في تسليح أنفسهم واطلاق النار على أي مار مثبوك فيه أو مشبوه (٥٠) .

والقسم الأخير من مجلد سرهنك الثاني مخصص للعقدين الأولين من الاحتلال . وهذا القسم مصدر احصائي قيم ، جانب انه خال نسبيا

من الغل الوطني - وفق المقاييس المصرية • ان سرهنك لا يعتذر بالضبط للوجود البريطاني في مصر ، ولكنه يشرح جذوره التاريخية ونتائجه • فيبدأ بتعقب الاهتمام المطول لبريطانيا في مصر منذ أيام نابليون وحتى بداية الاحتلال عام ١٨٨٨ • ويعتمد في توثيقه على المراسلات الدبلوماسية البريطانية ذات الصلة ، كخطابات لورد بالمستون Palmerstone ولورد دالهاوسي Dalhousi • وينسج طريقه برشاقة خلال تعقيدات الدبلوماسية الأوروبية ، مشيرا الى الأهداف المتصارعة للقوى المختلفة وتأثيرها في تطورات العالم الاسلامي • وفي مجال دراسته للاحتلال ، يعدد انجازات البريطانيين في الصحة ، الري ، المالية ، النقل الداخلي ، تخفيف الضرائب على الفلاح المصري ، اضاءة الشوارع ، الخ (٥١) • ومعالجة الموضوعات التي تغطيها الدراسة مناسب ، لكن سرهنك يتوقف معاقا للأسف عند مناقشة أحداث السودان في أواخر القرن التاسع عشر (٥٢) ، وكنتيجة لذلك فانه يحذف كلية موضوعات أخرى هامة كتطور المقاومة الوطنية لبريطانيا في عهد عباس حلمي • ولقد كان سرهنك معنيا بشكل واضح - بصفته ضابطا بحريا - بانهياء الحكم المصري في السودان أكثر من اعتناؤه بسياسات الأحزاب •

يتفوق عمل اسماعيل سرهنك باشا على أعمال كل سابقه لعمق ادراكه الحسي ونفاذ بصيرته التاريخية • ولقد أشار الى هذا حديثا احد عظام مؤرخي مصر في القرن العشرين (محمد صبرى) عندما سئل عن أى من أعضاء مهنته الذى فعل أقصى امكانه لنشر المعرفة الدقيقة بماضى مصر • فحدد صبرى ، من بين آخرين ، أربعة هم - الجبرتي ، عبد الرحمن الرافعي ، شفيق غربال ، واسماعيل سرهنك (٥٣) • وفيل من المراقبين الغربيين الذين كانوا يستطيعون تقديم قائمة كهذه ، ورغم ان الأمر أعقد من أن يناقش هنا ، فانه علامة على عظمة صبرى كمؤرخ وكرجل لاختياره هؤلاء الأربعة (٥٤) •

وكما تحقق صبرى غريزيا ، فان اسم سرهنك يجب أن يبرز في قائمة كهذه لأسباب جيدة كثيرة • أولا ، لأن توثيقه أصلي وشامل (٥٥) • ثانيا ، ولأن مجال الموضوعات التي غطاها عريض بصورة استثنائية ، حيث انه على الرغم من عنوان العمل فانه يحتوى أكثر من مجرد مسائل بحرية أو عسكرية : فيقدم ثروة من المعلومات عن أغلب الميادين • بل ان سرهنك كان مدركا ، أكثر من شاروبيم - ان التاريخ لا يدور بصفة خصوصية حول السياسة وتعاقب الحكومات • وعلى ذلك فقد عالج موضوعات كالتعليم والاقتصاد المصري بعمق ، وهو لا غنى عنه كمصدر فى كل من المجالين • بل ان التاريخ الاجتماعى لقي اهتماما منه ، حيث نجد موضوعات مثل « حالة الفلاحين المصريين في عهد اسماعيل » (٥٦) •

وفى كل حالة كانت المناقشة مفاهيمية - مع تركيز مغاير تماما للتركيز الذى يتضمنه « التاريخ الزمنى البحث » .

لا تترتب أهمية مشاركة سرهنك التاريخية فيما كتب فقط ، ولكن فى كيفية كتابته أيضا . لقد أخذ الجبرتى وعلى وجه الخصوص الطهطاوى الخطوات التجريبية الأولى فى اتجاه التاريخ التحليلي ، لكن أحدا منهما لم يكن يماثل سرهنك تناغما وحرصا فى تحليله . وفوق هذا فإن تعليقات الجبرتى والطهطاوى كانت فى الأغلب تعليقات مراقب . بينما كانت أحكام سرهنك أحكام مؤرخ . لقد رأى الأحداث بعين ناقدة وأكثر ثباتا من الجبرتى . وفى مجال التنظيم ، الأسلوب ، التوازن والحكمة المفاهيمية تقدم على الطهطاوى . وبذل جهدا واعيا لاستخراج المعنى من السجل التاريخي ، حتى ولو كان نطاق عمله لا يستطيع ان يضاهي دراسات على مبارك أو أمين سامي .

وبالرغم من ابداعات سرهنك ، فإن تاريخه يجب أن يظل معتبرا جزءا من التقليد الحولى التقليدى ، وليس هذا بسبب العنوان والتوسل الافتتاحي اللذان كتب بأسلوب السجع (٥٧) . والحق انه باستثناء هذه الفقرات فإن أسلوب سرهنك مختصر ، مباشر وأكثر اناقة من النشر المبسط الذى نجده عند مبارك ، سامي ، أو حتى شاروبيم . وإلى حد ما فإن الصفات التحليلية ، التشخيصية لتاريخه ، والتي أشير إليها مرارا فى الصفحات السابقة ليست نموذجا للعمل بصفة عامة مع ذلك . فهي (الصفات التحليلية والتشخيصية) موجودة ، اذا ما فتش المرء عنها .

لاحظنا من قبل ان الخط الفاصل بين التاريخ والتاريخ الزمنى Chronicle خط دقيق فى بعض الأحيان ، وأن نوعية وجودة التواريخ الزمنية يمكن ان تتفاوت وتتراوح بين الدراسات العميقة التفكير لرجال كالمسعودي ، مسكويه وابن خلدون ، وبين الانتاج الميكانيكي الذى ساد الفترتين المملوكية والعثمانية (٥٨) . وفى التحليل الذى قمت به أكدت عامدا على مظاهر تاريخ سرهنك التى تفصله عن الكتاب السابقين - الطبيعة الخاصة للغاية لمحتوى موضوعه ، توثيقه الشامل ، عمقه التفسيري ، ادراكه لقيمة المعلومات الغير سياسية فى كتاباته ، وهكذا دواليك . هذه هى البقع الأشد اشراقا لعمله اذا جاز التعبير ، والتي تغلف فى قالب شديد التقليدية ، فعلى سبيل المثال قد نجد فقرات ممتدة تتعلق بتعاقب زمنى صرف للأحداث . وسرهنك هنا يضمها عمله دون حاجة ، فاذا رأى أى دلالة لها فانه بالقطع لا يشير إليها (٥٩) . ويتشابه ، فإن الاحصائيات الكثيرة والجداول البيانية فى (حقائق) ، التى يتجاوز المؤلف أغلبها كلية دون تعليق - تبدو وكأنها وردت فى

العمل لمجرد أنها موجودة . وهذا تكنيك ربما يكون مبارك أو سامي قد استخدمه ويطابق الى حد بعيد فلسفة التاريخ باعتباره تصنيفا أو تلك الفلسفة الخاصة بالخطط الموسوعية .

يقترب عمل سرهنك من عتبات التاريخ الحديث ، ولكنه لا يعبره . فهو يوهم بأنه يكتب تاريخا عن القوى البحرية ، لكنه مثل كتاب العصور الوسطى ينتهى بخليط من المعلومات فى كل المجالات . وتنظيم الكتاب غير تصنيفى وصعب الاستخدام للغاية ، لكن العنصر التفسيرى فى زمنه رائع ، رغم ان الكاتب ينحرف مرارا نحو التاريخ الزمنى القديم . وربما كان أفضل وصف « لحقائق الأخبار » أنه تاريخ زمنى على وشك ان ينفجر من داخله . لكنه فى هذا لم ينجح فى النهاية ، تاركا للجيل التالى من مؤرخين المصريين مهمة توجيه الضربة القاضية النهائية للتقليد الاسلامى .

حواشى الفصل السابع

- (١) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، الجزء الرابع ، ص ٢٨١ .
- (٢) توجد ترجمة وافية عن الفلكى فى الطبعة الحالية من دراسته عن الاسكندرية القديمة . انظر للفلكى « رسالة عن الاسكندرية القديمة » ، منقحة بمعرفة محمد عوض حسين (الاسكندرية : دار نشر الثقافة ، ١٩٦٦) .
- (٣) يبدو من المقدمات لأعمال بهجت :
- Fouilles d'al-Fustat (Paris, 1921).
- La Ceramique musulmane de l'Egypte (Cairo, 1930).
- انه رغم انه تكنيكيا هو مؤلف الكتابين ، الا انه كان يعمل بالفعل كمساعد بحث للخبراء الفرنسيين فى هذا المجال .
- (٤) قارن ص ١١٢ من الفصل السادس .
- (٥) لمزيد من المعلومات عن حياة وكتابات الفلكى ، على بهجت ، واحمد كمال النظر الشيال .
- "A History of Egyptian Historiography", pp. 54-65.
- (٦) الشيال
- "A History of Egyptian Historiography", p. 70.
- Haddad قارن حداد
- "Modern Arab Historians", p. 39
- (٧) محمود فهمى المهندس « البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر » (القاهرة : المطبعة الأميرية) ببولاق ٣١٢ هـ (١٨٩٤) الجزء الأول والثانى . ويمكن ان يترجم العنوان الى الانجليزية كالآتى
- "The Bottomless sea on the Events of World History".
- وترجمة العنوان على هذه الصورة لا يطابق العنوان العربى ، فقد ترجم المؤلف كلمة (البحر الزاخر) The Bottomless sea وتعنى البحر العميق الذى ليس له قرار - والكلمة الصحيحة هنا قد تكون The Replete sea البحر الزاخر .
- كذلك فان المؤلف لم يترجم سوى الشق الأول من العنوان وهو « البحر الزاخر فى تاريخ العالم » - ولم يترجم (وأخبار الأوائل والأواخر) التى قد تكون and the events of the previous and latters لتكون الترجمة الكاملة للعنوان "The Replete sea on the Events of world History, the Events of the previous and latters".

المترجم

(٨) زعم ان كل الأمم تمر بثلاث مراحل :

- ١ - النمو - الذى يتميز بالاهتمام بالشتون العسكرية وايماءات الشهامة .
 - ٢ - النضوج - عندما يتحول الانتباه الى النشاط القانونى ، العلمى ، والفنى .
 - ٣ - الانحدار - عندما يستنزف حب المادة قوة الأمة وتسبب النزاعات الداخلية تمزقها .
- « البحر الزاخر » - الجزء الأول ، ص ٣ .

(٩) الشيال "A History of Egyptian Historiography"

- (١٠) (محدث) هنا فيما يتعلق بتنظيم فهمى الموضوعاتى topical لمادة الموضوع .
فى جدول المحتويات يذهب فهمى بعيدا عن الطريق فيقول المناقشة فى مصطلحات عرفية .
لكنه ما ان يبدأ الكتابة حتى يفقد فى الحال ادراك هدفه .

(١١) Domain كلمة انجليزية تعنى الملكية التامة للأرض - ملك - مقاطعة خاضعة
لسلطان الحكومة أو الحكم . وفى مصر كان الدومين هو اراضى الخديو اسماعيل
(١٨٦٣ - ١٨٧٩) . فى عام ١٨٧٨ ونتيجة للارتباك المالى الذى أصاب البلاد تنازل
اسماعيل عن أملاك أسرته وقدرها ٤٢٥٧٢٩ فدانا للحكومة على أن تقوم الأخيرة بعمل قرض
بضمان هذه الأطنان لسداد الديون السائرة . وتشكل لإدارة أراضى الدومين قومسيون من
مصرى وانجليزى وفرنسى لتحصيل إيرادات الأراضى المذكورة لسداد الأقساط . وهكذا
تشكلت مصلحة الأراضى الأميرية لتدير (أراضى الدومين) وإجماع د . على بركات « تطور
الملكية الزراعية فى مصر (١٨١٣ - ١٩١٤) وأثره على الحركة السياسية » - دار الثقافة
الجديدة - القاهرة - ١٩٧٧ . ص ١١٥ .

المترجم

(١٢) أخذت المادة التراجعية عن جمال الدين الشيال « التاريخ والمؤرخون فى مصر
فى القرن التاسع عشر » - المكتبة التاريخية ، رقم ٣ (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ،
١٩٥٨) ص ٢١٢ . وهذا هو النسخة العربية الأصلية لكتاب الشيال "A History of
Egyptian Historiography in the Nineteenth Century" وبالنسخة تفصيلات
أكثر من النسخة الانجليزية . (وربما توجد مصادر قبطية من حياة شاروبيم ، لكننى
لم أستطع أن أحدها) .

(١٣) « التوليد فى مذهب أهل التوحيد » لحمزة بن على ، وزير الخليفة الفاطمى ،
الحكيم . المصدر نفسه .

(١٤) يبدو أن مجلدا خامسا كان مخططا له لكنه ظل فى شكل مسودة . المصدر نفسه .

(١٥) يوحى التجنب التام للسجع الى جانب التماثل فى العنوان بين شاروبيم وابن
الانير . ان شاروبيم قد صاغ عمله على نسق (الكامل فى التاريخ) .

(١٦) انظر على سبيل المثال دراسته بين محمد على ومحمد بك الألفى .

ميخائيل شاروبيم « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » (بولاق : المطبعة الكبرى
الأميرية ، ١٨٩٨) الجزء الثالث ، ص ٣٠٤ - ٩ .

والمعالجة تذكر بالجبروتى وربما تكون قد استعيرت منه .

- (١٧) المصدر نفسه ، ص ٢١٣ .
- (١٨) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٤٩ .
- (١٩) المصدر نفسه ، ص ٥ ، ٣٨ - ٤٨ .
- (٢٠) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ٣٠٣ .
- (٢١) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٤١ .
- (٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٩٦ ومواضع أخرى .
- (٢٣) الاجراء منطقي تماما حتى يتقاييس هذه الايام .
- (٢٤) دون عاطفة ظاهرة يحكى شاروويم انه في أعقاب انتهاء الانتداب الذي كان مداه أربعة وعشرون ساعة ، قصف الأسطول البريطاني الاسكندرية ، مدمرا ركنا من (البرج الكبير) والكثير من التحصينات الأخرى . ثم أعطى سكان المدينة أمانا ، ودخل البريطانيون (المدينة) . ناقش حاكم المدينة العثماني أمين أغا اتفاقية مع البريطانيين مؤسسة على الشروط الآتية :
- ١ - إيواء القوات البريطانية في مساكن الأهالي بشرط رضا الآخرين وتعويض المالك .
 - ٢ - احترام الشريعة وممتلكات المساجد ، مع عدم التداخل في العبادة .
 - ٣ - سفر المسافرين المحليين على السفن البريطانية إلى أي مكان عدا الامبراطورية العثمانية .
 - ٤ - عدم تقرير ضرائب جديدة باستثناء ٢٪ كضريبة جمارك على البضائع المارة عبر الميناء .
- « الكافي في التاريخ » ، الجزء الرابع ، ص ١٦ - ١٧ . قارن عبد الرحمن الرافعي « عصر محمد علي » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١) ، ص ٥١ - ٥٢ ، حيث توصف أعمال أمين أغا بأنها « جالبة للعار وجبانة » .
- (٢٥) « الكافي في التاريخ » ، الجزء الرابع ، ص ٢٧٣ - ٧٤ .
- (٢٦) المصدر نفسه ، ص ٩٣ - ٩٤ ، ص ١١١ - ١٢ ، ٤٥٨ .
- (٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ وما بعدها ، ٣٧٨ - ٤٢٣ .
- (٢٨) يستشهد حرفيا أحيانا بالمصادر الرسمية ، كخطاب من القنصل - جنرال الفرنسي الى ابراهيم باشا (غير المؤرخ) أو فرمان عثمانى . المصدر نفسه ، ص ٥٣ ، ٨٧ . ومع هذا ففي أحوال كثيرة تكون مصادره غير معلومة . وحكايته عن الاحتلال الفرنسي (الجزء الثالث ، ص ٢١٣ وما بعدها) تبدو وقد أخذت مباشرة من الجبرقي ، الذي ذكر في صفحات ٣٠٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ و ٣١٠ .
- ويستخدم شاروويم سجلات المحكمة الشرعية في رشيد للتفاصيل الخاصة بزواج جاك مينو Jacques Menou . المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ٢٦٦ . ووفقا لفردي Verdercy فان شاروويم يعتمد بشكل على الجبرقي فيما يتعلق بمصر محمد علي أيضا .
- Verdercy
فردي
"Al-Jabarti," p. 132.

ومع هذا فان ذلك يمكن ان يكون صحيحا فيما يتعلق بالسنوات المبكرة من حكم محمد علي . وحتى في ذلك الوقت فان شاروييم أكثر تحليلا وتفسيرا من الجبرتي .

(٢٩) الشيال « التاريخ والمؤرخون » ص ١٢٤ - ٢٥ .

(٣٠) هكذا تكون مساوية التأثير الفكرى الأجنبى . فمع بداية القرن العشرين كان التقليد التاريخى الوسيط قد أصبح ميتا عمليا ، ونتيجة لذلك ، لم يكن هناك « أدب طبقات » عن رجال أمثال سرهنك ووالده .

(٣١) الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٢٥ - ٢٩ . وكلمة Marines (الأسطول) هي أفضل ترجمة هنا فيما اعتقد .

وتقرر (المصائد) العربية ان سرهنك قد عين (مأمورا للبطارية) في (قرويت الصاعقة) ، حيث علم الموضوعات المشار اليها .

ويفترض ان (قرويت) هي التحريف العربى للكلمة الفرنسية Corvette (٣٢) ترجمتى « حقائق الأخبار عن دول البحار » . وهذه آخر مرة سيظهر فيها السجع في عنوان عمل تاريخى مصرى .

(٣٣) تلقت البلاد العربية والامبراطورية العثمانية ثلاثمائة صفحة لكل ، بينما كان للغرب نصف ذلك العدد .

(٣٤) اسماعيل سرهنك باشا « حقائق الأخبار عن دول البحار » (القاهرة : المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٣١٢ هـ) المجلد الأول ، ص ٣ .

(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، دون صفحة .

(٣٧) الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٣٨ . وقصة تعديل حروف مطبعة بولاق واهية ، لكنى لم أستطع اكتشاف الطبيعة الحقيقية لمناعب سرهنك التى ربما كانت سياسية أساسا ، حيث ان المجلد الثالث طبع فى النهاية بصورة شخصية .

(٣٨) « حقائق الأخبار » ، المجلد الثانى ، ص ٢٥٣ - ٥٥ . قارن الشيال « التاريخ والمؤرخون » ص ١٣٥ - ٣٧ .

(٣٩) « حقائق الأخبار » المجلد الثانى ، ص ٢٠٩ ، ٤٩٩ - ٥٥ ومواضع أخرى .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ - ٧٥ ، والشيال « التاريخ والمؤرخون » ص ١٣٢ - ٣٤ .

(٤١) يعلق الشيال باتزان هنا فى هذا الخصوص ، بأن شكل الكتابة التاريخية الذى قدمه مبارك وسرهنك كان نتيجة لتعليمهما التقنى والعسكرى .

الشيال ، « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٣٩ .

(٤٢) « حقائق الأخبار » ، المجلد الأول ، ص ٢ .

(٤٣) المصدر نفسه ، المجلد الثانى ، ص ٢٠٩ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ - ٥٧ .

(٤٥) تؤيد الكثير من الروايات المصرية - السودالية الحالية فكرة « الحدود الطبيعية » لمصر وما يسمى « بوحدة وادى النيل » . وحتى عقدين مضيا ، كان أغلب المصريين يجدون صعوبة فى تخيل سودان مستقل ، وحتى الآن فان « مشروعات اعادة التوحيد » دائمة باستمرار

- (٤٦) « حقائق الأخبار » ، المجلد الثاني ، ص ٢٣٢ .
- (٤٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤ .
- (٤٨) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ .
- (٤٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ - ٥٥ .
- (٥٠) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ - ٩٠ .
- (٥١) المصدر نفسه ، ص ٣٨٢ - ٨٨ ، ٤١٨ - ٢٦ ، ٤٣٨ .
- (٥٢) المصدر نفسه ، ص ٥٣٧ - ٥٥ .
- (٥٣) دون مؤلف « البحث عن تراثنا : حديث مع الدكتور محمد صبرى » ، الكاتب ، رقم ٩ (١٩٦١) ، ص ٨٤ .
- (٥٤) فمثلا ، يتضمن صبرى اسم غربال رغم أن الاثنين كانا فى وقت ما متناحسين بمرارة ولم يتفقا على شيء .
- (٥٥) كان سرهنك يتحدث العربية ، التركية ، الانجليزية ، الفرنسية بطلاقة .
- الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٣١ .
- (٥٦) « حقائق الأخبار » ، المجلد الثاني ، ص ٣٥٥ - ٥٦ . تتضمن نماذج أخرى مناقشته لثورة البدو فى الفيوم (١٨٥٤) وثورة أحمد الطياب فى بداية عهد اسماعيل .
- المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ ، ٢٨١ .
- (٥٧) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢ .
- (٥٨) انظر ص ١٤ من الفصل الأول ، ٣١ من الفصل الثانى .
- (٥٩) انظر على سبيل المثال مناقشته للتاريخ السودانى ، التى هى خليط مدهش من التاريخ والتاريخ الزمنى Chronicle
- « حقائق الأخبار » ، المجلد الثاني ، ص ٤٦٢ - ٩٨ .

المؤرخون القوميون : ١ - مصطفى كامل

حتى هذه النقطة كان تأثير القومية على التاريخ المصرى قد ظهر بالكاد الى دائرة الضوء . وتواجد نوع من الزهو الوطنى الغامض الغير محدد فى كتابات أغلب المؤرخين الذين درسناهم ، وربما كان الطهطاوى أقربهم الى اعطاء هذا الشعور تعبيرا صلبا . لكن الشعور القومى المصرى لم يتطور الى حد بداية شعور الكتاب غريزيا بولاء نحو وطنهم المصرى الا فى أواخر القرن التاسع عشر . ثم تنافس هذا الولاء الجديد للهيمنة مع الأحاسيس بالتضامن الاسلامى الأقدم ، مثلما تصادم فيما بعد - من موقف القوة هذه المرة وليس الضعف - مع فكرة الوحدة العربية . ولم يكن انتصار القومية سريعا أو سهلا ، وحتى الوقت الذى انتصرت فيه على الولاء الدينى واجه المؤرخ المصرى كباقي بنى وطنه الورطة النفسية المتمثلة فى محاولة تقرير ما اذا كانت نفسه المسلمة أم نفسه المصرية هى المكون الأساسى لشخصيته . كانت أزمة للشخصية سنراها مجسدة بوضوح فى كتابات رجال أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد .

كان الحد الفاصل فى تقدم القومية المصرية هو « ثورة عرابى » التى عملت كملهم للكتاب القوميين من وقت عرابى وحتى وقتنا هذا . وأفرخت الثورة نفسها عددا من الكتاب الوطنيين المتحمسين ، بما فى ذلك عرابى نفسه . ومع هذا فإن روايته الخاصة عن الفترة فقدت ولم تسترد الا فى العقد الثانى من هذا القرن عندما عثر على النسخة الوحيدة الموجودة فى المكتبة الخاصة بمحمد آصف (١) .

كان عبد الله النديم أكثر أهمية من عرابى كمتحدث وكاتب . كان النديم متحدثا بارزا باسم الحزب العرابى خلال الثورة ، وفيما بعد كان له تأثير رئيسى على أفكار مصطفى كامل ، طبقا لرواية جورجى زيدان (٢) . لذلك فإن له بعض الأهمية فيما يتعلق بدراستنا لمصطفى كامل علاوة على كونه شخصية قيادية من حيث حقه فى تكوين التاريخ القومى .

ولد النديم عام ١٨٤٥ فى أسرة متوسطة ، واشتغل لفترة من الوقت كنجار سفن وخباز قبل أن يرسله والده الى مسجد ابراهيم باشا لدراسة العلوم الدينية . وأورى شغفا قويا بالأدب أكثر من الدين لكنه تعلم التلغراف ليضمن عيشه . وخلال سبعينيات القرن التاسع عشر سافر بين القاهرة وبدواى (فى محافظة الدقهلية) والمنصورة واشتهر عنه الصراحة فى نقده للأوضاع القائمة . وكنتيجة لذلك فانه فصل مرتين من مناصب مؤثرة . فى ١٨٧٩ قرر أن يذهب الى الاسكندرية حيث بدأت حياته ككاتب (٣)

فى الاسكندرية انضم النديم الى (مصر الفتاة) ، وهى منظمة سرية شجعت الاصلاحات من كل نوع . وأصبح نشطا أيضا كصحفى يكتب مقالات (لأديب اسحق) فى جريدتيه (مصر) و (التجارة) . وفجأة ترك مصر الفتاة مفضلا أن يقيم تنظيمه الخاص (الجمعية الخيرية الاسلامية) (٤) . وبدأ النديم يكتسب شهرة ككاتب ومعلم وخطيب .

فى ١٨٨١ هجر النديم الجمعية الخيرية الاسلامية لينشئ (التنكيت والتبكيث) التى ظهر العدد الأول منها فى السادس من نوفمبر . وكانت نغمة الصحيفة خليطا من القومية الملتهبة والهجاء والتحريض ، وسرعان ما أجبرت على التوقف . عند هذه النقطة قرر النديم أن ينضم كلية الى القوى العرابية . فأتجه الى القاهرة ليبدأ فى نشر صحيفة جديدة (الطائف) الاسلامية المتحمسة المناصرة للعرابين ، التى سرعان ما اكتسبت توزيعا كبيرا فى البلاد . فى ذلك الوقت كان عرابى قد وصل الى ذروة شعبيته السياسية (فى أعقاب استقالة شريف باشا وتشكيل الحكومة الجديدة برئاسة البارودى) ، وأصبح النديم زعيم « حزب » مصر السياسى الأول الذى سمي بحق (الحزب الوطنى) (٥) .

كان النديم مخلصا بشدة لعرابى وظل الى جانبه خلال معركة كفر الدوار ، مستمرا فى نشر (الطائف) كل الوقت منذ الحلول العسكرى ، وتشير الأدلة الحالية الى انه استمر مع عرابى حتى النهاية المريرة وشارك فى جهود خندق خط الدفاع الأخيرة بعد كارثة التل الكبير (٦) ، ومع ذلك ، فعندما استسلم عرابى شرع النديم فى الهرب . جعلت حكومة الاحتلال مبلغ ألف جنيه مكافأة لمن يأتى به حيا أو ميتا ، واضطر النديم الى أن يقضى السنوات التسع التالية متنكرا ، ومسافرا من قرية الى أخرى ، وخلال هذه الفترة كتب النديم (كان ويكون) التى وصفها بأنها خلاصة دينية ، لغوية ، قومية ، سياسية ، جنسية ، أدبية ، وتاريخية . ورغم أن الخديو وجد من الأنسب أن يعفو عنه لدى القبض عليه فى نوفمبر ١٨٩١ إلا أنه نفى الى يافا وبعد فترة قصيرة سُمح له عباس

حلمى بالعودة الى مصر ، وهنا التقى بالشاب مصطفى كامل وأصبح ناصحا له لفترة . وفى ١٨٩٢ عاد النديم مرة أخرى لاستعراض نزغته الأدبية بصحيفته « الأستاذ » التى فاق توزيعها كل توزيع الصحف اليومية والأسبوعية المعاصرة . ومع هذا فنظرا لنقده الحاد للحكومة فقد نفى للمرة الثانية . وعاد الى يافا لكنه استقر فيما بعد فى استانبول حيث أصبح مفتش المطبوعات عند السلطان عبد الحميد الثانى براتب قدره ٤٥ جنيها فى الشهر . وتوفى عام ١٨٩٦ (٧) .

أن يكون عبد الله النديم واحدا من أكثر القوميين الذين أنجبهم مصر غيره (٨) فهذا واضح فى كل شئ كتب ، سواء أكان ذا طبيعة تاريخية أم لا (٩) . فهو لم يقدم تاريخا حقيقيا لمصر لكنه كتب مقالات عديدة عن الموضوع وكان له تأثير قوى على الأجيال التالية . كما كان رائدا من الأوائل فى مجال اصلاح اللغة ، مجربا فى مواضع عديدة من مجال سيرته الأدبية ما لا يقل عن ثلاثة أساليب :

١ - العربية الأدبية « البحتة » مع أسلوب « البديع » التقليدى .

٢ - أسلوب بسيط لين استخدمه فى مقالات صحيفته ووجهه لجمهوره المتعلم .

٣ - ضرب من شبه العامية ملائم للقارئ العام لصحيفة (التنكيت والتبكيت) (١٠) .

وسواء فى الأسلوب أو الأفكار فقد ترك النديم بصماته على الكتاب التالين وخاصة أولئك الذين ينتمون للمدرسة القومية (١١) .

من الصعب المبالغة فى تأثير « الفترة » العرابية على الدوائر الفكرية المصرية . فحتى الرجال الذين لم يشاركوا فى الثورة كانوا مع هذا متأثرين بعمق بأحداث هذه السنوات الأربعة ، ويمكن للثورة أن تعد محمود فهمى وسليم النقاش من بين نتاجها المباشر ، وليس فقط عرابى والنديم (١٢) . ومع هذا فإن نشاط كل هؤلاء الرجال قد أوقف سريعا بحلول الاحتلال ، وأجبرت الحركة القومية الجينية على أن تنكمش لفترة عقد بعد ذلك . وتوزع زعماء مصر القوميون بين سجين ومنفى . وتعلم الخديو توفيق من التجربة أن يخشى الحركات الشعبية أكثر من الانتهاكات البريطانية لسلطته . وصمم اللورد كرومر على مقاومة أى عودة الى الأوضاع التى استلزمت التدخل البريطانى فى المقام الأول . وهكذا فإن الحركة القومية المصرية لم تبدأ فى الحصول على قوة الدفع من جديد الا بعد تولى الحاكم الجديد عباس حلمى الثانى السلطة فى عام ١٨٩٢ . وجد كرومر

عباسا أكثر صلابة من توفيق ، وسرعان ما فسدت العلاقات بين الرجلين . لكن ما كان أكثر تهديدا من عباس هو الانطلاق الشهابي لمصطفى كامل الذى زود شعلة القومية بهواء الحماس وهز دعائم الحكم البريطانى فى مصر .

ولد مصطفى كامل فى القاهرة عام ١٨٤٧ ، وكان والده على محمد مهندسا ضابطا ، ومنحته هذه الوظيفة وضعاً اجتماعيا مكنه من الحاق ابنه بالمدرسة الخديوية الثانوية (١٨٨٧) . وهناك التقى مصطفى كامل بعلى مبارك لأول مرة ، وانبهر الأخير بفصاحة الأول وتنبأ له بشهرة قومية يوما ما .

أكمل مصطفى دراسته الثانوية عام ١٨٩١ وأعقبها بدراسة القانون . وتعرف ببعض قادة الفكر المصريين أمثال الشاعر على الليثى واسماعيل صبرى ، وفى عام ١٨٩٢ قدمه خليل مطران الى بشارة تكلا محرر «الأهرام» الشهيرة ، الذى فتح له أبواب أعمدة صحيفته ، وبدأ مصطفى كامل يكتب مقالات عن المطامح القومية المصرية . خلال النهار كان مصطفى كامل يتلقى دروسه فى مدرسة الحقوق المصرية ، لكن أهمية اللغة الفرنسية وحدها فى ذلك الوقت للمحامى المصرى دفعته الى الالتحاق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى المساء . وجاء لقائه الأول بعباس حلمى الثانى فى نوفمبر ١٨٩٢ عندما زار الحاكم الجديد مدرسة الحقوق . فقد اختير مصطفى ليلقى قصيدة كتبها فى مدح الخديو (١٣) :

كان كرومر وعباس قد اصطدما فى ذلك الوقت حول عدد من الموضوعات ، وأدت « اهانة » كرومر له الى قيام طلبة مدرسة الحقوق المصرية بمظاهرة فى يناير ١٨٩٣ كان مصطفى كامل أحد المشاركين فيها ، وظهرت فى ذلك الوقت مجلته الشهرية (المدرسة) حاملة مقالات عن عدد وافر من الموضوعات تحت شعار (حبك مدرستك ، حبك أهلك ووطنك) (١٤) . فى ذلك الوقت كان لمصطفى أصدقاء من المشاهير أصحاب النفوذ بما فى ذلك عبد الله النديم الذى كان الخديو قد عفا عنه مؤخرا واستقر فى مصر . خلال الفترة من أغسطس ١٨٩٢ - يونيو ١٨٩٣ كان النديم ينشر (الأستاذ) التى كانت تزخر بالهجاء اللاذع ضد البريطانيين . وكان مصطفى كامل يجلس مرارا عند قدمى الرجل الكبير يتعلم منه كل ما يستطيع عن الماضى ونشاطاته القومية . ويحتمل أن يكون النديم قد نصحه ألا يرتكب نفس الأخطاء التى ارتكبها هو ، كالاتماد على وجه القصر على الجشع بدلا من رأى العام ، ومعارضة الحاكم ودوائر البلاط (١٥) . اذا كان النديم قد نصحه بذلك فعلا ، فإن النصيحة لم تذهب سدى ، ففي السنوات التالية أسس الحزب الوطنى استراتيجيته على مثل هذه السياسة .

فى يونيو ١٨٩٤ بدأ مصطفى اول ما أصبح سلسلة رحلاته المتكررة الى أوروبا (١٦) . كانت هذه الرحلات لأغراض الدراسة فى البداية (١٧) . لكن مع انغماسه فى السياسة شيئا فشيئا تطورت الرحلات الى أوروبا (وخاصة الى فرنسا) الى مجهودات لأقناع القوى الأوروبية بحق مصر فى الاستقلال . ففى يونيو ١٨٩٥ على سبيل المثال سمح له بأن يلقى كلمة فى مجلس النواب Chambre des députés وفى نفس العام كتب رسالة قصيرة بالفرنسية عن (أخطار الاحتلال البريطانى) . ونشر مقالة فى الصحافة النمساوية عن نفس الموضوع ، وحاضر فى الجمعية الجغرافية الفرنسية . فى ١٨٩٦ كتب ثلاث خطابات مفتسوحة الى جلادستون Gladstone ، حاثا اياه على منح مصر الاستقلال . واتصل بأى شخص وبكل شخص كان مستعدا للاستماع اليه ، وحتى موته عام ١٩٠٨ استمر فى محاولة إيقاظ الحماس فى أوروبا لصالح القضية المصرية . ومع هذا ، فمع مرور السنين وجد مصطفى كامل انه كان يقابل بانخفاض مضطرد فى الاهتمام بهذه القضية أينما ذهب (١٨) .

بدأ مصطفى كامل تاريخه السياسى بمزايا هامة عديدة ليس أقلها رعاية الخديو عباس حلمى الثانى . ولقد كانت طبيعة العلاقة بين الرجلين غير واضحة لفترة طويلة ، ولم يفعل كاتب سيرة مصطفى كامل ، عبد الرحمن الرافعى خلال تليفه على حفظ ذكرى زعيم حزبه من أى انكشافات تعرضها للشبهة - لم يفعل شيئا لتبديد هذا الغموض . ولقد تشكك رشيد رضا وأحمد شفيق فى وقت مبكر فى حقيقة العلاقة بين مصطفى كامل وعباس وذكر أنها كانت غامضة بعمق (١٩) ، واعتبر العقاد الذى لم يكن مراقبا محايدا بالضبط ، مصطفى كامل واحدا (من سماسة الرتب والنياشين) (٢٠) . وأكدت دراسات أخرى حديثة هذه الشكوك المبكرة ، وجعلت من مسألة تمويل نشاطات مصطفى كامل من جانب البلاط الخديوى محتملة لدرجة كبيرة ان لم تكن مؤكدة (٢١) .

عمل مصطفى كامل متحدا مع عباس لمدة عقد بعد لقائهما الاول ، ثم بدأت العلاقة تفتر بعد ذلك لأسباب متعددة ، ويحتمل أن يكون توقيع الوفاق الودى الأنجلو - فرنسى عام ١٩٠٤ واحدا من عناصر تغير العلاقة بين الرجلين ، حيث أصبح من غير المجدى لعباس أن يحاول استخدام مصطفى كامل كاسفين بين بريطانيا العظمى وفرنسا (٢٢) . كذلك فإن الخديو قرر فى ذلك الوقت أن يقترب أكثر من الشيخ على يوسف محرر صحيفة (المؤيد) المنافسة لصحيفة (اللواء) . ففى ١٩٠٤ عقد الشيخ قرانه على كريمة الشيخ السادات مما أوجد قدرا كبيرا من السخط عند الشعب المصرى . ودافع عباس علنا عن هذه الزيجة الأمر الذى استفز مصطفى كامل فتشر خطابا غاضبا كره فعل فى الأهرام (٢٣) . وباتخاذ

جانب على يوسف فى القضية ، فان الخديوى كان يبلغ رسالة فى الواقع
تقييد استعداده للابتعاد عن محسوبة ، كذلك فان خيلاء مصطفى كامل حثته
على أن يكون هو وليس عباس ، البادى بالضربة . فى نفس الوقت كان
عباسا ينقل فيما يبدو دعايته فى الخارج من مصطفى كامل الى الصحفي
المعروف وعضو الزمرة الامبريالية فى البرلمان الفرنسى ديلونكل deloncle
وأصبح هو بدلا من مصطفى كامل مسئولاً عن تمثيل المصالح المصرية فى
فرنسا (٢٤) .

وجد مصطفى كامل نفسه الآن - ولكل هذه الأسباب معزولا بعض
الشيء . كان البئر الخديوى ينضب ، ولم يعد يعتمد على الفرنسيين فى
معارضة الوجود البريطانى فى مصر . وكان على الرجل أن يبحث عن
المساندة فى مكان آخر ، وتبعاً لذلك فانه حول اهتمامه خلال سنواته
الآخيرة الى ألمانيا وروسيا (٢٥) . وأصبح أكثر نشاطا فى الجبهة الداخلية
أيضا ، وافتتح نادى المدارس العليا عام ١٩٠٥ ودعم مشروع انشاء جامعة
أهلية (٢٦) . ومع اختفاء كفيلىه الآن (الخديو وفرنسا) فان مصطفى
كامل لجأ الى توسيع قاعدته الشعبية عن طريق حث الناس على ابداء مقاومة
أعظم للحكم البريطانى وبالتحرك بفعالية لصالح الحركة الدستورية (٢٧) .
وقاد مصطفى كامل المقاومة المصرية لاجراءات (دوجلاس دنلوب)
Douglas Dunlop الخشنة فى مجال التعليم (كان مستشارا لنظارة
المعارف) وعبر عن العار والغضب الذى أنتجته حادثة دنشواى (١٣ يونيو
١٩٠٦) (٢٨) . فى ١٩٠٧ بدأت الطبقات الفرنسية والانجليزية من
جريدة اللواء فى الظهور ، وتشكل الحزب الوطنى تحت ادارته . وجعلت
الخطبة المهيبة التى ألقاها فى الاسكندرية فى الثانى والعشرين من أكتوبر
١٩٠٧ من اسمه نموذجا للباشا والفلاح على السواء ، لكن وفاته فى فبراير
١٩٠٨ قطعت نشاطه المتألق وهو فى أوج مجده (٢٩) .

أكد عبد الرحمن الرافعى تابع مصطفى كامل وكاتب سيرته فى تاريخه
عن مصر الحديثة ان البند الرئيسى من سياسة الحزب الوطنى من عهد
مصطفى كامل وحتى ثورة ١٩٥٢ كان الجلاء الناجز وغير المشروط للقوات
البريطانية والموظفين البريطانيين فى الحكومة المصرية . وكانت محاولات
كامل وخليفته المتكررة والمتصلة فى هذا المقام - على الأقل فى البداية -
هى السبب الرئيسى للشعبية الهائلة التى حازها الحزب . كان مبدأ الجلاء
مبدءا بسيطا ، سهل الفهم وسهل القبول . ولكنه كهدف كان سلبيا ،
مصمما للتخلص من شيء ما بدلا من بناءه ، وعادة ما تكون الأهداف السلبية
هى أسهل الأهداف التى يتفق عليها . كانت مشكلة مصطفى كامل تكمن
فى محاولته تشكيل ما قصد أن يستبدل البريطانيين به . حوالى ١٩٠٦
كان الكثير من المصريين البارزين قد بدأوا يشعرون بان مصطفى كامل

والحزب الوطنى يبدون نوعا من التساهل تجاه اتوقراطية الخديوى الى جانب تلهفهما على اقامة صلة اسلامية عامة دينية سياسية مع الامبراطورية العثمانية . وفى مواجهة هذه المخاوف قام حزب الأمة على يد أحمد لطفى السيد . تبع (لطفى) مثل (كامل) الحركة الدستورية ، مركزا أكثر من مصطفى كامل على الحاجة الماسة الى الاصلاح السياسى والاجتماعى الداخلى ، واختلف لطفى السيد جذريا مع مصطفى كامل عندما عارض أى شكل من أشكال الارتباط العاطفى أو غيره مع الامبراطورية العثمانية . وخلال الحرب الإيطالية التركية عام ١٩١١ حث لطفى السيد المصريين على ألا يعيروا دعوة الحزب الوطنى للتبرع للقضية التركية أى اهتمام . كما كان مستغربا صريحا أكثر من مصطفى كامل فجذب الى حزبه وأعمدة جريدته (الجريدة) رجلا من نفس اتجاهه مثل طه حسين وقاسم أمين . وبينما كانت (اللواء) و (المؤيد) تهاجمان أفكار قاسم أمين ، فإن (الجريدة) كانت تدافع عنها (٣٠) .

وقف مصطفى كامل وحزبه من تحرير المرأة وارتداء النقاب . الخ موقفا محافظا ، يقارب الى حد ما الخط الدينى السائد من معارضة (البدع) الغربية من هذا النوع . وربما كان موقف كامل لا يخرج عن كونه موقفا سياسيا نفعا ، حيث ان مناصرة أفكار أمين القائلة بالمساواة بين الجنسين كانت تؤدى الى فقدان شعبيته عند الجماهير (٣١) . وربما كانت المعارضة التى تلت للحزب الوطنى لكتاب الشيخ على عبد الرازق (الاسلام وأصول الحكم) ، ربما كانت أيضا خدعة (٣٢) ، تماثل جهود مصطفى كامل ومحمد فريد الدؤوبية لتعزيز العلاقات الودية بين مصر والامبراطورية العثمانية التى ربما كانت لمجرد اقامة جبهة متحدة ضد البريطانيين . اننا هنا أمام مشكلة معقدة ، يمكن التأكيد فى كل مرحلة منها ان ما قاله مصطفى كامل مرارا - سواء فى السر أو فى العلن - لم يكن يؤمن به حقيقة وانما كان تكتيكا سياسيا ويؤمل أن تلقى كتاباته السياسية بعض الضوء على هذا الموضوع ، لكن بعض الملاحظات الأولية على اتجاهه العام تجاه الجامعة الاسلامية ، والامبراطورية العثمانية قد تكون مساعدة قبل الخوض فى كتاباته .

لقد نوقش هذا الموضوع مرارا ومرارا دون الوصول الى نتيجة حقيقية . ولعل أكثر التحليلات تفصيلا لفكر مصطفى كامل الدينى والسياسى هى مقالة شتبيات Steppat

“Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil.”

فى هذه المقالة يقدم شتبيات Steppat كما وافرا من الأدلة على أن مصطفى كامل كان يحن بالفضل شكلا من التعاون السياسى بين مصر والامبراطورية العثمانية . فقد كان أولا وقبل كل شيء ، عدوا لدودا

للمهاجرين السوريين الى مصر (مثل فارس نمر ، يعقوب صروف وشاهين
مكارىوس الذين انشأوا صحيفة المقطم عام ١٨٨٩) ، وأشجار اليهم
(كدخلاء) . وكان هؤلاء بالطبع أكثر الرجال الذين كانوا يدعون الى قطع
كل الروابط مع تركيا ، كذلك فقد تكلم مصطفى كامل مرارا عن « التعصب
المسيحي » وحمل « خاصة بعد ١٩٠٤ ، الاحساس بأن الأوروبيين ينظرون
الى الشرقيين باعتبارهم أدنى مرتبة منهم (٣٣) . وخلال رحلاته الكثيرة الى
أوروبا لاحظ أنه رغم « الوضع التقسيمي » والعالي الذي أحب الأوروبيون
أن يقيموه ، فإن الدين كان ما يزال أساسيا في مناهج مدارسهم مثلما كان
في مصر وفي العالم الاسلامي (٣٤) . ولا بد أن روح التسامح التي كان
يقال انها سائدة هناك قد بذت لمصطفى كامل وهما بعدما شاهد بنفسه
بعض المظاهر القبيحة لقضية دريفوس Dreyfus (٣٥) ، وأخيرا فإن
مصطفى كامل كان يعرف نفسه (كمصري عثماني) وهو ما شرحه على أنه
لم يكن جنسية مزدوجة ولكن ولاء وحيد ، حيث ان مصر عمليا كانت تابعة
للامبراطورية العثمانية (٣٦) .

ورغم هذه الأدلة المؤثرة ، فإن شتبيات Steppat لا يخلص الى أن
كامل قد استحسن شكلا من الفدرالية بين مصر والباب العالي . وبدلا من
ذلك ، فإنه يقرر أن اصرار كامل على وضع مصر كجزء من الأملاك العثمانية
كان نقطة ارتكاز Point d'appui قانونية أمام القوى الأوروبية . فقد
كان يرى انه اذا نفذت أحكام معاهدة لندن (١٨٤٠) وفرمانى (١٨٤١)
ومعاهدة باريس (١٨٥٦) ومعاهدة برلين (١٨٧٨) فإنها ستوفر الحكم
الذاتى لمصر فى إطار الامبراطورية - وهى فكرة مقبولة الى حد ما من حيث
انها تعنى نهاية الاحتلال البريطانى . بل ان وضع مصر القانونى لم يتغير
بعد ١٨٨٢ ، ولذلك فإن كامل شعر بأن لديه أسبابا جيدة للتمسك بأن
البريطانيين كانوا مرتكبين لجريمة Flagrante delicto انتهاك أحكام
القانون الدولى . ووفقا لشتبيات Steppat فإن كامل كان يرى ان
للخليفة نفوذ (معنوى) لا أكثر ، ساعد على ربط المسلمين الى بعضهم
البعض فى النضال المشترك ضد الامبريالية الغربية . كذلك فقد فهم كامل
أن المسيحية والاسلام قد استغلتا من جانب السياسيين عديمى الضمير
لأغراض غير دينية ، ومع هذا فإن شتبيات Steppat لم يعتبر كامل
ساخر دينى من السلوك البشرى الذى تهيمن عليه المصالح الذاتية Cynic .
لقد كان الاسلام عند كامل نفوذا ثقافيا أساسيا وهاما يؤكد المعارضة
الشرقية - الغربية مع الانقسام المسلم - المسيحي . وبينما كان أتباع
محمد عبده على سبيل المثال معنيون بالاصلاح الدينى فى حد ذاته ، فإن
أتباع كامل ربطوا الاسلام دائما بالنضال الوطنى ، الذى كان عندهم هو
الاهتمام الأعظم . وينتهى شتبيات Steppat بقوله ان مصطفى كامل
كان « قوميا مسلما » أكثر من كونه « مسلم قومى » . فهو لم يكن معنى

بإقامة حكومة دينية برئاسة الخليفة ولكنه كان يرى « الأمة » هي الهدف النهائي للإنسانية • ومن خلال خدمة الأمة فقط يحصل المرء على الحق في الوجود (٣٧) •

وعلى ذلك ففي وجهة نظر شتبيات Steppat كان موقف التجمع الإسلامي المدعى به عند مصطفى كامل نتيجة لزواج لأسباب عملية Marriage de Covenance • فكل من مصر والامبراطورية العثمانية كانتا في حرب في وقت واحد ضد الانتهاكات الأوروبية لسيادتهما ، ومن ثم فقد كان منطقيا أن تكون دعواهما مشتركة • كانت مساندة مصطفى كامل للعثمانيين لا تخرج عن كونها ذريعة ضرورية ، تماما مثلما كان التعاون الأنجلو - أمريكي مع الاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية عملا مكروها وفاترا تعوزه الحماسة ، ناشئ بسبب الهدف المشترك لمقاومة قوى المحور فحسب (٣٨) •

تجمع تحليلات شتبيات Steppat بين كونها مقنعة وكونها جديرة بعالم ، ومع هذا فإنها اذا لم تكن ترضى تماما ، فإن هذا بسبب ما يستوجبه الأمر من طرحنا جانبا للكثير من الذي قاله مصطفى كامل وفعله كمجرد استراتيجية • واذا كان مصطفى كامل لم يعن دائما ما قال حقا ، فإنه لا يقل حقيقة عن هذا ان كثيرا من المراقبين ذوي العقول قد أخذوا بما قال • فسلامة موسى على سبيل المثال يقرر صراحة أن مصطفى كامل نادى بالاستقلال عن بريطانيا فقط وليس عن الامبراطورية العثمانية - وهو خطأ بالاعمال قد يغفره له البعض بالقول بأن الأمر لم يكن أكثر من « تكتيك وقتي » ، (٣٩) •

ويلفت العقاد الانتباه الى حقيقة ان مصطفى كامل لم يفرق بين جنسية مصرية وجنسية عثمانية • وعلق أهمية كبرى على الرتبة العثمانية الى حد أنه في اليوم الذي منح فيه لقب باشا رفض أن يطبع (اللواء) حتى يتم تصفيف حروف المطبعة لتحتوي الجريدة لقبه الجديد (٤٠) • وعنف مصطفى كامل العربيين في كتاباته لاعتبارهم الأتراك والجراكسة « أجانب » ، وطبقا له فإنهم كانوا مصريين كعربى نفسه (٤١) • وأقام احتفالات سنوية على شرف (المتبوع الأعظم) عبد الحميد الثاني ، مؤكدا هكذا الولاء المصري للامبراطورية العثمانية • كان البند الأول من برنامج الحزب الوطني هو استقلال مصر وفقا لشروط معاهدة لندن (١٨٤٠) ، أي السيادة الداخلية في مواجهة تركيا على وجه التحديد ، واقترح المند العاشر « تقوية الروابط بين مصر والامبراطورية العثمانية » • ولقد حارب مصطفى كامل معارك مطولة ضد لطفى السيد الذي استحسن استقلالا كاملا عن كل من بريطانيا والامبراطورية العثمانية • وشنت أعمدة (اللواء) هجمات مريرة ضد الحركة الدستورية التركية ، التي كانت في ذلك الوقت

تتلاعب بفكرة العلمانية المتزايدة في الحياة واللامركزية السياسية لعناصر
الامبراطورية وأجزائها المختلفة (٤٢) .

وقد يبدو كل هذا متناقضا مع فرضية شتبيات Steppat ، وبين
أن مصطفى كامل والحزب الوطني فضلا نوعا من الرابطة بين مصر
والامبراطورية العثمانية . ويحتمل أن يكون شتبيات Steppat مصيبا
فيما انتهى اليه من أن هذه الرابطة لم تكن لتأخذ عند مصطفى كامل شكل
الدولة الدينية برئاسة السلطان - الخليفة ، لكن هناك بدائل لم يخصص
لها شتبيات اهتماما كافيا . فعلى سبيل المثال ، يجب أن يؤخذ ولاء مصطفى
كامل الثابت والصريح للامبراطورية بجدية أكثر ، ولقد كان هذا أكثر من
تكتيك بالقطع ، لكن مصطفى كامل لم يستنبط أبدا (وفي الواقع لم يكن
بحاجة الى ذلك) ما هو الشكل الذي يجب أن تأخذه الرابطة العثمانية -
المصرية على وجه التحديد . ربما يكون قد تصور نوعا من الكومنولث
الاسلامى ، معطيا قدرا عاليا من الاستقلال الذاتى لكل جزء اقليمى مع
وجود جهاز رسمى استشارى يربط الولايات بلطف بمركز الخلافة . وعلى
أى حال فان مصطفى كامل لم يكن متعاطفا على الاطلاق مع فكرة القومية
العربية أو التحالفات المتبادلة العربية inter-Arab alliances

- وهى فكرة كانت فى طريقها لكسب القبول فى الأراضى العربية (٤٣) .
بدأت قومية مصطفى كامل تأخذ بعد عام ١٩٠٤ وبعد خيبة الأمل فى
السياسة الخارجية الفرنسية شكلا اسلاميا معلنا بصورة كبيرة ، وفى
١٩٠٥ أسس مجلته الشهرية (العالم الاسلامى) . فى عام ١٩٠٦ ساند
السلطان ضد البريطانيين فى أزمة طابا التى كانت فى محصلتها انكار
لسيادة مصر الاقليمية على هذه المنطقة (٤٤) . وركزت صفحات (اللواء)
و (المؤيد) بالمقابلة لسياسة (الجريدة) فى افتتاحياتها على أهمية دور
مصر كعضو فى الجماعة الاسلامية وحسن لسلطة السلطان (٤٥) .

وعلى ذلك ، فأننا نجد دليلا متينا يبين ان مصطفى كامل قد حذب
فعلا شكلا من الاتحاد التعاونى العثمانى - المصرى . ويبدو من غير المعقول
الحاجة من ثم الى طرح كل قرارات مصطفى كامل جانبا وافترض ان كل
خصومه السياسيين من أحمد لطفى السيد الى العقاد الى سلامة موسى قد
أخطأوا فهم مجرى تفكيره . ومع هذا فأننا نملك لحسن الحظ أداة أخرى
قد تساعد على حل هذه المعضلة . فكتابات مصطفى كامل (ومحمد فريد
فيما بعد) التاريخية ، التى أهملها الدارسون لدرجة كبيرة تعطينا ادراكا
عظيما لقيمة نظام حزبه ، وهى فوق ذلك انجاز أدبى عادى .

نشأ اهتمام مصطفى بالتاريخ منذ أيام دراسته الابتدائية - طبقا
لما يرويّه عبد الرحمن الرافعى . وبدء كشاب فى تقديم مقالات وأحاديث
للأهرام والمؤيد عن أمور تاريخية وشبه تاريخية . وفى العشرينات من عمره

كان قد كتب بحثا قصيرا عن تاريخ الرقيق في روما القديمة (عجائب ما كان في الرق عند الرومان) أشار فيه الى الاختلافات بين الممارسة الغربية والاسلامية ، وأعد أيضا تاريخا للفتح العربى لاسبانيا (فتح الأندلس) صور فيه بطريقة أكثر رومانتيكية هذه الحقبة الهامة من التاريخ الاسلامى . وبدأ من ١٨٩٣ فصاعدا اخراج مجلته الشهرية (المدرسة) ، وفى ١٩٠٥ نشر مجموعة من خطبه والمراسلات بينه وبين الشخصيات الرفيعة المستوى من الأوروبيين تحت (مصريون وانجليز) Egyptians et Anglais (٤٦) .

وكان أكثر أعماله التاريخية أهمية ، والوحيد الذى تناول التاريخ الحديث المصرى بتفصيل هو (المسألة الشرقية) الذى ظهر فى ابريل ١٨٩٨ (٤٧) . وسنحاول من خلال دراسة هذا العمل ان نقيم ما قدمه مصطفى كامل للتاريخ المصرى الحديث .

عندما عاد مصطفى كامل من رحلة الى اوروبا عام ١٨٩٤ حضر معه صندوقين كبيرين يحتويان على ذكريات العديد من رجال الدولة الأوروبيين وأعمالا عامة كثيرة عن السياسات العالمية (٤٨) . ولا بد أن هذه المادة كانت ذات قيمة كمصادر لكتابه (المسألة الشرقية) ، رغم أن المناسبة الحالة للكتاب كانت الانتصار العثمانى « السعيد » على اليونان عام ١٨٩٨ (٤٩) .

على عكس الأمثلة الأخرى من التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر والثى ناقشناها ، فإن كتاب « المسألة الشرقية » هو بالضبط ما يوحى به - دراسة للتاريخ الدبلوماسى الأوروبى فيما يتعلق بالامبراطورية العثمانية ومصر . وتلعب مصر فى كتاب مصطفى كامل دورا يفوق دور أغلب الدراسات الغربية ، وذات التوجه العثمانى فى الموضوع ، ومع هذا فإن مصطفى كامل لا يجعل الشئون العثمانية أو البلقانية فى مرتبة ثانية بعد شئون بلده . فهو يبدأ ، على سبيل المثال ، بملاحظة أن المسألة الشرقية يمكن ترى بواحد من منظورين . أولهما كصراع بين أوروبا والامبراطورية العثمانية حول ممتلكات الامبراطورية (الأوروبية) - وهو أمر يمس وجود جزء من الامبراطورية . أما ثانيهما فهو منظور الصراع الأقدم بين الاسلام والمسيحية ، الذى يعود الى ايام الصليبيين . ويحتوى المنظور الثانى من وجهة نظر مصطفى كامل أكثر من حبة من الصديق لكنه برغم ذلك لا يتطابق تماما مع أحوال اليوم . فأوروبا لم تعد تشن حربا ضد الباب العالى « باسم الدين وحده » ولكنها تفعل ذلك أساسا لأنها ترغب فى التوسع الاقليمى . ويستخدم الأوروبيون الدين أحيانا لاثارة الحماس العام لفتوحاتهم ، لكن هذا مجرد « نقاب تختبئ خلفه نوايا النشال وزغباته » (٥٠) .

ووفقا لمصطفى كامل فان المسألة الشرقية ولدت مع قيام الامبراطورية العثمانية . فما ان بدأت الامبراطورية في اختراق أوروبا حتى بدأت جهود القرون الطوال لصد المواجهة التركية (٥١) . ويخصص مصطفى كامل مساحة قليلة لحوادث ما قبل القرن التاسع عشر بصفة عامة ، لكنه يقدم تحليلا مطولا للحرب الروسية - التركية (١٧٦٨ - ٧٤) ، ويضع في الاعتبار الخطط الروسية - البروسية بشأن بولندا بالاضافة الى الدعم العثماني للبولنديين . ويحلل مصطفى كامل دوافع ودبلوماسية القوى العديدة بعمق ، كما يعلق على السيطرة الروسية القوية على الشثون العثمانية في معاهدة كوجك قينارجي Küçük Kaynarca (١٧٧٤) (٥٢) . ويقول انها كانت الأولى في سلسلة طويلة من الجهود الروسية لتدمير أساس الامبراطورية ، وليؤكد رأيه فانه يستعرض فيما بعد الحرب الروسية التركية (١٧٨٦ - ٩٢) ، والجهود الروسية لتعويق اصلاحات (التنظيمات) ، وتشجيع روسيا لثورة الجبل الأسود والاتجاهات الانفصالية الصربية (٥٣) .

تبدأ التفاصيل الحقيقية بمناقشة مصطفى كامل لحوادث القرن التاسع عشر . فيناقش كل الأزمات الهامة على التعاقب : الثورة اليونانية ، الحرب السورية ، حرب القرم ، الاحتلال البريطاني لمصر ، الاتحاد البلغاري ، تحرير اليونان ، وما يسمى (بالفظائع البلغارية) . ومن بين هذه الأزمات فان الحرب السورية والاحتلال البريطاني لمصر هما الموضوعين وثيقي الصلة بنا ، لكننا سنفحص ببعض الايجاز مجالات أخرى لنرى كيف عالج هذه الموضوعات .

في روايته عن الثورة اليونانية يشير مصطفى كامل الى أن اسكندر وديمتري ييسلانتي Alexander and Dmitri Yepsilanti (قائد حركة فيليكا هيتريا Philike Hetairia) كانا في الواقع عملاء للقيصر ، وظفا لاثارة المتاعب في اليونان العثمانية (٥٤) . ولا يشارك المعجبين بالاغريق تعاطفهم معهم الذي استيقظ بالتبعية في أوروبا ، ولكنه يرى الأمر بدلا من ذلك نوعا من التحامل الديني ضد المسلمين . ويدعى أن الاوروبيين الملحدين أنفسهم كانوا يطالبون علنا بالدعم الحكومي الاوروبي « لآخوتهم اليونانيين المسيحيين » - مع التركيز على المسيحي بدلا من اليوناني . وبقتبس من الروايات «الأوروبية» عن الثورة ما يثبت ان مذبة اليونانيين ضد المسلمين ونهب ممتلكاتهم كانا يمدحان «باسم الحرية والدين» ، ويستبعد تماما التقارير عن فظائع المسلمين ضد اليونانيين . ويشنى مصطفى كامل على بطولة الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا ويشير الى موقعة نافارينو Navarino علم أنها « مذبة » وليس معركة . وليدعم هذا التأكيد فانه يعدد التعنيفات الرسمية عن أفعال كودرينجتون

Codrington في نافارينو من جانب شخصيات كجورج الرابع George IV ملك إنجلترا ، وفرانسيس الأول Francis I ملك النمسا ، والسياسيين البريطانيين الليبراليين ، الخ (٥٥) . ورغم أنه من الواضح أين يقع تعاطف مصطفى كامل ، إلا أنه يدعم أغلب رواياته بأدلة مقنعة .

يدخل في إطار التاريخ الدبلوماسي المباشر دراسة مصطفى كامل لحرب القرم ، مؤتمر برلين ، وأزمة شبه جزيرة البلقان في نهايات القرن التاسع عشر . ومن الجدير بالملاحظة في هذا المقام مهارته في نسج خيوط حبال روايته وجعلها في قصة متماسكة حسنة الكتابة ، كما يمثل الأسلوب تقدما جبارا على أي شيء تعرضنا له حتى الآن . في بداية كتاب « المسألة الشرقية » يضمن كامل جملة تتعلق بالنبي عليه الصلة والسلام والقرآن الكريم يتبعها صفحتان كاملتان من المديح المسجوع في ذكرى النصر العثماني على اليونان عام ١٨٩٨ (٥٦) . لكن الأسلوب بعد ذلك وعلى مدى صفحات الكتاب يتسم بالأناقة والصفاء ، متجنباً سوء الصنعة والسطحية التي وصمت أعمال الكتاب السابقين . وفي سبيل التوكيد فان مصطفى كامل يرند أحيانا الى السجع (٥٧) لكن هذا السجع لا يفسد الرواية بفضل معالجته له بمهارة ، بل ان سجعه هذا كان يعزز التدفق الرقيق لنثره .

كان من المتوقع أن تصنف بريطانيا « كوغد المسألة الشرقية » ، اذا وضعنا في الاعتبار الأحوال السياسية في ذلك الوقت وثقافة مصطفى كامل ذات التوجه الفرنسي بصفة أساسية . ولا يترك الرجل مناسبة تمر دون أن يصب جام غضبه وعدم ثقته بالبريطانيين . فهو يلومهم لاشعال نار الفتنة بين المسيحيين والمسلمين داخل الامبراطورية (٥٨) . ويزعم ان بريطانيا كانت مصممة على « اضعاف قوة المسلمين » في كل مرحلة من مراحل المسألة الشرقية (٥٩) . وأنها كانت العدو الاساسي لكل من الامبراطورية العثمانية ومصر خلال الحرب السورية (٦٠) . ففي عام ١٨٧٦ شجعت - بقصد الغدر - الباب العالي على مقاومة مطالب القوى الأوروبية في مؤتمر القسطنطينية ، لتخذل الامبراطورية تماما في مؤتمر برلين حيث فقدت (الامبراطورية) في الحقيقة أكثر مما كانت ستخسره في مؤتمر القسطنطينية (٦١) . وتتنكر بريطانيا في ثوب حاملة شعلة الانسانية والمدنية ، ومع هذا فهي لا تتردد في قصف مدينة الاسكندرية (الآمنة) (٦٢) . وتتنكر لوعودها بكل حرية كلما ناسبها ذلك ، واذا ما فهمت سياساتها فهما صحيحا فهي لا شيء غير « علم الأكاذيب ، والنفاق والذرائع » (٦٣) .

كان من المتوقع عقلا أن يكون المقابل لعداوة مصطفى كامل المريرة لبريطانيا العظمى هو مساندته المطلقة لأعمال بلده . لكن على الرغم من

إن « المسألة الشرقية » لا يحتوى نقدا مباشرا للسياسة المصرية ، فإن الثناء البغيض المملوء بالرياء محفوظ للامبراطورية العثمانية التي يدافع عنها مصطفى كامل فى أى وكل الظروف . فمرارا وتكرارا يشير الى المعاملة الحقيرة التى عومل بها لعثمانيون من قبل أوروبا زاعما ان الامبراطورية كانت القوة « الأوروبية » الوحيدة التى منحت لكل رعاياها الحرية التامة للعبادة دون أى اعتبار للعقيدة . ولم تتسامح الامبراطورية العثمانية فقط تجاه الأقليات المسيحية الكبيرة داخل حدودها لكنها اعطت لمسيحيين مناصب عليا فى الدولة . وعلى الجانب المقابل فإن اسبانيا شنت حملة إبادة جماعية ضد المسلمين ودمرت منازلهم وأماكن العبادة الخاصة بهم (٦٤) . ويعترف مصطفى أن السياسات العثمانية كانت « مضللة » فى بعض الأوقات لكنها لم تكن أبدا « مغرضة » . ويحاول بهذه الطريقة أن يحل السلطان من اللوم لقراره باعلان عصيان عرابى بالاشارة الى أن العثمانيون كانوا يساندون عرابى فى المرحلة المبكرة للثورة (٦٥) . وكل أسفه هو أن العثمانيين أخذوا وقتا طويلا ليكتشفوا ان بريطانيا لم تكن متعاطفة ، بل كانت عدوانية دون تغيير نحو كل المصالح العثمانية (٦٦) .

ان قراءة أوراق مصطفى كامل تعنى الانتقال من محيط التاريخ المصرى المبكر فجأة . فتاريخه نتاج غربى شامل مفعم بكل زخارف الكتابات الأكثر حداثة . اختفت الأساليب الشعرية . وانتهى السجع دون فقد للبراعة فى الأسلوب ولم يعد هناك مجال للحشو واللاعلاقية . والكتاب جيد التنظيم وقراءته ممتعة . والحقائق العديدة والحجج التى يقدمها مصطفى كامل فيه مرتبة على وجه صحيح ليكون لها قوة اقناع ضخمة . وأخيرا فإن عمق مصطفى كامل فى التحليل التاريخى يفوق قدرات الكتاب السابقين .

لكن ما يزعج هو اتخاذ مصطفى كامل لجانب واحد فى تفسيره للحوادث . فما يكتبه يتضمن انجيزا قوميا (بل اسلاميا) واضحا وصريحا ، وهناك الخشونة التى لم تعالج بأى تدريب على مناهج البحث التاريخى . صحيح انه قد هجر بنجاح التاريخ الزمنى الى محاولة كتابة التاريخ الخطيرة للغاية ، وفى قيامه بهذا العمل فقد خاطر وحقق ما لم يحققه سابقوه من كتاب القرن التاسع عشر . لكن تعامله النقدى والتحليلى الثابت للموضوع كان بسبب اصطدامه بشكل متكرر بمشكلة الانجيزا التاريخى بصورة لم تكن موضع تفكير كتاب عهد اسبق (٦٧) .

كان لمصطفى كامل كل الحق فى أن يأخذ موقفا مؤيدا للعثمانيين ، مؤيدا لمصر ومعاديا لبريطانيا ، فقد كان يعمل فى اطار عالم حقيقى حيث الوجه المقابل لهذه الأحاسيس غير متصور . ولم تكن هناك مسألة تقاعسه عن تقديم الدليل لدعم وجهات نظره ، فمواقفه كما رأينا ثابتة بالحجج وموثقة . لكن المشكلة عند مصطفى كامل كانت فى ثباته على تقديم جانب

واحد من القصة ثم حذف ما لا يتفق مع رؤيته الخاصة ، أو السخرية منها . فهو - كما نتوقع منه - ناقد للوجود البريطاني في مصر الى حد بعيد ، وهذا في حد ذاته لا يوهن من طريقته لمعالجة الموضوع . لكن هناك التزاما عليه في ان يسجل للاحتلال أى تقدم حقيقى تحقق في ظله ، وفي مجالات كهذه فقد فشل مصطفى كامل على وجه قطعى . فهو لا يجد شيئا ذا قيمة للاحتلال أيا كان ، ويسمى حرية القول التى أتاحها البريطانيون « عديمة القيمة » ، ويتجاهل الغاء « السخرة » وتخفيض الضرائب التى كانت قائمة فى عهد اسماعيل ، ويرفض بازدراء المزايا المادية العديدة للاحتلال (٦٨) . ان هذه حقائق تاريخية أيضا ، لكن مصطفى كامل وفى غمرة حماسه لمهاجمة البريطانيين يتجاهل هذه الحقائق ، أو يفقد القدرة على التعامل معها وهو فى ثورة هياجه (٦٩) .

من بين المظاهر المثيرة للاهتمام فى « المسألة الشرقية » معالجته للتضاي المتميزة بالتصادم المباشر بين الدولة العثمانية ومصر . فتقييم مصطفى كامل لعهد محمد على على سبيل المثال مرض بصفة عامة ، لكنه عندما يأتى الى احداث سوريا فى ثلاثينيات القرن فان نغمة المناقشة كلها تتغير بشكل مفاجئ :

« عندما يتذكر العثمانيون والمسلمون هذه الأزمة ، فإنهم يشعرون بالأسى والأسف أكثر من أى أزمة أخرى . لقد كانت أخطر شقاق وقع بين التابع (مصر) والسيد (الامبراطورية العثمانية) أى بين قلب الخلافة الاسلامية والخلافة نفسها ، بين زوج الامبراطورية العثمانية والامبراطورية نفسها (٧٠) .

ومن العجيب أن يعود مصطفى كامل الى الحيات فى الروايات اللاحقة، فيمدح البسالة المصرية فى معركة ما ، لكنه يشير فى نفس الوقت الى أن تدمير الانكشارية قبل ذلك بوقت قصير جعل العثمانيين غير مستعدين بشكل موجه (٧١) . فاذا كان لأحد أن يعترض على روايته عن الحرب فانه يكون القارىء المصرى وليس العثمانى . ويقرر على سبيل المثال أن رفض (الجزار) المبكر اعادة اللاجئين المصريين كان ذريعة انتهزها محمد على لإعلان الحرب . ويضيف ان بعض المؤرخين كانوا يرون ان محمد على كان يريد الخلافة لنفسه (٧٢) . وفى النهاية فان محمد على - والقول لمصطفى كادل - ما كان ليقدم على مغامرة كهذه لو كان قد تنبأ بالعواقب الخطيرة التى تسببها . وفيما بعد فقد اعتذر (محمد على) عن الحادث بأكمله ، وبنو تحذير واضح - يختتم به مصطفى كامل دراسته هذه - للأجيال المقبلة من المسلمين (٧٣) .

ومرة أخرى فان السؤال المطروح للنقاش هو ما اذا كنا سنحذف

كل هذه الاعلانات الوردية للصدقة لتركيا العثمانية بحسبانها مجرد تكتيك، أم لا . اذا كان الرد بالايجاب ، فأننى أرى أننا نقتررب من قرار فقواه أن الصورة التاريخية لمصطفى كامل هي صورة رجل مخادع لم يقل مرة واحدة ما يعنيه حقيقة . لماذا ؟ هل قلل على سبيل المثال من قيمة الانقسام العربى - التركى داخل الامبراطورية وهو ما كان متنبها له تماما ؟ وأصر بدلا من ذلك على الإشارة الى العرب كمسلمين ؟ لقد سمى «المسألة المصرية» موضوعا اسلاميا (٧٤) ، واذا كان هذا أيضا مجرد تكتيك ، فانه قد استخدمه بصورة مقنعة للغاية الى حد انخداع معاصريه به . لقد آمن على سبيل المثال بأن السبب الحقيقى لفشل عرابى هو الانقسام الكلى للجماعات العديدة المتورطة - الجراكسة ضد المصريين ، العرابيين ضد توفيق ، المصريون ضد العثمانيين ، الخ (٧٥) . والمرء ليس بحاجة الى الاستنتاج هنا بأنه أراد طمس الجنسية المصرية كلية عن طريق غمر مصر فى اطار الامبراطورية العثمانية ، ربما كان قد وجد حل المسألة الشرقية فى نفس الشروط التى قررهما الأفغانى أساسا ، وهى شروط لم تكن تستلزم ضمًا Anschluss عثمانيا لمصر بل شكلا من أشكال الكومنولث الاسلامى .

أما نقطة الاهتمام الأخيرة لنا فى كتاب « المسألة الشرقية » فهى معالجة مصطفى كامل للثورة العرابية . كان هذا الموضوع بالنسبة له أسهل كثيرا فى التعامل معه عن الوضع المعقد فى الأزمة السورية ، حيث أن دور الوغد جاهز الآن . يبدأ القصة بتحميل الخديو مسئولية الحالة الخربة لشئون البلاد والتى أدت الى التدخل الأجنبى . بعد ذلك يتتبع النفوذ المتزايد باضطراد لبريطانيا فى الادارة المصرية - شراء دزرائيل Disraeli لأسهم مصر فى قناة السويس - تعيين انجليز فى وظائف بالحكومة المصرية - الاتفاقية الأنجلو - مصرية لمنع الرقيق (١٨٧٧) التى سمحت للسفن الحربية البريطانية بحراسة البحر الأحمر وإيقاف وتفتيش السفن المصرية عند الضرورة ، وفى النهاية الرقابة الأنجلو - فرنسية على المصروفات الحكومية المصرية (٧٦) . ويتوجع كما رأينا ، للصراع المصرى - الجركسى فى الجيش ، زاعما أن هذا وكل مظاهر الانقسام الأخرى قد استغلت من جانب « أصحاب الدسائس » (٧٧) . ويؤكد أن عرابى كان عنيدا ومتصلبا - ولم يكن ينبغى عليه أن يصر على مناقشة الميزانية . ويصور عرابى على أنه رجل صادق وأمين أساسا ، ومن الناحية السياسية فانه كان أسدج من أن يتوقع العواقب المأساوية لأفعاله . وبالمثل فإن الخديو توفيق عند مصطفى كامل غير « متأمر » ، حيث انه بدأ بالعمل مع البريطانيين بتعاون وثيق عندما أصبح واضحا له ان كلا من العرابيين والعثمانيين كانوا يحاولون الاطاحة به (٧٨) . وفى النهاية فانه يلوم البريطانيين فيما يتعلق « بمذبحة الاسكندرية » برمتها .

ويبرهن مصطفى كامل - مقتبسا أساسا من الخطب التي ألقيت في مجلس العموم (البريطاني) ومجلس النواب الفرنسي - أن مستر كوكسن Cookson (القنصل البريطاني في الاسكندرية) قد زود ثلاثة أو أربعة آلاف أوروبي بالأسلحة ، فاتحا بذلك الطريق للمذبحة اللاحقة (٧٩) .

أيا كان ما يراه المرء في تفسير مصطفى كامل للحوادث ، فانه قد نجح في كتابة ذلك النوع من التاريخ الذي نسميه اليوم « حديثا » . ان « المسألة الشرقية » كدراسة تاريخية ، بعيدة كل البعد عن التاريخ الزمني Chronicle الذي جاءت نهايته على يد من يسمون «بالمؤرخون القوميون» مثل مصطفى كامل . وبمقارنته بالسابقين اللامعين كعلي مبارك ، أمين سامي واسماعيل سرهنك ، فان نقطة الضعف عنده هي « التوثيق » ، لكنه لم يكن حائزا لامتياز الوصول للمادة الأرشيفية الذي كان لهم . ومع هذا فقد نجح في مناقشة تشكيلة واسعة من المصادر ، تتراوح بين جريدة التايمز Times اللندنية ونسخا طبق الأصل لمحاكمات الانفصاليين الأرمن عام ١٨٩٣ (٨٠) . لقد كان تاريخه مقيما ومفاهيميا ، ولكن غير متوازن الى حد ما . لقد لخص السياسة الاحتلالية البريطانية على سبيل المثال ، بطريقة غريبة تماما عن التقليد القديم واعتبرها مؤسسة على خمسة مبادئ :

- ١ - التخلص من النفوذ الأجنبي الغير بريطاني في الشئون المصرية .
- ٢ - اضعاف سلطان الخديو واطعاف الصلات بين مصر والامبراطورية العثمانية .
- ٣ - الاشراف على المصالح الحكومية المصرية الهامة بواسطة رجال انجليز .
- ٤ - خلق اضطرابات مصممة لاطالة امد وجود الحكومة الاحتلالية .
- ٥ - نشر المعلومات المضللة في أوروبا عن حقيقة الأحوال في مصر (٨١) .

ومن المعترف به أن مثل هذا المفهوم يحتوى على بعض الحقيقة ، لكنه يحتوى أيضا على الكثير من مصطفى كامل نفسه ، بكلمات أخرى ، لقد كان هناك « توازن شخصي » يتضمن على الدوام عنصرا من المخاطرة . ومع هذا فان النقطة الهامة هي أن المعالجة التحليلية نفسها كانت جديدة بالنسبة للتاريخ المصري ، ومن هذا المنظور فان مصطفى كامل والكتاب القوميون الآخريين أسدوا للكتابة التاريخية المصرية خدمة عظيمة .

حواشي الفصل الثامن

(١) دون مؤلف "A Valuable library in Cairo," The Moslem World, 7 (1917) : 202.

(٢) جمال الدين الشيال « عبد الله نديم » ، ١٨٤٥ - ١٨٩٦ ، الكتاب ، رقم ١ (١٩٤٩) ٩ (يشار الى النديم مرارا باسم نديم مع استبعاد أداة التعريف) .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

Schölch

(٤) شولش

Agypten den Agyptern, pp. 108, 198.

طبقا لمحمد عبده فان عضوية مصر الفتاة تكونت أساسا من المسيحيين الشرقيين Levantine والعائلات التجارية اليهودية عن المصريين . المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٨ - ١٩ ، ٦١ ، وسعد زهران « التعاليم الليبرالية في الثورة العربية » ، المجلة ، رقم ١٠٨ (١٩٦٥) ، ص ٨٤ .

(٦) محمد أنيس « وثائق الثورة العربية » ، الكاتب ، رقم ١٠٣ (١٩٦٩) ، ص ١٦٢ ، وشولش Schölch

Agypten den Agyptern," pp 256.

(٧) ما لم يذكر العكس ؛ فان المعلومات التراجعية عن النديم قد أخذت من الشيال « عبد الله نديم » ، ص ٨٠ - ٨٥ ، ٨٨ - ٩١ .

(٨) حتى محمد صبرى ، الذي ليس بأية حال كاره لمزاعم القوميين المصريين يطلق على النديم وصف (المتطرف) .

l'esprit national egyptien, p. 106.

صبرى

(٩) لدراسة عن الأفكار الموجودة في (الأستاذ) انظر على سبيل المثال أحمد حسين الصاوى « تاريخ حركة صحيفه مصريه : الأستاذ » - الهلال ، رقم ١٠ (١٩٦٦) ، ص ٧٤ - ٨٩ .

(١٠) بدر « تطور الرواية في مصر » ، ص ٣١ - ٣٢ .

(١١) للحصول على قوائم مكثفة لكتابات النديم انظر شولش Schölch

"Agypten den Agyptern", p. 329 n. 194.

(١٢) نوقش عمل فهمى في الفصل السابق انظر ص ١٣٢ - ٣٣ من الفصل السابع .
اما النقاش فكان من أصل مورو وسيناقش عمله في الفصل العاشر - انظر ص ١٨٨ - ٩١ .

(١٣) عبد الرحمن الرافعى « مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ، ص ١٩ ، ٢٣ - ٢٤ ، ٣٤ - ٣٦ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

Arthur Goldschmidt, Jr.

(١٥) آرثر جولد شميت الأصغر

"The Egyptian Nationalist Party : 1892-1919 ; Political and Social Change in Modern Egypt, pp. 311-12.

(١٦) ذهب مصطفى كامل الى أوروبا في ثلاثة مناسبات منفصلة عام ١٨٩٤ وامتنع في القيام برحلة أو أكثر سنويا حتى عام ١٨٩٧ . ثم ذهب أيضا عام ١٨٩٩ ومرة أخرى عام ١٩٠١ .

الرافعي « مصطفى كامل » في مواضع متفرقة .

(١٧) كانت الرحلات الثلاث في ١٨٩٤ من أجل امتحانات القانون ، الذي أدى مصطفى كامل السلسلة الأولى والثانية منه في الصيف ، وأدى امتحانات السنة النهائية النهائية في أكتوبر . ونظرا للسرعة الغير عادية لهذا الجدول فقد اقتضت جامعة باريس بروض طلب مصطفى كامل لأداء الامتحانات النهائية ، وتخرج نتيجة لذلك من جامعة تولوز Toulouse في سن العشرين .

الرافعي « مصطفى كامل » ص ٣٨ - ٤١ .

(١٨) عن نشاطات مصطفى كامل في الخارج انظر الرافعي « مصطفى كامل » . ص ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤ - ٥٧ ، ٦٣ - ١١٤ ومواضع متفرقة .

(١٩) زعم شفيق علي سبيل المثال ان مصطفى كامل ذهب الى أوروبا « بتشجيع الخديوى » ، وأنه لدى عودته في عام ١٨٩٥ أصبح تحت جناح عباس ومنح دعما ماليا . ثم نظم الخديو مجموعة من الرجال ليعارضوا البريطانيين في مصر ، برئاسة مصطفى كامل . انظر لأحمد شفيق « يقظة الشعوب القومي منذ أوائل القرن التاسع عشر الى الآن » . الهلال ٤٨ (١٩٤٠) : ٦٩٠ - ٩١ . وهناك معلومات اضافية عن علاقة مصطفى كامل بعباس في عمل شفيق « مذكراتي في نصف قرن » وفي عمل رشيد رضا « تاريخ الامام الشيخ محمد عبده » .

(٢٠) عباس محمود العقاد « مصطفى كامل كما عرفت » المجلة ، رقم ٦٩ (١٩٦٢) . ص ٧ - ٨ .

(٢١) في دراسة وثائقية تحتوي ، من بين أشياء أخرى ، على ثلاثة عشر خطابا لم يسبق نشرها من مصطفى كامل الى عبد الرحيم أحمد (وكيل القلم العربي في بلاط عباس) يؤكد محمد أنيس ان الدليل على ما اذا كان عباس قد دفع مصاريف دراسة مصطفى كامل في جامعة تولوز لا يزال غير حاسم . انظر لأنيس « صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل » (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٢) ص ٩ - ١١ . ومن ناحية أخرى فان جولد شميت Gold Schmit اقل ترددا في هذا الشأن ويزعم ان مصطفى كامل ذهب الى باريس في مايو ١٨٩٥ مدعما بأموال القصر الوفيرة .

Goldschmidt

جولد شميت

"The Egyptian Nationalist Party", p. 313.

"Egyptian Nationa'ism", p. 80.

(٢٢) أحمد

Goldschmidt

(٢٣) جولد شميت

"The Egyptian Nationalist Party", p. 319.

(٢٤) أنيس « صفحات مطوية » .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(٢٦) نوقش موضوع الجامعة في الصفحات السابقة . ولزيد من المعلومات عن نشاطات

النادي ، انظر ص ٢٠٤ من الفصل الحادي عشر .

(٢٧) يرجع تاريخ وقفة مصطفى كامل القوية الأولى في سبيل الدستور الى عام ١٩٠٢ •
مكذبا بذلك الاتهامات المتعددة بأنه استحسن الأتوقراطية الخديوية وبدأ الدعة للدستور
متاخرا وبانتهازية •

Fritz Steppat

فريتز شتبيبات

“Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil :

Ein Beitrag zur Ideengeschichte der ägyptischen National bewegung”,
Die Welt des Islams 4 (1955) : 330-32.

ومع حلول عام ١٩١٤ كانت أغلب الصحف تطالب بدستور وبرلمان ، لكن (اللواء)
تفوقت كأكثريتهم ثباتا في الدعاية لئلا هذه الاجراءات • شفيق • يقظة الشعور القومي •
ص ٦٩٣ •

(٢٨) الرافي « مصطفى كامل » ص ١٩٥ - ٩٧ ، وشفيق « يقظة الشعور القومي » •
ص ٦٩٠ •

(٢٩) الرافي « مصطفى كامل » ص ٢٤٣ ، ٢٦٠ وما بعدها • وهذه هي الفترة من حياة
مصطفى كامل التي يفكر فيها باحثون مثل ناداف سافران Nadav Safran عندما يصفونه
بأنه « مهيج » بدلا من مفكر •

Safran

سافران

“Egypt in search for political community”, pp. 85 90.

لكن مصطفى كامل يمكنه ان يفكر أيضا كما سيحاول هذا الفصل ان يثبت • ونشاطه
كمهيج لا يمكن انكاره ، وطبقا لاحمد شفيق على الأقل فان (اللواء) أقرت في بعض
الاحيان الجرائم السياسية • شفيق « يقظة الشعور القومي » ص ٦٩٢ • لمزيد من التفاصيل
انظر ص ١٧٠ من الفصل التاسع •

(٣٠) سلامة موسى « تاريخ الوطنية المصرية : نشوئها وتطورها » ، الهلال رقم ٣٦
(١٩٢٨) : ٢٦٩ - ٧١ • وقد انتقد لطفى السيد مصطفى كامل لاثارته المستمرة للمواطنين
الشعبية الى حد الهياج المحموم - وهو تكتيك شعر انه قد يؤدي الى الخيبة أو ما هو
أسوء ، كالدرد للقابل البريطاني ضد الشعب • وفي المقابل فان اتباع مصطفى كامل
اتهموا حزب الأمة بالتغاضي عن الوجود البريطاني في مصر • وقد أقام كثير من أعضاء
الحزب علاقات صداقة مع كبار الموظفين البريطانيين ، وذهب اللورد كرومر الى حد تسميتهم
« بالحلفاء الطبيعيين للمصلحين الأوروبيين » •

“Egyptian Nationalism”, pp. 70, 72, 96.

احمد

Steppat

(٣١) شتبيبات

“Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil.” pp. 279-91.

(٣٢) من ناحية أخرى ، فلا يجب ان ننسى الصدمة والرعب الذي استقبل به المسلمون
الغاء أتاتورك للخلافة • واذا كان علينا أن نصدق نجيب محفوظ والصورة التي رسمها
للمجتمع المصري بعد الحرب العالمية الأولى ، فان العامة من الناس في مصر كانوا لا يزالون
مرتبطين بشدة بمؤسسة الخلافة • انظر فوزي العنتيل « المجتمع المصري كما تصوره رواية
بين القصرين » - المجلة ، رقم ١٥ (١٩٥٨) ، ص ١٠٣ •

(٣٣) على هذا الشكل كتب تاريخه عن اليابان في ١٩٠٤ باستمتاع خاص • كانت
اليابان قد هزمت لتوها روسيا في الحرب ، وفسر مصطفى كامل هذا الحدث بما يعنى ان

« الحضارة الشرقية » لم تكن ميتة • وأكد أن « الحالة اليابانية » يمكن أن تصبح نموذجا لكل الشرقيين • مصطفى كامل « الشمس للشرق » (القاهرة : مطبعة اللواء ، ١٩٠٤)
الجزء الأول ، ص ٣ - ٥ • وبالمصادفة فإن مصطفى كامل لم يكن الوحيد الذي وجد في الانتصار الياباني مصدرا للالهام • فقد اعتبر الشعراء المصريون وعلى رأسهم حافظ إبراهيم هذا النصر موضوعا فائنا • أحمد
"Egyptian Nationalism", p. 65.

(٣٤) ربما كان محمد عبده هو الذي استرعى انتباه مصطفى كامل لهذه الحقيقة •
ورفقا لشارلز وندل Charles Wendell فإن فكر محمد عبده كان لا يزال مناعرا للجامعة
الاسلامية بشدة حتى ١٨٨٦ •

Charles Wendell

شارلز وندل

"The Evolution of the Egyptian National Image : From Its Origins to
Ahmed lutfi al-Sayyid (Berkeley and los Angeles : University of Cali-
fornia Press, 1972), pp. 186, 192-94.

(٣٥) بدأت قضية دريفوس Dreyfus عام ١٨٩٤ عندما اتهم الكابتن ألفرد دريفوس
Alfred Dreyfus الضابط الألزاسي اليهودي في هيئة الأركان العامة الفرنسية بإعطاء
معلومات للملحق العسكري الألماني في باريس • ثم أدت المحاولات التالية لتبرئته إلى
أزمة سياسية مطولة • ربما كانت أهم الأزمات في تاريخ الجمهورية الثالثة • وأكدت
القضية الصراع بين الجمهوريين واليساريين الذين كانوا يريدون إعادة الملكية • وقادت
إلى عداوة متجددة وصراع بين الكنيسة الرومانية والجمهورية • كما أوضحت هذه القضية
قوة العداوة للسامية في فرنسا •

كان الدليل المقدم ضد دريفوس أمام المحكمة العسكرية في أكتوبر ١٨٩٤ غير كاف •
ومع هذا فقد أدين وأرسل إلى جزيرة الشيطان حيث سجن • ومع هذا فقد ظلت الأسرار تنقل
وتورط فيها ضابط فرنسي آخر هو المايجور فرديناند استيرازي Ferdinand Esterhazy
وعندما حاول مدير المخابرات الجديد الكولونيل جورج بيكار George Picquart
(١٨٥٤ - ١٩١٤) أن يعيد فتح القضية في عام ١٨٩٦ فإنه فصل • لكن شقيق دريفوس
نجح في تقديم استيرازي إلى المحاكمة عام ١٨٩٧ • ومع هذا فقد برئت ساحة الرجل برغم
كل الأدلة •

أدى هذا إلى قيام الروائي إميل زولا Emile Zola بنشر خطاب مفتوح بعنوان
« اني اتهم "J'accuse" » هاجم فيه الجيش • وقدم القضية إلى الرأي العام • تبنى
قضية دريفوس كل من الراديكاليون الفرنسيون • الاشتراكيون والمثقفون • في ١٨٩٨
ثبت أن الوثيقة الرئيسية المستخدمة ضد دريفوس كانت مزورة • وحوكم دريفوس مرة أخرى
وثبتت ادانته للمرة الثانية • ومع هذا فقد عفا عنه الرئيس إميل لوبيه Emile Loubet
وفي عام ١٩٠٦ برئته محكمة مدنية وأعيد إلى الجيش • فضحت القضية الجيش معقل
الملكيين والكنيسة الكاثوليكية التي دعمت المشاعر المعادية لدريفوس • ونتيجة لذلك فقد
تولى الراديكاليون السلطة واستطاعت فرنسا أن تقيم دولة علمانية ومجتمعا بورجوازيا
وجيشا جمهوريا •
"Lexicon Universal Encyclopedia". Vol. 6. pp. 271-73.

المترجم

(٣٦) ما لم يشر إلى غير ذلك فإن المعلومات التي تحتويها الفقرة الأخيرة قد أخذت
عن شتيبات Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil", pp. 258-59, 287-88,
306-7. 309.

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ - ٧٨ ، ٢٨٤ - ٨٥ ، ٢٨٨ - ٨٩ ، ٢٣٣ - ٣٥ .
ويبدو هذا البيان الأخير مفردا . ومع هذا فهو ليس دعوة لاقامة دولة هيكلية Hegelian
state لكنه دعوة لحمل السلاح ضد البريطانيين .

(٣٨) يقبل المؤرخون للفترة وجهة نظر شتبات Steppat تقريبا . فانيس على سبيل
المثال يؤكد أن مصطفى كامل كان عازما على التعاون مع أي وكل شخص يقف ضد الاحتلال
البريطاني . انيس « صفحات مطوية » ص ١٣ - ١٥ .

ويرى جولد شميت Gold Schmidt أيضا أن النداء الإسلامي للحزب الوطني
كان « تكتيكيا » وللاستهلاك المحلي المحض . جولد شميت
"The Egyptian Nationalist party", pp. 311-12.

(٣٩) موسى « تاريخ الوطنية المصرية » ، ص ٢٦٩ .

(٤٠) العقاد « مصطفى كامل » ، ص ٧ .

Steppat

(٤١) شتبات

"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil," p. 257.

ويرى شتبات Steppat أن تأييد مصطفى كامل للتسامح الديني قد جذب كثيرين
من الأقباط إلى صفه . المصدر نفسه ص ٢٦٧ - ٦٩ . وأميل إلى الشك في وجود أي نمو
تلقائي سريع لتأييد قبطي لحزب مصطفى كامل ، رغم صواب مقولة أنه كان يسعى لتشكيل
جبهة متحدة ضد البريطانيين . لقد أدان مصطفى كامل « التباغض الجنسي » الذي كان
هناك شيء منه في الفترة البرابية ، مدركا أنه قد يمزق حركته أو قد يستخدم ضده وبعض
أنبائه (التركو - جراكسة) وليس (الأقباط) .

(٤٢) عباس محمود العقاد « كتاب مصطفى كامل » ، الرسالة ، رقم ٢٩٤ (١٩٣٩) ،

ص ٣٣٧ - ٣٨ .

(٤٣) فيما يتعلق بحركة مصطفى كامل بصفة عامة كتب أحد المؤلفين ما يلي « أن
حقيقة أن مصر كانت منذ زمن طويل وحدة سياسية منفصلة إنما يرجع إلى ظهور قومية
مصرية محدودة ، منفصلة عن مسألة البعث العربي التجمعي » .

حازم زكي نسيبه

"The Idea of Arab Nationalism (Ithaca, N.Y. : Cornell University
press, 1956), pp. 145-46.

وقد لاحظنا هذه الظاهرة منذ أيام المالك .

Gold Schmidt

(٤٤) جولد شميت

"The Egyptian Nationalist Party," p. 319.

Bruno Aglietti

قارن برونو اجليتي

'Mustafa Kamil (1874-1908) : Fondatore del partito Nazionalista
Egiziano', Oriente Moderno 22 (1942), 308-10.

"Egyptian Nationalism", p. 61.

(٤٥) أحمد

(٤٦) الراقعي « مصطفى كامل » ص ٢٢ ، ٣٦ ، ١٨٧ .

Steppat

قارن شتبات

"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil," pp. 252-53.

(٤٧) الرافعى « مصطفى كامل » ، ص ١١٩ . والطبعة التى استخدمتها هى طبعة ١٩٠٩ الثانية دون تعديل Reprint

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٤٩) مصطفى كامل باشا « المسألة الشرقية » (القاهرة : مطبعة اللواء ، ١٩٠٩) ، الجزء الأول ، ص ١ - ٢ . ويظهر كتاب « المسألة الشرقية » فى هذه الطبعة كالأجزاء ٧ - ٨ من كتاب على فهمى كامل « مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا » .

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٣ - ٤ .

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٤ - ٥ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ - ٦٥ .

وتعود المنازعات الروسية - التركية الى منتصف القرن السادس عشر . لكن السياسة المعادية لتركيا لم تأخذ شكل الثبات فى العلاقات الروسية الخارجية الا فى نهايات القرن السابع عشر . كانت الامبراطورية العثمانية فى حالة تدهور مع بدايات القرن الثامن عشر بينما كانت روسيا تركز على برنامج طموح من التوسع الاقليمى . وعلى مدى القرنين التاليين كان الزعماء الروس مدفوعين بايديولوجيات (المسيحية الاورثوذكسية) و (الجامعة السلافية) الى جانب عوامل استراتيجية واقتصادية يسعون الى مد نفوذهم فى جنوب شرقي أوروبا والاستيلاء على اوكرانيا Ukraine ، والقرم Crimea ، ومنطقة القوقاز . وقد مهدت هذه الأهداف والطموح للسيطرة على البحر الأسود والدردنيل المصالح والأراضى التركية بصورة مباشرة ، وأنتجت الحروب المتكررة . وهكذا فان الحروب تعاقبت بين البلدين لنتيحتها معاهدات كارلوفيتز Karlowitz عام (١٦٩٩) ، وبروت Pruth عام (١٧١١) ونيسا Nissa عام (١٧٣٩) . ثم جاءت الحرب الروسية التركية (١٧٦٨ - ١٧٧٤) فى عهد كاترين الثانية ، وفيها انتصرت روسيا على الدولة العثمانية وانتهت بتوقيع معاهدة كوجك كينارجى Küçük Kainarji عام (١٧٧٤) التى أصبحت مصدرا للخلاف فى العلاقات الروسية - التركية . كسبت روسيا مواقع استراتيجية محاطة ببلاد لا تتبعها enclaves على ساحل البحر الأسود الشمالى ، وامتيازات تجارية وبحرية فى الامبراطورية العثمانية والبحر الأسود - وحقا تخافض التعريف للتدخل والتحدث بالنيابة عن الشعوب المسيحية فى الامبراطورية العثمانية . ولم تته هذه المعاهدة الصراع بين البلدين فاستمرت الحروب (١٧٨٧ - ٩١) والتى انتهت بمعاهدة ياسى Jassy (١٧٩٢) التى أعادت تأكيد سيطرة روسيا على القرم (الحقنها بملكاتها عام ١٧٨٣) وأعطت لها أراضى بين نهري بيج Bug ودينستر Dnester وبذلك حلت روسيا محل الامبراطورية العثمانية كقوة متسيدة فى منطقة البحر الأسود ، واستمرت الحروب بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩١٧ من القرن الحالى

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 16.

المترجم

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٦٦ - ٧٠ ، ١٦١ - ٦٢ ، ٢١٤ .

وقد بدأت مرحلة تدهور الامبراطورية العثمانية فى عصر السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤) ، فهزمت جيوشها فى أعوام ١٥٧١ ، ١٦٦٤ ، ١٦٩٧ ، وبمقتضى معاهدات كارلوفيتز Karlowitz (١٦٩٩) وباساروفيتز Passarowitz (١٧١٨) خرجت بلاد كثيرة من حوزة الدولة لصالح أعدائها .

مع شعور العثمانيين بوجود خلل فى نظمهم فانهم شرعوا مع النصف الأول من القرن

السابع عشر في محاولة التجديد عن طريق الاتصال بالغرب • ويعتبر السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) مفجر حركة الإصلاح على الأسس الغربية • وبدأ بالجيش فأنشأ وحدات المدفعية على الطراز الغربي • وأنشأ بمساعدة البارون دي توت De Tol الذى استدعى من فرنسا لهذا الغرض تشكيلات سميت بالمدفعية السريعة • وانضم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ٨٩) الى حركة الإصلاح فطور فرق المدفعية وافتتح قسما للهندسة الحربية وأنشأ مدرسة (هندسة أوده سي) • وأنشأ السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) جيش « نظام جديد » على النظم الأوروبية وزوده بالمشاة والفرسان • لكن الانكشارية ما لبثت ان قاومت حركة الإصلاح وأجبرت السلطان على التنازل عن عرشه عام ١٨٠٧ • وعندما تولى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وجد أن ارساء الجديد يستلزم ازالة القديم • لذلك فقد عزم على التخلص من معوقات الإصلاح • وبده في عام ١٨٢٦ بتدبير هجوم على معسكرات الانكشارية في ساحة ميدان السباق (آت ميدانى) وقصفها بالمدافع وقتل حوالى ٨٠ ألفا من هذه القوات فيما سمي بـ « واقعة خيرية » • وأل محمود الثانى جيشا جديدا أسماه « عساكر منصورية محمدية » محل الانكشارية - ثم شرع في ادخال مشروعات مستغربة في ميادين الصحة والطب والمعارف والادارة وافتتح المدارس الثانوية الرشدية • لكن المصائب توالى على الدولة فهزمت أمام روسيا في عام ١٨٢٨ وفجعت في مصر عندما أعلن واليها محمد علي العصيان عليها (١٨٣٢ - ١٨٤٠) • وتصاعدت الثورات في مناطق أخرى •

تحقق الأمل في انقاذ الدولة عندما ظهر « مصطفى رشيد باشا » الذى ظهر على مسرح الأحداث في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ٦١) - كان رشيد وزيرا للخارجية (١٨٣٧ - ١٨٤١) وسفيرا للدولة في باريس (١٨٤٠ - ١٨٤٥) وصدرا أعظم (١٨٤٦ - ١٨٤٨) و (١٨٥٢) ثم وزيرا للخارجية (١٨٥٣ - ١٨٥٤) ثم صدرا أعظم (١٨٥٤ - ١٨٥٥) و (١٨٥٦ - ٥٧) و (١٨٥٧ - ٥٨) • وكان له احتكاك بالغرب نتيجة رحلاته المديدة ودراسته للغة الفرنسية وأساليب الحياة الغربية وسفارته للدولة في باريس وصدافه للمستشرق الفرنسى دى ساسي De sacy • سعى رشيد لدى السلطان صفي السن عبد المجيد لاستصدار الاعلان للعروف بمرسوم التنظيمات « كاخانه خط همايونى » عام ١٨٣٩ • كان فحوى هذا « الخط » هو أن لكل فرد حقوقه الطبيعية التى تضمن له أمنه في ماله وعرضه وشرفه - وأن المصادرة للأموال والمظالم مسترفع عن الشعب • وأن لا فرق بين رعايا الدولة من أهل الكتب السماوية •

حد مرسوم التنظيمات من سلطة السلطان وأخرج الحكم من نوعية الحكم الشخصى الى حكم طبقة عالية من الموظفين • وأظهر الاهتمام بحقوق الانسان • وكان أول تصريح وتعهد يخرج من فم حاكم مسلم في تاريخ الشرق الاسلامى يدعو فيه الى المساواة في الحقوق بين المسلمين وأهل الدمة • كما كان أبلغ دليل على وصول أفكار الثورة الفرنسية الى الدولة العثمانية •

وسارت حركة « التنظيمات » بعد عبد المجيد وبعد عزل رشيد باشا • فلم تعد فكرة التجديد ملكا للسلطين أو وزراءهم • بل تلقاها نفر من الشعب وهم طبقة المثقفين وأخرجوها في صورة أدبية • فأصبح هناك ما يسمى بأدب التنظيمات • وأصبح هناك سياسيو التنظيمات فيما بعد أمثال ضيا باشا ونافق كمال أفندى اللذين كانا أيضا من أدباء الدور الثانى في عهد التنظيمات • وظلت روح التنظيمات في عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) • فأخذ بنموذج المؤسسات الغربية في بعض الميادين كالقضاء عندما استبدل (ديوان أحكام عدلية) (بعلية نظارتى) • وشكل محاكم النقض والاستئناف (تمييز محكمة لرى) • وسن التعليم الاجبارى وأدخل أسلحة الجيش البروسى في جيشه •

ويتحدد عهد التنظيمات بالفترة ١٨٣٩ - ١٨٧٦ .

انظر مجدى بكر ، « ابراهيم شناسى افندى ، حياته وآثاره » رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس - القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢ - ٩ .

المترجم

(٥٤) مصطفى كامل باشا « المسألة الشرقية » ، ص ٧٤ ، قارن ل . س . ستافرايانوس L. S. Stavrianos الذى يزعم ان الكسندر ييسلانتي Alexander Yepsilanti كان ماجور - جنرال فى الجيش الروسى وذو صلات روسية عديدة هامة وفى مقامات عليا وأنه لم يكن يتلقى (والقول لازال لستافرايانوس) أى مساعدات سرية من الحكومة الروسية .

ل . س . ستافرايانوس Stavrianos
"The Balkan since 1453 (New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966), pp. 282-83.

(٥٥) « المسألة الشرقية » الجزء الأول ، ص ٧٧ - ١١٨ . وقضية الفظائع المدعى بارتكاب المسلمين لها ضد المسيحيين ، موضوع يعود اليه مصطفى كامل بين حين وآخر . فهو يلاحظ ، على سبيل المثال ان العثمانيين كانوا متساهلين مع السكان اليونانيين عندما استردوا (العثمانيون) أثينا فى يونيو ١٨٢٧ ، بالرغم من الحرب المريعة والطويلة التى مروا بها . المصدر نفسه ، ص ١٠٧ . وأينما كان ممكنا فان مصطفى كامل يحاول أن يوثق الوجه الآخر من العملة ويضيف معلومات مفصلة كثيرة عن الفظائع المسيحية المرتكبة ضد المسلمين . المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢١٥ ، ٢٤٢ - ٥٥ ؛ الجزء الثانى ، ص ١٨٦ وما بعدها .

(٥٦) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ١ - ٢ .

(٥٧) فجمل (المناصب السامية والوظائف العالية) و (دليل ساطع وبرهان قاطع) على سبيل المثال تتكرر فى مواضع عديدة على مدى صفحات الكتاب « المسألة الشرقية » ، الجزء الأول ، ص ٦ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٩ - ١٠ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

(٦١) المصدر نفسه الجزء الثانى ، ص ٢ - ٣ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، ١٠٢ ، ١١١ - ١٢ ، ١٧٧ .

(٦٤) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٥ - ٦ .

(٦٥) المصدر نفسه ، الجزء الثانى ، ص ١٠٨ .

(٦٦) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ١٤ - ١٥ ، ٢٢ - ٢٣ ، الجزء الثانى .

ص ١٧٦ .

(٦٧) قارن ص ١٥ - ١٨ من الفصل الأول .

Steppat

(٦٨) شتيبات

"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil", pp. 298-300.

كتابة التاريخ - ٢٢٥

(٦٩) يبدو أن مصطلح كامل آمن بأن لا يوجه التعليم على وجه القصر للحصول على المعرفة ولكن أيضا لغرس الشعور الوطنى فى الطلبة .

المصدر نفسه . ولكن مخافة ان يبدو هذا الوضع متطرفا مرة أخرى أكثر مما كان بالفعل ، دعنا لا ننسى أن (١) الأجانب فى ذلك الوقت كانوا يسيطرون على التعليم المصرى (٢) وأنه حتى الآن لا تزال هنال بعض الأنظمة التعليمية القليلة التى لا تخدم فى أغلب الأحوال نفس الأهداف ، ولوق هذا فإن ظهور كتاب « المسألة الشرقية » يمكن ان يكون ذا خدمة أفضل للتضامن الاسلامى وليس القومية المصرية .

(٧٠) « المسألة الشرقية » ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ - ٢٨ .

(٧٢) ومع هذا ، فإنه ينقذ الباشا بالاستشهاد بمراسلته مع لويس فيليب التى تثبت ان مطامع محمد على لم تصل الى هذا الحد تماما . المصدر نفسه ، ص ١٤٨ - ٥٠ ، ١٥٤ - ٦٠ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ - ٥٠ .

(٧٤) المصدر نفسه ، الجزء الثانى ، ص ١٤٣ .

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١١٤ - ١٥ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٤٧ - ٥٠ .

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠ - ٥٣ ، ٦٧ .

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٦٦ - ٧٢ ، ١١٢ - ١٣ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ٧٧ - ٧٩ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٥٨ وما بعدها ، ١٨٤ وما بعدها .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

المؤرخون القوميون : ٢ - محمد فريد

ناقشنا في الفصل السابق امكانية عدم اخذ المشتغلين بالثقافة
مظاهر الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل بجدية كافية .

ومع هذا فان القضية لم تحسم حتى الآن نظرا لأن بعض عناصر اللغز
لا تزال غائبة . من ذلك على وجه الخصوص ضرورة الأخذ في الاعتبار
بقصة حياة ومثل صديق مصطفى كامل ، تابعه وخليفته في رئاسة الحزب
الوطني - محمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) . فقد حاول محمد فريد أن يدير
أمر الحزب كما كان منتظرا من مصطفى كامل أن يفعل فيما لو عاش .
وهناك استمرارية في الفكر بين الرجلين ، لذلك فان أفكار محمد فريد
ستساعدنا على فك رموز وضع مصطفى كامل السياسي .

كان أسلاف محمد فريد أتراكا ، ووفقا للرافعي فان أحد اجداده جاء
الى مصر (ككاتب للعملة) مع جيش الفتح العثماني الأصلي . وتعلم أحمد
والد فريد المولود عام ١٨٣٦ في نظام المدارس الحكومية وعلى وجه
الخصوص في المدارس الحربية . والتحق فيما بعد بمصلحة السكة
الحديدية ، متوليا مناصب الادارة ، لكنه فصل منها عام ١٨٧٧ عندما
وضعت المصلحة تحت الاشراف البريطاني المباشر (١) . ثم شغل بعد ذلك
مناصب حكومية محلية عديدة وفي ١٨٨٦ بلغ أعلى المناصب مقاما في سجل
حياته عندما أصبح مديرا للدائرة السنية . وفي نفس الوقت حصل على
لقب الباشوية ولقب بكرك بيكي (٢) . في ١٨٩٢ منح النيشان المجيدى .
وظل مديرا للدائرة السنية حتى ١٨٩٤ عندما فصله نوبار لمعارضته نقل
ممتلكات خديوية معينة الى شركة اجنبية (٣) .

ولا يعرف الا القليل عن الحياة المبكرة لابن محمد فريد . ففي ١٨٨٧
حصل على درجة في القانون من مدرسة الادارة (الألسن سابقا) . وفاز
بمنصب جيد في الادارة القانونية للدائرة السنية كنتيجة محتملة لصلات
والده ، واستمر بهذا العمل حتى ١٨٩٦ . ومع هذا ففي ذلك العام اتصل

محمد فريد « بقضية التلغراف » التي اتهم فيها الشيخ على يوسف من جانب الحكومة بالكشف عن أسرار معينة . وجاء اتصال محمد فريد بالقضائية عندما دافع وهو وكيل نيابة بالاستئناف عن الشيخ ، فكان ان عوقب بالنقل الى (مغاغة) . وبدلاً من أن يتقبل هذا التنزيل المهين ، فقد قرر أن ينتقل الى العمل الحر (٤) . ورغم أن هذه الفترة من حياة محمد فريد لا تزال غامضة ، إلا أنه من المعتقد أنه مارس المحاماة على مدى السبع - عشر سنوات التالية .

كان أول لقاء بين محمد فريد ومصطفى كامل في عام ١٨٩٣ ، لكن الصداقة بين الرجلين لم تتوطد الا في صيف ١٨٩٥ عندما التقيا في باريس (٥) . كانت هذه أول رحلة لفريد الى أوروبا ، ومثل مصطفى كامل ، فانه سرعان ما أصبح لديه « شوق حقيقي للسفر » (٦) . فزار النرويج ، وأسبانيا ومراكش والجزائر وتونس ، وتردد جيئةً وذهاباً بين أوروبا ومصر على مدى الخمس عشر سنة التالية ، ومن عام ١٩١٠ وحتى موته بعد عشر سنوات كان يسافر باستمرار ما بين أوروبا والامبراطورية العثمانية (٧) .

ظلت ترجمة عبد الرحمن الرافعي لمحمد فريد هي مصدرنا الوحيد للمعلومات عنه لفترة طويلة . ومع هذا فان نشر مذكراته في الوقت الحالي قد زودنا بقدر كبير من التبصر بسيرته وفلسفته السياسية ، ويبدو أن ما ظل المثقفون يشكون فيه لزمان طويل - ان دراسة الرافعي لا يمكن الوثوق بها كلية - كان هو الحقيقة (٨) . فعلى عكس ما ذكره الرافعي - على سبيل المثال - فان محمد فريد سلك الطريق الى التطرف السياسي ببطء نسبي . حاز هو ووالده مراكز مرموقة في الحكومة المصرية . كانا جزءاً من الصفوة السياسية والاجتماعية وفقدوا الكثير بانضمامهما الى الحركات الشعبية المضادة للخديوية . وتبعاً لذلك ، فقد سمع أن فريد كان يثنى على الاصلاحات المالية التي تحققت في ظل البريطانيين ، وكان ذلك في عام ١٨٩١ . وقدم التقييم التالي لسياسة الاحتلال بصفة عامة :

« لم يفعل الانجليز حتى الآن شيئاً يستوجب كرها . فهم يعاملون الناس بعطف ورقة . ان حب ارض الآباء يلزمنا بالطبع ان نأمل أنهم سوف يتركوا مصرنا المحبوبة ، بشرط ان لا نعود الى الامبراطورية العثمانية . وفي الحقيقة (مع ذلك) ، فاننى يجب أن اعترف كلية بدون مبالاة اننا نحتاج الى المساعدة من الانجليز لمدة لا تقل عن خمسة عشر عاماً . من أجل أن نزيد معارفنا ومدنيتنا الى الحد الذي نستطيع معه ادارة شؤوننا بأنفسنا » (٩) .

فيما بعد وفي نفس العام بدأ موقف محمد فريد يتصلب . فانتقد توفيق

لخشيتة المتزايدة على عرشه ، ووزرائه لمحاولتهم ارضاء البريطانيين من أجل الاحتفاظ بمناصبهم العالية (١٠) . فى عام ١٨٩٢ أعلن عن تأييده لسياسة « المقاومة السلبية » التى قادها الحاكم الجديد ضد الاحتلال من ناحية وتقوية الروابط العثمانية - المصرية من ناحية أخرى . فى عام ١٨٩٤ ظهر تاريخه عن الامبراطورية العثمانية ، وفيه ركز على أهمية دور الباب العالى كمدافع عن « دار الاسلام » . ومع هذا ففى نفس العام أضاف بتناقض تأييده لقانون ١٧ نوفمبر الذى دعا الى ابعاد الحكام الاقليميين الأتراك - الجراكسة الأرستقراطيين عن مناصبهم . وكان مناصرا قويا لجهود الحرب التركية ضد اليونان فى ١٨٩٧ ووزن الوطنية المصرية باستمرار بميزان الولاء فقط للامبراطورية العثمانية . والسؤال الحاسم هنا هو ما اذا كانت هذه البيانات تعكس اعتقادات راسخة أم أنها مجرد اجراءات تكتيكية الهائية استهدفت أساسا ازعاج البريطانيين (١١) .

تبقى جهود محمد فريد خلال السنوات ١٨٩٧ - ١٩٠٤ غامضة . اذ لم يعثر على أى من مذكراته عن هذه السنوات (١٢) . ولا يقول الرافعى عن هذه الفترة سوى أنه انشغل بالأعمال الحرة . ومن خطاب بعث به الى (اللواء) فى مايو ١٩٠٥ يمكن القول بأنه لم يكن ناجحا تماما كمحام وأنه ترك المهنة بقدر كبير من المرارة (١٣) . وبالإضافة الى اشتغاله بالمحاماة ، فقد بدأ فى عام ١٨٩٨ فى نشر مجلة علمية تصدر كل شهرين (الموسوعات) ، لكن نجاحه فى هذا المجال كان محدودا أيضا على ما يبدو . وقد كتب هو نفسه العديد من المقالات للمجلة ، وكان أغلبها فى موضوعات تاريخية . وشملت هذه الموضوعات انجلترا وفرنسا فى افريقيا ، انجلترا فى غرب افريقيا ، كيف فقدت جزر هاواى استقلالها ، انجلترا فى الترنسفال ، انجلترا فى جنوب افريقيا ، روسيا فى آسيا ، وسكك حديد سيبيريا . وقد ظهر أغلب هذه المقالات بين عامى ١٨٩٩ و ١٩٠١ . وفى ١٩٠٢ أنتج محمد فريد تاريخا قصيرا عن روما حتى نهاية الحروب البونية (١٤) .

من ١٩٠٤ الى ١٩٠٨ عمل محمد فريد بتعاون وثيق مع الحزب الوطنى . فصاحب مصطفى كامل فى رحلات عديدة الى أوروبا ، ومول الكثير من نشاطات الحزب السياسية من ماله الخاص ، وانغمس فى نشر (اللواء) فى طبعاته العربية والفرنسية والانجليزية (١٥) . وعندما توفى مصطفى كامل فجأة فى ١٩٠٨ انتخب محمد فريد ليخلفه كزعيم للحزب الوطنى . لكن دوره الزعامى بدأ وسط جو من الشك والنزاع الداخلى بسبب « افتقاده للذكاء ، والحسب والشخصية الآسرة التى كانت أسلفه » . فمن البداية أحس محمد فريد أن على فهمى كامل شقيق مصطفى

كامل كان يتآمر بمعونة الخديو لينتزع الزعامة من بين يديه (١٦) .

كانت السنوات الثلاث التالية مليئة بالمقاعب لمحمد فريد . فقد عين بوصفه زعيما للحزب الشيخ عبد العزيز جاويش محررا (للواء) . وكان جاويش في ذلك الوقت مفتشا للتعليم الديني بنظارة المعارف وكان ينظر اليه من جانب الكثيرين كداعية للجامعة الاسلامية أكثر منه قومي مصري (١٧) . عزز (جاويش) و (فريد) قوة الحزب العامة ، لكنهما أيضا زجا (باللواء) في مياه عميقة عندما أبعدا مؤيدي الحزب الهامين مثل عمر سلطان وطلعت حرب . وأدت المخاوف المتزايدة من العنف برئيس النظار بطرس غالى الى اعادة فرض قانون المطبوعات المتشدد الصادر عام ١٨٨١ ، ثم جعل اغتيال غالى اللاحق بمعرفة أحد أعضاء الحزب من فريد وعصبته موضع شك متزايد من جانب البريطانيين (١٨) . وحث نزاع حول ملكية (اللواء) في مارس ١٩١٠ فريدا على الانسحاب من ادارة الجريدة وتأسيس جريدته المنافسة (العلم) . ورغم أن الجريدة سرعان ما منعت من جانب الحكومة ، الا أن محمد فريد استمر في نشرها تحت مسميات اخرى « كالاعتدال ، الشعب ، والعدل » . ومع هذا ففي ١٩١٠ أصبحت تهمة القذف الصحفى جريمة ، وخشية التعرض لحريته فان محمد فريد ذهب الى أوروبا فورا (١٩) .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أمضى محمد فريد أغلب وقته بالخارج ، كاتبا ومتحدثا عن قضية الجلاء البريطانى . وحضر مؤتمرات دولية عديدة: مؤتمر السلام فى ستوكهولم (أغسطس ١٩١٠) ، مؤتمر بروكسل (سبتمبر من نفس العام) ، مؤتمر السلام فى جنيف (سبتمبر ١٩١٢) ، مؤتمر السلام فى لاهساي (أغسطس ١٩١٣) . وفى كل مؤتمر كان هدفه تنظيم الدعم الأوروبى لقضية مصر الوطنية (٢٠) . وبما أن عاد الى مصر فى ديسمبر ١٩١٠ حتى قبض عليه وسجن لمدة ستة أشهر . ثم نفى فى مارس ١٩١٢ ، وفى أغسطس ونوفمبر من نفس العام تم اغلاق (اللواء) و (العلم) نهائيا (٢١) . وهكذا تم تدمير قواعد دعم محمد فريد واحدة تلو الأخرى .

ثم جاءت نهاية مصائب الحزب الوطنى سريعة ونهائية ، عندما سعى محمد فريد المحروم من الدعم الداخلى الى استئناف نشاطه الحزبى بالخارج . حيث طور علاقاته مع الطلبة المسلمين فى أوروبا وحاول مساعدتهم على تنظيم جمعيات سرية سياسية (٢٢) . وتزخر مذكراته عن هذه السنوات بالمرارة واللوم (٢٣) ، وبدأ منذ ذلك الوقت شأنه شأن (لينين) وغيره من الكثير من الثوار الممزقين فى تصور الأعداء فى كل جانب واليأس فى العثور على أى شخص يأخذ قضيته بجدية . ومع هذا

فان اهتمامه بالتعاون المصرى - العثمانى لم يفتقر ، وكان عاملا فعلا عام ١٩١٣ فى انشاء (جمعية ترقى الاسلام) التى كان هدفها تنمية الروابط الوثيقة بين بلاد العالم الاسلامى (٢٤) . وفى استانبول اجرى تسوية مع الخديو المخلوع (عباس حلمى ، ونجح فى الحصول على مساندة شكلية من حزب (الاتحاد والترقى) لكفاحه ضد الاحتلال . وقد فشلت محاولة لضم سعد زغلول الى صفوف الحزب الوطنى ، وتكشف مذكرات محمد فريد عن نوع من الحسد لشعبية سعد المتزايدة فى مصر (٢٥) . على اى حال كانت فعالية محمد فريد كسياسى تقترب من نهايتها . ثم لقى وجه ربه الكريم مغمورا فى برلين فى نوفمبر ١٩١٩ . وكسفت شمس ذكراه بالصعود الشهابى لسعد زغلول والوقد ، ولعل اسهامه فى كل من السياسة والتاريخ لم يكن ليعرف لولا الترجمة المؤثرة التى صاغها عنه عبد الرحمن الرافعى .

كان محمد فريد من اصول تركية ، وتبدو نزعات الجامعة الاسلامية واضحة فى نشاطاته السياسية والأدلة التى يمكن اكتشافها من خلال تاريخه السياسى وحده محدودة بالمقارنة بمصطفى كامل ، ومن حسن الحظ أن محمد فريد لم يكن سياسيا فقط ولكنه ولكنه كان مؤرخا أيضا مثل معلمه قبله .

بالاضافة الى الدراسات القصيرة السابق الاشارة اليها ، فقد كتب محمد فريد عمليتين تاريخيين كبيرين ، كان أحدهما عن مصر فى عهد محمد على ، أما الآخر فكان عن الامبراطورية العثمانية . وقد ملء كلا من الكتابين ما كان يعد فى ذلك الوقت فراغا كبيرا ، حيث لم يكن متوافرا حتى ذلك الوقت عمل مخصص لأى من الموضوعين . كان اسهاما محمد فريد فى التاريخ المصرى اسهاما ذا دلالة ، برغم مواطن الضعف التى كانت فى كتبه مثل ما كان ايضا فى كتب مصطفى كامل .

ظهرت دراسة محمد فريد لعهد محمد على (كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية) فى عام ١٨٩١ (٢٦) ، ويقرر محمد فريد أن هدف الكتاب هو تنوير المصريين بماضى بلادهم الحالى وخاصة بانجازات مؤسس الأسرة العلوية . وكان الكتاب أيضا نتيجة لحب الرجل لأرض الآباء ودين العرفان بالجميل الذى كان يشعر به لنجاحه ورفاهيته . وكان القول المأثور « حب الوطن من الايمان » مقحما بطريقة ميكانيكية فى بداية الكتاب مبررا وجوده فى أعين القارئ المصرى المخلص (٢٧) .

باستبعاد غلالة الوطنية الرومانتيكية التى يحتوىها الاعلان

الافتتاحي للكتاب ، فان القارئ سيكتشف في الحال أن (البهجة التوفيقية) مجرد تاريخ عسكري لعهد محمد علي . وعناوين الفصول وحدها - «حرب الحجاز» ، «فتح الدرعية» ، «استسلام عبد الله بن سعود» ، «فتح السودان» ، «الحرب اليونانية» . «الحرب السورية» ، «فتح عكا» - تكشف عن رجحان كفة الشئون الحربية . ولم ينتقل محمد فريد الى مجالات أخرى الا في الفصل النهائي ، مبينا لقرائه اجراءات محمد علي الاصلاحية الكثيرة . ورغم أن الفصل مختصر الا أن محمد فريد عالج اجراءات محمد علي بشمول مذهب وضمن المعالجة مجالا واسعا من الموضوعات كالمدارس ، المستشفيات ، البعثات التعليمية في الخارج ، أحواض بناء السفن والاصلاح البحري ، تحصينات الحدود ، مصانع النسيج ، الري ، خطوط البرق ، الخ . ثم ختم محمد فريد الفصل بقوله أن قبول المصريين لهذه الاجراءات كان غير وثيق الصلة بالموضوع حيث أن هذه الاجراءات كانت ضرورية ونافعة (٢٨) .

وكما قلنا فان بقية الكتاب كانت عن فتوحات محمد علي في السودان ، الجزيرة العربية ، المورة ، سوريا . أما النمط العام لرواية هذه الحوادث فكان وصف الحملات بتفاصيل دقيقة مع إلحاقها بكييل المديح للبسالة المصرية . وفي بعض الأحيان فقط كان محمد فريد يناقش الدوافع . فقد زعم على سبيل المثال أن السودان قد غزى لأسباب عديدة :

- ١ - حماية التجارة على امتداد النيل .
 - ٢ - لتجنيد الجنود النوبيين المشهورين في جيش محمد علي .
 - ٣ - للتخلص من الجنود الألبان النظاميين .
 - ٤ - لانتهاء المقاومة المملوكية لحكم محمد علي .
 - ٥ - للبحث عن الذهب . وقد أشار محمد فريد الى السودانين « بالبرابرة » لكنه على العكس من ذلك مدح النوبيين « لمقاومتهم الشجاعة للجيش المصرية الزاحفة » (٢٩) .
- بدأ محمد فريد روايته عن الحرب الوهابية بشرح عقيدة الوهابيين بنزاهة مطلقة . (والكثير من معلوماته مستمد من مقالة منشورة في (Journal Asiatique) (٣٠) . ثم استكمل يتناقض مؤكدا أن الله هو الذي أرسل محمد علي لمحاربتهم . وأنهى القصة بوصف متوهج لعودة إبراهيم باشا من الحملة الوهابية في ٩ ديسمبر ١٨١٩ .

« ملئت سمعته وشهرته كل مكان ، الى جانب شهرة الجيوش المصرية التي أظهرت تحت قيادته القدرة على الدفاع عن الوطن كالأسود في الغاب

وهزيمة البلاد التي مروا بها . (ولقد كان هذا ممكنا) ما دام قادتهم رجال مسؤولين نبلاء ، (في الغرض) ، محبين لوطنهم العزيز وواضعين المصلحة العامة قبل المصالح الشخصية (٣١) .

ولا شيء مما فات يعطى تنويرا ثقافيا . وربما تزود التواريخ الزمنية التفصيلية للمعارك في الجزيرة العربية بعض الطلاب بقليل من الحقائق الممتعة ، ما عدا ذلك فان وصف محمد فريد للحوادث في الجزيرة العربية والسودان قليل القيمة . وعلى العكس من ذلك فان المناقشات حول الحملات الى اليونان وسوريا قد عولجت بمهارة أكثر - برغم احتوائها على بعض العيوب السابق الاشارة اليها قبلا . في كل من الحملتين يعرض محمد فريد بوضوح متقن لتعقيدات الدبلوماسية الأوروبية . وروايته عن المصالح المتعارضة للقوى الأوروبية وبواعث سياستهم الخارجية فيما يتعلق بمصر والشرق الأدنى تكشف عن ادراك عظيم ، وبنائها في أغلب الأحوال معتدل (٣٢) . ورغم أنه يحذف أغلب الروايات عن الفظائع التي ارتكبتها المصريون ضد اليونانيين ، فانه راغب عن اعطاء حكم نهائي في التقارير الكثيرة المتعارضة (٣٣) .

وفي معالجته للارتباك المصري في سوريا ، فان محمد فريد ينضم بصلاية الى الجانب المصري ، فيمدح بسالة الجنود المصريين الذين حاربوا « كالأسود الضارية بقوة لا يمكن لرجل أو وحش أن يقاومها » (٣٤) . ويدافع عن السياسات الاحتلالية القاسية التي طبقها ابراهيم باشا ، زاعما أنها كانت ضرورية من أجل ايقاف (نشر الفساد) (٣٥) . وفي النهاية فانه يصف انسحاب القوات المصرية من سوريا بأسلوب رثائي كثيب ، ملاحظا في الختام أن الانسحاب أدى الى عودة البلاد الى أحوالها المضطربة السابقة من الحروب الأهلية بين الدروز - المسيحيين في ظل حكم عثماني عقيم (٣٦) .

ولا يجد محمد فريد شيئا يستلقت الانتباه بعد الجلاء المصري عن سوريا . وفي نهاية الفصل الذي خصصه لسوريا فانه يقحم مذكرة مختصرة عن قرار محمد علي بإرسال مجموعة من الطلبة الى باريس رغم أن الموضوع غير ذي صلة هنا (٣٧) . وباقي الكتاب (باستثناء الصفحات الخمسة عشرة الأخيرة عن اصلاحات محمد علي) مخصص بشكل غير متوقع لزيارة الدوق دي مونتبنسيير Duc de Montpensier لمصر ورحلات ابراهيم باشا في أوروبا (٣٨) . ولا يوجد أي تبرير تنظيمي لهذه الفقرات، ولعل السبب الوحيد المحتمل لهذا الضم هو أن محمد فريد كان يحسوز المعلومات المتصلة بها .

من الواضح أن « البهجة التوفيقية » ليس تاريخاً لمحمد علي في الكثير بقدر ما هو اعتذار عن طريقة حكمه . والمعيار الوحيد عند محمد فريد للحكم على محمد علي هو القوة الخام التي سيطرت عليها مصر في عهده والتي نتج عنها حصول مصر على نصر بعد نصر في ميادين المعارك . فهو يقر بأن الشعب المصري قاوم نظام محمد علي الضرائبي وسياساته التجنيدية لكنه يضيف أن ما بذروه كانت ستجنه الأجيال المقبلة ، وأن السنن الطويلة من القهر جعلتهم ينسون أن لهم وطناً يدافعون عنه (٣٩) وفيما يتعلق بالثورة السورية ضد الحكم المصري عام ١٨٣٤ فإن محمد فريد يدعى أنها لم تكن لتحدث لو كان السوريون قد أدركوا أن الأرواح والممتلكات في أمان إلى حد عدم الحاجة إلى حمل السلاح (٤٠) .

تنتشر عبر صفحات « البهجة التوفيقية » فكرة أن محمد علي لا يمكن أن يرتكب الخطأ . ويشير فريد إلى إبراهيم باشا « ببطل مصر » ، وحتى أعضاء الأسرة المالكة الأقل شأنًا كالأمير طوسون ينالون مديحا فصيحا (٤١) . ويصل تفسير محمد فريد للحوادث في بعض الأوقات حد السخف الباعث على السخرية ، فهو يرفض أن يصدق على سبيل المثال الانتفاير عن الخلاف الذي وقع بين الكولونيل سيف Seves وإبراهيم باشا . ويزعم أن الرجلين كانا « أعظم » من أن يتورطا في منافسة شخصية ، وأنه إذا كان هناك بالفعل شيء من سوء الفهم بينهما فلا بد أنه كان نتيجة (لحسد الحاسدين ووشى الواشين) (٤٢) .

حيث أن « البهجة التوفيقية » قد ظهر في ١٨٩١ فلا بد أن يكون قد كتب خلال فترة الولاء من حياة محمد فريد عندما كان لا يزال يشغل مناصب عالية نسبيا في الدائرة السنية . وربما يكون الكتاب قد كتب بناء على توجيهات من توفيق ، وإذا كان الأمر غير ذلك ، فلا بد أن محمد فريد كان مدركا على الأقل بمقدار الدعم الذي سيضيفه هذا الكتاب إلى وضعه الوظيفي . وأيا كان الأمر ، فإن الولاء للعائلة الحاكمة في مصر أصبح الدافع المرشد Leitmotif لما كان في التحليل النهائي نوعا من الملاحم وقصص البطولة أكثر منه تاريخا . وفوق هذا ، فقد افتقر الكتاب إلى تقييم مصطفى كامل النقدي لدوافع الشخصيات التاريخية المختلفة أو قوة الحجة في المناقشات التاريخية العديدة (٤٣) . ومصطفى كامل لم يسمع أبدا للوطنية أن تنال من تاريخه إلى حد الغاء قيمته ، لكن الوطنية في حالة محمد فريد دمرت في النهاية كل الاعتبارات الأخرى . .

وبصرف النظر عن المذاق الانحيازي القوي في تاريخ محمد فريد عن محمد علي ، فإن الكتاب يحتوي على جوانب أخرى من الخلل . فمن حيث

الأسلوب ، كان الكتاب أعظم بكثير من عمل الموسوعيين (على مبارك وأمين سامى) والمؤرخون الأخباريون المحدثون (شاروبيم وسرهك) ، ولكنه فشل فى احراز ما يقابل الأناقة الرقيقة التى وضعها مصطفى كامل فى « المسألة الشرقية » . كانت اللغة فى « البهجة » متخلفة عن العصر ، واستخدام الكاتب مصطلحات قديمة بدلا من استخدام مرادفاتها المتنبلة الحديثة (ككلمة اضمحل بدلا من درس ، واسطول بدلا من دونمه) . ومن الغرابة بمكان انه لم يكن هناك مؤرخ من مؤرخى القرن التاسع عشر يستطيع أن يوازى محمد فريد فى قدرته على استخدام السجع ، الذى كان فى يده طبعاً ومنسوجاً كالشعر (٤٤) . ومع هذا ، فقد كان نثره يمثل ردة الى الطريقة المادية المستخدمة فى الكتابة التاريخية الزمنية التى سادت فى زمن مبكر . فاذا أضفنا هذا الى مذكراته المقال بأنها مليئة بالأخطاء النحوية (٤٥) ، فاننا نجد التأكيد على صحة ما افترضناه مسبقاً من أن الأخطاء اللغوية قد تؤدي الى معالجة ضحلة ، متنافرة للأحداث على غرار التاريخ الزمنى Chronicle .

وفيما يتعلق بتجربة محمد فريد مع التوثيق فقد كانت فوق المتوسط وربما كان هذا دلالة على الامتياز الذى منحه له وضعه الوظيفى العالى فى الوصول الى مجموعات السجلات الهامة . فى المعلومات المتعلقة بالسنوات الأولى من عهد محمد على يقر محمد فريد باعتماده على تاريخ الجبرتى ، لكن غياب التحشية الملائمة footnoting يجعل من الصعب القول متى كف الجبرتى ومتى بدأ محمد فريد مرة أخرى (٤٦) . وبالإضافة الى « العجائب » فقد استخدم محمد فريد أعمال كلوت بك Clot Bey ، هامون Hamont ، مبارك ومانجان Mengin ، الى جانب مجموعات عديدة منشورة من الوثائق الأوروبية (٤٧) . ومن المظاهر المثيرة للاهتمام فى « البهجة » ذلك العدد الضخم من التراجم عن الشخصيات الأوروبية القيادية كالأدميرال نلسون Admiral Nelson ، والد الكولونيل سيف Colonel de Seves ، سيف نفسه Seves ، دوق ويلينجتون Duke of Wellington ، شامبليون Champillon ، لورد بايرون Lord Byron ، جيزو Guizot ، بالمرستون Palmerston ، مترنيخ Metternich ، تيير Thiers ، وليدى ستانهورب Lady Stanhope . ولا يكشف محمد فريد عن مصدر هذه المعلومات ، لكنه كان يستطيع أن يحصل على موسوعة أو من هو من Who is who أوروبى معاصر بسهولة خلال واحدة من زيارته الكثيرة الى أوروبا (٤٨)

وعلى خلاف باقى « البهجة » فان هذه الأجزاء لا تحتوى على أى تعليق شخصى من أى نوع عن الأشخاص المترجم لهم ، والذين يفترض

أن محمد فريد كان يرى بعضهم شخصيات مكروهة . ولعل هذا الشذوذ الظاهر يؤكد لنا أن محمد فريد قد ترجم ببساطة هذه المعلومات على علاقتها من مرجع أوروبى متوفر لديه (٤٩) .

كان العمل التاريخى الكبير الآخر لمحمد فريد هو « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الذى ظهر عام ١٨٩٤ . ولابد أن محمد فريد كان قد قرر خلال السنوات الثلاث التالية لنشر « البهجة » أنه لم يعد هناك ضرورة لكتابة العنوان مسجوعا . ويبدو أن « تاريخ الدولة العلية العثمانية » قد حاز شعبية أكبر من الدراسة التى كتبها محمد فريد عن محمد على ، حيث أن الكتاب طبع ثلاث مرات حتى عام ١٩١٢ . ولما كان العمل لا يتصل بتاريخ مصر الا بصورة هامشية فقط ، فإنه يخرج عن نطاق تحقيقنا الحالى ، اذا تكلمنا بدقة . وأهمية العمل لنا هى أنه يزودنا بتبصر داخل التكنيك التاريخى لمحمد فريد وفلسفته السياسية .

يغطى « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الفترة من عهد عثمان - مؤسس الاسرة - حتى ١٨٧٨ وتوقيع معاهدة برلين (٥٠) . ومن بين الأربعمئة وخمسة عشر صحيفة التى يحتويها الكتاب فإن القرن التاسع عشر يستحوذ على أكثر من النصف منها . وقد أضاف فريد فى الطبعة الثالثة - وهى التى استخدمتها - مقدمة قصيرة (٣٨ صفحة) عن التاريخ الاسلامى من الخلفاء الراشدين حتى عهد عثمان وفصل نهائى متعجل مختصر (١٠ صفحات) عن الأحداث من ١٨٧٨ الى ١٩٠٩ (٥١) .

يقول محمد فريد أن الغرض من الكتاب ذو شقين . فهدفه العام هو مثل أى عمل تاريخى - تنمية فهم أكبر للأمم ، الناس ، القوانين ، أسباب الرفاهية والتدهور ، الخ . أما الهدف المحدد والأكثر دلالة فهو تسجيل قسم من التاريخ المجيد « للامة الاسلامية » - وهو تاريخ شارك العرب فيه مع المسلمين (٥٢) . ويقرر محمد فريد أن الامة الاسلامية كان لها فرعان ، العرب والترك . وأن العرب تلقوا اهتماما كثيرا من المؤرخين لكن الأتراك جرى تجاهلهم بدرجة كبيرة ، برغم حقيقة أنهم - والقول له - هم الذين « لموا شعث » هذه الامة وحفظوا سيطرة الامة الاسلامية القديمة (٥٣) . لذلك فإن « تاريخ الدولة العلية » قد يخدم إعادة تأكيد (روابط التبعية) بين مصر والامبراطورية العثمانية ، (لتعزيز الجامعة المالية) ولتظهر لكل (شرقى) سواء أكان مسلما أم لا أنه يجب أن يجاهد من أجل الحفاظ على تكامل الامبراطورية (٥٤) .

وهذه مادة جيدة تماما ، اذا كانت ستتخذ بجدية . لكنه لا ينافى العقل كثيرا القول بأن محمد فريد لم يكن يقصد حقيقة أى شيء من هذا

وانه قام بهذا العمل الضخم كذريعة مؤقتة ؟ شيء أن تدافع عن الوحدة العثمانية - المصرية في خطب قليلة معدة على وجه السرعة ، ولكنه شيء آخر تماما أن تخصص سنوات لكتابة دراسة متخصصة عن موضوع التضامن العربى - التركى . لذلك فانه يكون أقرب الى الاقناع أن ينظر الى « تاريخ الدولة العلية » كتقرير ايديولوجى جاد ذا أهمية متقدمة . والكتاب يؤكد اعادة تفكيره فى الأفكار التى كان قد عبر عنها فى « البهجة » بالإضافة الى اعادة الانحياز الأساسى للسياسة الخارجية المصرية خلال هذه السنوات .

ولقد تحالفت عدة قوى مختلفة - أجنبية ومحلية ، لاحداث هذا التغير . فعلى المعتزك العالى على سبيل المثال ، كانت انظمة جديدة للتحالف تبدأ . كانت تركيا العثمانية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر تتحرك بعيدا عن صداقتها التقليدية لبريطانيا العظمى وتتحول نحو روابط أوثق بألمانيا ، قاضية بذلك على العقبة الوحيدة ذات الأهمية القصوى فى طريق تحسين العلاقات العثمانية - المصرية (٥٥) . ويتوقع الوفاق الفرنسى - الروسى عام ١٨٩٤ كان يجب اعتبار فرنسا أيضا عدوة للامبراطورية ، التى أصبح واجبها حينئذ هو اقناع الدوائر الحاكمة المصرية أن اعلانات حسن النوايا نحوهم من جانب الفرنسيين لا يقل خداعا عن اعلانات البريطانيين تجاه الأتراك . لم تكن بريطانيا وفرنسا قد أصبحتا حليفيتين بعد فى ذلك الوقت ، رغم أنهما كانتا قد توصلتا فى ١٨٩٠ الى حل أغلب منازعاتهما الاستعمارية القائمة . وعلى ذلك فان آمال مصر فى استخدام فرنسا كمعادل للنفوذ البريطانى كانت قد بدأت فى الذبول ، ولم يكن هناك سبب ملح يدفعها (مصر) الى الارتياح فى معقولية الآراء العثمانية . كان الطريق فى الحقيقة ممهدا لنوع جديد من التفاهم العثمانى - المصرى ، المؤسس على الروابط الدينية القديمة والاحساس القوي بالولاء الذى كان لا يزال كل المسلمين يحسونه تجاه الخلافة . ولقد كان هذا هو ما يدور بخلد السلطان عبد الحميد الثانى عندما شرع فى انتهاج السياسة الخارجية العثمانية ذات الصفة الاسلامية الجامعة .

ولم تكن التغييرات التى ظهرت داخل مصر نفسها خلال الفترة نفسها اقل درامية من تلك التى جرت على الصعيد الخارجى . فقد كان توفيق يتدبر أمره على أساس أن رغبات بريطانيا يجب أن تحترم ، وكان محمد فريد يقتفى آثار اقدام سيده عندما أصدر رأيه عام ١٨٩١ بشأن المظاهر الايجابية للاحتلال البريطانى (٥٦) . لكن كل الافتراضات القديمة كان ينبغى طرحها مع تولى عباس فى العام التالى ، ولم يستغرق الأمر وقتا .

طويلا ليدرك المصريون أن عباس هو بطل حقيقى للقضية الوطنية . فقد تصادم الخديو وكرومر فى الحال ، ولابد أن محمد فريد قد عرف بصفته موظف كبير فى الحكومة المصرية بخطط عباس لتنظيم نواة من المقاومة الوطنية للبريطانيين . ولقد كان الحذر ضروريا بطبيعة الحال ، حيث أن كرومر والبريطانيين كانوا لا يثقون بعباس وقد يفسرون أى تعاون على بينه وبين الحزب الوطنى (أو بينه وبين العثمانيين ، فيما بعد) كعمل تآمري يعطيهم الأسباب الكافية لعزله (٥٧) . كان كل شئ يجب أن يعمل بكتمان ومن خلال وسطاء ان أمكن ، لتجنب شك البريطانيين فى أن شبكة مركبة من العلاقات العثمانية - المصرية يجرى بنائها .

كان أول تحركات عباس هو العفو عن عبد الله النديم ، الذى عاد عندئذ الى القاهرة ليبدأ نشر الجريدة ذات الاتجاهات القومية العالية (الأستاذ) . وسرعان ما احتضن النديم مصطفى كامل ، لكنه نفى مرة أخرى لتطرفه الصحفى . ثم تحول عندئذ ، وبصورة مذهلة كموظف مأجور لحكومة السلطان فى استانبول (٥٨) . كان الداعية الاسلامى جمال الدين الأفغانى فى ذلك الوقت ضيفا على السلطان عبد الحميد أيضا ، وتمتع «تابع» الأفغانى ، محمد عبده بوضع مشابه فى البلاط المصرى . وقيل ان الأفغانى كان مهتما باخطار التوسع الروسى فى وسط آسيا التركية ، وهو ما كان نفس موضوع مقالات كثيرة ينشرها محمد فريد - بتزامن - فى الصحافة المصرية (٥٩) . وكان محمد فريد قد تقابل مع مصطفى كامل فى عام ١٨٩٣ ، بينما كان لا يزال موظفا كبيرا فى حكومة عباس ، وفى ١٨٩٥ ، ان لم يكن قبل ذلك ، كان الرجلان قد أصبحا صديقان حميمان . وكان «تاريخ الدولة العلية» قد نشر فى نفس الوقت ، معلنا فضائل التضامن العربى - التركى تحت حماية السلطان .

يساعد النمو الواضح لبحور القاهرة - استانبول خلال هذه السنوات على شرح كيفية اتخاذ مصطفى كامل موقف الدفاع عن السلطان فى انكار الحقوق الاقليمية المصرية عام ١٩٠٦ (٦٠) . ومع ذلك فان الدليل غير كامل بصورة مضنية ، وهناك الكثير من الأسئلة الهامة دون اجابة . لكن ، على سبيل المثال ، كان على محمد فريد ان يختفى مغمورا فى عام ١٨٩٧ ، ليظهر فى عام ١٩٠٤ عندما كان مصطفى كامل وعباس يحلان رباط صلاتهما الوثيقة السابقة ؟ هل استبقى عباس الشيخ على يوسف فى رعايته كاختيار بديل اضافى فى حالة فقدان السيطرة على الزئبقى مصطفى كامل ؟ هل كانت مخاوف محمد فريد من أن الخديوى وشقيق مصطفى كمال كانا يتآمران ضده فى محلها ، واذا كان الأمر كذلك ، لماذا كانا هما ؟ هل كان تعيين فريد للشيخ عبد العزيز جاويز محررا (للواء) اشارة

الى تعاون مستمر بين الحزب الوطنى ودوائر القصر ؟ واخيرا هل قرر عباس فعلا قطع علاقته بمصطفى كامل فى عام ١٩٠٤ ، واذا كان الامر كذلك ، فلماذا ؟ .

ان الاجابة على مثل هذه الاسئلة مدفونة فى مكان ما فى الارشيف العثمانى ، المصرى و / او البريطانى . ولا نستطيع فى الوقت الحالى الا أن نحزر أن فريدا كان منغمسا بعمق فى جهد المقاومة (ايا كان شكلها الحقيقى) وأن تاريخه العثمانى كان مرحلة من الهجوم العام . بداءة فانه من المحتمل على الأقل أن يكون قد أحس بأنه كان فى صف حاكم مصر لدرجة كبيرة وليس مع سياسى غير معروف كمصطفى كامل . لكن ما اذا كان أم لم يكن عنده خيار فيما بعد فى الأمر أو ما اذا كان قد أصبح تحت سيطرة مصطفى كامل الكاريزمى فمن الصعب البت بقول قاطع . ايا كان الأمر ، فقد كان عليه فى النهاية أن يشارك مصطفى كامل مصيره .

ومع أن محمد فريد قد بدأ اشتراكه مع مصطفى كامل قبل أن يكون قناعاته السياسية ، فانه لم يكن بالضرورة مخدوعا مستعدا لتغيير افكاره السياسية متى تطلبت الظروف ذلك . وربما كان تفاضيه المبكر عن الاحتلال البريطانى على مضض ، ولهذا فانه وجد فى تولى عباس فرصة مواتية لينفك عن عواطفه الحقيقية . لقد كانت جهود محمد فريد فيما بعد من أجل حزيه متواصلة كما رأينا ، ولقد خصص قدرا كبيرا من ثروته الخاصة لصالح القضية الوطنية المصرية . واذا كان تاريخه العثمانى تعبيرا عن مشاعره فانه فى الواقع قد اختار بكل قلبه لون مصطفى كامل الموالى للعثمانيين .

ان مشاعر كامل نحو الأوروبيين بأنهم هم المسئولين عن متاعب الاسلام تجد صدقها واضحا فى « تاريخ الدولة العلية » . وفى دراسته لمعاهدة تيلست Tilsit (١٨٠٧) (٦١) على سبيل المثال يكشف محمد فريد عن المدى الحقيقى لمرارته تجاه الأوروبيين :

« وعلى ذلك فانه يبدو واضحا للقارئ أن أى وعد من الأجنبى هو سراب خادع ومضلل يحسبه الظمآن ماء (٦٢) . ان وعودهم بالنوايا الحسنة والصدقة هى من أجل الوصول الى أهدافهم ولانجاح خططهم . ان الشخص الذكى لا يتعلق أبدا بوعودهم ولا يخدع بفكرة أن دولة أوروبية تعنى أبدا الخير أو ترغب فى الاصلاح لأى دولة أو أمة شرقية . ان الحوادث التاريخية التى يتضمنها هذا الكتاب هى أبلى دليل على ذلك . ولعلها كتحذير لهؤلاء الذين يعتبرون ، (٦٣) .

وفى موضع آخر من تاريخه العثمانى يزعم محمد فريد أن « لا دولة أوروبية ترفض استخدام الغش والخديعة فى السياسة ، حتى أن مصطلح

ة سياسية ، عندهم أصبح مرادفا للكذب والغش ، ومع هذا ، فالشرقيون لا يعترفون بهذا السلوك (٦٤) . ويقرر أن الامبراطورية العثمانية كانت واحدة فقط من بين الكثير من القوى الاسلامية التي اغتيلت بيد (التعصب) الدينى المسيحى (٦٥) ، الذى يقارنه محمد فريد كخبث شرس بالتقليد الاسلامى المتسامح مع المذاهب الأخرى (٦٦) . ويزعم بأن العالم يسمع كل يوم عن مذابح جديدة ترتكب من جانب المسيحيين الأوروبيين بينما عرفت الامبراطورية العثمانية تاريخيا بأنها ملجأ المقهورين (٦٧) .

ان عاطفة محمد فريد تجاه الامبراطورية العثمانية عميقة للغاية، لكن هل يعنى هذا بالضرورة أنه استحسن علاقة نامية بين القاهرة راستانيول ؟ انه يجيب علينا بنفسه فى روايته عن الحرب السورية . فعلى تناقض حاد لمعالجته المتعصبة لمصر لنفس الموضوع فى « البهجة الترفيقية » يناقش محمد فريد من « تاريخ الدولة العلية » أحداث الحرب فى نغمة محايدة مطلقة . ومع هذا فهو يقدم الدراسة بالبيان الجلى التالى : « ان مصر باقية وستبقى بارادة الله جزءا من الامبراطورية العثمانية » (٦٨) .

اذا كنت فيما أبدر أهاجم هذه النقاط ، فذلك لأن استنتاجاتى حول « فاهيم مصطفى كامل ومحمد فريد وكل الحزب الوطنى بشأن الرابطة العثمانية - المصرية تختلف لدرجة كبيرة عن استنتاجات باحثين أمثال شتتيبات Steppat وجولد شميت Goldschmidt . ولا يبدو عندى بعيد الاحتمال أن يكون مصطفى كامل ومحمد فريد قد تصورا نوعا من الاتحاد الاسلامى بزعامة الخليفة . ولقد كان هذا دليلا على تطرفها فى أعين المصريين - وليس دليلا على رجعتيهما كما اتهمهما المراقبون الخارجيون - حيث أنهما وعلى خلاف أحمد لطفى السيد وقاسم أمين رفضا كلية كل الروابط مع الغرب وركزا بدلا من ذلك على النوع الوحيد من التكيف السياسى الذى لو أعمل فانه كان يشكل متاعب للغرب . ويغفل الدارسون كثيرا حقيقة أنه حتى اثناء الحرب العالمية الأولى حارب الكثير من العرب (مع) الأتراك وليس ضدهم - وفعلوا ذلك بالرغم من السياسات المضللة للاتحاد والترقى الخاصة بالترريك ، والوعود المعسولة الصادرة من الحلفاء عن الدولة العربية المستقلة بعد الحرب (٦٩) . أيضا فان من السهل نسيان كيف كان البريطانيون قلقين للغاية بشأن الهجمات العثمانية على قاعدتهم فى السويس ، والتي كان يمكن بقليل من الحظ أن تؤخر تاريخ ثورة ١٩١٩ عدة سنوات للامام . لقد كان محمد فريد يحاول فى هذه اللحظة أن يشكل تحالفا عثمانيا - مضريا حول عباس حلمى المخلوع

والمحبوب أيضا ، وربما تصور نفسه مع الخديو على رأس «جيش التحرير» العثماني . وبوضع ميزة ادراك طبيعة الحادث بعد وقوعه ، فان هذه الفكرة تبدو خيالية . لكن من المأمون القول ان قوة كهذه فى ذلك الوقت كان يمكن أن تستقبل بصيحات الفرح من جانب الشعب المصرى .

كانت نهاية الحرب فى الحقيقة نهاية لكل هذه الأحلام . فقد تنكرت تركيا الكمالية لصلاتها الاسلامية ، ودمرت الامبراطورية ، ونظرت البعد العربية الجديدة الليفانتية للاشياء بنظرة مختلفة تماما عن نظرة الحزب الوطنى لها . واضطر الحزب الوطنى بالتبعية الى التحول خلال فترة ما بعد الحرب الى التركيز على هدفه الأمين (الجلاء) ، الذى وان كان لا يمكن الطعن فيه سياسيا ، الا أنه أصبح الآن مجردا من النظرية المثالية المعرض من التضامن الاسلامى تحت احمية العثمانية . كان الجلاء هدفا سلبيا بحتا ، ان لم يكن فى حصد ذاته كافيا لحسب اتباع حيرين للحزب . كان النداء الاهم البناء للحزب من أجل الوحدة العثمانية - المصرية ضد أوروبا أكثر حجية واقناعا ايام محمد فريد ومصطفى كامل ، لكنه لم يعد صالحا لأحوال ما بعد الحرب . كان يتآكل ببطأ بفعل الفكر الجديد للقومية العربية ، التى أصبح لها عند المصريين فى النهاية نفس النظرة الرومانسية التى كانت لنداء الجامعة الاسلامية الذى نادى به الحزب الوطنى فيما قبل الحرب . لقد أثبت الحزب الوطنى نفسه عدم قدرته على التكيف مع تغير الوقت . فعبد الرحمن الرافعى نفسه الذى كان أحد أواخر المتحدثين باسم الحزب تجاهل على مدى حياته كلها هدف القومية العربية . وبالطبع فان الرافعى ، شأنه شأن كل واحد ، توقف عن الحديث عن التضامن الاسلامى ، الذى كان قد أصبح وقتئذ هدفا غير رافعى . لكن من الأمور ذات الدلالة أن الحزب الوطنى ظل يجذب أكثر المصريين المسلمين تقوى الى صفوفه حتى تأسيس جماعة الاخوان المسلمين (٧٠) .

حتى الآن كان استخدامنا « لتاريخ الدولة العلية » فى المقام الأول كمصدر للتبصر فى اتجاهاته السياسية ، لكن للكتاب - اذا نظر اليه كعمل تاريخى - وضع أعظم بكثير من « البهجة التوفيقية » . لقد انتحل فريد مرة أخرى تراجم عديدة من بعض المراجع الأوروبية المتداولة ، لكن توثيقه للتاريخ العثمانى عامة فاق كثيرا كتابه السابق . كل المعاهدات والمراسيم ذات الصلة بالموضوع اقتبست بالكامل ، وهو مجهود لا بد أنه استلزم ترجمة مكثفة من المصادر التركية (٧١) . وبالنسبة للمصادر الثانوية فقد رجع محمد فريد الى الخطط التوفيقية ، تاريخى - جودت ، الجبرتى ، دراسة فيليب جلال عن الملكية (٧٢) . وكنز الرغائب فى منتخبات الجوائب،

الى جانب أعمال أخرى • وكما فى « البهجة » فقد أظهر محمد فريد معرفة كاملة بتاريخ أوروبا الحديث وارتكابه على التطورات داخل الامبراطورية العثمانية • ومثل القسم الذى خص ما قبل القرن التاسع عشر من الكتاب تاريخا زمنيا Unronicle انيقا ، وربما كان مستمدا فى الحقيقة من مصدر من هذا النوع • أما فيما يتعلق بالفترة التالية فقد أصبحت معالجة محمد فريد أكثر تحليلية ، ورغم تخلف الأسلوب عن رشاقة ولعان أسلوب مصطفى كامل فقد كان له مع هذا سمات الرقة والوضوح التى افتقرت اليها أعمال الموسوعيين (على مبارك وأمين سامى) و (المؤرخون الاخباريون المحدثون شاروبيم وسرهنك) •

أيا كانت مواطن ضعفهما ، فقد أدخل مصطفى كامل ومحمد فريد التاريخ المصرى بحسم الى العهد الحديث • وحاز التاريخ مباشرة فورية واتصالا بالموضوع فى يديهما ، حتى ولو كان المنظور الذى قدماه عن الموضوع ذا جانب واحد • ولكونهما وطنيين متحمسين فانهما لم يعتبرا الكتابة التاريخية أحد أهداف المراء الأساسية لكنهما راياها عنصرا فى النضال من أجل الاستقلال • ولقد كرس الرجلان حياتهما بأكملها لهذه القضية • لقد شعرا بوطنهما بقوة واستنكرا بعمق معاملته من جانب الغرب • وكان التاريخ كما فهماه وسيلة للدفاع عن مصر والعالم الاسلامى ضد الظلم والجور - ولم يترددا فى استخدامه •

حواشي الفصل التاسع

(١) مع سوء أحوال المالية المصرية في بواكير سبعينيات القرن التاسع عشر ، عرض الخديو اسماعيل على انجلترا ايفاد موظف مالي كفء لدراسة الحالة المالية للبلاد ومعاونة المسئولين على اصلاح الخلل . أوفدت انجلترا في ديسمبر ١٨٧٥ لجنة برئاسة ستيفن كيف Stephen Cave . وفي تقريرها عن أحوال مصر نددت اللجنة بأسلوب ادارة البلاد من الناحية المالية وتحدثت عن الفساد المستشري في الجهاز الاداري المصري . وأشارت اللجنة باستعمال محصلات (قانون المقابلة) لوفاء الديون قصيرة الأجل (التي اقترضت سنوات ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ ، ١٨٦٧) وتحويل الديون الأخرى الى دين موحد قدره ٧٥ مليون جنيه يسدد في ٥٠ سنة بفائدة ٧٪ . واقترحت اللجنة أيضا أن تخضع المالية المصرية لرقابة أوروبية . في ٢ مايو ١٨٧٦ وبعد توقف مصر عن سداد الديون (أبريل ١٨٧٦) أنشأ اسماعيل بناء على مشورة الماليين الفرنسيين صندوق الدين ليكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتسلم فيه المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية . وخصص لهذا الصندوق إيرادات بعض بلاد القطر الى جانب إيراد جمارك الاسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمياط والعريش والسكك الحديدية وغيرها .

لكن انجلترا رفضت تعيين مندوب لها في الصندوق - ثم اتفقت بعد ذلك مع فرنسا على ايفاد لجنة (جوشن - جوير) في أكتوبر ١٨٧٦ لعرض مطالب الدائنين على الخديو .

طلبت اللجنة فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية ووضع ميناء الاسكندرية والسكك الحديدية تحت ادارة لجنة مختلطة ، فوافق الخديو وأصدر مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ الذي وافق فيه على تعيين مراقبين احدهما انجليزي لمراقبة إيرادات الحكومة والآخر فرنسي لمراقبة المصروفات - واسناد ادارة السكك الحديدية وميناء اسكندرية الى لجنة مختلطة مؤلفة من خمسة مديرين (بريطانيان ومصريان وفرنسي) على أن تكون الرئاسة لبريطاني وذلك وفق نص المادة ٢٣ من المرسوم . كانت اللجنة تتولى تسليم جميع إيرادات السكك الحديد الى صندوق الدين . ووفقا لما سبق فقد عين الجنرال ماريوت رئيسا لقومسيون السكة الحديد وميناء الاسكندرية وظل كذلك الى أن توفي ، وفي ٢٥ ديسمبر ١٨٧٩ صدر مرسوم بتشكيل لجنة ادارة المرفق من ثلاثة مديرين احدهم بريطاني وله الرئاسة ، والآخر فرنسي والثالث مصري - ثم انفرد الانجليز بإدارة المرفق في عهد الاحتلال . عبد الرحمن الرافعي « عصر اسماعيل » الجزء الثاني - الطبعة الثانية - القاهرة ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٦ - ٦٨ .

المترجم

(٢) بكربكي Beyler-bey لقب قديم للحاكم العام لمقاطعة عثمانية تحول بعض الوقت الى لقب شرقي يمنح للشخصيات العامة .

جيمس ردهاوس James Redhouse ، توركجه - انكليزجه لغت كتابي

A. H. Boyajian - Constantinople, pp. 371-75.

المترجم

(٣) يقدم الرافعى بسداجة هذه المعلومة النهائية كدليل على مشاعر أحمد فريد الوطنية التى اذا ما نحن حكمنا عليها من واقع تاريخه الوظيفى الطويل فى المناصب العالية فانها لا يمكن ان تكون متشاعر صريحة اطلاقا . ويكشف الرافعى أيضا فى موضع آخر ان محمد فريد كان يكتب مقالات لمجلة على يوسف (الآداب) عام ١٨٨٧ - ٨٨ دون ان يذكر اسمه . ويبدو ان أحمد فريد منع ابنه من الاشتغال بالسياسة خوفا عليه (ويحتمل خوفا على نفسه أيضا) .

الرافعى « محمد فريد » ص ١٦ - ١٨ ، ٢٠ ، ٢٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩ - ١٠ ، ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ . ولا يقول الرافعى ان مصطفى كامل ومحمد فريد كانا صديقين حميمين عام ١٨٩٣ ، كما ادعى كتاب مقالة حديثة فى « الكاتب » . انظر لرؤف عباس ، سيد مصطفى سالم ، محمد أنيس ، ومحمود اسماعيل « محمد فريد ومذكراته » ، الكاتب ، رقم ١٠٤ (١٩٦٩) ، ص ٢٩ - ٣٠ . ويقول الرافعى ببساطة انهما التقيا فى ١٨٩٣ .

(٦) وكان له ولع كبير بالسياحة - الرافعى « محمد فريد » ، ص ٣١ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣١ ، ٢٠٨ وما بعدها .

(٨) ولد نشر مذكرات محمد فريد فى البداية حرارة عظيمة أكثر من ضوء . وقد ظهرت هذه المذكرات أصلا فى جريدة الأخبار التى أعطى محررها حق الاطلاع عليها من جانب ابن محمد فريد (عبد الخالق فريد) . وقد شن البروفيسور محمد أنيس من جامعة القاهرة هجوما مريرا على الأخبار قائلا أن الدولة تصدر أوراق محمد فريد وتعتبرها « ملكية الأمة » . ومن هذا المنطلق يقول أنيس « أن المثقفين الحقيقيين وليس مجرد الصحفيين الهواة هم الذين يجب ان يطلعوا على هذه المذكرات .

انظر لأنيس « دعوة للوطنية ، لا دعوة للاحتكار » ، الجمهورية ، ٣٠ يوليو ١٩٦٤ .

والظاهر أن عبد الخالق فريد كان قد سمح فى الماضى لأى مهتم بأن يرى أوراق والده ، وقد استفاد تلاميذ أنيس من هذه الفرصة . انظر لموسى صبرى « هاتولى حبيبى » ، الأخبار ٥ أغسطس ١٩٦٤ . ومع ذلك فإن هذا لم يؤثر فى ناتج النزاع . وقد كسب أنيس دعواه فى نفس العام وأصبحت مذكرات محمد فريد ملكية مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر الذى كان أنيس نفسه يرأسه .

انظر رؤوف عباس وآخرين « محمد فريد ومذكراته » ، ص ٢٠ .

لكن تحذير أنيس السابق « لا دعوة للاحتكار » أصبح مثارا للسخرية ، حيث انه كمدير للمركز المذكور كان يستطيع ان يمنع اطلاق من لا يرغب فى اطلاعه على هذه المذكرات .

وفىما يتعلق بعدم التعويل على ترجمة الرافعى لمحمد فريد ، فإن رؤوف عباس ، وسالم وأنيس واسماعيل يزعمون ان الرافعى قد عدل بعض أجزاء من مراسلات محمد فريد بهدف بعضها منها ، وخاصة فيما يتعلق بسنواته المبكرة (١٨٩١ - ٩٧) . ويفترض ان الرافعى قد أضاف كلمات الى النص فى بعض الخطابات ، وأصلح أخطاء محمد فريد النحوية ووضع خطوطا أفقية تحت بعض الأجزاء ، الخ . ويزعم رؤوف عباس أن عبد الخالق

فريد قد أبلغه في مقابلة في صيف ١٩٦٤ أن التأشيرات الموجودة في أوراق محمد فريد كانت من فعل الرافعي وليس محمد فريد ، وهذا ان صح فانه يعنى ان عبد الخالق كان عازما على تشويه سمعة والده .

رؤوف عباس وآخرين « محمد فريد ومذكراته » ، ص ١٩ - ٢٠ ، ٣١ .

ومن الصعب ان يعرف كم من هذه الادعاءات صحيح ، حيث ان الاطلاع على أوراق محمد فريد مقصور على « الأشخاص المخولين » فقط . وتبدو سلسلة المقالات عن مذكرات محمد فريد المنشورة في (الكتاب) (والتي اعتبرت سابقا صحفيا حقيقيا) علمية وعادلة . وازافة قيمة لمعلوماتنا عن حياة محمد فريد . وقد نشرت ترجمة قديمة عن محمد فريد بقلم أحمد شوقي المحامي بواسطة مطبعة « اللواء » عام ١٩٤٩ . وهي دراسة شديدة الرومانسية وقليلة الأهمية للمؤرخ .

(٩) رؤوف عباس وآخرين « محمد فريد ومذكراته » ، ص ٢٧ .

(١٠) كان هذا خلال واحدة من نظارات مصطفى فهمي الخاتمة (١٨٩١ - ٩٣) ، قارن . ص ١٢٠ من الفصل السادس .

(١١) المعلومات الخاصة بنشاطات محمد فريد بين ١٨٩٢ و ١٨٩٤ مأخوذة من « محمد فريد ومذكراته » لرؤوف عباس وآخرين ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢١ - ٢٢ . قام مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بنشر أوراق محمد فريد - المذكرات - المجلد الأول بعنوان « أوراق محمد فريد » ١٩٠٤ - ١٩١٩ مذكراتي بعد الهجرة - تحقيق عاصم الدسوقي ، نشر الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ . ثم نشر المراسلات - المجلد الثاني - الجزء الأول بعنوان « مراسلات بين الزعيم محمد فريد وبين الشخصيات المصرية في مصر ١٨٩٦ - ١٩١٩ » ، تحقيق مصطفى النحاس جبر - نشر الهيئة العامة للكتاب .

المترجم

(١٣) الرافعي « محمد فريد » ، ص ٢٨ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠ - ٣٣ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤٤ - ٤٨ وجولد شميت Gold Schmidt
"The Egyptian Nationalist Party," p. 320

(١٦). جولد شميت Gold Schmidt

"The Egyptian Nationalist Party", pp. 322-23.

(١٧) كان هذا على وجه التحديد - وأنا أسلم بهذا - السبب الذي من أجله عينه محمد فريد ، وليس كما يزعم جولد شميت Gold Schmidt من أجل تكوين قاعدة جماهيرية للحزب . وكما سنرى حالا ، فان اتجاهات محمد فريد نحو الجامعة الإسلامية ناسبت تماما اتجاهات عبد العزيز جاويز حول هذا الموضوع .

(١٨) جولد شميت

"The Egyptian Nationalist Party", pp. 323-26.

وكما يتبين فان هذه الشكوك لم تكن في غير موضعها . فمذكرات محمد فريد المنشورة . أخيرا تشير الى انه اعتبر الاغتيال والعنف تكتيكات مشروعة . ويحتمل ان الحزب الوطني كان له نصيب في محاولات الاعتداء على حياة الخديو (١٩١١) ولورد كتشنر (١٩١٣) .

انظر لمحمود اسماعيل عبد الرازق « محمد فريد ومذكراته » ، ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ - ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، « الكاتب » رقم ١٠٧ (١٩٧٠) ص ١٥٦ . قارن مقالة عبد الرازق المتابعة عن مذكرات محمد فريد في « الكاتب » رقم ١٠٨ (١٩٧٠) ، ص ١٦٨ .

(١٩) الراقى « محمد فريد » ، ص ١٨٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ . ويرى محمد أنيس أن محمد فريد لم يغادر البلاد بسبب الخوف ولكن كجزء من خطة منصورة مسبقا . وطبقا لانيس فان عداوة البلاط ، الاحتلال ، بعض الدوائر المعينة من غير الحزب الوطنى بل وأعضاء من حزبه ، كل هذا أقنعه بأن أى تقدم فى مصر مستحيل .

محمد أنيس « كفاح فى المنفى : محمد فريد » ، الجمهورية ، ١٦ ، أكتوبر ١٩٦٩ .
ولا حاجة الى القول ان نفس هذه الأسباب جعلت محمد فريد يخشى على نفسه - فيرحل .
(٢٠) الراقى « محمد فريد » ، ص ٢٣٠ وما بعدها ، ٣٣١ - ٣٣ ، ٣٦٦ - ٦٧ .
(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ ، ٢٧٣ - ٨١ ، ٣٤٤ - ٤٥ .

(٢٢) أنيس « كفاح فى المنفى » .

(٢٣) عبد الرازق « محمد فريد ومذكراته » ، ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ - ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، ص ١٥٦ - ٥٧ .

(٢٤) الراقى « محمد فريد » ، ص ٣٦٤ - ٦٥ .

(٢٥) محمود اسماعيل عبد الرازق « محمد فريد ومذكراته » - ٥ : ٢٤ يوليو ١٩١٣ الى بداية مارس ١٩١٤ - الكاتب ، رقم ١٠٨ (١٩٧٠) ، ص ١٦٨ - ٧٠ .

(٢٦) قد تكون الترجمة الانجليزية الخشنة للعنوان هي

“The Grandeur Most Divine in the Account of the founder of the Khedivial line”

ولا تتفق مع المؤلف فى اعتبار جملة البهجة التوفيقية مقابلة لجملة The Grandeur Most Divine ، فمعنى هذه الجملة هو « العظمة المقدسة » . بينما المقصود من البهجة التوفيقية الامتياز الى الخديو توفيق ١٨٧٩ - ١٨٩٢ . والترجمة الاصح هنا تكون The Splendor of Tewfiq بحيث يكون العنوان كله بالانجليزية

The Splendor of Tawfiq in the account of the founder of the Khedivial Family”.

المترجم

(٢٧) محمد فريد « كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » (بولاق : المطبعة الاميرية ، ١٣٠٨ هـ) ، ص ٢ - ٣ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ - ٩٥ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٨ - ٢٠ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٥٧٨ - ٧٩ .

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٩٠ ، ١٠٣ - ٤ ، ١١٨ - ٢٢ ، ١٤١ وما بعدها .

ويصدر فريد فى بعض المناسبات ادعاءات مضحكة ومنافية للعقل . فعن سلوك القوى الأوروبية تجاه الحكم المصرى فى سوريا ، مثلا ، يشير الى ان فرنسا فقط هي التى كانت معنية بمساعدة البلاد الأخرى للحصول على حريتها ! المصدر نفسه ، ص ١١٩ . لقد كانت فرنسا بالفعل هي المساند الأوروبي الوحيد لمصر فى هذا المشروع ، لكن من الصعب رؤية

كيف ان الفتح المصرى لسوريا كان له صلة بالحرية المصرية أو السودية ، ما لم يكن الامر يتعلق بالفتح وليس الحرية .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ٨٥ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، ١٥٦ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ - ٦٠ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ - ٨٢ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ٩٢ - ٩٣ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ - ٦ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٢ - ٣ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ١٩٥ - ٢٠١ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٤٣) كان تحليل محمد فريد بصفة عامة سطوحيا ، بينما كان تحليل مصطفى كامل مخربا تماما . في « المسألة الشرقية » على سبيل المثال يبين مصطفى كامل رد الفعل للمستحسن الذى قوبلت به الثورة اليونانية (الموحى بها من روسيا) فى انجلترا وحمية انها كانت تعتبر نضالا من أجل الحرية ضد القهر العثماني . ثم يضع الحذاء على الخصم الأخرى ويسأل عن سلوك بريطانيا لو أن فريقا من رعاياها (الايرلنديين ، الاسكتلنديين ، واهل ويلز) قد بدأوا ثورة بمساعدة فرنسا أو ألمانيا . « المسألة الشرقية » ، الجزء الأول ، ص ١١ .

(٤٤) انظر على سبيل المثال مديحه المطول لمحمد على . « البهجة التوفيقية » ، ص ١٩ - ٢٠١ .

(٤٥) انظر حاشية ٨ من هذا الفصل .

(٤٦) انظر على سبيل المثال « البهجة التوفيقية » ، ص ٩ ، ١٣ - ١٤ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٢ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، ١٥٣ ، ١٨٣ - ٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٣ .

(٤٨) Who is who هو نوع من المصادر الخاصة بالسير والتراجم Biographies التى تتضمن بيانات تراجمية لشخصيات بارزة فى كافة مجالات النشاط الإنساني (سياسة - اقتصاد - دين - ثقافة - أدب - علوم - طب - هندسة - فلك - صيد - مسرح الخ) ، وقد تخصص هذه الكتب فى الترجمة لفرع معين من النشاط ، قد يكون السياسة فى الغالب .

وتتوفر هذه المراجع فى المكتبات العالمية على شكل مراجع رف Shelf reference فى متناول الباحث مباشرة دون الحاجة لمعاونة الموظف المختص Librarian أو التمدد بطب استعارة . ولا تعار هذه المراجع خارجيا للباحثين ويقتصر استخدامها على الدار فقط . المترجم

(٤٩) فى هذا الخصوص فان محمد فريد يزل سهوا . فخلال السياق العادى لنفسه يشير دائما الى استانبول باسم « اسلامبول » « البهجة التوفيقية » ، ص ٩ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ١٤٤ ، ١٨١ . ومع هذا فان الكلمة تبرز بالمصادفة على نحو غير متوقع فى ترجمته لليدى ستانهورب Lady Stanhope ويكتبها هنا « استانبول » . المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

(٥٠) انعقد مؤتمر برلين Congress of Berlin في ١٣ يونيو ١٨٧٨ تحت رئاسة المستشار الألماني أوتوفون بسمارك Otto Von Bismark للمحافظة على التوازن الدبلوماسي للقوة في أعقاب الحرب الروسية - التركية ١٨٧٧ - ٧٨ . كانت معاهدة سان ستيفانو San Stefano في ٣ مارس ١٨٧٨ التي أنهت هذه الحرب قد زادت من النفوذ الروسي في البلقان وأثارت بذلك معارضة قوى أوروبية أخرى . وقد مثلت النمسا والمجر ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، روسيا ، تركيا إلى جانب ألمانيا في هذا المؤتمر . في معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) استبدل خلق بلغاريا الكبرى الذي حققته معاهدة سان ستيفانو إلى شكل دولة مستقلة مدعومة من جانب روسيا ، ببلغاريا صغرى تحت سيادة السلطان العثماني . وحصلت روسيا على بسارابيا الجنوبية Southern Bessarabia من رومانيا ، وقارس Kars ، أردحان Ardahan ، وباطوم Batum من تركيا . وحصلت كل من صربيا والجبل الأسود Montenegro ورومانيا على أقاليم إضافية إلى جانب استقلال كامل عن الامبراطورية العثمانية . وحصلت النمسا على حق « احتلال وإدارة » البوسنة والهرسك دون السلطة لضمهما .

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 3.

المترجم

(٥١) محمد فريد « تاريخ الدولة العلية العثمانية » (القاهرة : مطبعة التقدم بمصر ، ١٩١٢) ص ٥ . وإذا وضع في الاعتبار ان محمد فريد كان نشطا سياسيا في اسطنبول في هذا الوقت بالتحديد ، فان الأمر يبدو أكثر من مصادفة ان اسم هذه المطبعة قريب من (الاتحاد والترقي) . فهل يمكن ان يكون هذا (الحزب الحاكم) قد مول طبع هذا الكتاب ؟ .

أرى أن هذا الاستنتاج فيه بعض المبالغة ، فليس شرطا أن يكون اسم المطبعة (التقدم) قريب من اسم الحزب الحاكم في اسطنبول (الاتحاد والترقي) للجزم بأن هذا الأخير قد مول طبع الكتاب . ثم أن الكتاب مطبوع في مصر وليس في اسطنبول (مطبعة التقدم بمصر) . وطالما أنه لا توجد وثيقة تؤكد ما ذهب إليه المؤلف فان الكتاب يبقى مطبوعا على نفقة مؤلفه ، خاصة وأنه لا يوجد من لغة الكتاب وعناصره - حسبما أورد المؤلف - ما يشتمل منه ان المؤلف كان ضالعا مع النظام الجديد الذي تولى السلطة في الامبراطورية العثمانية بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد . . .

المترجم

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٣ - ٤ .

(٥٣) يجب ان نلاحظ أن محمد فريد لم يذكر الفرس هنا . فهل هذا راجع الى أنهم لم يكونوا من أهل « السنة » ؟ أم لأنهم لم يكونوا من المنظر « تكنيكيا » أن يؤيدوا مصر في نضالها المحلي ؟ . أن الفرضية « التكتيكية » ليس لها وزن كبير . ويجب ان نتذكر أيضا أن أصول محمد فريد تركية . وفي تاريخه العثماني يكشف محمد فريد بوضوح ان فكرة التبعية المصرية للامبراطورية هي مؤسسة على الحياة العثمانية « للخلافة » وليس « السلطنة » . وتحوى الصورة المواجهة لصفحة العنوان في الكتاب صورة السلطان محمد الخامس (١٩٠٩ - ١٨) مع تعليق يقول « خليفة مسلم وسلطان عثماني » . وعلى ذلك فان الفرس يستبعدون على أساس أنهم لم يعترفوا بالخلافة .

(٥٤) « تاريخ الدولة العثمانية » ، ص ٥ ، ٧ .

(٥٥) سنتذكر ان مصطفى كامل كان يشكو من أن الأمر قد استغرق وقتا طويلا عند

العثمانيين ليتحققوا من أن بريطانيا كانت هي العدو الحقيقي • انظر ص ١٥٩ من الفصل الثامن •

(٥٦) انظر ص ١٦٨ من الفصل التاسع •

(٥٧) عزل عباس عام ١٩١٤ عندما لم يستطع البريطانيون تحمل الشك في ولائهم • ثم ذهب بعد ذلك الى استانبول ووافق كما ذكرنا على إعادة التوافق (وربما إعادة الوحدة) مع محمد فريد •

والواقع ان عباسا كان في استانبول عند قيام الحرب بين تركيا والحلفاء ، فمنع من دخول مصر من جانب الاحتلال البريطاني وتم عزله وهو هناك •

Shaw & shaw

راجع شو وشو

History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. II Reform, Revolution, and Republic : 1808-1975. Cambridge University Press, 1978, p. 312.

المترجم

(٥٨) انظر ص ١٤٨ من الفصل الثامن •

Hourani

(٥٩) عن « الأفغاني » انظر حوراني •

"Arabic Thought," p. 111.

وعن مقالات محمد فريد انظر ص ١٦٩ من الفصل التاسع •

(٦٠) انظر ص ١٥٥ من الفصل الثامن •

(٦١) خلال الحروب النابليونية أنهت معاهدات تيلسيت Tilsit حروب الحلف الثالث - الذي تحالفت فيه روسيا ، بروسيا ، والنمسا ضد فرنسا النابليونية - وأعطت نابليون الأول سيطرة كاملة على أوروبا • بانتصاره على الروس في فريدلاند Friedland في يونيو ١٨٠٧ ، فتح نابليون باب المباحثات مع الامبراطور الكسندر الأول Alexander I في ٢٥ يولية فوق رمت على مياه نهر نيمان Neman قرب المدينة البروسية الشرقية تيلسيت Tilsit (سوفتسك الآن Sovetsk في روسيا) ، وفيما بعد شارك الملك فريدريك ويليام الثالث Frederick William III ملك بروسيا ، في هذه المباحثات •

وفق المعاهدة الموقعة في ٧ يوليو أصبحت فرنسا في سلام مع روسيا التي وعدت بدورها (سرا) بالتوسط بين فرنسا وبريطانيا ، وبالتحالف مع فرنسا اذا رفض البريطانيون الوساطة • وفقا لمعاهدة ٩ يوليو أصبحت أغلب أقاليم بروسيا غربي نهر الالب Elbe جزءا من مملكة وستفاليا Westphalia الخاضعة للسيطرة الفرنسية ، وتم التنازل عن أقاليمها البولندية الى الدوقية الجديدة وارسو Warsaw • كذلك فقد اضطرت بروسيا الى تقليل حجم جيشها وان تتباحث في أمر اقامة حاميات فرنسية في بعض قلاعها ، وأن تنضم الى النظام القاري ضد بريطانيا • وقد تحطم السلام الذي وفرته تيلسيت Tilsit فجأة عندما غزا نابليون روسيا في ١٨١٢

Lexicon Universal Encyclopedia, vol. 19.

المترجم

(٦٢) قارن القرآن ١٨ : ٣٩ •

يقصد المؤلف سورة النور الجزء الثامن عشر • الآية رقم ٣٨ « والذين كفروا أعمالهم

كسراب ببقية يحسبه الظمان ماءا حتى اذا جاء لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

المترجم

(٦٣) « تاريخ الدولة العثمانية » ، ص ١٩٦ . وفى الواقع فان الكلمات النبوية Prophetic تشير الى الثورة العربية خلال الحرب العالمية الاولى .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٤ .

(٦٦) « البهجة التوفيقية » ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٦٧) « تاريخ الدولة العثمانية » ، ص ٧ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ . أما الحرب فقد نوقشت فى ص ٢٣٣ - ٣٧ .

(٦٩) طبقا لبرنارد لويس Bernard Lewis فان « الأغلبية الساحقة من العرب ظلوا مخلصين للامبراطورية العثمانية حتى تدميرها بل ان الثورة العربية - المدعومة بريطانيا لم تكن ناجحة فى ندادها ولم تكن مخلصه فى أغراضها كما قالت التفسيرات الرسمية » .

Bernard Lewis

برنارد لويس

"The Middle East and the West"

(New York : Harper & Row, Publishers, Harper Torchbooks, 1964), p. 87.

(٧٠) كان الرافعى ورعا لدرجة كبيرة . وكتب مقالات لا تحصى للمصحف عن مثل هذه الموضوعات كالرسول ، الاسلام ، معنى رمضان ، الخ .

(٧١) كانت طلاقة محمد فريد فى اللغة التركية مصدر قوة كبيرة له . شفيق غربال « منهاج مفصل لدروس فى العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم » (القاهرة : مدرسة الدراسات العربية بالجامعة العربية ، ١٩٦١) ، ص ١١٩ .

ويرى غربال ، عرضا ، ان تاريخ محمد فريد عن الدولة العثمانية جدير بالثناء فى وقته . المصدر نفسه .

(٧٢) لم يكتب فيليب جلاد أى دراسة عن ملكية الاراض ، وكان كل ما نشر له هو « قاموس الادارة والقضاء » ، ولعل المؤلف يقصد « جرجس حنين » صاحب كتاب « الأطنان والضرائب فى القطر المصرى » - راجع حاشية ٧١ من حواشى الفصل السادس .

المترجم

المؤرخون السوريون المصريون

لم يكن من السهل استكمال هذه الدراسة دون إشارة لمجموعة هامة من الرجال ، السوريون بالمولد والمصريون بالتبني ، الذين أسهموا بحدود في النمو الثقافي والفكري لوطنهم الجديد (١) . كان أغلب هؤلاء السوريين - المصريين مسيحيون ذوي تعليم عال ، ساعدتهم صوحتهم الجغرافية والعرقية على المحافظة على قنوات الاتصال مع الغرب . لذلك فقد كانوا أسرع من نظرائهم المصريين في تقبل واستخدام المفاهيم الغربية . ونظرا لميلهم كمجموعة الى العمل في ميدان الصحافة ، فان أهميتهم كناشرين للأفكار الجديدة لم تتناسب اطلاقا مع أعدادهم . لقد كانوا جزءا من طليعة النهضة الأدبية والفكرية (٢) .

رغم أن نصف القرن الذي يبدأ من سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى عشرينيات القرن العشرين كان ذروة الحركة السورية الفكرية في مصر ، الا أن تأثير هؤلاء الرجال على الحكومة المصرية والمجتمع تعود جذوره الى أيام محمد علي . فقد هرب الكثير منهم الى أوروبا في أعقاب الجلاء الفرنسي عام ١٨٠١ ، لكنهم بدأوا في التقاطر الى البلاد بمجرد أن حقق نظام محمد علي بعض الثبات . ولقد كانوا مقيدين على وجه الخصوص في النظام التعليمي الجديد ، نظرا لتمكنهم ، على خلاف المعلمين الفرنسيين والايطاليين ، في اللغة العربية واللغات الأوروبية اللازمة . كان الأب أنطون رافائيل زاخور Anton Rafael Zakhur أحد هذه النماذج . فقد كان الشرقي الوحيد في أكاديمية نابليون وعضوا في المجلس الحاكم الذي أسسه جاك مينو Jacques Menu . عاش في فرنسا من عام ١٨٠٣ وحتى عام ١٨١٦ ، وعندما عاد الى مصر تولى منصبا تعليميا في مدرسة الهندسة . ولعل أول كتاب طبع بمعرفة مطبعة بولاق كان قاموس زاخور الايطالي - العربي (٣) .

مع نهاية عهد اسماعيل وخلال فترة الاحتلال البريطاني ارتفع معدل الهجرة السورية الى مصر بشكل حاد وكان أغلب القادمين الجدد مطعمين

بدماء التغريب ، وسرعان ما بدأ تأثيرهم القوي على مناخ الرأي في مصر
فقد دافع « يعقوب صروف » (١٨٥٢ - ١٩٢٧) كمحرر « للمعتصم » على
سبيل المثال عن العقلية (Rationalism) ، وحاول مع « شبلى شميل »
أن يعرف المصريين بأفكار داروين Darwin . وعرف « فرح أنطون »
(١٨٦١ - ١٩٢٢) محرر « الجامعة » قراءه بالأدب الفرنسى ، وعلى
وجه الخصوص بأعمال جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau
وآرنست رينان Ernest Renan . وبشر أيضا بالحرية المطلقة للاستعلام
والسؤال وضمن كتاباته ما كان وقتئذ أفكارا جديدة للغاية كالاشتراكية
بل وحتى الشيوعية . وشجع جورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) المقاييس
الغربية فى النقد الأدبى والتاريخى الى جانب النماذج الغربية فى التعبير .
وأسهم هو وسوريون آخرون كثيرا فى تنمية أسلوب أدبى جديد مجرد من
الزخارف المصطنعة والسجع المنمق الذى ساد العهود المبكرة (٤) .

ليس من الأمور الغير معتادة حتى فى وقتنا هذا أن يسمح الصحفي
الموهوب لبعض من مواهبه الأدبية بأن تنسكب فى مجال الكتابة التاريخية،
ولم يكن الكتاب السوريون فى القرن التاسع عشر استثناءا من ذلك . لقد
أسهموا بقدر هام فى التأريخ « المصرى » ، رغم أن كتاباتهم تنفست على
العموم روحا مختلفة الى حد قليل عن تلك التى لكتابات المصريين
الأصلاء . وربما كانت محاولتهم صب نغمة أكثر حيادا فى كتاباتهم راجعة
الى أنهم كانوا واعين بقضية دينهم ووضعهم « كضيوف تحت
التجربة » (٥) ، ولقد كان هذا ملائما ، شريطة أن يتقيدوا بالمناهج شبه
التحليلية المتضمنة المعالجة الإحصائية الوثائقية الجديدة لكتاب أمثال
على مبارك وأمين سامى . وقد وجد الكثير من السوريين فى هذا الوضع
تسوية مغرية : فقد كان وضعنا باعنا على الاحترام وآمنا أيضا .

رغم أن هذا الفصل معنى أساسا بالسوريين المصريين واسهاماتهم،
فإن سيرة يعقوب أرتين ومنهجية التاريخية تجعل ضمه الى هذا الفصل
أمرا ملحا . كان أرتين أرمنيا مصريا تعلم فى أوروبا وتولى فيما بعد
مناصب هامة عديدة فى الحكومة المصرية . فقد عين فى عام ١٨٧٣ معلما
لأطفال اسماعيل ، وفى ١٨٧٩ أصبح سكرتير الخديوى للامور الأوروبية
وفى ١٨٨٤ أصبح وكيل نظارة المعارف . كان التعليم هو شغف يعقوب
أرتين فى الحقيقة ، وقد اعتبره اللورد كرومر « أعلى مرجع مصرى فى
الشؤون التعليمية على الإطلاق by far the highest Egyptian
authority on educational matters » (٦) .

كان يعقوب أرتين غارقا حتى اذنيه فى الثقافة الفرنسية الى حد أنه لم يستطيع أن يكتب تاريخا بالعربية ، كانت كل أعماله التاريخية بالفرنسية ، وبصرف النظر عن دراستين كبيرتين ، فقد تضمنت أعماله عددا من المقالات القصيرة التى كتبت فى الغالب للجريدة الثقافية الفرنسية اللغة المسماة Bulletin de l'Institut Egyptien (٧) • أما عملاه الرئيسيان فكانا L'instruction publique en Egypte (باريس ١٨٩٠) ، والمترجم الى العربية بمعرفة على بهجت باسم «القول التام فى التعليم العام» ، La propriété Foncière en Egypte (القاهرة ١٩٠٨) والمترجم الى العربية بمعرفة سعيد عمون باسم «الأحكام الرعية فى شأن الأراضى المصرية» • وكلا الكتابين دراسات أصلية علمية مؤسسة على محتويات الأرشيف الحكومى (٨) •

كان يعقوب أرتين حالة غير عادية على نحو لا يمكن انكاره بسبب كتابته بالفرنسية فقط • وكان راغبا عن تقديم أى تفسير للحوادث مثل على مبارك وأمين سامى مفضلا بدلا من ذلك أن يدع الجداول والاحصائيات تروى القصة • وقد وجد الكتاب السوريون أمثال فيليب جلال وجرجس حنين هذا المنهج ملائما (٩) •

ولد فيليب جلال فى يافا لكنه استقر فى مصر وهو ما يزال صغيرا ، ونعم بخدمة طويلة فى المناصب القضائية المختلفة فى الحكومة المصرية • كان عمله الوحيد المنشور هو (قاموس الادارة والفضاء) وهو دراسة من خمس مجلدات عن ملكية الأراضى والضرائب على الملكية فى مصر ، وظهر فى ١٨٩١ • ويحتوى الكتاب أساسا على وثائق واحصائيات ، مرتبة وفقا للتسلسل الزمنى مع بعض التحليل البسيط (١٠) •

وعلى نفس نسق جلال وينفخ أهميته لطلاب التاريخ الاجتماعى والاقتصادى المصرى كان كتاب جرجس حنين « الاطيان والضرائب فى العطر المصرى » المنشور عام ١٩٠٤ • كان جرجس حنين مشرفا على الخزانة المصرية وكتب الكتاب خصيصا للدفاع عن الحكومة ضد اتهامات نافذتها (١١) • وينبغى أن يستخدم كتاب جرجس حنين بحذر نظرا لاتجاهاته الدعائية خاصة وأنه يحمل على الظن بأنه « موضوعى » تماما وان دراسته الاحصائية مستمدة من الأرشيف الحكومى • ومصادر جرجس حنين هى القوانين والذكريات وسجلات الحكومة من كل الأنواع ، وتقرير بطرس غالى الى قومسيون الاصلاح الضريبى فى عام ١٨٨٠ الذى يلعب دورا هاما كاهمية الدور الذى لعبه فى عمل جلال •

وعلى خلاف جلال ، مع هذا ، فإن جرجس حنين يستخدم أحيانا

أعمالاً عامة كدراسة يعقوب أرتين عن ملكية الأراضي وتاريخ الحضارة الإسلامية لجورجي زيدان (١٢) . لكن تريبب الماده صغير ولا يمكن ان يتدل ان الكتاب قد حقق أغراضه . فعلى سبيل المثال يقرر جرجس حنين في المقدمة أنه سوف يفحص كل أنواع الضرائب في مصر (١٣) ، لكن الكتاب يخصص ٧٠٤ صفحة لضرائب الأراضي ثم يكتفى بخمسة عشر صفحة لباقي أنواع الضرائب . ويعنون جرجس حنين فصله الأول بعنوان «تمهيد عمومي جغرافي تاريخي» ، ولكن باستثناء ملاحظات قليلة عن بعض الموضوعات المتفاوتة كعمرو بن العاص ومحمد علي ، فان القارئ يبحث عبثاً عن أي معلومات أو حوادث سابقة على عام ١٨٨٠ (١٤) .

ومع أوجه القصور هذه ، فان كتاب حنين رغم ذلك يؤدي دور المرجع المفيد للتاريخ الاقتصادي في الفترة القريبة من بداية القرن العشرين . ومع هذا فلا يمكن اعتبار جلال أو حنين مؤرخين ، فقد كانا على الاصح مصنفان للمعلومات الاحصائية . لقد فهم كل من الرجلين الاصرار « الحديث » على التوثيق الشامل ، وفي هذا المقام فان عمليهما لم يخطيء لكنهما لم يكونا قادرين أو راغبين في تزويد المادة الاحصائية بأي معنى (١٥) .

كان سليم النقاش أكثر أهمية ومن نوعية مختلفة عن فيليب جلال وجرجس حنين ، انحدر النقاش المتوفى عام ١٨٨٤ من أسرة « النقاش » التجارية الشهيرة في بيروت . وفي سن مبكرة هاجر الى مصر مدفوعاً بمشروع اسماعيل لاقامة « أوبرا » ومسارح على النمط الأوروبي خلال فترة النهضة . وقد قام بالتمثيل بالفعل على مسرح الاسكندرية بدءاً من عام ١٨٧٦ ، وبالإضافة الى ذلك فقد تعاون مع صديقه السورى أديب اسحاق في نشر العديد من الجرائد - العصر الجديد ، المحروسة ، والتجارة (١٦) . وبافتراض أنه كان واحداً من أقوى المعاضدين لعرابي، فقد كتب وصفاً عظيماً عن الفترة الثورية ، سماه « مصر للمصريين » . كان الكتاب يضم كما كان مخططاً له أصلاً ، تسعة مجلدات ثقيلة : ثلاثة منها عن مصر من عهد محمد علي الى نهاية عهد اسماعيل ، ثلاثة مجلدات عن عهد توفيق وأحداث الثورة ، وثلاثة أخيرة عن محاكمة قواد الثورة .

ورغم أن هذه كانت نية ضخمة ، وجديرة بالتقليد المباركي (نسبة الى علي مبارك وخطه الضخمة) فان النقاش لم يكمل أبداً المجلدات الثلاثة الأولى (ما لم تكن قد فقدت أو صودرت أو اتلفت) . ومع هذا ، فانه كتب بالفعل الستة الآخرين والتي نشرت عام ١٨٨٤ قبل وفاته بوقت قصير . وطبقاً لجورجي زيدان فان هذه المجلدات تضم حوالي ثلاثة آلاف

صفحة (١٧) ، وتوفر ثروة غير معقولة من المعلومات عن كل موضوع .
وتتسع المجلدات ٤ - ٦ للأقسام التاريخية من العمل وهي مرتبة على
الوجه الآتى : -

المجلد الرابع : من تولى توفيق فى عام ١٨٧٩ الى ضرب الاسكندرية
فى ١١ يونيو ١٨٨٢ .

المجلد الخامس : من ضرب الاسكندرية الى سقوط القاهرة واستسلام
عرايى فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ .

المجلد السادس : من سقوط القاهرة الى نهاية عام ١٨٨٤ .

المجلدات ٧ - ٩ : محاكمات زعماء الثورة .

ربما كان « مصر للمصريين » أكثر الأعمال التاريخية المصرية التى
لم تلق تقديرا او استخداما من بين كل الأعمال التاريخية « لمصر القرن
التاسع عشر » . فالتوثيق فى حد ذاته شامل ومتقن بصورة لا تصدق
ويستطيع أن يصمد للمقارنة مع أى عمل آخر كتب خلال هذه الفترة . ولقد
أفاد النقاش تماما من المادة الارشيفية - الفرمانات العثمانية ، الدكرينات
الخديوية ، تقارير الميزانية ، تنظيمات الجيش ، المراسلات الدبلوماسية
البريطانية والفرنسية ، ترتيبات القروض ، عقد تسوية الديون ، الخ . وقد
أعيد طبع خطب عرايى العامة وكلمات أعضاء مجلس شورى النواب
بالمكامل فى الكتاب . ولا يروى النقاش الأحداث المحيطة بضرب الاسكندرية
من جانب العرابيين وحدهم ، ولكن أيضا من منظور المراقبين الألمان ،
اليونانيين ، الانجليز والروس أيضا . ويقدم تفاصيل كميات وأنواع
التسلح المستخدم بمعرفة البريطانيين ويحصر خسائر كل طرف خلال
الصراع . وفى بعض الأحيان تقدم مراسلات دبلوماسية كثيرة تطفى على
رواية النقاش ذاتها (١٨) .

كانت رؤية النقاش للثورة باردة ومنعزلة رغم ما يقال من أنه كان
مشايعا لقضية عرايى . وتحكى الأعداد الهائلة من الوثائق التى ضمنها
كتابه القصة بنفسها ، لكن النقاش لا يلتصق بالحفاظ على غفليته
Anonymity بالاختفاء وراء هذه الوثائق . فيزعم أن شعبية عرايى
الأولى كانت الأقوى بين ضباط وطنيين معينين فى الجيش من الذين كان
الموضوع الملح عندهم هو زيادة المرتبات ومزايا الاجازات (١٩) . ويلقى
تبعة حريق الاسكندرية على رجال عرايى الذين اعتقدوا أن سياسة احراق
الأرض أمام العدو قد تكون فعالة أمام البريطانيين كما كانت فعالة أمام
نابليون فى روسيا فى بواكير القرن . وطبقا للنقاش فإن المذابح فى

المدينة ظهرت بسبب اشعال العرابيين عمدا لنيران التعصب الدينى عند «الرعا ع والسفلة» ضد المسيحيين بصفة عامة • ويشير الى هذه الحوادث بتبلد على أنها « جرائم » (٢٠) •

فهل كان النقاش فى الحقيقة عرابيا ؟ انه يوجه فى بعض الأحيان لوما لطيفا للبريطانيين كزعمه أن « الوعود العديدة للوزراء البريطانيين بالبقاء عدة شهور بعد توقف الاعمال العدوانية كانت مجرد « ضرب من المواربات » (٢١) • وبيان كهذا لا يمكن قياسه بالخطب التى دبرها ضد عرابى • يحتمل أن يكون النقاش قد بدا كعرا بى لكنه تحرر من هذا الوهم فيما بعد ، وعاد كما فعل الجبرتى فى «العجائب» الى التأييد المطلق لبعض المظاهر على الأقل من الاحتلال البريطانى • وعلى أى حال ، فان الكثير من الجرائد أغلقت فى المرحلة النهائية للثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) ، وجرى تنوير للمصريين عن التضخم الخطير للملكية الأوروبية والليفانتيين (أهل شرقى البحر المتوسط) للأراضى فى بلادهم ، وتحول صحفيون سوريون من أصدقاء النقاش كآل تكلأ ، أديب اسحاق ، وحمزة فتح الله ضد عرابى ، وذبح الليفانتيون فى العديد من مدن الدلتا ، وكانت النغمة العامة للثورة قد أصبحت اسلامية حادة (٢٢) • ربما كان هذا كله أكثر من الكفاية ليسبب تغيرا عند النقاش • وتبعاً لذلك فان « مصر للمصريين » لا يمكن أن تقر ككراسة دعاية سياسية عرابية وانما الأحرى أن تكون الانتاج الطبيعى لكاتب مسيحي سسورى مهاجر ، معزول عن التيارات الوطنية للوقت بسبب مسحاتها الاسلامية الثابتة •

وبصرف النظر عن قيمة « مصر للمصريين » للمؤرخ السياسى ، فان العمل كاشف وملهم لطالب التاريخ الاجتماعى والاقتصادى المصرى • ويحوى المجلد السادس على وجه الخصوص منجما من المعلومات عن قضايا كالأوضاع المالية للبلاد وبعثه اللورد دوفرين Dufferin ، نشاطات القبائل البدوية ، تجارة الرقيق ، طاعون عام ١٨٨٣ ، وقطع الطرق فى الريف (٢٣) • ويجب أن نذكر أن النقاش نفسه كان شاهداً عياناً لكثير من أحداث هذه الفترة وكان قادراً بناء على ذلك على تقديم جوانب مسلية منها كالتهديد بالعقاب للمصريين الذين ثابروا بعد الثورة على بيع مشروبات روحية للجنود البريطانيين فى مقابل اسلحتهم أو حتى مجرد ملابسهم (٢٤) •

ومع هذا فان اجراءات المحاكمات كما احتواها المجلدان السابع والثامن يجب أن تفحص بدقة • فالنقاش يقدم ثروة من المعلومات عن مواقف وتحركات أشخاص الثورة العديدين والذين كانوا صرحاء فى اجاباتهم . استجوبهم بصورة مذهلة • وتبدو السجلات للوهلة الأولى

كاملة ودقيقة بما فيه الكفاية ، رغم أن غياب الأسلوب العامى فى شهادات المتهمين واضح بصورة لافتة للنظر . فإذا كانت هذه العامية قد حذفت بالفعل فإن الاجراءات كلها قد يكون مشكوكا فيها . ذلك انه باندسببه للمقارئ الحديث ، البعيد عن الأحداث نفسها يبدو ولع المدعين المحنوميين باثبات توقيعات تحركات الثوار الذين اعترفوا بفحس بكل « جرائمهم » اذل من أن يكون مدعاة للسخرية .

وأسلوب النقاش فى الكتابة لا يقل امتاعا عن المحتوى الذى نستعمل عمله ، حيث أنه يوفر تبصرا قيما لمشاكل الأدب الانتقالى . وبالنسبة الى هذا الأسلوب بشمول ، فإنه يبدو بسيطا ومباشرا الى حد المثل والردية . ولعل تدريبيه كصحفى هو المسؤول عن ذلك ، فهو يستخدم مرارا مصطلحات (سابق الذكر ، آنف الذكر ، المنسوبة اليه ، المسمى اليه) ، ويستخدم الاستطلاع الموضوعى لصيغة المجهول . كما انه لم ينجح فى التحصن من التقليد السجعى واضفاء بعض الأناقة اللفظية لأجزاء معينة فى اسدمة باللجوء الى أسلوب التكرير الحرفى فى لفظتين متجاورتين مثل (سير الأحوال الماضية على نمطها المعروف ونسقها المعهود) أو (بالايضاح الوافى والبيان الشافى) (٢٥) .

لقد تبلورت جهود النقاش لتشكيل مجموعة جديدة من الأنماط الأسلوبية للأسف الى خليط ضئيل الجودة من العناصر الغير مداسقة .

يبقى النقاش ، كرجل ، لغزا غامضا . ماذا كانت صلته الشعبية بعرابى ؟ (٢٦) . ولماذا لم يلق اسهامه الضخم فى التاريخ المصرى تقدير المناسب ؟ هل لأن كتاباته - مثل كتابات يعقوب أرئين ، ميخائيل شاروبيم ، والمسيحيين السوريين بصفة عامة - خلت من نفس المنظور الوطنى الذى احتوته كتابات الكتاب المسلمين المصريين ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فإن نشر الشئ يمكن أن يقال عن عمل جورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) ، رغم أن نقص الوعي الوطنى فى حالته لم يسلمه الى خمول الشهرة التاريخى ، بل العكس هو الأصح ، لأن جورجى زيدان كان واحدا من أفضل الشخصيات المعروفة فى مصر نهايات القرن التاسع عشر ، واستحق بذكر جدارة أن يسمى « كبير المؤرخين السوريين - المصريين » (٢٧) .

ولد جورجى زيدان فى بيروت حيث التحق وهو شاب بالجسامة الأمريكية لدراسة الطب . لكنه لم يكمل دراسته وأتى بدلا من ذلك الى مصر ، على أمل أن يستكمل تعليمه الطبى فى مدرسة القصر العينى . ومع هذا ، فإنه عند هذا الحد كان قد أظهر ميلا شديدا للأدب وعلى وجه الخصوص للأدب العربى الكلاسيكى . وبعد اشتغاله بالاشراف على نشر

جريدة « الزمان » لمدة عام ، صاحب فى عام ١٨٨٤ الحملة المصرية الى اعانى النيل كمترجم فى (المخابرات) • ومع عودة قصيرة الى بيروت لدراسة العبرية والسريانية ، زار لندن عام ١٨٨٦ ثم عاد الى مصر حيث بقى بها طيلة حياته • شارك لفترة فى نشر (المقتطف) لكنه تركها ليؤسس مجلته الناجحة « الهلال » عام ١٨٩٢ (٢٨) • فى عام ١٩٨٧ كانت شهرته قد تجاوزت مصر وعين عضوا فى الجمعية الملكية الآسيوية (٢٩) •

كان انتاج جورجى زيدان مذهلا • ولم يمنعه عمله كمحرر «للهلال» من أن يكتب فى أكثر من عقد بقليل الأعمال التاريخية الآتية :

- ١ - انساب العرب القدماء (القاهرة ، بدون تاريخ) • •
- ٢ - تاريخ انجلترا (القاهرة ، ١٨٩٩) •
- ٣ - التاريخ العام منذ الخليقة الى الآن (المجلد الأول ، بيروت . ١٨٩٠) (٣٠) •
- ٤ - تاريخ الماسونية العام (القاهرة ، ١٨٨٩) •
- ٥ - العرب قبل الاسلام (القاهرة ، ١٩٠٨) •
- ٦ - تاريخ التمدن الاسلامى (٥ اجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٢ - ٦) •
- ٧ - تاريخ آداب اللغة العربية (٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٩١١) •
- ٨ - تاريخ مصر الجديد من الفتح الاسلامى الى الآن (مجلدين ، القاهرة ١٩١١) (٣١) •
- ٩ - تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر (مجلدين ، القاهرة ، ١٩٠٧) •
- ١٠ - تاريخ اللغة العربية •
- ١١ - طبقات الامم (٣٢) •

ومع أن هذه القائمة وحدها تمثل انتاجا هائلا ، فان جورجى زيدان كتب أيضا ثمانية عشر رواية فى سلسلة أعماله عن التاريخ الاسلامى واربعة روايات تاريخية ذات طابع رومانسى (٣٣) • ولا بد أن جهده ككاتب قد استمر حتى ايامه الأخيرة •

وحتى مع افتراض أن طاقم العمل فى « الهلال » قد عاونه فى بعض هذه الأعمال ، فان خصوصيته الانتاجية الجيابة تثير شكوكا خطيرة بشأن أصالة عمله • ان معاصرة المواضيع فى عمله (تراجم مشاهير الشرق):

والتي فى المجلد الرابع من عمله (تاريخ آداب اللغة العربية) لا تفيد احتمال اخذها من مراجع جاهزة ، ولا يوجد فيها ما يفيد أنها ليست أصلية . لكننا أقل ثقة فيما يتعلق بقدر معلوماته عن التاريخ البريطانى أو الماسونية رغم أنه كتب عنهما بتفصيل كبير .

لا جدال فى وفرة معلومات جورجى زيدان عن التاريخ العربى والاسلامى . فرواياته التاريخية وحدها ، والتي حاول فيها أن يستعيد حوادث الماضى لعهود قديمة ، تشهد بقدراته العميقة بالسجلات التاريخية المنصلة بالموضوع ، ونستطيع بيسر أن نفترض أنه كان يملك ناصية كل عصور الماضى الاسلامى . ومع هذا فخلال نفس هذه السنوات كان المستشرقون الأوروبيون ينتجون دراسات عالية المستوى فى التاريخ العربى سبقت أعمال جورجى زيدان زمنيا لكنها ماثلتها تماما فى المحتوى والمنهج . ولقد كان جورجى زيدان حسن الاطلاع أكثر من غيره على هذه الكتابات وأشار إليها بوفرة فى الجزء الذى خصصه للمستشرقين . الأوروبيين فى « تاريخ آداب اللغة العربية » (٣٤) . ويزعم كل من لويس شيخو وعمر الدسوقي أن هذا العمل مقتبس الى درجة كبيرة من *Geschichte der arabischen literatur* لبروكلمان Brockelmann (٣٥) ، وفوق هذا فانه بالنسبة لـ « تاريخ التمدن الاسلامى » فيبدو أن جورجى زيدان قد اقتبس بغزارة من *L'histoire de la civilisation arabe* لجوستاف لوبون Gustav le Bon وربما أكثر من عمل فون كريمر Vonkremer (*Kulturgeschichte des Orients*) (٣٦) . وربما كان من بين الأعمال المتيسرة لجورجى زيدان أيضا تاريخ سيديلوت Sedillot عن الأدب العربى (باريس ١٨٧٧) وعمل هوارت Huart عن الأدب العربى والتاريخ .

ودون تجميع كل المراجع الأوروبية المحتملة ثم مقارنتها بكتب جورجى زيدان فإننا لن نكون واثقين بشأن الأعمال التى رجع إليها ، لكن قراءة تاريخه يعطى انطباعا قويا بأنه قد « استوحى » مباشرة من أعمال أوروبية فى نفس الميادين . وفيما يتعلق بالتحشية واجراءات الاستشهاد بالمصادر *Source-citation* فإنها تعرضت أيضا للاستعمال غير المنتظم ، وفوق هذا فإن كل المؤرخين المصريين بعد الطهاوى كانوا أكثر استيقاظا فى الضمير فيما يتعلق بالإشارة الى مصدر معلوماتهم . وهكذا فإن عمل جورجى زيدان يصبح مشكوكا فيه كثيرا ، حيث أنه كان ينبغى عليه - أكثر من أى من سابقيه - أن يكون مدركا لالتزامه فى الاستشهاد بالمصادر .

وإذا كنا نستطيع أن نتجاوز مواطن القصور هذه فإن تاريخ جورجى

زيدان به ميزات موازنة معينة . فقد كان الغرض الاساسى من الكتابة هو ببسيط موضوع التاريخ . ولم يكن الرجل ليحقق هذا الهدف لو انه بعيد بمناهج بروكلمان التاريخية . وبالتبعية فان جورجى زيدان كتب روايات رومانسية مؤسسة على حوادث تاريخية واقعية ، محاولا أثناء الكتابه أن يعنى تاريخه شكلا أكثر استساغة للقارئ العادى . واستخدامه للمقاييس الأوروبية للنقد ، حتى لو استعيرت مباشرة ، كان أكثر تماسكا عن استخدام الحساب السابقين لهذه المقاييس ، ونتيجة لذلك فان الكثير من كذبه لا تزال تحمل طابعا حديثا حتى اليوم (٢٧) . وقد تبدو أعماله (البسطة) سطحية الى حد ما عند المنظر ، لكن جورجى زيدان لم يكن يكتب للمحترفين (٢٨) .

ان نظرة قريبة لواحد من كتب جورجى زيدان ستعطينا فهما أوضح لكيفية تعامله مع التاريخ . ومن بين دراساته التاريخية العديدة «ان « تاريخ مصر الحديث » فقط هو المرتبط مباشرة بالفترة موضوع الدراسة . ومن الملائم تماما أن يكون هذا الكتاب آخر عمل كبير نناقشه ، حيث انه - فى بحثنا هذا كله - هو الكتاب الوحيد الذى كتب خصيصا وعن عمد عن « مصر الحديثة » . ولقد كان عملا كهذا يحتاج لرجل له امكانيات جورجى زيدان من حيث معرفته بمنهج التاريخ الحديث ليتفكر فيها ويقوم بمشروع كهذا .

على خلاف الكثير من الكتاب السابقين ، فان جورجى زيدان لا يبدأ بتقديم الثناء لحاكم أو الى « أرض آباءه المحبوبة » لكنه يقول بدلا من ذلك انه كتب الكتاب ليرضى حاجة معينة : فتاريخ مصر الحديث ، كما يأمل ، سيكون ذا فائدة لكل من المثقف والشخص العادى على السواء بل وقد يكون مناسباً . أيضا ككتاب دراسى (٢٩) . وكما يشير جورجى زيدان فان أحدا لم يسبقه الى اصدار كتاب من هذا النوع (٤٠) .

وتحت مسمى « تاريخ حديث » يصنف جورجى زيدان فترة كبيرة من الوقت أكثر مما يمكن أن يحدث فى أيامنا هذه . فالمجلد الأول يناقش التاريخ المصرى من العصور الفرعونية الى الفتح العثمانى ، مع نصيب الأسد بالطبع للفترة الاسلامية (٦٤٠ - ١٥١٧ م) (٤١) . ويحتوى المجلد الثانى على ٧٠ صفحة عن مصر العثمانية ، حيث يخصص جورجى زيدان جهده بعدها للكتابة عن الفترة الحديثة (١٧٩٨ - ١٩٠٥ تقريبا) وذلك فى قسم يغطى ٢٧٠ صفحة .

ويحرص جورجى زيدان على تقديم قسم بيبلوجرافى عند موضع معين ، مشيرا من طرف خفى الى أهم مصادر المادة التى استقى منها

معلوماته عن التاريخ المصرى بالملفات العربية والغربية • وتتضمن المصادر العربية : المقرئى ، ابن الاثير ، ابن خلدون ، الاسحاقى ، المسعودى ، الجبرتى ، ابن اياس ، على مبارك ، سليم النقاش ، ونعوم شقير • وفى قائمة المصادر الأوروبية يضمن جورجى زيدان عددا قليلا من المصادر الثانوية - أهمها دراسة كلوت بك - بل ويزكى لقرائه دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedi Britannica (٤٢) • ومن الواضح ان هذه المادة ليست كافية تماما للمشروع الذى كان فى ذهن جورجى زيدان ، لكن حيث انه لم يلمح أبدا لمصادره ولم يقدم حواشى لمثونه ، فاننا نبقى متروكين للحيرة حول المراجع التى استخدمها •

ويبدو أن جورجى زيدان قد عاش حياة حذرة وخاصة فيما يتعلق بالسياسة • ذلك انه لم يأخذ جانبا معينا فى المنازعات السياسية ، ولم يخطر فى أى نشاط سياسى ، بل وأحجم عن كل ذكر للسياسة أو رجال الدولة الاحياء فى مجلته « الهلال » (٤٢) • كان « تاريخ مصر الحديث » قد ختب أثناء ذروة « التاريخ العلمى » فى أوروبا ، وربما يكون قد عزز ميل جورجى زيدان الطبيعى نحو الحياد المطلق فى المسائل السياسية • ان العلامة المميزة لتاريخ جورجى زيدان على أى حال ، هى التزامه المطرد « بالموضوعية » الى جانب تجنب لكل القضايا الخلافية • ولا يمكن اتهام جورجى زيدان بعدم العدالة أو التحيز ، لكنه ليس عميق التفكير أو ناقد • فعلى سبيل المثال يصف فى روايته عن الحرب السورية خلال عهد محمد على ، كل حملة بالتفصيل لكنه يتجاهل تماما الأسباب والنتائج والدوافع • ولعل المرة الوحيدة التى مارس فيها التحليل التاريخى كانت تلك التى أكد فيها أن محمد على قد اندفع الى الحرب « برغبة فى مد ملكه وتأسيس دولة مستقلة (مطامع فى توسيع مملكته وانشاء دولة مستقلة) (٤٤) •

وفى تعامله مع عهد عباس الأول ، الذى كان يفترض انه كان شخصية كريمة عند من فى ميول جورجى زيدان ، فانه يسعى الى المحافظة على توازن كامل يقصر الرواية على حوادث معزولة وتوافه كشف عباس برياضات الفروسية ، وصلة السكك الحديدية بين القاهرة والاسكندرية ، ارساء حجر الأساس لمسجد السيدة زينب ، خطوط التلغراف ، وارسال أورطة عسكرية لمساعدة العثمانيين أثناء حرب القرم (٤٥) • ويعامل جورجى زيدان الثورة العربية بنفس الطريقة مع وقوفه جانبا وبدقة بين الأحزاب العديدة وعدم لوم أحد • أما القسم الأخير من الكتاب فيخصصه جورجى زيدان لوصف مختصر للاحتلال البريطانى • ومرة أخرى يتجنب كل ما يثير النزاع ، ولا يفعل أكثر من تقديم قائمة بالنظارات المصرية من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩١٠ ، ملحقا بها قائمة رائعة التقنية باصلاحات الاحتلال فى مجالات الادارة الزراعية ، والمالية (٤٦) •

رغم أن «تاريخ مصر الحديث» يحتوى عيوباً أساسية ، فإنه مع هذا قد غطى ما كان فى ذلك الوقت حاجة حقيقية . كواحد من الكتب الغير متميزة القليلة المتوفرة ، فلا بد أنه كان فى الحقيقة مناسباً للاستعمال فى نظام المدارس المصرية . وككتاب متفوق ، مقروء ، فإنه يمتاز بتخطيط جذاب ويوجه القارئ الى أغلب الميادين الرئيسية من الاهتمام التاريخى . وعلى خلاف توقعات جوجى زيدان فإن طبيعته المفرطة فى الحذر ، قد حرمت الكتاب من الكثير من اللون والجوهر ، ولهذا السبب فإنه يحتمل أن يكون قد فقد اهتمام القارئ العادى .

ان قائمة مآثر السوريين الى التاريخ المصرى طويلة ، وحتى الآن لم ننته منها بعد . فالياس زاخورا يستحق الذكر : فهو معاصر لجورجى زيدان ، وأنتج « مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال » . ويبدو أن نية زاخورا كانت انتاج نسخة حديثه من « الطبقات » (٤٧) . وربما ليطمق دوائر البلاط أيضاً . وأسلوب زاخورا منمق الى حد ما ، وخاصة بالنسبة لتراجم أعضاء الأسرة المالكة أو نبلاء مصر ، التى فى أغلبها مديح خاو وغير مفيد . ومن الشاذ بما فيه الكفاية أن يتحول الأسلوب فى الفقرة المخصصة لأحمد عرابى فجأة الى قصة غزيرة التفاصيل ودراسة مليئة بالمعلومات عن الرجل وأعماله (٤٨) .

أما نعوم شقير فهو كاتب سورى قدير آخر لم نناقشه نظراً لأنه عاش فى مصر لكنسه كتب عن تاريخ السودان . وقد اعتبر بيترس هولت Peter Holt كتابه (تاريخ السودان) المنشور فى القاهرة ١٩٠٣ « عملاً جيداً جداً فى الواقع » (٤٩) .

ولشقير عمل آخر عن الصين وآخر رائع عن الأمثال العربية (٥٠) .

وفى الجملة فإن مساهمة السوريين المصريين فى إثراء الحياة الثقافية المصرية هى مساهمة قيمة . وعلى وجه العموم فإنهم كانوا أكثر تفهماً وتعاطفاً مع الغرب من نظرائهم المصريين الوطنيين ، وقاموا بدور الطليعة لحركة التمدن . كانوا نشطين على وجه الخصوص فى الميدان الصحفى ، وساعدوا على نشر خطوط جديدة للتفكير بين قرائهم . وكان اسهامهم فى التاريخ المصرى هاماً واستمر هذا الاسهام بعد الحرب العالمية الأولى بالدراسات التاريخية المفصلة لرجال مثل الياس الأيوبي . ومع هذا ، فإنه مع هذا الوقت لحق المصرى القح بجاره السورى المتقدم فى المجال التعليمى ، وبذلك انتهت ذروة تألق السوريين المصريين .

حواشي الفصل العاشر

- (١) تستخدم كلمة (سورى) هنا من المنظور التاريخي والجغرافى .
- (٢) سنركز فى هذا الفصل على الكتابات التاريخية لهؤلاء الرجال . انظر الفصل الحادى عشر لمزيد من التفاصيل عن نشاطاتهم الصحفية .
- (٣) الشيال « تاريخ الترجمة » ، ص ٧٣ - ٧٧ . لمعلومات عن سورين آخرين ممن شغلوا مناصب هامة فى عهد محمد على ، انظر نفس العمل ، ص ٨٣ - ٩٢ .
- (٤) المعلومات مأخوذة من مقالة سلامة موسى "Intellectual Currents in Egypt" ص ٢٦٨ وعبد المحسن طه بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٣٧ .
- (٥) تبدو ظاهرة مماثلة فى عمل شاروييم القبطى . انظر ص ١٣٤ - ٣٥ من الفصل السابع .

Earl of Cromer

(٦) اللورد كرومر

"Modern Egypt" (New York : The Macmillan Company, 1909) II, 529.

ولقد كان اعجاب كرومر بارتين راجع جزئيا الى مصادقة أرتين على المشروع الحائز على مساندة البريطانيين باستبعاد اللغة العربية لصالح مزيد من اللغة الأجنبية فى نظام المدارس المصرية . عبد الملك

(٧) كان يعقوب أرتين باحثا متفانيا وكتب بعض الدراسات العميقة التخصص ، ككتابة

« السياق » الخاصة بالكتبة الأقباط المصريين ، انظر ن . أ .

Le Siyak en Egypte et en Turquie", Revue du Monde Musulman 20 (1915), 33.

وخط السياقت هو نوع من الكتابة التى كانت تستعمل بواسطة « المباشرين » فى الإدارات المالية فى مصر العثمانية كديوان الروزنامة . ولما كانت سجلات الإيرادات والمصروفات من الوثائق التى لا يسمح بخروجها من الخزينة أو حتى اطلاع الآخرين عليها دون إذن خاص من الروزنامجى والوالى فإن هذه السجلات كتبت بخط السياقت الذى طور من أجل الأغراض المالية . اخترع هذا الخط من اللغة العربية وأدخل الى نظام العمل بالخبزينة فى القرن السادس عشر الميلادى بواسطة الناسخين الذين أرسلوا الى الخزينة من الباب العالى ، وقد جعل ايجاز والطبيعة العادية لهذه الكتابة ، جعل منها نموذجا للاستخدام فى المساحات المحدودة المتوفرة فى السجلات ، كذلك فإن خلو هذا الخط من علامات التمييز العربية العادية ومخالفته للقواعد المعتادة فى تشكيل وربط الحروف العربية جعله مبهما للجميع باستثناء هذا النفر من الأشخاص الذين لقنوا أسرار تشكيله واستعماله . هكذا أصبح هذا الخط « السياقت » هو أسلوب الكتابة الشغرى فى السجلات المالية التى كان « المبشرون » الأقباط يستأثرون بالعمل فيها ، وبمضى الوقت أصبح هذا النوع من الكتابة يورث لأبناء هؤلاء المباشرين بحيث أصبحت وظيفة « المباشرين » هذه حكرا عليهم .

Redhouse

ردماوس

Redhouse Turkish and English lexicon, p. 1099.

S. Shaw

ستانفورد شو

"The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798", Princeton University Press, 1962. p. 341.

المترجم

(٨) لم يكتب الا القليل عن حياة وأعمال يعقوب ارتين . انظر على سبيل المثال الشيال

"A History of Egyptian Historiography", pp. 64, 100.

قارن أحمد أحمد الحنة « مراجع تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي ١٨٠٥ -

١٨٤٨ » ، المجلة التاريخية المصرية - العدد الأول (١٩٤٨) : ٢٤٤ - ٤٥ .

(٩) عن جرجس حنين راجع حاشية ٧١ من الفصل السادس وفيها أثبتنا أن الرجل

لم يكن سوريا بل مصرى من الفيوم .

المترجم

(١٠) عن حياة جلاد انظر الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ٢٢٨ . وعن أهمية

كتابات انظر الحنة « مراجع تاريخ الزراعة » ، ص ٢٤١ .

(١١) جرجس حنين بك « الأطيان والضرائب في النظر المصري » (بولاق : المطبعة

الكبرى الأميرية ، ١٩٠٤) .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٤ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١ - ٩٧ .

(١٥) يلقي جرجس حنين دون انتباه بعض الضوء على الطريقة التي كانت التقنيات

الأوروبية تبدأ في التأثير بها على شكل الكتابات التاريخية المصرية ، فهو يعلن بفخر

واضح انه لكي يجعل الكتاب مقبولا للقراءة فقد ضمنه « فهرسين » : (١) ليعدد المواضيع

المتعددة التي تحتويها الرواية و (٢) ليعدد عناوين الفصول المختلفة . المصدر نفسه ،

ص ٥ . وفهرس حنين الثاني هو بالطبع ما نسميه الآن « قائمة المحتويات »

Table of Contents

Schölch

(١٦) شولش

"Agypten den Agyptern", p. 304 n. 294.

(١٧) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ٢٨٧ .

(١٨) سليم خليل النقاش « مصر للمصريين » (الاسكندرية : مطبعة المحروسة ،

١٨٨٤) المجلد الرابع ، مواضع متفرقة ، المجلد الخامس ص ٦٧ - ٩١ .

(١٩) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٨٢ - ٨٨ وقد واكب هذه المطالب استنكار

الوضع المتميز لقادة الجيش الأتراك - الجراكسة .

Schölch

شولش

"Agypten den Agyptern", pp. 11, 161, 200 ff., 265.

(٢٠) النقاشي « مصر للمصريين » ، المجلد الخامس ، ص ٧٣ .

(٢١) المصدر نفسه ، المجلد السادس ، ص ٢٢

Schölch

(٢٢) شولش

"Agypten den Agyptern", pp. 160-61, 223, 242, 244, 246, 268.

(٢٣) النقاش « مصر للمصريين » ، المجلد السادس ، ص ٩٧ - ١٠٥ ، ١٥٤

وما بعدها ، ٢٢٥ - ٢٧ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١١ - ١٢ .

(٢٥) المصدر نفسه ، تمهيد ، تنبيه ، هذه الكلمات تقابل الى حد ما في الانجليزية

(full Clarification), Course of events)

(٢٦) حتى عمل شولش 'chölch "Agypten den Agyptern" والذي يعد اكمل دراسة

عن الثورة العرابية في الوقت الحالي ، لا ينتج اطلاقا في الحاق النقاش بأي حزب معين .

(٢٧) « كبير المؤرخين السوريين في مصر » . الشيبال « التاريخ والمؤرخون » ،

ص ١٨٥ .

(٢٨) المصدر نفسه .

Thomas Philipp

(٢٩) توماس فيليب

"The Role of Jurji Zaydan in the Intellectual Development of the Arab Nahda from the beginning of the British Occupation of Egypt to the outbreak of World War I" (Ph.D. dissertation, University of California at Los Angeles, 1971), p. 57.

وتعد دراسة توماس فيليب أحدث ما كتب عن جورجى زيدان . لزيد من المعلومات

عن حياة جورجى زيدان انظر رسالته المشار اليها ، ص ١٣ - ٧٦ .

Thomas Philipp

قارن توماس فيليب

"Language, History, and Arab National Consciousness in the thought of Jurji Zaydan (1861-1914)", International Journal of Middle Eastern Studies 4 (1973) : 3-22;

ايضا انظر تعديل توماس فيليب لبحثه السابق الى مونوجراف monograph بعنوان

Gurji Zaidan : His life and thought (Beirut : Orient — Institut der deutschen morgenländischschaft, 1979).

وفي هذه الدراسة يذكر المؤلف ان معاصري جورجى زيدان المسلمين رفضوا اعتباره

« مثقفا scholar » وانه ، كنتيجة لذلك ، فقد هجر دراسة التاريخ . المصدر نفسه ،

ص ١١٨ .

(٣٠) كانت هذه هي الحالة الوحيدة للسجع في أي من عناوين جورجى زيدان ،

والمبينة مرة أخرى أن مسألة السجع قد هجرت تماما مع بداية القرن العشرين .

(٣١) عنوان هذا العمل هو « كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى الآن

مع فذلكة في تاريخ مصر القديم » - الجزء الأول من الفتح الإسلامى الى آخر دولة المماليك

الثانية وفي أوله فذلكة التاريخ القديم - الطبعة الثانية - مطبعة الهلال بالقجالة بمصر

سنة ١٩١١ . أما الجزء الثانى فقد جاء في عنوانه الجانبي (الجزء الثانى وهو يشتمل

على تاريخ مصر من الفتح العثماني الى الآن أي في عهد الدولة العثمانية وحملة بونابرت

والدولة المحمدية العلوية أو الأسرة الخديوية ولا يزال) .

ولم أجد في عنوان الكتاب أى إشارة الى كلمة « الجديد » . قارن الشيال « التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر » مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٥٨ ، ص ١٨٦ .

المترجم

(٣٢) هذه القائمة مأخوذة عن كتاب الشيال (التاريخ والمؤرخون) ، ص ١٨٥ - ٨٦ ، ومع هذا فان الشيال فاته أن يذكر عمل جورجي زيدان (تاريخ اللغة العربية) ، رقم ١٠ في قائمتنا ، و (طبقات الأمم » رقم ١١ الذي لم أجد له تواريخ نشر ، عن الكتاب الأول انظر جورجي زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٣٢٥ . أما العمل الثاني فقد ذكره توماس فيليب Thomas Philipp في عمله "Gurgi zaidan", p. 229 ولقد كانت الأعمال الكاملة لجورجي زيدان كبيرة الى حد انه لا يوجد اتفاق على العدد الكلي لها .

(٣٣) أو طبقا لتوماس فيليب فقد صدرت بمعدل عمل واحد كل عام من ١٨٩١ فصاعدا .

انظر فيليب

Philipp

"The Role of Jurji Zaydan", p. 56.

(٣٤) جورجي زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ١٥٧ - ٨٣ .

(٣٥) الدسوقي « في الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٢٨٥ ، ويستشهد فيليب Philipp بفكرة شيخو Cheikho والتي يرى أنها غير عادلة . فيليب Philipp

"The Role of Jurji Zaydan", p. 62.

ومع هذا فلي كتابه الحالي لا يذكر توماس فيليب شيئا عن « عدم العدالة » ويعترف بأنه ، فيما عدا المجلد الرابع فان الكثير من « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجي زيدان مأخوذ مباشرة من بروكلمان Brockelmann

فيليب

philipp

"Gurgi Zaidan," p. 227-29..

(٣٦) فيليب .

Philipp

"The Role of Jurji Zaydan", p. 127.

وفي فرضيته المبكرة فقد حاول فيليب بوهن ان ينقد شيئا من أصالة جورجي زيدان وذلك بالإشارة الى أنه رفض :

١ - راي فون كريمر Von Kremer عن نهائية التدهور العربي .

٢ - ونظريات لوبون Le Bon العرقية . المصدر نفسه . لكن فيليب عاد مرة أخرى في كتابه الأخير وأوقف محاولة انتقاد جورجي زيدان ، حيث اعترف بأنه « قد يكون من الصعب القول بأن لعمل جورجي زيدان أى جدارة ثقافية » . ومضى يقول ان دراسات جورجي زيدان في التاريخ العربي والأدب تكيفت بأعمال المستشرقين الغربيين ، وحدد « طبقات الأمم » كأحد الأعمال المشابهة كثيرا لعمل كين Keane

"The World's People"

Philipp

"Gurgi Zaidan", p. 229.

فيليب

(٣٧) غريال « مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين » ، ص ٤٤ .

"Contemporary Arabic literature", p. 759.

(٣٦) جورجى زيدان « كتاب تاريخ مصر الحديث » (القاهرة : مطبعة الـلال ، ١٩٢٥) ، المجلد الأول ، ص ٤ . ولابد أن هذه هي الطبعة الثالثة ، وهو ما يدل على الشعبية التى تمتع بها الكتاب . ووفقا لفيليب فان الطبعة الأولى ظهرت عام ١٨٨٩ . وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩١١ . وقد نظمت الطبعة السابقة طبقا للحكام والاسر الحاكمة ، لكن جورجى زيدان أضاف فى طبعة ١٩١١ فصولا عن الاصلاحات التعليمية والاقتصادية والنهضة .

Pilipp

فيليب

"The Role of Jurji Zaydan," p. 127.

ربما كان فيليب يقصد بالاصلاحات التعليمية والاقتصادية ذلك الفصل الذى خصصه جورجى زيدان عن الاحتلال البريطانى ، والذى رسمه وخطه بتعجل . وقد أخذت كلمات فيليب على علاقتها من حيث ان الكتاب ظهر أولا عام ١٨٨٩ ، رغم أن الشيال يقول أنه عام ١٩١١ هو تاريخ أول طبعة . انظر ص ١٩٢ من الفصل العاشر .

وفد ذكر جورجى زيدان فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه « تاريخ مصر الحديث » أن الطبعة الأولى منه قد ظهرت عام ١٨٨٩ . كما أن تاريخ الطبعة الثانية هو عام ١٩١١ .

وقد ذكر الشيال فى ص ١٨٦ من كتابه « التاريخ والمؤرخون فى مصر القرن التاسع عشر » ان اسم الكتاب هو « تاريخ مصر الجديد من الفتح الاسلامى الى الآن » ، وذكر ان تاريخ طبعه هو ١٩١١ . قارن الحاشية ٣١ من هذا الفصل ، وص ٧ من الجزء الأول من الطبعة الثانية من كتاب تاريخ مصر الحديث الصادرة عام ١٩١١ .

المترجم

(٤٠) يقرر فيليب أن آمال جورجى زيدان تحققت فيما بعد عندما قرر الكتاب للتدريس فى المدارس المصرية . ومع هذا فانه لا يقدم مع الأسف أى تفاصيل عن ذلك .

Philipp

فيليب

"The Role of Jurji Zaydan", p. 51.

(٤١) لابد أن الأجزاء الفرعونية قد الحقت بطبعة ١٩٢٥ حيث ان عنوان طبعة ١٩١١ (١٨٨٩ ؟) يقرأ (من الفتح الاسلامى الى الآن) ، كما ان كلمة (الجديد) قد غيرت الى (الحديث) فى طبعة ١٩٢٥ . انظر ص ١٩٢ من الفصل العاشر .

والواقع ان عنوان طبعة ١٩١١ يقرأ (من الفتح الاسلامى الى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم) . فى هذه الطبعة خصص جورجى زيدان الصفحات ٩ - ٦٦ لتاريخ مصر القديم ، فكتب عن مصادر تاريخ مصر القديم ، جغرافية مصر القديمة ، ديانة المصريين القدماء ، الدولة الملكية القديمة ، الدولة الملكية الوسطى ، الدولة الملكية الأخيرة ، الدولة الرومانية . أما كلمة (الحديث) فهى واردة فى عنوان الطبعة الصادرة عام ١٩١١ . ويبدو أن جورجى زيدان لم يذكر كلمة « الجديد » فى عنوان طبعة ١٨٨٩ أيضا . ذلك انه ذكر فى « فاتحة الكتاب للطبعة الأولى » والمنشورة فى طبعة ١٩١١ أن عنوان الطبعة الأولى هو « تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى هذه الأيام » . وعلى ذلك فانه

انظر جورجى زيدان « كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الآن مع
فذلكة فى تاريخ مصر القديم » ، الجزء الأول من الفتح الاسلامى الى آخر دولة المماليك
الثانية وفى أوله فذلكة التاريخ القديم - الطبعة الثانية - مطبعة الهلال بانفجالة بمصر
سنة ١٩١١ - ص ٥ .

(٤٢) « تاريخ مصر الحديث » - الجزء الاول ، ص ٧٧ - ٧٩ .

(۴۳) قیاب

Philipp

قارن فیلیپ

ولأن كل الأبطال في روايات جورجى زيدان لم يكونوا عربا أو سنيين فإن عبد المحسن طه بدر ينتهى الى أن جورجى زيدان كان ضد العرب . لقد كان جورجى زيدان فى الواقع مدافعا مخلصا لسمته المميزة من « العروبة الغير اسلامية » ، وكان غير مستريح لميل المصريين الى النظر الى (العروبة) كشيء مرتبط بالاسلام بدلا من ان يكون منفصلا عنه .

(٤٤) « تاريخ مصر الحديث » ، الجزء الثاني ، ص ١٦٧ - ٧٢ .

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٠١ - ٢.

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٥ - ٥٢ .

(٤٧) وهذا الهدف واضح من المقدمة ، انظر لزاخورا « امرأة العصر في تاريخ ورسوم.

أكابر الرجال ، (القاهرة ، ١٨٩٧) ص ٦ - ٧ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٩٩ - ١٢٤ .

(29) ب . م . هـ

"The Coming of the Funj", Studies in the History of the Near East (London : Frank Cass and Co. Ltd., 1973), p. 81.

(٥٠) الشيبال « المؤرخون السوريون في مصر » ، ص ٦٤ .

الفصل الحادى عشر :

مصر فى مستهل الاحتراف

لم يكن الجبرى هو المؤرخ المصرى الوحيد من مؤرخى القرن التاسع عشر الجدير بالاعتبار . لم يفت وحده فى الميدان بل كان له الكثير من المكملين النبهاء ، الذين اسهموا فى تقدم افضل لعلم التاريخ . ولم يكن على مبارك ، ومصطفى كامل والشخصيات الأخرى التى ناقشناها فى الفصول السابقة موضع اهتمام. لكونها كتاب تاريخ فقط - وهو دور كان فى اغلب الاحوال ملحقا لكثير من نشاطاتهم الأخرى - ونحى لاهم كانوا ممثلين لحقبتهم ومرايا لمجتمع سريع التغير أيضا . ولقد كشفت لنا حياتهم وكتاباتهم عن كيفية تطور التاريخ المصرى خلال القرن التاسع عشر ، لكن ما هو أكثر أهمية من هذا كان جعلهم استرداد بعضا من نكهة عصر بأكمله ممكنا .

وفى هذا الفصل سنحاول رسم خيوط التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر. ومن ثم تقييم طبيعة ومدى الحصول الوطنى الذى وقع بين ١٧٩٨ - ١٩٢٢ . وسنحتاج الى مراجعة العديد من العناصر ذات الصلة - كنظام التعليم الرسمى - التى لعبت دورا حيويا فى برز امعرة التاريخية وتوصيلها للشعب . فتطور الصحافة ، وتكاثر جمعيات المتعلمين والجهود الرائدة البحثية للدوائر الأوروبية الاستشرافية على سبيل المثال ، كان لها جميعا أثر ضخم على الكتابة التاريخية والجهود الفكرية بحسنة عامة ، وسيناقش كل من هذه العناصر فى دوره . وسننتهى دراستنا بالقاء نظرة أشمل على المجتمع المصرى ورؤية كيف ان التغيرات العميقة التى تعقبناها فى التقنيات التاريخية خلال القرن التاسع عشر لم تكن سوى أعراضا لما كان يحدث للبلاد بصفة عامة . كان مد التغريب قد أصبح صعب الايقاف ، وكان التاريخ ، مثل أى مظهر آخر للحياة الفكرية ، قد انجذب هو أيضا مع التيار .

ورغم العقبات الكثيرة التى واجهت الدراسات التاريخية فى القرن

التاسع عشر ، فان مصر أنتجت مجموعة مدهشة من الكتاب الذين كانت قدراتهم تتحسن مع كل جيل . ولم يتلق أيا منهم راتبا أو حتى تشجيعا لكتابة التاريخ ، وحتى أولئك الذين حصلوا على شيء من ذلك ، فعلوا ذلك فى ظل متاعب ومصاعب لا يمكن للممارسين الغربيين المعاصرين أن يحتملوا . فالأرشيفات - إذا أخذناها كمجرد مثال - كانت إما غير موجودة أصلا وإما فى حالة من الفوضى والاضطراب الكامل فى وقت كانت مهمة تجميع المادة المصدرية التاريخية تجرى فى أوروبا منذ وقت طويل لدرجة أن مجموعات هائلة من الوثائق كانت متوفرة فى خمسينيات القرن التاسع عشر (١) . فى ١٩١٢ نشر فريدريش دالمان Friedrich Dahlman كتابا كاملا لكل كتاب ظهر فى التاريخ الألماني الحديث باللغة الألمانية ، وكان دالمان يتقدم فى ذلك الوقت بمسافة قليلة جهودا بحثية مماثلة فى فرنسا وبريطانيا العظمى (٢) . ولا حاجة الى القول ان مثل هذه الانجازات كانت تبدو عند المؤرخ المصرى فوق التصور .

لقد فاقت المعوقات الأساسية للكتابة فى مصر القرن التاسع عشر أهواء الحكام ، الانتقال الى نظام تعليمى حديث والصاحبه الى مكتبات جيدة الترتيب مساعدة على الاطلاع ، مؤسسات أرشيفية منتظمة ، وتوافر التمويل للبحث . وكان التحسن فى كل هذه المجالات أمرا لا غنى عنه لمستقبل التاريخ ، وكما رأينا قد كان تقدم مصر فى هذه الاتجاهات عظيما . لكنه كان من الضرورى أيضا خلق مناخ جديد للرأى فى البلاد وإيقاظ الوعى بالتاريخ فى الأوساط المتعلمة . لقد كان فوز التاريخ فى النهاية بموضع محترم فى مناهج المدارس المصرية تقدما كبيرا فى حد ذاته ، رغم أن النجاح العام فى المعرفة التاريخية كان أشمل من ذلك ولا يمكن قياسه على مستوى المنهج المدرسى فقط .

من الصعب التفكير فى عائق أساسى للكتابة التاريخية (ولأى كتابة) أكثر من عدم توافر المطبعة ، ولقد كان هذا على وجه التحديد هو نوع العائق الذى واجهه التاريخ فى مصر خلال القسم الأكبر من القرن التاسع عشر . ولم تحصل مصر على أول مطبعة حتى عام ١٨٢١ - مطبعة بولاق ، التى أصبحت أكبر مطبعة عربية فى العالم (٣) . ولقد كان مصنع الورق شيئا لازما لطبع الكتب ، ومع هذا فان مصنع الورق المصرى لم يصبح جاهزا قبل ١٨٣٤ - ١٩٢٥ (٤) . ولم تحصل مصر القبطية على مطبعتها الأولى قبل ١٨٦٠ ، ويعود تاريخ المطبعة الاسلامية الخاصة - التى استخدمت لطبع جريدة « وادى النيل » وجريدة الطهطاوى « روضة المدارس » الى عام ١٨٦٦ . ولم تتحسن الأمور الا فى نهايات القرن التاسع عشر عندما تكاثرت المطابع الى حد صعوبة اجراء حصر لها (٥) .

لم يفد الانشاء النسبى المبكر لطبعة بولاق الكتابة التاريخية لدرجة كبيرة ، حيث أنها ظلت منشغلة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بإكماله باخراج الكتب التكنيكية والعلمية (٦) . ولم تتراخى هذه السياسة الا خلال عهد اسماعيل ، وبدأت بولاق منذ ذلك الوقت فى طبع كتب التاريخ ، اللغة ، الأدب ، والدين ، الى جانب الأعمال التكنيكية . ويرجع تاريخ أغلب طبعات بولاق فى اللغة العربية الكلاسيكية الى الثلاثين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر (٧) .

وما أن حصلت الطباعة على دفعتها الضئيلة حتى كان الدور الذى لعبته فى نشر المعرفة التاريخية أكثر حيوية من نظام التعليم الرسمى نفسه . تعرفت مصر على (الصحف) لأول مرة خلال الاحتلال الفرنسى عندما نشرت *La decade égyptienne* و *Le courrier de l'Égypte* ، ضمت الأولى نتائج أعمال المجمع العلمى الفرنسى بينما كانت الجريدة الثانية المتحدث الرسمى للنظام الاحتلالى . ومع هذا ، فقد كانت كلتاهما باللغة الفرنسية ولم تحسلا على اهتمام يذكر من جانب التارىء المصرى . ولا يوجد أى ذكر لأى من الصحيفتين فى تاريخ الجبرتى (٨) .

كانت أول صحيفة مصرية باللغة العربية هى الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) التى تأسست عام ١٨٢٨ بأمر من محمد على (٩) . وقد صدرت أصلا بالتركية ، ثم أخذت فيما بعد شكلا تركيا - عربيا فى لغتها وفى النهاية تقلصت التركية تماما . وقد ظلت هذه الصحيفة تعمل حتى فترة قريبة للغاية ، ولا توجد أى صحيفة عربية تستطيع أن تتنافس الوقائع المصرية فى طول عمرها . وحيث أنها كانت على مدى عمرها شيئا يتبع البلاط الملكى فان فائدتها وجاذبيتها الشعبية كانت ضعيفة منذ البداية . وقد أرسى محمد على نفسه القاعدة فى هذا المقام ، حيث لم يسمح لأى موضوع بأن ينشر دون رقابة حكومية صارمة مسبقة (١٠) .

حتى عام ١٨٦٣ لم يكن لمصر سوى صحيفة واحدة ، وحتى خلال عهدى عباس الأول وسعيد كانت « الوقائع المصرية » تضطر الى الاحتجاب (١١) . ومن مثل هذه البدايات انطلقت الصحافة المصرية الى أوج ازدهارها فى عهد اسماعيل وعهد الاحتلال البريطانى .

ظهرت صحف كثيرة فى عهد اسماعيل ، رغم أن أغلبها كان قصير العمر اما بسبب المصاعب المالية أو بسبب استجلابها سخط الخديو . كانت أولى هذه الصحف « اليعسوب » ، وهى صحيفة شهرية طيبة يعود تاريخها الى عام ١٨٦٥ . وكانت أول جريدة سياسية هى « وادى النيل » لأبو السعود ، والتى فازت بما كان يعتبر فى زمانها أطول فترة ظهور

نسبىة وهى ثلاثة عشر عاما (١٨٦٦ - ١٨٧٨) (١٢) . وخلال عهد اسماعيل والسنوات المبكرة للاحتلال كانت أكثر دور النشر أهميه هى تلك المملوكة للمهاجرين السوريين الذين تدفقوا الى مصر فى اعداد كبيرة وسعوا الى الحصول على الاحتكار الفعلى للصحافة المصرية . حان اسماعيل يريد جذب المفكرين العرب الى بلاده ، وشجع السوريين فى هذه الجهود . كانت أول صحيفة سورية - مصرية هى (الكوكب الشرقى) الذى تأسست عام ١٨٧٣ فى الاسكندرية ، لكنها لم تعمر طويلا . وتأسست الصحيفة الأكثر شهرة (الأهرام) عام ١٨٧٦ على يد سليم وبشارة تفلأ، وكلاهما تلميذ لبطرس البستاني، وأصبحت الجريدة فى النهاية تعرف بـ Times الشرق الأوسط (١٢) . شارك أديب اسحاق وسليم النفاش فى اقامة (المحروسة) فى الاسكندرية عام ١٨٨٠ ، ثم ظهرت فيما بعد فى القاهرة أيضا كجريدة يومية . وكانت (المقتطف) جريدة سوريه اخرى طويلة العمر نسبيا ، ظهرت أصلا فى بيروت عام ١٨٧٦ ، ونقلت الى القاهرة بعد عشر سنوات تحت رئاسة يعقوب صروف وفارس نمر . وبدأ شبلى شميل فى نشر (الشفاء) عام ١٨٨٦ ، وأصدر أخاه أمين (الحقوق) خلال نفس العام . وحققت مجلة (الهلال) الناشئة عام ١٨٩٢ على يد جورجى زيدان نجاحا ساحقا (١٤) .

إذا استخدمنا الأعداد فقط بصورة محضة فان تقدم الصحافة المصرية فى عهد اسماعيل وخلال سنوات الاحتلال خاصة كان مذهلا . ازدهرت الصحافة فى عهد اسماعيل رغم أنه ، حيث أنه سعى مثل جده الشهير الى استخدام يده الثقيلة ضد أى صحفى يحيد عن الخط المرسوم (١٥) . ومع هذا ، فان البريطانيين ايا كانت أخطائهم الأخرى أعطوا مصر أكبر قدر من حرية الصحافة عرفته فى تاريخها (١٦) . فعندما جاء اللورد كرومر الى مصر عام ١٨٨٢ ، كانت هناك حفنة من الصحف لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، وفى عام ١٩٠٤ (قبل اعتزاله بثلاث سنوات) كان بالقاهرة وحدها ١٧٦ صحيفة (١٧) . كان لكل حزب سياسى جريدته الخاصة ، وكان قد مضى وقت طويل على سبق صحافة القاهرة لأى مدينة أخرى فى الشرق الأوسط .

وخلال الفترة ١٨٩٢ - ١٩٠٠ وحدها ، كانت حوالى ١٥٠ جريدة ودورية تصدر وهو ما يوازى القدر الذى صدر على مدى الأعوام الثلاثة والستون السابقة (١٨) . كانت أغلب الصحف فى ذلك الوقت قد أصبحت فى أيدى مصرية وكان قد تم كسر الاحتكار السوري للصحافة .

استمرت الصحافة المصرية فى الازدهار حتى عام ١٩١٠ ، عندما أقنعت « تجاوزات » بعض الصحف (خاسوء) الى جانب اغتيال (بغرس غالى)، أقنعت سير الدون جورست Eildon Gorst بضرورة تقليص بعض الحرية الممنوحة للصحافة (١٩) . ظلت الرقابة فعالة خلال سنوات الحرب ، لكن الصحافة استأنفت سيرها المتقدم فى أعقاب استقلال عام ١٩٢٢ . فى عام ١٩٢٦ . بلغ تعداد سكان مصر حوالى ١٤ مليوناً كان المتعلمون منهم أقل من مليون . وربما كانت الصحافة قد توسعت أكثر من اللازم لمثل هذا العدد القليل من الجمهور الذى يقرأ : فقد كان بالبصرة ما لا يقل عن أربعمئة صحيفة ومجلة نقدية من مختلف الأنواع (٢٠) .

كان النمو الظاهرى للصحافة يمثل مضمونين هامين للدراسات التاريخية : أولاً ، مع نهاية القرن التاسع عشر كانت الصحافة قد أصبحت طليعة حركة ضخمة من الاختمار الفكرى التى مست كل مظاهر الحضارة المصرية :

« تميزت الثلاثون عاماً التى أعقبت الاحتلال البريطانى بتطور سريع مذهل فى الأسس المادية للأدب . فقد تناقض ازدهارها وتوسعها الاقتصادى والحرية النسبية للتعبير التى تمتعت بها مصر ، تناقض هذا مع النظام المتزايد القمع فى سوريا ، وهذا أعطى مصر أولية لا تبارى فى العالم العربى . وتدفق عليها المثقفون ، الأدباء والصحفيون من سوريا ، وباتحاد القطبين المكملين لبعضهما لم يعد هناك سبب للعجب من ظهور نتاج وفير من الجرائد ، الجمعيات والمطابع فى كل مكان ، يتوفر لها من المادة ما يجعلها فى نشاط دائم » (٢١) .

وهكذا فإن الصحافة كانت تنشر بذور المعرفة فى كل المجالات ، ولم يستثنى التاريخ منها . فقد حمل جورنال (كروضة المدارس) مقالات ذات اهتمام تاريخى ، وظهرت فيه ترجمة الطهطاوى للرسول عليه الصلاة والسلام فى شكل حلقات متتابعة أصلاً (٢٢) . ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت المقالات التاريخية فى الصحف والجرائد قد أصبحت أمراً معتاداً ، وأصبح الكثير من المؤرخين مثل جورجى زيدان ومصطفى كامل صحفيين نشطين أيضاً . نشر جورجى زيدان فى جريدة (جنان) القاهرية تاريخاً للحرب الفرنسية - البروسية ، وفى عام ١٩١١ صدرت هذه الدراسة كمجلد منفصل (٢٣) ، ونشرت صفحات (الهلال) ، (اللواء) ، (الأهرام) مقالات عديدة ذات طابع تاريخى .

وهناك خدمة أخرى قدمتها الصحافة المصرية للتاريخ (وفى الحقيقة للمهن الأدبية بصفة عامة) ، وهى تطور الأسلوب المؤدى الى الكتابة التاريخية الحديثة . لقد ناقشنا هذا الموضوع بالفعل وبالتفصيل ورأينا كيف

ان المؤرخين المصريين ناضلوا على مدى القرن التاسع عشر لايجاد اسلوب مقبول . وقد ذكر مصطفى كامل وقاسم امين فى فترة مبكرة باعتبارهما نصراء لما يسمى بالاسلوب المباشر فى الكتابة (٢٤) ، لكنهما لم يكونا الوحيدين المهتمين بالاصلاح اللغوى . فقد كان الطهطاوى مبتدعا لأسلوبا هاما ايضا (٢٥) ، كما كان محمد عبده الذى أصر كمحرر (للوقائع المصرية) على ضرورة الاهتمام بالاسلوب (٢٦) . ومع نهايات القرن التاسع عشر نشأ اسلوب هادىء واكثر واقعية يمكن ملاحظته فى كتابات رجال امتال بشارة تقلا وجورجى زيدان (٢٧) .

رغم انه يحتمل أن تكون الصحافة قد قدمت اعظم اسهام فى تقديم التاريخ لجمهور اعرض ، الا أن الأعداد الكبيرة من المؤسسات السياسية التعليمية ، والخيرية التى ظهرت فى اواخر ثمانينيات القرن التاسع تستحق الذكر . وقد عمل وجود جمال الدين الأفغانى فى مصر من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ كحافز لمثل هذه التنظيمات ، وتكاثرت بسرعة خلال وبعد الفترة العرابية (٢٨) .

ورغم ان الكثير من هذه الجمعيات لم تكن مكرسة كلية للتاريخ ، فانها كانت مع ذلك مهتمة بالبحث التاريخى الى جانب الهدف العام بزيادة الوعى التاريخى بين الناس على الأقل . ربما كانت أكثر الجمعيات ذات التوجه البحثى أهمية هى (الجمعية الجغرافية الخديوية) المؤسسة عام ١٨٧٥ . وكما يستدل من اسمها فقد كان عملها الأساسى هو الجغرافيا ، لكنها قدمت أيضا دراسات قيمة فى التاريخ المصرى . وقد مولت (جمعية المعارف) المؤسسة عام ١٨٦٨ تحت ادارة ابراهيم المويلحى طباعة كتب هامة فى التاريخ ، الجغرافيا والشريعة الاسلامية مثل كتاب (اسد الغابة) . وقد نظمت (الجمعية الخيرية الاسلامية) المؤسسة فى الاسكندرية عام ١٨٧٨ والتى رأسها عبد الله النديم لقاءات مسائية دارت فيها مناقشات حول موضوعات تاريخية وعلمية . وتأسست (شركة طبع الكتب العربية) عام ١٨٩٨ وشارك فى عضويتها أعضاء مشهورين كأحمد تيمور وعلى بهجت . طبعت هذه الشركة من بين ما طبعت كلاسيكيات تاريخية (كفتوح البلدان) للبلاذرى ، وترجمة لصلاح الدين . وأخيرا ، فان هناك (نادى المدارس العليا) الذى فتح أبوابه عام ١٩٠٥ على يد مصطفى كامل لترقية الصلات (وعرضيا ، المقاومة الوطنية للبريطانيين) بين خريجي المعاهد المصرية العليا . وقد رعى هذا النادى محاضرات وخطب فى كل الميادين لكن التاريخ والأدب فازا بنصيب كبير : وطبقا للرافعى الذى كان فى ذلك الوقت تابعا شابا لمصطفى كامل ، فان الكثير كان يمكن تحصيله عن التاريخ المصرى من هذا النادى وليس من أى دراسة رسمية للموضوع (٢٩) .

كانت الصحافة ، نظام المدارس ، والأعداد المتزايدة من الاتحادات المشتركة من كل الأنواع - كانت كلها تساعد على حفز الاهتمام بالتاريخ وبسط الموضوع لجمهور أعرض . وكانت الفرص للدارس المتقدم أكبر بكثير مما كان قبل ذلك ، ولم يعد هناك ضرورة لتحمل رحلة شاقة مرهقة ومكلفة إلى أوروبا ، كما فعل الطهطاوي من أجل التعرف على الدراسات الأوروبية الأكثر حداثة . ومع نهاية فترتنا ، كان كافيا أن يتصفح المرء الكتب في سوقها بالقاهرة ، والتي حوت أكثر الأعمال الأوروبية المعروفة في التاريخ الإسلامي إلى جانب النصوص العربية المحققة بواسطة أوروبيين أمثال كارمير Quatremère ، ويستنفلد Wüstenfeld ، بيكر Becker ، لوبون le Bon ، سيديلوت Sedilot ، دييجوج de Goeje ومارجوليسوت Margoliouth (٣٠) . وكان مستشرقون أوروبيون مشهورون أمثال اجنازيو جويدي Ignazio Guidi وكارلو الفونسو نالينو Carlo Alfonso Nallino درسوا في ذلك الوقت في الجامعة المصرية . (جويدي Guidi ، من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٤ و نالينو Nallino من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٢) (٣١) . وعلم أنجيلو ساماركو Angelo Sammarco التاريخ الإسلامي في الليسيه الإيطالية من عام ١٩٢٢ فصاعدا كما كان جزءا من جهد التجميع - الوثائقي الذي نظمه الملك فؤاد (٣٢) . وكان علماء المان أمثال ليتمان littmann ، برجشتراسر Bergstrasser ، شاخت Schacht ، فنكلر Finkler وجراومان Graumann أعضاء في أوقات مختلفة في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ولم يجلس في فصول ليتمان littmann أحد غير طه حسين (٣٣) .

إذا ما تمعنا في الصورة الكلية ، فلن يكون هناك ما يدهش إذا علمنا أن التاريخ المصري قد انطلق حقيفة بعد عام ١٩٢٢ . فقد كانت البلاد مزودة بسد بما كان يعتبر وفرة وقزمة من المطابع ، دون أن تعاني نقصا . ركن نظام التعليم يطور إلى أقصى حد ، وكان التاريخ قد منح مكانه الملائم في إطار هذا النظام . وحملت وفرة من الصحف ، المجلات ، والجرائد مقالات ذات أهمية تاريخية على أسس يومية ، وكانت الاتحادات المشتركة نشطة أيضا في ترقية الوعي التاريخي . ونضج التاريخ المصري نفسه إلى درجة كبيرة وتطور إلى حد خروجه من يد الهواة . أصبح التاريخ الزمني الإسلامي مينا فيما يتعلق بكل الأغراض العملية ، وتحول المصريون بدلا عنه إلى نوع جيد التوثيق وتحليلي من التاريخ كان يعتبر في هذه المرحلة المبكرة « غريبا » . وهذا بدوره وضع المصريين في مواجهة مشكلة الانحياز في الكتابة التاريخية - وهي مشكلة لم يكن الغرب نفسه قد وجد حلا حقيقيا لها ، رغم أنه كان قد صارعها طويلا وكان بالتالي أفضل قدرة

على فهم طبيعة الصعوبة . ومع ١٩٢٢ كان الغرض من الكتابات المصرية التاريخية قد أصبح متوجعا على الاكتشاف حسب الاحوال كما يبدو في عمل ميخائيل شاروبيم ، سرهنك ، جورجى زيدان بل وحتى مصطفى كامل ، الذى كان مع ذلك ينقب - بطريقته المسلم باقتقارها الى الاتقان - خلال السجل التاريخى عن الدليل الذى يدعم المطالب الوطنى لمصر والامبراطورية العثمانية . أخيرا ، وفى المجال الأسلوبى ، فإن المصريين كانوا قد هجروا المحتوى غريب المنشأ ، والقصة المبسطة ، والازدهار الشعرى المستخدم فى الأزمنة السابقة - كانوا قد هجروا هذا كله تماما ، واختاروا بدلا منه شكلا مفاهيميا مصقولا مما كانت الدوائر الصحفية تشير اليه ، بالأسلوب المباشر ، . وعلى ذلك فإن التاريخ المصرى كان يتحول الى تاريخ « حديث » بكل ما تحمله الكلمة من معنى . فقط فإن (الاحتراف) كان لا يزال مفقودا ، ولم يأت الا بعد الاستقلال فى عام ١٩٢٢ .

لم تكن التغيرات التى مر بها التاريخ خلال القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين أكثر من جزء محمل لحرجه الصور التى اصابته المجتمع المصرى بصفة عامة . فمع نهاية الفترة موضوع الدراسة لم تعد المعرفة والاعجاب بالأساليب الغربية مقصورة على صفوة البلاط الحاكم ، أو محل سخرية واحتقار من جانب الشعب فى مجموعه . ولم يعد ما هو طهطاوى معتبرا تحسولا خطيرا ، بل الأصح هو مصطفى المنفلوطى (١٨٧٦ - ١٩٢٤) - الذى يرفضه طول حياته استخدام اللباس الغربى وإعادة توجيه المصريين نحو التقاليد الثقافية المحلية ، اعتبر شيئا شاذا (٢٤) . كان « المستغربون » قد أصبحوا هم القاعدة والتقليديون traditionalists هم الاستثناء .

ارتفع عدد الأوروبيين المقيمين فى مصر بانتظام على مدى القرن التاسع عشر . وفى المجالات التقنية كان على مصر أن تعتمد على رجال مثل هؤلاء منذ عهد محمد على (٣٥) ، لكن خلال عهد اسماعيل كان تقنيون أكثر يجندون من الغرب ، وانفتحت البلاد على مصراعيها للتأثير الغربى فى مجالات غير تقنية أيضا (٣٦) . فى عام ١٨٧٨ كان ٦٨٦٥٣ أوروبيا يعيشون فى مصر . فى عام ١٨٨٢ ارتفع هذا الرقم الى ٩٠٨٨٦ وارتفع الى ١١٢٥٢٦ فى عام ١٨٩٧ . ولما كان هؤلاء الأجانب يتركزون فى المدن الكبرى وكانوا فى أغلب الأحوال يتولون مناصب عالية فإن تأثيرهم تجاوز عددهم (٣٧) .

مع نهاية القرن كانت معرفة لغة أوروبية أو أكثر قد أصبحت أساسية لكل مصرى « متعلم » . ومنذ عهد محمد على كانت مصر تعتمد أغلب

وحياها الثقافى من فرنسا - وهو حالة من الأمور تغيرت تدريجيا فى ظل فدسية كرومر وخلفائه فى نهايات القرن التاسع عشر (٢٨) . سعى الاحتلال من عمد للارتقاء بوضع اللغة الانجليزية من خلال سلسلة من الاجراءات كان اولها قرار على مبارك عام ١٨٨٨ بأن يكون تعليم العلوم الطبيعية ، التاريخ والجغرافيا بالفرنسية أو الانجليزية بدلا من العربية . فى عام ١٨٩١ اشترط على مبارك أن تعلم الرياضيات فقط بالعربية ، وفى عام ١٨٩٧ استبعدت هذه المادة أيضا من الجزء العربى من المنهج . وفى الواقع فان كل مادة كانت تدرس بالفرنسية أو الانجليزية من ١٨٩٧ وحتى ١٩٠٧ عندما حول سعد زغلول متزعا « برنامجا جديدا للتعليم » كل المواد ما عدا العلوم الطبيعية ، التاريخ والجغرافيا الى اللغة العربية مرة اخرى . وتلقت اللغة الفرنسية ضربة موجعة على يد سعد الذى رأى أن معرفة الانجليزية قد أصبحت أساسية بصورة مطلقة لكل من يرغب فى العمل فى الحكومة أو التجارة ومشروعاتها (٣٩) .

ورغم هذه الاجراءات ووجود الاحتلال ، فان اللغة الفرنسية ظلت متماسكة حتى القرن العشرين . وكانت لا تزال متسيدة حتى أيام التعليم القانونى لمصطفى كامل (٤٠) . وكانت واحدة من اللغات الرسمية الثلاث مع العربية والايطالية فى المحاكم المختلطة حتى عام ١٩٠٥ عندما كسب كرومر موافقة القوى الأوروبية على ضم الانجليزية الى هذه اللغات على قدم المساواة . ومع هذا فان أول حكم بالانجليزية لم يصدر الا عام ١٩١٣ (٤١) . فى عام ١٨٩٢ أكد ويلفريد بلفت Wilfrid Blunt أن قدرة مصرى على التحدث بالانجليزية -بالإضافة الى الفرنسية كانت تعد « انجازا فذا » (٤٢) . وحتى فى عام ١٩٢٦ كان الالتحاق بمدارس اللغات الفرنسية فى مصر يصل الى أكثر من ٤٢٠٠٠ وكان أعلى من أى معدل التحاق بأى من المؤسسات ذات اللغات الأجنبية (٤٣) . وقد استمرت الجهود للهروب من ضرورة تعليم اللغة الأجنبية لما بعد الحرب الأولى ، ولكن نظرا للنقص فى المعلمين المؤهلين وفى المواد التى تقرأ بالعربية ، فان هذه المبادرات لم تحظ بكثير من النجاح . وفى عام ١٩٢٨ شكى مدير الجامعة المصرية أحمد لطفى السيد من أنه قد أصبح مستحيلا جعل الغربية لغة التعليم الرسمية فى الجامعة ، باستثناء كلية الحقوق وعلى نطاق محدود (٤٤) .

من عهد الخديو اسماعيل فصاعدا ، كان وجه مصر الكلى يتغير وفق معنبل عالى السرعة . ومع تصميمه على جعل بلاده « جزءا من أوروبا » فان اسماعيل تبنى الفرنسية كلغته للإدارة وأمر بإدخال القوانين الغربية الحديثة لتحل محل الشريعة (٤٥) . فى عام ١٨٦٨ افتتح مدرسة ثانوية حديثة (Ecole gratuite, libre et universelle) فى الاسكندرية ، بهدف

ترقية صلات اعظم بين المصريين والأوروبيين • وفى عام ١٨٧٢ انشئت مدرسة مماثلة فى القاهرة (٤٦) • وشجع اسماعيل الهجرة على معمل واسع للسوريين المستقرين الى مصر وفتح الأبواب للأوروبيين الراغبين فى اقامة مدارس اجنبية فى البلاد (٤٧) • وبنى دارا غربية « للاوبرا » وفتح مدرسة للبنات ، وشجع الجهود المسرحية ليعقوب صنوع - الذى كان منشغلا بترجمة الأعمال الأوروبية المسرحية الى العربية للجمهور المصرى - واقام وزارة على الأسلوب الغربى ومجلسا تشريعيا (٤٨) • وفى النهاية فانه حاول أن يعطى القاهرة والاسكندرية نظرة جديدة بينايات على النمط الأوروبى ، وشوارع عريضة ذات الأشجار على الجانبين (بوليفارد) ، وميناء حديثا ولبات اضاءة فى الشوارع (٤٩) •

كان المنظور الخارجى للبلاد يتغير بسرعة لا تزيد عن سرعة التغير فى الروح المصرية نفسها • خلال سنوات القرن التاسع عشر تطور البدوق الادبى لدرجة كبيرة ، وكان الكتاب الجدد رجالا ورثوا هامشيا البعيد الكلاسيكى « وشربوا فى أغلب الأحوال من ينابيع اخرى » و « نظروا الى العالم بعيون مختلفة » (٥٠) • عانى عمل شبه تقليدى « كلياالى سطيع » لحافظ ابراهيم والذى ظهر عام ١٩٠٧ ، عانى نقدا ثقيلا من جانب «المحدثين» الذين عارضوا تقاليد السجع القديم ، وكان مولد الرواية الطويلة الحديثة المصرية قد مضى عليه سبع سنوات فقط (٥١) • كان على المنازل ، الحدائق ، الشوارع ، والمتاحف أن تبني الآن على النسق الأوروبى تماما ، وكان المصريون يصرون - كالأوروبيين على ارتداء الحل ، والأكل على الموائد ، والجلوس على مقاعد (٥٢) • خلال الحرب العظمى زادت واردات المشروبات الكحولية بنسبة ٢٠٠٪ ، وفى ديسمبر ١٩١٩ كان فى القاهرة وحدها ٦٨٧ محلا عاما لبيع الخمور (٥٣) • وسواء اكان هذا مناقضا للاسلام ام لا ، فقد كان الكحول يعتبر غربيا ، وكان الغربى « حديثا » •

تسارع الايقاع بعد الحرب العظمى • هاجم على عبد الرازق مؤسسة الخلافة • وعدل القانون المدنى المصرى ، ولم يعد يحتوى الا على القليل ان لم يكن قد خلا من القواعد الدينية التقليدية (٥٤) • وسخر العقاد والمازنى من الشعراء التقليديين أمثال شوقى وحافظ ، الذين كانا يواجهان فى ذلك الوقت مدرسة على محمود طه وابراهيم ناجى الجديدة • وفى نفس هذه الفترة كان طه حسين يحاول أن يرفع الهالة المقدسة من الارث الادبى العربى الكلاسيكى كله (٥٥) • ونشرت صفحات (البلاغ) و (السياسة) بانتظام ترجمات لأعمال تشيخوف Chekhov • دي موباسان de Maupassant ، تولستوى Tolstoi ، شو Shaw •

هـ • ج • ويلز H.G. Wells ، إبسن Ibsen ، وهاردي Hardy
الى جانب آخرين (٥٦) ، حتى الموسيقى - أكثر الوسائط الفنية الثقافية
مقاومة للتغيير - كانت تتعرض للهجوم باعتبارها بالية للغاية
وعتيقة (٥٧) •

إذا ما وضعنا في الاعتبار ذلك السيل الجارف من الأفكار الغربية
التي كانت تغمر مصر ، فإنه لن يكون غريبا أن يكون التأريخ قد تعرض
لتغيرات ضخمة ، ولحقق فإنه من الغريب أن يكون التأريخ قد حافظ على
المنهجية الإسلامية التقليدية لزمان طويل • لكن التقليديون أيا كان لونهم
أصبحوا مع نهاية الفترة موضوع الدراسة في وضع يصعب الدفاع عنه ،
وسواء أكان الأمر للأفضل أم للأسوء ، فإن (المدرسة القومية) للتأريخ
قد انتصرت • ولو كان علينا أن نستكمل دراستنا الى ما بعد عام ١٩٢٢ ،
فإننا قد نجد أن المعيار الأصلي الموضوع لتقييم الكتابات التاريخية المصرية
كان غير ملائم كلية • كانت مصر قد بلغت منظورا واضحا وجليا من
اليقظة القومية ، وكان كل مؤرخ مصرى بعد عام ١٩٢٢ يعتبر قوميا •

وليس معنى هذا ان التأريخ المصرى بعد ١٩٢٢ قد تحلل الى مجرد
جدل عنيف : فالاطلاع على الدراسات الجادة المستشهد بها في حواشي
هذا العمل سيبين أن العكس هو الصحيح • كما أنه ليس معنى هذا أيضا
الخط من قدر الانجازات المبكرة لكتاب القرن التاسع عشر ، الذين عملوا
في بيئة مختلفة تماما وقدموا من خلال سيرهم الوظيفية وكتاباتهم رغبة
في خدمة بلادهم وحفظ ذكرى ماضيها • ولقد نجحوا في المهمتين بصفة
عمامة ، وحملوا فن الكتابة التاريخية الى أعماق الأزمنة الحديثة • كان كل
هذا مطلوبا لأول مؤرخ مصرى محترف لكي يظهر ، ولقد ظهر بالفعل في
عام ١٩١٩ • وهذا هو محمد صبرى خريج السوربون الذى درس على يد
البرت اولارد Albert Aulard • وقد حدد عمله La revolution
egyptienne بداية الاحتراف في التأريخ المصرى •

حواشي الفصل الحادى عشر

Robert C. Binkley

(١) روبرت س . بنكل

"Realism and Nationalism, 1852-1871".

Harper Torchbooks. The Rise of Modern Europe (New York, Evanston and London : Harper and Row, Publishers, 1963), p. 50.

Harry E'mer Barnes

(٢) هارى المربارن

"A History of Historical Writing", 2nd ed. rev.

(New York : Dover Publications, Inc., 1962), p. 400.

(٣) الدسوقي « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٤٠ . وأكثر الدراسات

تفصيلا عن مطبعة بولاق هى « تاريخ مطبعة بولاق » لأبو الفتح رضوان (القاهرة ، ١٩٥٣) .

(٤) الشيال « تاريخ الترجمة » ، ص ١٩٧ .

(٥) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٦١ .

(٦) يجب ان نتذكر أيضا ان العربية لم تجعل محل التركية كلغة الحكومة الرسمية

حتى عهد سعيد .

"L'esprit national egyptien", p. 119.

صدرى

(٧) الدسوقي « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٤٢ .

(٨) خليل صابات « الطباعة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، ١٧٩٨ - ١٨٠١ » ،

مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ٢١ (١٩٥٩) : ٦٥ .

(٩) كما ذكر ، فان الطهطاوى كان لوقت ما محررا لهذه الصحيفة . انظر ص ٧٣

من الفصل الرابع .

(١٠) الدسوقي « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(١١) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٦٣ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

Jacques Tagher

(١٣) جاك تاجر

"La naissance et le developpement du Journal 'Al-Ahram," Chaiers d'histoire egyptienne 4 (1952), 27.

(١٤) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » المجلد الرابع ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٣ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

(١٦) بالاستثناء الممكن للفترة ١٩٢٢ - ٥٢ ، عندما مارست مصر حكومة برلمانية

شبه حرة . هناك الكثير من الفضل لكرومر والحكومة البريطانية الانتقالية فى هذا المقام ،

رغم ان المصريين نافرين من الاعتراف بذلك . وهناك ما يمكن ان يقال بشأن النظام البريطانى

الاستعماري عندما تنشأ صداقة وعلاقات حبية بين كرومر ومحمد عبده ، وعندما يستطيع قاسم أمين أن يعلن أن « مصر قد نعتت خلال الاحتلال بعدالة وحرية (أكثر) من أي فترة سابقة » .

بدر « تطور الرواية في مصر » ، ص ٣٦ . وبدر نفسه يدين الاحتلال دون ارادته .

انه من الصحيح بالطبع ان يريد المرء الاستقلال لبلده . في نفس الوقت فان المؤرخ مضطر مع ذلك الى ان يسأل عن أمة أخرى في التاريخ الامبريالي قد منحت مثل هذه الحرية في التعبير لشعب محتل .

(١٧) الدسوقي « في الأدب الحديث » ، الجزء الثاني ، ص ٦٧ - ٦٩ .

(١٨) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٧٠ . والكثير من هذه الصحف والدوريات كان قصير العمر ، لكن نشاط الصحافة المصرية لم يتأثر بذلك . وفي ١٩١١ كان هناك في مصر ٨٤ صحيفة يومية ، ٢٩ مجلة نقدية أدبية ، ثلاثة دوريات قانونية . خمسة مجلات طبية ، أربعة عشر صحيفة دينية ، ثلاث مجلات نسائية ، أربعة مجلات تاريخية نقدية عربية ومجلتين فكاهيتين .

George Swan

جورج سوان

"The Moslem Press in Egypt." The Moslem world 1 (1911) : 149-52.

(١٩) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٧٠ - ٧١ .

G. Robb

(٢٠) ج . روب

"Egyptian Miscellany."

كما استشهد بها في

"The Press in Egypt", The Moslem world 16 (1926) : 403.

Gibb .

(٢١) جب

"Contemporary Arabic literature," pp. 755-56.

(٢٢) انظر ص ٧٢ من الفصل الرابع .

"Modern Arab Historians", p. 38.

(٢٣) حداد

(٢٤) انظر ص ٢١ من الفصل الأول .

(٢٥) انظر ص ٧٢ ، ٨٠ - ٨١ من الفصل الرابع .

Egyptian Nationalism, pp. 39-40.

(٢٦) أحمد

Tagher

(٢٧) عن تقلا انظر تاجر

"Le Journal 'Al Ahram", p. 244.

وعن دراسة مختصرة للتطور الاسلوبي بصفة عامة انظر عبد اللطيف حوزة « أدب المقالة الصحفية في مصر » (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٨) الجزء الأول ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٢٨) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » المجلد الرابع ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٢٩) عبد الرحمن الرافعي « مذكراتي » ١٨٨٩ - ١٩٥١ (القاهرة : دار الهلال ،

(١٩٥٢) ، ص ٨ ، ١٠ - ١١ . وقد أخذت المعلومات عن الجمعيات الأخرى من زيدان
« تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٩٠ - ٩٧ .

(٣٠) زيادة
"Modern Egyptian Historiography," pp. 268-69.

(٣١) مراد كامل « إيطاليا والدراسات العربية » ، المجلة ، رقم ٣٠ (١٩٥٩) ،
ص ٢٤ - ٢٥ .

Ettore Rossi
(٣٢) إيتوري روسي

"In Memoriam : Angelo Sammarco (1883-1948),"

Oriente Moderno 28 (1948) : 198.

(٣٣) مراد كامل « العلماء الألمان والدراسات العربية » ، المجلة ، رقم ٨٩ (١٩٦٤) ،
ص ٥١ .

(٣٤) اعتبرت رحلة الطهطاوى الى باريس لا أخلاقية من وجهة نظر الكثيرين من
معاصريه ، الذين رأوا انه سيعود ملوثا بتعرضه للحم الخنزير ، النبيذ والنساء
الساقطات .

بدري « الطهطاوى » ، ص ١٣٩ - ٤٠ . عن حياة وكتابات المنفلوطى انظر لنيفيل باربور

Nevill Barbour

"Al-Manfaluti — An Egyptian Essayist," Islamic Culture 7 (1933) :
491.

واستكمال باقى المقال فى
Islamic Culture 9 (1935) 362.

(٣٥) عن دور الغرب فى عهد محمد علي انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر
محمد علي » ، ص ١ ، ٥٢ - ٥٣ ، ٦٧ - ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٢١ - ٢٢ ،
٦٥٨، ١٩١ .

(٣٤) ستبقى عدة أمثلة . فقد ضمت قائمة مديري مدرسة الطب فى عهد
إسماعيل أسماء كلوت Clot ، أرنو Arnoux ، فامبرى Vambery وبرجير ،
Burguières ، وأساتذة مثل فيجاري Figari ، كلوتشى Coloucci ، واسبيانسى
Espinassi . وكان دوريك Dor-Bey مفتشا عاما للمدارس ، وكانت مدرسة الطب
البيطرى تحت إدارة ليونار Lyonar ، ومدرسة الإدارة تحت إدارة فيدال Vidal
ومدرسة العمليات تحت إدارة جيجون Guigon .

هيوارث دن
Heyworth-Dunne

"Education in Modern Egypt", pp. 321, 350, 354-55-55, 357.

وضم الجيش ما بين ٣٠ - ٤٠ ضابطا أمريكيا .

صبرى
L'esprit national egyptien, p. 114.

(٣٧) هيوارث دن
Heyworth-Dunne

"Education in Modern Egypt", p. 343-44.

(٣٨) الدسوقي « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٢٥٧ .

(٣٩) أخذت هذه المعلومة من المصادر الثلاثة الآتية : -

١ - عبد الكريم « تاريخ التعليم في عصر محمد علي » ، ص ٦٥٦ - ٥٧ .
٢ - عبد الملك L'Egypt Modern," p. 360.

٣ - الدسوقي « في الأدب الحديث » الجزء الثاني ، ص ٢٧ ، ٤٧ .
وتتفق هذه المصادر معاً الى حد كبير .

(٤٠) بدر « تطور الرواية في مصر » ص ٢٨ .

(٤١) م . ه . م .
M. H. "Mitteilungen : Agypten", Die Welt des Islams 1 (1913), 39.

(٤٢) ويلفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt
"My Diaries : Being a personal Narrative of Events, 1888-1914
(London : Marlin Secter, 1919), I, 78.

قارن الدسوقي الذي يذكر ان معرفة الفرنسية كانت منتشرة الى حد ان المصريين كانوا يستطيعون تأليف كتباً وشعراً بها ، بينما كانوا عاجزين عن تحقيق ذلك بالعربية .
الدسوقي « في الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٣٨٦ ، الجزء الثاني ، ص ١١ .

(٤٣) الدسوقي « في الأدب الحديث » ، الجزء الثاني ، ص ١١ .

(٤٤) توفيق حبيب « الجامعة المصرية في عشرين سنة » ، الهلال ٢٦ (١٩٢٨) :
٥٧٤ .

(٤٥) سافران Safran
'Egypt in Search of Political Community," p. 34

(٤٦) هيوارث دن Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 416-18.

(٤٧) قارن ص ٩٥ من الفصل الخامس و ٢٠٢ من الفصل الاحدى عشر .

لمزيد من التفاصيل انظر شتبات Steppat
"Education Projects in Egypt," p. 283.

وهيوارث دن Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 406, 423

(٤٨) شوقي ضيف « الأدب العربي المعاصر في مصر » ، مكتبة الدراسات الأدبية ،
رقم ٢٤ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١) ص ١٥ ، ٢٤ - ٢٥ .

(٤٩) انظر ص ٩٢ - ٩٣ من الفصل الخامس .

(٥٠) جيب Gibb
"Contemporary Arabic Literature", p. 746.

(٥١) ظهرت رواية محمد حسين هيكل (زينب) في عام ١٩١٤ .

H.A.R. Gibb ه . ا . ر . جيب
"Studies in Contemporary Arabic Literature. IV.
"The Egyptian Novel," BSOAS 7 (1933-35) : 6-8.

(٥٢) بدأت هذه التغييرات في الظهور خلال عهد اسماعيل - انظر الشيبال « الطهطاوى » ،
ص ٢٠ .

S. M. Zwemer (٥٣) م . م . زفير
"The city of Cairo According to the Census of 1917",
The Moslem World 10 (1920) : 270.

(٥٤) أنور أحمد قدرى
"European Impact on law Reforms in the Middle East", The voice of
Islam 16 (1968) : 591, 593.

(٥٥) بدر « تطور الرواية في مصر » ، ص ٤٧ - ٤٨ .

T. Khemiri (٥٦) ت . خميرى
"The Egyptian Press Today," The Moslem World 18 (1928): 399.

(٥٧) كانت أغنية العنوان لأول فيلم ناطق مصرى - انشودة الفؤاد (١٩٣٢) نوع
تقليدى من الغناء الذى لم يعد مقبولا .

Jacques Berque جاك بيرك
"Etapas de la société égyptienne contemporaine", Studia Islamica 22
(1965) : 107.

قائمة المصادر

١ - مصادر استخدمها المؤلف

(١) كتب بالعربية

- إبراهيم عبده :
(اعلام الصحافة العربية) • القاهرة : مكتبة الآداب بالجواميز ،
• ١٩٤٤
- أحمد أحمد بدوي :
(رفاة رافع الطهطاوى) • القاهرة • مطبعة لجنة البيان العربى ،
بدون تاريخ •
- أحمد عزت عبد الكريم :
(تاريخ التعليم فى عصر محمد على) • القاهرة • مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٣٨ •
- :
(تاريخ التعليم فى مصر) • المجلد الثانى : القاهرة • مطبعة
النصر ، ١٩٤٥ •
- اسماعيل سرهنك :
(حقائق الاخبار عن دول البحار) • ثلاثة مجلدات • القاهرة •
المطبعة الأميرية ببولاق • وطباعة خاصة ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٨ ، و ١٩٢٣
- اسماعيل محمود القباني :
(سياسة التعليم فى مصر) • القاهرة • مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، ١٩٤٤ •

- السيد عيد العزيز سالم :
- (التاريخ والمؤرخون العرب) • القاهرة • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ •
- الياس زاخورا :
- (مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال) • القاهرة — ١٨٩٧
- امين سامى :
- (تقويم النيل) ستة مجلدات • القاهرة • مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩١٦ — ١٩٣٦ •
- : —
- (التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ وبيان تفضيلى لنشر التعليم الاولى والابتدائى بانحاء الديار المصرية) • القاهرة • مطبعة المعارف ، ١٩١٧ •
- : —
- (مصر والنيل من فجر التاريخ الى الآن) • القاهرة • مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨ •
- توفيق الحكيم :
- (عودة الروح) المجلد الثانى • القاهرة • مكتبة الآداب ، بدون تاريخ •
- جرجس حنين :
- (الاطيان والضرائب فى القطر المصرى) • بولاق ، المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٩٠٤ •
- جمال الدين الشنيال :
- (رفاة رافع الطهطاوى) نوايخ الفكر العربى ، رقم ٢٤ ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ •
- : —
- (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على) • القاهرة • دار الفكر العربى ، ١٩٥١ •
- : —
- (التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر) • المكتبة التاريخية ، رقم ٢ • مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ •

— جورجى زيدان :

(كتاب تاريخ مصر الحديث) مجلدين • القاهرة • مطبعة الهلال ،
• ١٩٥٢

— : —

(تاريخ آداب اللغة العربية) المجلد الرابع • القاهرة •
مطبعة الهلال ، ١٩١٤ •

— خليل شبيب :

(عبد الرحمن الجبرتي) • اقرأ • رقم ٧٠ • القاهرة •
دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٩٤٨ •

— (دار الكتب فى عهد الثورة ، ١٩٥٢ - ١٩٦٢) • القاهرة •
مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٢ •

— رفاعة رافع الطهطاوى :

(كتاب مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية) •
القاهرة ، مطبعة شركة الرغائب ، ١٩١٢ •

— : —

(تخلص الابريز فى تخلص باريز) ، تحقيق مهدى علام ،
أحمد أحمد بدوى ، أنور لوقا • القاهرة ، مكتبة مصطفى
البسبى الحلبي وأولاده ، ١٩٥٨ •

— : —

(أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل) •
المجلد الأول • القاهرة ، ١٢٨٥ هـ •

— سعيد زايد :

(على مبارك وأعماله) الألف كتاب ، رقم ١٩٩ • القاهرة •
مكتبة الأنجلو المصرية • بدون تاريخ •

— سليم خليل النقاش :

(مصر للمصريين) ستة مجلدات الاسكندرية • مطبعة الجروسة ،
• ١٨٨٤

— شفيق غريال :

(منهج مفصل لدروس فى العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية
على ما هى عليه اليوم) • القاهرة • مركز الدراسات العربية
التابع لجامعة الدول العربية ، ١٩٦١ •

— شوقي ضيف :

(الأدب العربى المعاصر فى مصر) • مكتبة الدراسات الأدبية ،
رقم ٢٤ • القاهرة • دار المعارف ، ١٩٦١ •

— عبد الرحمن الرافعى :

(تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة) • القاهرة • مكتبة
النهضة المصرية ، ١٩٦٣ •

— :

(تاريخ الحركة القومية) مجلدين • القاهرة • مطبعة النهضة
المصرية ، ١٩٢٩ •

— :

(عصر محمد على) القاهرة • مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ •

— :

(عصر اسماعيل) المجلد الأول • القاهرة • مكتبة النهضة المصرية ،
١٩٤٨ •

— :

(مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال) • القاهرة • مكتبة
النهضة المصرية ، ١٩٤٢ •

— :

(مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) • القاهرة • مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٦٢ •

(محمد فريد رمز الأخلاص والتضحية) • القاهرة • مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٦١ •

— :

(فى أعقاب الثورة المصرية) • المجلد الثالث • القاهرة •
مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ •

— : —

مذكراتي ، ١٩٨٩ - ١٩٥١) • القاهرة • دار الهلال ، ١٩٥٢ •

— عبد اللطيف حمزة :

(أدب المقالة الصحفية في مصر) • المجلد الأول • القاهرة • دار
الفكر العربي ، ١٩٥٨ •

— عبد المحسن طه بدر :

(تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ١٨٧٠ - ١٩٣٨) مكتبة
الدراسات الأدبية ، رقم ٣٢ • القاهرة • دار المعارف ، ١٩٦٣ •

— عز الدين ابن الأثير :

(الكامل في التاريخ) المجلد الثاني عشر • بيروت • دار صادر
ودار بيروت ، ١٩٦٦ •

— علي مبارك :

(الخطوط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة
والمشهورة) عشرون مجلدا • بولاق • المطبعة الكبرى الأميرية ،
١٠٣٦ هـ •

— عمر الدسوقي :

(في الأدب الحديث) مجلدان • القاهرة • دار الفكر العربي ، ١٩٦٦

— عمر طوسون :

(البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول
وسعيد) • الاسكندرية ، مطبعة صلاح الدين ، ١٩٣٤ •

— قسطنطين زريق :

(نحن والتاريخ) • بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٣ •

— لويس عوض :

(المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث) المجلد
الثاني • الفكر السياسي والاجتماعي • منشورات مركز الدراسات
العربية العالية التابع للجامعة العربية • القاهرة • دار المعارف ،
١٩٦٦ •

— محمد أحمد خلف الله :

(على مبارك وآثاره) • القاهرة • مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون
تاريخ •

— محمد أنيس :

(مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى) • منشورات مركز الدراسات العربية التابع للجامعة العربية • القاهرة • دار الجيل للطباعة ، ١٩٦٢ •

— محمد بدیع شریف وآخرین :

(دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة) القاهرة • مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ •

— محمد بن عمر التونسي :

تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (تحقيق محمد مصطفى زيادة • القاهرة • الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ •

— محمد عبد الكريم :

على مبارك، حياته ومآثره (القاهرة • مطبعة الرسالة • بدون تاريخ

— محمد عمارة :

(الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى) المجلد الأول - التمدن والحضارة والعمران • بيروت • المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ •

— محمد فريد :

(كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية) • بولاق - المطبعة الأميرية ، ١٣٠٨ هـ •

— : ———— :

(تاريخ الدولة العلية العثمانية) القاهرة • مطبعة التقدم بمصر ، ١٩١٢ •

— محمد فؤاد شكرى :

(مصر فى مطلع القرن التاسع عشر) المجلد الثالث • القاهرة - مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ •

— محمد قنديل البقلى :

(المختار من تاريخ الجبرتى) كتاب الشعب ، رقم ٢٧ - القاهرة - مطابع الشعب ، ١٩٥٨ •

— محمود الشرقاوى :

(مصر فى القرن الثامن عشر) المجلد الأول : عبد الرحمن الجبرتى
— القاهرة — مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ .

— محمود الشرقاوى وعبد الله المشد :

(على مبارك : حياته ودعوته وآثاره) . القاهرة — مكتبة الأنجلو
المصرية ، ١٩٦٢ .

— محمود الفيلكى :

(رسالة عن الاسكندرية القديمة) محقق بمعرفة محمد عوض
حسين . الاسكندرية . دار نشر الثقافة ، ١٩٦٦ .

— محمود فهمى المهندس :

(البحر الزاخر فى تاريخ العالم واخبار الأوائل والآخر) .
المجلد الأول . القاهرة . المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢ هـ .

— مصطفى كامل :

(المسألة الشرقية) مجلدان . القاهرة . مطبعة اللواء ، ١٩٠٩ .

— : ————— :

(الشمس المشرقة) المجلد الأول . القاهرة . مطبعة اللواء ، ١٩٠٤ .

— ميخائيل شاروويم :

(الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) أربعة أجزاء . بولاق .
المطبعة الأميرية ، ١٨٩٨ — ١٩٠٠ .

(ب) مقالات بالعربية

— أحمد أحمد الحتة :

(مراجع تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على ، ١٨٠٥ —
١٨٤٨) — المجلة التاريخية المصرية (١) (مايو وأكتوبر ١٩٤٨) .

— أحمد حسين الصاوى :

(تاريخ حركات صحفية مصرية : الأستاذ) . الهلال ، رقم ١٠
(أكتوبر ١٩٦٦) .

— أحمد شفيق :

(يقظة الشعور القومي منذ أوائل القرن التاسع عشر الى الآن)
الهلال ، ٤٨ (أبريل ١٩٤٠) .

— البحث عن تراثنا (، حديث مع الدكتور محمد صبري . الكاتب ،
رقم ٩ (ديسمبر ١٩٦١) .

— أمين سامي :

(تطورنا في أربعين عاما : التربية والتعليم) . الهلال ٤٠
(نوفمبر ١٩٣١) .

— : ———— :

(لما كنت معلما) . الهلال ٤٥ (أبريل ١٩٣٧) .

— : ———— :

(المدارس في ربع قرن : من سنة ١٨٧٥ — ١٩٠٠) . المقتطف
٣٨ (مايو ١٩٣٦) .

— توفيق حبيب :

(الجامعة المصرية في عشرين سنة) الهلال ٣٦ (مارس ١٩٢٨) .

— جمال الدين الشيبان :

(عبد الله النديم ، ١٨٤٥ — ١٨٩٦) الكاتب رقم ١ (يناير ١٩٤٩) .

— : ———— :

(المؤرخون السوريون في مصر في القرن التاسع عشر)
المجلة ، رقم ٢٣ (نوفمبر ١٩٥٨) .

— : ———— :

(دكتور بيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر
التونسي) . مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول (١٩٤٤) .

— خليل صابات :

(الطباعة في مصر خلال الحملة الفرنسية ، ١٧٩٨ — ١٨٠١) .
مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ٢١ (ديسمبر ١٩٥٩) .

- : —
- (مطبعة بولاق فى عهدىا الثانى ، ١٨٤١ - ١٨٨٢) ٠٨ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ٢٤ (مايو ١٩٦٢) .
- دار العلوم: حديث صادق جواهر بك) . المقتطف ٩٠ (فبراير ١٩٣٧)
- رؤوف عباس ، سيد مصطفى سالم ، محمد أنيس ، ومحمود اسماعيل :
- (محمد فريد ومذكراته) الكاتب ، رقم ١٠٤ (نوفمبر ١٩٦٩) .
- سامى يدرأوى (الشيخ حسن العطار) :
المجلة رقم ٩٩ (مارس ١٩٦٥) .
- سعد زهيران :
- (التعاليم الليبرالية فى الثورة العرباية) المجلة ، رقم ١٠٨ (ديسمبر ١٩٦٥) .
- سلامة موسى :
- (تاريخ الوطنية المصرية ، نشوئها وتطورها) . الهلال ٣٦ (يناير ١٩٢٨) .
- شفيق غريال :
- (مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين) . الهلال ٦٢ (نوفمبر ١٩٥٤)
- : —
- (رسالة المؤرخ) . الهلال ٦٥ (ابريل ١٩٥٧) .
- عباس محمود العقاد :
- (مصطفى كامل كما عرفته) المجلة ، رقم ٦٩ (أكتوبر ١٩٦٢) .
- : —
- (كتاب مصطفى كامل) الرسالة ، رقم ٢٩٤ (فبراير ١٩٣٩) .
- عبد الفتاح عاشور :
- (الدكتور محمد مصطفى زيادة) المجلة ، رقم ١٤٥ (يناير ١٩٦٩) .
- فوزى العنتيل :
- (المجتمع المصرى كما تصوره رواية بين القصرين) المجلة ، رقم ١٥ (مارس ١٩٥٨) .

- محمد أنيس :
(شفيق غريال ومدرسة التاريخ المصرى الحديث) ، المجلة ، رقم ٥٨ (نوفمبر ١٩٦١) .
- :
(مؤرخ مجهول سبق الجبرتي) ، الهلال ، رقم ٧ (يوليو ١٩٦٤) -
- :
(الجبرتي أعظم المؤرخين) ، الهلال ، رقم ١٢ (ديسمبر ١٩٦٧) .
- :
(حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية) ، المجلة التاريخية المصرية ٩ - ١٠ (١٩٦٠ - ١٩٦٢)
- :
(الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار) ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٨ (مايو ١٩٥٦) .
- :
(وثائق الثورة العربية) ، الكاتب ، رقم ١٠٣ (أكتوبر ١٩٦٩) -
- :
(دعوة للوطنية لا دعوة للاحتكار) ، الجمهورية ، ٣٠ يوليو ١٩٦٤
(كفاح في المنفى : محمد فريد) ، الجمهورية ، ١٦ أكتوبر ، ١٩٦٩
- :
(أمريكا والعزلة) ، الجمهورية ، ١٩ فبراير ١٩٦٨ .
- محمد محمود زيتون :
(جامعة فؤاد الأول) ، الرسالة ، رقم ٨٩٣ (أغسطس ١٩٥٠) .
- :
(فلنهدم الجامعة) ، الرسالة ، رقم ٨٩٤ (أغسطس ١٩٥٠) .
- محمود اسماعيل عبد الرازق :
(محمد فريد ومذكراته ، ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ - ٢٧ أغسطس ١٩١٤)
الكاتب رقم ١٠٧ (فبراير ١٩٧٠) .
- :
(محمد فريد ومذكراته - ٥ : من ٢٤ يوليو ١٩١٣ الى بداية مارس ١٩١٤) ، الكاتب ، رقم ١٠٨ (مارس ١٩٧٠) .

— محمود الشرقاوى :

(على مبارك والثورة العرابية) • المجلة ، رقم ٤١ (مايو ١٩٦٠) .

— مراد كامل :

(العلماء الألمان والدراسات العربية) • المجلة ، رقم ٨٩ (مايو ١٩٦٤) .

— : —————

(ايطاليا والدراسات العربية) • المجلة ، رقم ٣٠ (يونيو ١٩٦٩) .

— موسى صبرى :

(هاتولى حبيبي) • الأخبار ، ٥ أغسطس ١٩٦٤ .

— (نقد تقويم النيل لأمين سامي) • المقتطف ٧٣ (يوليو ١٩٢٨) .

(ج) كتب بلغات غربية

— Abdel-Malek, Anouar. *Ideologie et renaissance nationale: L'Egypte moderne*. Paris : Editions Anthropos, 1969.

— Ahmed, Jamal Mohammad. *The intellectual Origins of Egyptian Nationalism*. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1960.

— Ezer, Gobriel. *A History of landownership in Egypt, 1800-1950*. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.

— Eames, Harry Elmer. *A History of Historical Writing* 2nd ed. rev. New York : Dover Publications, Inc, 1962.

— Einkley, Robert C. *Realism and Nationalism, 1852-1871*. Harper Torchbooks : *The Rise of Modern Europe*. Newyork, Evanston and London : Harper and Row, Publishers, 1963.

— Elunt, Wilfrid Scawen. *My Diaries, Being a personal Narrative of Events, 1888-1914*. Vol. I. London : Martin Secker, 1919.

— Brown, L. Carl. *The Tunisia of Ahmad Bey, 1837-1855*. Princeton University Press, 1974.

- Butterfield, Herbert. *Man On His Post*. Boston : Beacon Press, 1960.
- Carr, Edward Hallet. *What Is History ?* New York . Random House, Inc. ; Vintage Books, 1967.
- Collingwood, R. G. *The Idea of History*. London and New York : Oxford University Press, 1956.
- ———. *Essays in the Publication of History*. Edited with an introduction by William Debbins. New York. McGraw-Hill Book Co. 1966.
- Creasy, Edward. *History of the Ottoman Turks*. Beirut: Khayats ; Oriental Reprints, no. 1, 1961.
- Cromer, Earl of. *Modern Egypt*. Vol. II. New York : The McMillan Company, 1909.
- Djilas, Milovan. *The Unperfect Society : Beyond the New Class*. Translated by Dorian Cooke. New York : Harcourt, Brace & World, Inc., 1969.
- Fitzsimons, Matthew A. ; Pundt, Alfred G. ; and Nowell, Charles E., eds. *The Development of Historiography*. Port Washington, N.Y. : Kennikat Press, Inc., 1967.
- Gibb, H.A.R. *Modern Trends in Islam*. Chicago : University of Chicago Press, 1947.
- ———. *Arabic Literature*. 2nd ed. rev. Oxford : At the Clarendon Press, 1963.
- Gran, Peter. *Islamic Roots of Capitalism : Egypt, 1760-1840*. Austin & London. University of Texas Press, 1979.
- Grant, Michael. *The Ancient Historians*. New York : Charles Scribner's Sons, 1970.
- Hale, J. R., ed. *The Evolution of British Historiography . From Bacon to Namier*. Cleveland and New York : The World Publishing Co. Meridian Books, 1964.

- Heyworth-Dunne, J. *An Introduction to the History of Education in Modern Egypt*. London : Luzac and Co., 1939.
- Higham, John ; Krieger, Leonard ; and Gilbert, Felix. *History*. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, Inc., 1965.
- Hourani, Albert. *Arabic Thought in the liberal Age, 1798-1939*. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.
- Jaroui, Abdallah. *The Crisis of the Arab Intellectual*. Trans. from the French by Diarmid Cammell. Berkeley (Los Angeles & Toronto : University of California Press, 1974.
- Lewis, Bernard. *The Middle East and the West*. New York : Harper and Row, Publishers ; Harper Torchbooks, 1964.
- Mahdi, Mohsin. *Ibn Khaldun's Philosophy of History*. Chicago, University of Chicago Press ; Phoenix Books, 1964.
- Margoliouth, D.S. *Lectures on Arabic Historians*. Calcutta : Calcutta University, Press, 1930.
- Moreh, S. *Al-Jabarti's Chronicle of the first Seven Months of the French Occupation of Egypt*. Leiden : E.J. Brill, 1975.
- Nuseibeh, Hazim Zaki. *The Ideas of Arab Nationalism*. Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1956.
- Philipp, Thomas. *Gurgi Zaidan : His life and Thought*. Beirut : Orient-Institut der deutschen morgenländischen Gesellschaft, 1979.
- Rosenthal, Franz. *A History of Muslim Historiography*. 2nd ed. rev. Leiden : E.J. Brill, 1968.
- ———. *The Technique and Approach of Muslim Scholarship*. *Analecta Orientalia*, no. 24. Rome : Pontificum Institutum Biblicum, 1947.

- Sabry, M. La genèse de l'esprit national égyptien (1863-1882) Thèse principale de Doctorat es lettres présentée à la Faculté des lettres de l'Université de Paris. Paris : Vu et permis d'imprimer ; le recteur de l'Académie de Paris, 1924.
- Safran, Nadav. Egypt in Search of Political Community. Cambridge, Mass.; Harvard University Press, 1961.
- Schölch, Alexander. Agypten den Agyptern : Die politische und gesellschaftliche krise der Jahre 1878-1882 in Agypten. Zurich and Freiburg : Atlantis Verlag, 1972.
- El-Shayal, Gamal el-Din. A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century. Faculty of Arts. no. 15. Alexandria University Press, 1962.
- Smith, Page. The Historian and History. New York : Random House ; Vintage Books, 1966.
- Stavrianos, L.S. The Balkans Since 1453. New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966.
- Stern, Fritz, ed. The Varieties of History. Cleveland and New York : The World Publishing Co. ; Meridian Books, 1956.
- Taylor, A.J.P. Englishmen and Others. London: Hamish Hamilton, 1956.
- Tignor, Robert. Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882-1914. Princeton : Princeton University Press, 1966.
- Wales, A. P., ed. International Library Directory. 3rd ed. London : The A. P. Wales Organization, 1963.
- Wendell, Charles. The Evolution of the Egyptian National Image : From Its Origins to Ahmad Lutfi al-Sayyid. Berkley, Los Angeles and London : University of California Press, 1972.
- The World of Learning. 24 ed. Vol. I. London : Europa Publications, Ltd., 1973.

د۔ مقالات بلغات غربية

- Abdul Mu'id Khan, Muh. "Modern Tendencies in Arabic Literature." *Islamic Culture* 15 (July, 1941).
- Adams, C. C. "Mohammed Abduh, The Reformer." *The Moslem World* 19 (1939).
- Aglietti, Bruno. "Mustafa Kamil (1874-1908) : Fondatore del Partito Nazionalista Egiziano." *Oriente Moderno* 22 (August, 1942).
- Van Arendonk, C. "Ibn Hadjar al-Askalani." *The Encyclopedia of Islam* (1913).
- Ayalon, David. "The Historian al-Jabarti and His Background." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 15 (1953).
- ———. "Studies on the Structure of the Mamluk Army — I." *BSOAS* 15 (1953).
- Baer, Gabriel, "Ali Mubarak's *Khitat* as a source for the History of Modern Egypt." In *Political and Social Change in Modern Egypt, Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic*. Edited by P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1963.
- Barbour, Nevill "Al-Manfaluti — An Egyptian Essayist" *Islamic Culture* 7 (July, 1933).
- ———. "Al-Manfaluti — An Egyptian Essayist." *Islamic Culture* 9 (April, 1935).
- Bellamy, James "Cairo University." *Middle East Affairs* 6 (June-July, 1955).
- Berques, Jacques. "Etapas de la Société égyptienne contemporaine." *Studia Islamica* 22 (1965).
- Björkman, Walther. "Problem des ägyptischen Bildungswesens" *Die Welt des Islams* 22 (1940).
- Bouvat, L. "la press égyptienne." *Revue du Monde Musulman* 1 (December, 1906).
- Boyle, John Andrew. "Rashid al-Din: The First World Historian" *Islamic Culture* 44 (January, 1970).

- Brockelmann, C. "Al-Makrizi". *The Encyclopedia of Islam*, (1913).
- ———. Al-Suyuti. "The Encyclopedia of Islam (1913).
- Brundage, Burr. C. "The Birth of Clio : A Resume and Interpretation of Ancient Near Eastern Historiography." In *teachers of History : Essays in Honour of Laurence Bradford Packard*. Edited by H. Stuart Hughes. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1954.
- Chejne, Anwar G. "The Use of History By Modern Arab Writers. "The Middle East Journal 14 (Autumn. 1960).
- ———. "The Concept of History in the Modern Arab World." *Studies in Islam* 4 (January, 1967).
- Chemoul, Maurice. "Rifaʾ Bey". *The Encyclopedia of Islam*, (1913).
- Coulton, G. G. "Some Problems in Medieval Historiography. Raleigh Lectures on History." *Proceedings of the British Academy* 18 (1932).
- Duri, A A. "The Iraq School of History to the Ninth Century. A Sketch". In *Historians of the Middle East*. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press. 1962.
- ———. "Al-Zuhri : A Study on the Beginnings of History Writing in Islam." *BSOAS* 19 (1957).
- Farah, Caesar E. "The Impact of the West on the Conflict of Ideologies in the Arab World." *Islamic Culture* 35 (April, 1961).
- Gibb, H. A. R. "Tarikh" In *Studies on the Civilization of Islam*. Edited by Stanford shaw and William R. Polk. Boston : Beacon Press, 1962.
- ———. "Problems of Middle Eastern History." In *Studies on the Civilization of Islam*. Edited by Stanford Shaw and William R. Polk. Boston : Beacon Press, 1962.
- ———. "Studies in Contemporary Arabic Literature." *BSOAS* 4 (1926-28).

- ————. "Studies in Contemporary Arabic Literature. IV. The Egyptian Novel." BSOAS 7 (1933-35).
- Goldschmidt, Arthur, Jr. The Egyptian Nationalist Party: 1892-1919". In Political and Social Change in Modern Egypt : Historical Studies From the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. Edited by P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1968.
- H. L. "Mitteilungen : Agypten. "Die Welt des Islams 2 (1914).
- Haddad, George M. "Modern Arab Historians and World History. "The Muslim World 51. (January, 1961).
- ————. "The Historical Work of Niqula el-Turk, 1763-1828.' Journal of the American Oriental Society 81 (1961).
- Heyworth-Dunne, J. "Rifaah Badawi Rafi al-Tahtawi : The Egyptian Revivalist." BSOAS 10 (1940-42).
- Holt, P.M. "Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt." BSOAS 25 (1962). ,
"The Beylicate in Ottoman Egypt During the Seventeenth Century." BSOAS 24 (1961).
- ————. "The Coming of the Funji" In Studies in the History of the Near East by P.M. Holt. London : Frank Cass & Co. Ltd., 1973.,
- Hourani, Albert. "Historians of Lebanon" In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt, London. New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.
- Inalcik, Halil. "Some Remarks on the Study of History in Islamic Countries." The Middle East Journal 7 (autumn, 1953).
- Kazemzadeh. Firuz. "Iranian Historiography." In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.
- Khemiri, T. "The Egyptian Press Today." The Moslem World 18 (1928).

- Kuran Ercüment. "Ottoman Historiography of the Tanzimat Period." In *Historians of the Middle East*. Edited by Bernard Lewis and P. M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.
- Laoust, Henri. "Introduction à une étude de l'enseignement arabe en Egypte." *Revue des Etudes Islamiques* 7 (1933).
- Lewis, Bernard. "History — Writing and National Revival in Turkey." *Middle East Affairs* 4 (June-July, 1963).
- ———. "The Muslim Discovery of Europe." *BSOAS* 20 (1957).
- Lichtenstander, Ilse. "Arabic and Islamic Historiography." *The Moslem World* 35 (April, 1945).
- M. H. "Mitteilungen : Agypten." *Die Welt des Islams* 1 (1931).
- Macdonald, D. B. "Al-Djabarti" *The Encyclopedia of Islam* (1913).
- Marçias. "Al-'Aini." *The Encyclopedia of Islam* (1913).
- Mossa, Matti I. "The Development of Modern Arabic Fiction." *The Islamic Quarterly* 13 (July and September, 1969).
- Moreh, S. "Reputed Autographs of 'Abd al-Rāhman al-Jabarti and Related Problems." *BOSAS* 28 (1965).
- Morrison, S. A. "El Azhar Today and Tomorrow." *The Moslem World* 16 (1926).
- Moussa, Salama. "Intellectual Currents in Egypt". *Middle Eastern Affairs* 2 (August-September, 1951).
- N.A. "Le Siyak en Egypte et en Turquie." *Revue du Monde Musulman* 30 (1915).
- Obermann, Julian. "Early Islam." In *The Idea of History in the Ancient Near-East*. New Haven and London: Yale University Press, 1955.
- Pérès, Henri. "L'Institut d'Egypte et l'oeuvre de Bonaparte Jugé par deux historiens arabes Contemporains" *Arabica* 4 (May, 1957).

- Philipp, Thomas. "Language, History, and Arab National Consciousness in the Thought of Jurji Zaydan (1861-1914)." *International Journal of Middle Eastern Studies* 4 (1973).
- Poonawala, Ismail K. "The Evolution of al-Jabarti's Historical Thinking As Reflected in the Muzhir and the Ajaib." *Arabica* 15 (October, 1968).
- ———. "The Press in Egypt." *The Moslem World* 16 (1926).
- Qadri, Anwar Ahmad. "European Impact on Law Reform in the Middle East." *The Voice of Islam* 16 (May, 1968).
- Richter, G. "Medieval Arabic Historiography". *Islamic Culture* 34 (April, 1960).
- Rossi Ettore. "In Memoriam : Angelo Sammarco (1883-1948)." *Oriente Moderno* 28 (October - December, 1948).
- Sékaly, Achille. "L'université d'el-Azhar et ses transformations." *Revue des Etudes Islamiques* (1927).
- El-Shayyal, Gamal el Din "Historiography in Egypt". In *Historians of the Middle East*. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. London, New York and Toronto: Oxford University Press, 1962.
- Steppat, Fritz. "National Education projects in Egypt Before the British Occupation." In *Beginnings of Modernization in the Middle East. The Nineteenth Century*. Edited by William R. Polk and Richard L. Chambers. Publications of the Center for Middle Eastern Studies, no. 1. Chicago and London : University of Chicago Press, 1968.
- ———. "Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil. Ein Beitrag zur Ideen-Geschichte der Agyptischen Nationalbewegung." *Die Welt des Islam* 4 (1955).
- Swan, George. "The Moslem Press in Egypt." *The Moslem World* I (1911).

- Tagher, Jacques. "Mohammad Ali etudiat l'histoire et redigeait des memoris" (Chaires d'Histoire Egyptienne 2 (December, 1949).
- ———. "La naissance et le developpement du Journal 'Al Ahram." Chaiers d'Histoire Egyptienne 4 (October, 1952).
- J. T. (Jacques Tagher). "La creation d'ecoles populaires, selon un projet de Rifaa Rafee." Chaires d'Historie Egyptienne 1(1949).
- Vagliere, Laura Veccia. "Notizie sulle Universita Egiziane." Oriente Moderno 30 (January. March, 1950).
- "A Valuable Library in Cairo." The Moslem World 7 (1917).
- Ziada, M. Mostafa. "Modern Egyptian Historiography." Middle Eastern Affairs 4 (August-September, 1953).
- Zwemer, S. M. "The City of Caïro According to the Census of 1917." The Moslem World 10 (1920).

هـ - أعمال غير منشورة

- Khalidi, Tarif. "Masudi's Theory and Practice of History." Ph. D. dissertation, University of Chicago, 1970.
- Philipp, Thomas. "The Role of Jurji Zaydan in the Intellectual Development of the Arab Nahda From the Beginning of the British Occupation of Egypt to the Outbreak of World War I. "Ph.D. dissertation, University of California at Los Angeles, 1971.
- Verdery, Richard. "Abd al-Rahman al-Jabarti as a source for Muhammad Ali's Early Years in Egypt (1801-1821) "Ph.D. dissertation, Princeton University, 1967.

٢ - مصادر إضافية اعتمد عليها المترجم

(١) كتب بالعربية :

— أحمد شلبي عبد الغنى :

(أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشاات)
تقديم وضبط وتصحيح عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم .
مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٨ .

— أحمد طريين :

(التاريخ والمؤرخون العرب فى العصر الحديث ، دراسة عن حركة
التأليف التاريخى فى أقطار الوطن العربى) . مطبعة الانشاء ،
دمشق ١٩٧٠ .

— جمال الدين الشـيـال :

(التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر) - المكتبة
التاريخية - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

— جورجى زيدان :

(كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الآن مع فذلـكة
فى تاريخ مصر القديم) الجزء الأول - الطبعة الثانية - مطبعة
الهلال بالمفجالة بمصر ١٩١١ .

— دانيال كريسيلىوس :

(جذور مصر الحديثة) . ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر - مكتبة
نهضة الشرق - جامعة القاهرة - القاهرة ١٩٨٥ .

— دانيال كريسيلىوس وعبد الوهاب بكر :

(صفحات من تاريخ مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر -
مخطوطة الدرة المصانة فى أخبار الكنانة للامير أحمد الدمرداش
كتختدا عزيان - دار الزهراء للنشر - القاهرة ١٩٩٢ .

— رفاعة رافع الطهطاوى :

(منهاج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية) . الطبعة
الثانية - مطبعة شركة الرغائب القاهرة ١٩١٢ .

- رمزي تادوس :
(الأقباط في القرن العشرين) الجزء الرابع — طبع في جريدة مصر — القاهرة ١٩١٠ .
- سمير محمد طه :
(على مبارك وأثره في الحياة الفكرية والسياسية في مصر في القرن التاسع عشر) • مكتبة سعيد رأفت — جامعة عين شمس — القاهرة ١٩٨٥ .
- عبد الرحمن الجبرتي :
دراسات ويصوت — المكتبة العربية — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٦ .
- عبد الرحمن الرافعي :
(تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر) — الجزء الثالث — عصر محمد علي — مطبعة النهضة — القاهرة ١٩٣٠ .
- : —
(عصر اسماعيل) الجزء الثاني — الطبعة الثانية — مطبعة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٤٨ .
- (عجائب الآثار في التراجم والأخبار للعلامة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي) تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقي ، السيد إبراهيم سالم • الجزء الخامس • الطبعة الأولى لجنة البيان العربي — القاهرة ١٩٦٦ .
- على محمد بركات :
(تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣ — ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية) • دار الثقافة الجديدة — القاهرة ١٩٧٧ .
- محمد قنديل اليقلى :
(المختار من تاريخ الجبرتي) — كتاب الشعب ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ — مطابع الشعب — القاهرة ١٩٥٨ .
- (ب) مقالات بالعربية :
— محمود صالح منسى :
(اتباع سان سيمون ونشاطهم في مصر ١٨٣٢ — ١٨٣٦) • المجلة المصرية للدراسات التاريخية ١٧ — ١٩٦٥ .

(ج) أعمال غير منشورة :

— مجدي بكر :

(ابراهيم شناسي افندي ، حياته وآثاره) رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس - ١٩٧٦ .

د - مؤلفات بلغات أجنبية

- Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt 1688-1755. Al-Darra al-Musana Fi Akhbar al-Kinana — Translated and annotated by Daniel Crecelius and Abd al-Wahhab Bakr. E. J. Brill — Leiden, 1991.
- Larousse Universel-Tom Second — Paris. Librairie Larousse — 1923.
- Lexicon Universal Encyclopedia — published by Lexicon Publications, Inc., 1983. New N.Y. N.Y. — Vol. 1, 2, 3, 4, 5, 6, 9, 10,
- Redhouse Turkish & English Lexicon. New edition. printed for the American Mission by A. H. Boyajian. Constantinople, 1890.
- Seyid Kemal Kara Ali. "Turk edebiyat Tarihi." Inkilap Ve Aka Kitableri, Istanbul, 1978.
- Stanford Shaw & Ezel Kural Shaw. "History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, II. Reform, Revolution, and Republic : 1808-1975. Cambridge University Press, 1978.
- Stanford Shaw. "The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1793." Princeton University press, 1962.

الفهرس

٥	تصدير
١٠	مقدمة المؤلف للطبعة العربية
١١	مقدمة الطبعة الانجليزية
	الفصل الأول : التاريخ الحديث فى مواجهة التاريخ
١٥	التقليدى
٤١	الفصل الثانى : الارث الاسلامى
	الفصل الثالث : عبد الرحمن الجبرتى ونهاية التقليد
٦٥	الكلاسيكى
٩٧	الفصل الرابع : رفاعة الطهطاوى وبدايات التأثير الغربى
١٢٥	الفصل الخامس : التاريخ والتعليم المصرى
١٥٣	الفصل السادس : الموسوعيان : على مبارك وأمين سامى
	الفصل السابع : المؤرخون الاخباريون المحدثون : شاروبيم
١٨١	وسرهناك
٢٠١	الفصل الثامن : المؤرخون القوميون : ١ - مصطفى كامل
٢٢٧	الفصل التاسع : المؤرخون القوميون : ٢ - محمد فريد
٢٥١	الفصل العاشر : المؤرخون السوريون المصريون
٢٦٩	الفصل الحادى عشر : مصر فى مستهل الاحتراف
٢٨٥	قائمة المصادر
	١ - مصادر استخدمها المؤلف
٣٠٥	٢ - مصادر اضافية اعتمد عليها المترجم

● ● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

اسم الكتاب	المؤلف
١ - أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
٢ - الألكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكايا .
٣ - نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى .
٤ - الجغرافيا فى مائة عام	ت . و . فريمان
٥ - الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
٦ - تاريخ العلم والتكنولوجيا . ج ٢ .	ر . ج . فوربس
القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ليستر ديل راى
٧ - الأرض الغامضة	والتر الن
٨ - الرواية الانجليزية	لويس فارجاس
٩ - المرشد الى فن المسرح	فرانسوا دوماس
١٠ - آلهة مصر	د . قدرى حفى وأخرون
١١ - الانسان المصرى على الشاشة	أولج فولكف
١٢ - القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	هاشم النحاس
١٣ - الهوية القومية فى السينما العربية	ديفيد وليام ماكدونالد
١٤ - مجموعات النقود	عزير الشوان
صياننها . . تصنيفها . . عرضها	د . محسن جاسم الموسوى
١٥ . . الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق	اشرف س . بى كوكس
١٦ - مصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى	جون لويس
١٧ - ديLAN توماس	بول ويست
١٨ - الانسان ذلك الانسان الفريد	د . عبد المعطى شعراوى
١٩ - الرواية الحديثة . الانجليزية - والفرنسية	أنور المعداوى
ج ١	بيل شول وأدنييت
٢٠ - المسرح المصرى المعاصر . أصله وبدايته	د . صفاء خلوصى
٢١ - على محمود طه . الشاعر والانسان	
٢٢ - القوة النفسية للأهرام	
٢٣ - فن الترجمة	

المؤلف	اسم الكتاب
رالف ثي ماتلو	٢٤ - تولستوى
فيكتور برومبير	٢٥ - ستندال
فيكتور هوجو	٢٦ - رسائل واحاديث من المنفى
فيرنر هيزنبرج	٢٧ - الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)
سدنى هوك	٢٨ - التراث الغامض ماركس والماركسيون
ف . ع ادنيكوف	٢٩ - فن الادب الروائى عند تولستوى
هادى نعمان الهيتى	٣٠ - ادب الأطفال . (فلسفته - فنونه - وسائله)
د . نعمة رحيم العزاوى	٣١ - أحمد حسن الزيات . كاتباً وناقداً
د . فاضل أحمد الطائى	٣٢ - اعلام العرب فى الكيمياء
درنسيس فرجون	٣٣ - فكرة المسرح
هنرى باربوس	٣٤ - الجحيم
السيد عليوة	٣٥ - صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة
جوكوب برونوفسكى	٣٦ - التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)
د . روجر ستروجان	٣٧ - هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟
كاتى ثير	٣٨ - تربية الدواجن
ا . سينسر	٣٩ - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
د . ناعوم بيتروفيتش	٤٠ - النحل والطب
جوزيف داهموس	٤١ - سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
د . لينوار تشامبرز رايت	٤٢ - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاى مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
د . جون شندلر	٤٣ - كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة
بيير ألبيير	٤٤ - الصحافة
الدكتور غبريال وهبه	٤٥ - أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى
د . رمسيس عوض	٤٦ - الادب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها
د . محمد نعمان جلال	٤٧ - حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
فراנקلين ل . باومر	٤٨ - الفكر الاوروبى الحديث ج ١

اسم المؤلف	اسم الكتاب
شوكت الريمى	٤٩ - الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ - ١٩٨٥
د . محيى الدين أحمد حيدر	٥٠ - التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
تأليف : ج . دادلى اندرو	٥١ - نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	٥٢ - مختارات من الأدب القصصى
د . جوهان دورشمر	٥٣ - الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟
طائفة من العلماء الأمريكىين	٥٤ - حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)
د . السيد عليوة	٥٥ - إدارة الصراعات الدولية (دراسة فى سياسات التعاون الدولى)
د . مصطفى عنانى	٥٦ - الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	٥٧ - مختارات من الأدب اليابانى (الشعر - الدراما - الحكاية - القصة القصيرة)
فرانكلين ل . باومر	٥٨ - الفكر الأوروبى الحديث . ج ٢ (الاتصال والتغير فى الأفكار) من ١٦٠٠ - ١٩٥٠
جابريل باير انطونى دى كرسبى وكيثيث هينوج	٥٩ - تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة ٦٠ - أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
فرانكلين ل . باومر	٦١ - الفكر الأوروبى الحديث . ج ٣
دوايت ستوين	٦٢ - كتابة السيناريو للسينما
زالينسكى ف . س	٦٣ - الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	٦٤ - أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	٦٥ - الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	٦٦ - سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى .
س . م . پورا	٦٧ - التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	٦٨ - مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
روبالد د . سمبسون	٦٩ - العلم والطلاب والمدارس
و نورمان د . أندرسون	٧٠ - الشارح المصرى والفكر .
د . أنور عبد المنك	

المؤلف	الاسم
والث روستو	٧١ - حوار حول التنمية
فريد هيس	٧٢ - تبسيط الكيمياء
مون بوركهارت	٧٣ - العادات والتقاليد المصرية
آلان كاسبياي	٧٤ - التذوق السينمائي
سامي عبد المعطي	٧٥ - التخطيط السياحي
فريد هويل	٧٦ - البذور الكونية
شاندرا ويكرا ماسينج	٧٧ - دراما الشاشة
حسين حلمي المهندس	٧٨ - الهيروين والايدز
روي روبر رتسول	٧٩ - صور أفريقية
دوركاس ماكلينتوك	٨٠ - نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	٨١ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٤
فرانكلين ل . باومر	٨٢ - الكمبيوتر في مجالات الحياة
د . محمود سري طه	٨٣ - دراما الشاشة ج ٢
حسين حلمي المهندس	٨٤ - المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بيتر لوري	٨٥ - وظائف الاعضاء من الألف الى الياء بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينز	٨٦ - الهندسة الوراثية
ديفيد الدرتون	٨٧ - تربية أسماك الزينة
أحمد محمد الشنواني	٨٨ - كتب غيرت الفكر الانساني
جمعها : جون . ر . بورر	٨٩ - الفلسفة وقضايا العصر ج ١
وميلتون جولد ينجر	٩٠ - الفكر التاريخي عند الاغريق :
آرنولد توينبي	٩١ - قضايا وملامح الفن التشكيلي
د . صالح رضا	٩٢ - التغذية في البلدان النامية
م . هـ . كنج واخرون	٩٣ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٢
جمعها : جون . ر . بورر	٩٤ - بداية بلا نهاية
وميلتون جولد ينجر	٩٥ - الحرف والصناعات
جورج جاموف	في مصر الاسلامية
د . السيد طه أبو سديرة	٩٦ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج ١
جاليليو جاليليه	٩٧ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج ٢
جاليليو جاليليه	٩٨ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج ٣
جاليليو جاليليه	

- ٩٩ - الارهاب
 ١٠٠ - أخنساتون
 ١٠١ - القبيلة الثالثة عشرة
 ١٠٢ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٢
 ١٠٣ - العلم والتكنولوجيا
 ١٠٤ - الأساطير الاغريقية
 ١٠٥ - التوافق النفسى
 ١٠٦ - الدليل الببليوجرافى
 ١٠٧ - لغة الصورة
 ١٠٨ - الثورة الاصلاحية فى اليابان
 ١٠٩ - العالم الثالث غدا
 ١١٠ - الانقراض الكبير
 التحليل والتوزيع الأوركستراالى
 تاريخ النقود
 صناعات الخلود
 الشاهنامه ج ١
 الشاهنامه ج ٢
 قيام الدولة الثمانية
 العثمانيون فى أوربا
 اريك موريس ، وآلان هو
 سيريل الفريد
 آرثر كيستلر
 جمعها : جون ر. بورر
 وميلتون جولدينجر
 ر.ج. فويس ،
 ا.ج. ديكسترهوز
 كوفلان
 توماس آ. هاريس
 روى ارمز
 ناجى متشيو
 بول هاريسون
 ميكائيل ألبى
 جيمس لفلوك
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 فيكتور مورجان
 موريس بيربراير
 الفردوس الطوسى
 الفردوس الطوسى
 محمد فؤاد كوبريلى
 بول كونر

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٢٧٠٠

ISBN — 977 — 01 — 3298 — 5

هذا الكتاب دراسة مفصلة جيدة التوثيق لكيفية
تخريب مصر منذ الحملة الفرنسية حتى تصريح ٢٨
فبراير ١٩٢٢
ومن القضايا التي تناولها التاريخ التقليدي في
مواجهة التاريخ الحديث ، التاريخ الغربى في مواجهة
التاريخ الإسلامى ، التاريخ المنحاز في مواجهة التاريخ
التفسيري ، الحماس الوطنى في مواجهة الموضوعية في
التاريخ
والمؤلف يناقش كل مؤرخ هنا باعتباره شخصيه
متعددة المظاهر ، فينسم الحيوية في عمله ، وما احتواه
من ثروة من التفاصيل الممتعة لكل مظاهر المجتمع
المصرى ، وباعتباره متحدًا باسم جيل المثقفين المصريين
كلهم
وبكلمات أخرى فإن الكاتب يعامل ، التاريخ كأداة
للوصول إلى التغيير الثقافى والفكرى في مصر